دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

أوروبا في مواجهة الإسلام
الوسائل .. والأهداف

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّه ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتمهيد

عزيزى القارئ ..

هذا الكتاب الذى بين يديك مرَّ عليه عامان وهو مخطوط . هذان العامان هما الفجوة الزمنية بين الفراغ من رصد المادة التى تحملها هذه الصفحات ، وبين خروجه مطبوعاً للقرَّاء . وفى هذين العامين وقعت أحداث مهمة كان منهج هذه الدراسة يقتضى رصدها وتوظيفها لخدمة الأهداف التى وُضِع من أجلها هذا الكتاب ، وهذا التقديم رأيته ضرورياً لتفادى بعض التساؤلات التى ستفرض نفسها على القارىء لو خلا الكتاب من هذا التقديم والتمهيد . فمثلاً تم الفراغ من هذا العمل والشيوعية كانت تجود بأنفاسها الأخيرة ولم تمت . وقد صدر الكتاب والشيوعية قد لفظت أنفاسها الأخيرة ووورى عليها التراب فى غير انتظار لبعث . كما يُبعث الموتى الآخرون . وكنا قد تعرَّضنا للحديث عن الشيوعية باعتبارها ظاهرة قائمة .

ومثلاً آخر .. سترى حديثاً فى هذه الدراسة عن أزمة لبنان وهى حقيقة ماثلة تتحرك على مسرح الحياة . والآن قد انتهت الأزمة فى أهم جوانبها .

وبقى جانب آخر من التوضيح ، فهذا الكتاب يخلو من الحديث عن حرب الخليج أو ما سميت بـ « عاصفة الصحراء » مع أن هذا الحدث الضخم كان مما يقتضى المنهج رصده ؛ لأنه من أحدث وأبرز خطط المواجهة التى واجهت بها أوروبا الإسلام . وعذرنا أن هذه الحرب لم تكن قد وقعت إلا بعد الفراغ من إعداد هذه الدراسة .

ولا يفوتنا الإشارة إلى الأحداث الضخمة التى أعقبت سقوط النظام الشيوعى . ومن أبرز هذه الأحداث أن أوروبا قد تفرَّغت الآن لمواجهة الإسلام ؛ لأنه - فى نظرها - قد أصبح هو المنافس الوحيد لأوروبا بعد انهيار الشيوعية . بل هو « العدو » الوحيد لها ، ولم يعد الأمر سراً ، بل قالوه بألسنتهم عياناً جهاراً . وبثُّوه عبر إذاعاتهم ، ونشروه فى صحفهم ، وعقدوا من أجله المؤتمرات . وبعضهم - وقد كان رئيساً أسبق للولايات المتحدة الأمريكية - قد ضمَّن كتاباً له فصلاً خاصاً عن العالَم الإسلامى بعنوان : « قنبلة تحت الانفجار » وبعد أن وضَّحَ أبعاد المشكلة مادياً ومعنوياً نصح أوروبا بأن تنهج نحو العالَم الإسلامى إحدى خطوتين :

إما أن تلاينه وتحتويه فى النظام العالَمى الجديد لتأمن خطره وتصطنع معه وحدة سلمية .

وإما أن تقضى عليه !!

وقد أشارت صحيفة الوفد المصرية الصادرة يوم ١٤ مايو ١٩٩٢ إلى الحملات البشعة التى تشنها أجهزة إعلام الغرب وبخاصة فرنسا وألمانيا وإنجلترا ضد الإسلام والمسلمين . وأن برقيات احتجاج من المصريين فى الخارج قد تكدَّست فى أمانة الجامعة العربية بالقاهرة . وبرقيات أخرى وردت إلى الخارجية المصرية ، يطلب أصحابها التدخل رسمياً للكف عن هذه الحملات .. كل هذا يجرى فى إطار مواجهة أوروبا للإسلام .

وما وقع فى الجزائر من التدخل الفورى لمنع الإسلاميين من الوصول إلى الحكم بعد الاستفتاء الذى حصلت فيه جبهة الإنقاذ الإسلامى على أغلبية المقاعد فى الجولة الأولى للانتخابات ، شاهد آخر لعداء أوروبا التاريخى للإسلام . ولولا مساعى أوروبا ، وبعض النظم العربية الموالية لها لما جرؤت حكومة الجزائر على إجهاض تلك التجربة الرائعة التى تدل على أن الشعوب الإسلامية لا تريد إلا الإسلام . ولكن النظم الحاكمة هى التى تحول دون هذه الرغبة لحاجة فى نفس يعقوب يدركها جميع الناس .

ومن الأحداث التى وقعت خلال الفراغ من هذه الدراسة وقبل طبعه : سقوط الحكومة العميلة فى كابول « أفغانستان » واستيلاء المجاهدين الإسلاميين على الحكم ، وعدم الارتياح الذى عَمَّ أوروبا لهذا الانتصار المعجزة . وبخاصة أمريكا التى تسعى الآن - لقيادة العالم بمفردها . وهيهات هيهات لما تريد ، فما كان الله الذى فكَّ عن « رقاب العالم » أحد فكى الكماشة أن يترك الفك الآخر طليقاً مدى الدهر . ولكل أجل عند الله كتاب : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (١) .

أما فى الجانب العسكرى فإن ما تعرَّضت له البوسنة والهرسك ، لدليل آخر على نيِّة السوء التى تضمرها وتبديها أوروبا ضد الإسلام والمسلمين . وليس للبوسنة والهرسك ذنب سوى أنهم أرادوا العودة للإسلام بعد طول حرمان . لذلك تعرَّضت أرواحهم للإزهاق ، وحُرُماتهم للانتهاك ، وأموالهم وممتلكاتهم للنهب والتدمير ، ومساجدهم للتخريب : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ (٢) ؟!

هذه الأحداث . وغيرها كثير ، مثل وضع بعض دول أوروبا سياسات جديدة وسن قوانين لمنع إقامة المسلمين بها - عرباً وغير عرب - هذه الأحداث وقعت بعد الفراغ من إعداد هذه الدراسة وهى شديدة الصلة بها فليعذرنا القارىء الكريم بعد هذا التوضيح .

* * *

● موضوع هذه الدراسة :

أما موضوع هذه الدراسة فهو فى إيجاز شديد : أن أوروبا منذ الحروب الصليبية قد أدركت قوة الإسلام . وأن المسلمين إذا أحسنوا صلتهم بالإسلام فلن تكون فى الأرض قوة تضارع قوتهم . رأوا ذلك جلياً فى دحر الناصر صلاح الدين

---

(١) المعارج : ٦ - ٧ (٢) البروج : ٨

لهم ، وطردهم من بيت المقدس بعد سبعين عاماً من بقائهم فيه ، ثم رأوا ذلك جلياً إبّان دولة الخلافة ، وكيف توحَّد المسلمون عرباً وغير عرب تحت لواء الخلافة الإسلامية . وقد صهرت عقيدة التوحيد المسلمين فى بوتقة واحدة .

وإزاء هذا كله ، مضموماً إليه تاريخ الإسلام فى الهند وفى أسبانيا قررت أوروبا التصدى للإسلام . وكان هدفها من هذا التصدى واحداً من ثلاثة أمور :

الأول : القضاء على الإسلام كليّة إن أمكن .

الثانى : عزل الإسلام عن المسلمين إذا لم يمكن القضاء عليه .

الثالث : تحجيم الإسلام وحصره فى مناطق ضيقة والحيلولة بينه وبين الذيوع والانتشار .

هذه أهداف رئيسية سعت من أجلها أوروبا . والآن يتولّد أمامنا سؤال ضخم ..

ما هى الوسائل التى سلكتها أوروبا خلال مائتين من السنين لتحقيق هذه الأهداف ؟

أما الجواب على هذا السؤال .. فهو هذا الكتاب كله . فقد تتبعنا فيه تلك الوسائل وسيلة وسيلة . ودعمنا القول بأقطع الأدلة مع ذكر بعض الوثائق التاريخية .

وسوف يرى القارىء كثيراً من المفاجآت التى تضمنتها الدراسة لا أريد الآن سوى مجرد الإشارة إليها حتى لا أقطع على القارىء لذة المتابعة والتمييز بين المفاجآت وغيرها من الأمور البديهة المسلّمة ، وهدفنا من وضع هذه الدراسة - والله وحده يعلم ما عانينا فيها حِسْبة لوجهه - أن نضع الحقائق أمام الجيل الغيور على الإسلام ، حتى يتمكن من إبطال « مفعول » هذه الوسائل والخطط ؛ لأن الداء إذا عُرِف سهل وضع العلاج الشافى منه .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم . وأن يجعله نبراس هدى لكل غيور على الإسلام ناصرٍ لله ورسوله .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

البلد الطيب الأمين – مكة المكرّمة : فجر الأربعاء ١٦ من ذى الحجة ١٤١٢هـ .

الموافق (١٧ من يونية عام ١٩٩٢ م) – حى العزيزية .

عبد العظيم بن إبراهيم محمد المطعنى

* * *

---

(١) العنكبوت : ٦٩

توطئة

حين بعث الله خاتم رسله محمداً ﷺ ، وأنزل عليه كتابه الخالد « القرآن الكريم » وتحددت معالم الرسالة الخاتمة التى جاء بها « الإسلام » ، منذ ذلك الحين عادى الإسلام طوائف من الناس ، وقعدوا له بكل مرصد ، يصدون عن سبيل الله مَن آمن به ويبغونها عوجاً .

عاداه مشركو العرب من مكة ، أم القرى وما جاورها . وكان لعدائهم إياه أسباب ومبررات زيَّنها لهم الشيطان .

وعاداه اليهود المقيمون بشبه الجزيرة فى يثرب ، وكان لعدائهم إياه أسباب ومبررات زيَّنها لهم الشيطان .

ثم عاداه النصارى - فيما بعد - وكان لعدائهم إياه أسباب ومبررات زيَّنها لهم الشيطان .

وعاداه الفُرس الوثنيون - كذلك - وكان لعدائهم إياه أسباب ومبررات زيَّنها لهم الشيطان .

ثم عاداه الروم ، وكان لعدائهم إياه أسباب ومبررات زيَّنها لهم الشيطان .

وتلك الأسباب والمبررات التى حملت تلك الطوائف على معاداة « الإسلام » تجمعها رابطة واحدة ، وإن تعددت تلك الأسباب واختلفت من فريق إلى فريق [1] . أنهم - جميعاً - كانوا على باطل والإسلام جاء بالحق . جاء ليقرر حق الله

(١) لم نذكر تلك الأسباب خشية الإطالة وهى إما دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . وقد يجتمع سببان أو أكثر فى الطائفة الواحدة .

الذى طالما نادت به رسله ، وليدحض باطل الناس على أية صورة كان ذلك الباطل ، ومهما كانت القُوَى التى تحميه .

وآمن بالإسلام فتية زادهم الله هدىً وباعوا الدنيا بالدين ، وأخلصوا لله ولرسوله ، وللحق الذى جاء به . ولم يخشوا مواجهة جحافل الباطل ، وكان الموت فى سبيل الله أحب إليهم من الحياة وإن ملكوا ما على الأرض جميعاً . فالدنيا زائلة ، وما عند الله باق : ﴿ إنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ منَ الْمُؤْمنينَ أنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتلُونَ فى سَبيلِ اللَّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْه حَقاً فى التَّوْرَاة وَالإنجيلِ وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أوْفَىٰ بعَهْده منَ اللَّه ، فَاسْتَبْشرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ ﴾ (١) .

* * *

(١) التوبة : ١١١

الفصل الأول

طرق المواجهة

اختلفت طرق مواجهة الإسلام من أعدائه ، فمشركو العرب بدأوا باضطهاد المسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ، وطعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأولين ، ووصفوه بأنه شعر مرة ، وسحر مرة أخرى ، ووصفوا صاحب الدعوة بأنه شاعر أو ساحر ، أو كاهن ؟ أو مريض يهذى بالغرائب ، أو طالب مُلْك وسيادة . وقاطعوا عشيرة النبى ﷺ ، وسلكوا معهم مسلكاً شبيهاً بما يسمى الآن « الحصار الاقتصادى » ، ثم اعتزلوهم فلا يَنحكون منهم ولا يُنكحونهم ، وآذوا الرسول ﷺ بالقول والفعل ولكن السابقين الأوَّلين إلى الإسلام صمدوا لما ينالهم ، وكم من مرة استأذنوا صاحب الدعوة فى قتال أعدائهم فلم يأذن لهم لأن الله لم يأذن له بالقتال ، وهاجروا بتوجيه صاحب الدعوة إلى الحبشة مرتين . ثم كانت مبايعات الأوس والخزرج (الأنصار فيما بعد) لصاحب الدعوة ، وكانت الهجرة العظمى إلى يثرب (المدينة المنوَّرة) الآن .

وهنا جُنَّ جنون قريش وحلفائها . وكانت المصادمات العسكرية المسلَّحة بين الطرفين (بدر الكبرى - أحد - الأحزاب . ثم الفتح الأعظم : فتح مكة المكرَّمة) وبهذا سقطت الجبهة الداخلية التى كانت تقف فى وجه الدعوة ، اللَّهم إلا بعض الجيوب التى نكس أعلامها الجهاد الإسلامى بعد الفتح الأعظم بوقت مبكر . مثل هوازن وثقيف .

● اليهود :

لجأ اليهود إلى الكيد للإسلام وإثارة الفتن ونقض العهود ، وقد واجههم صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم وأجلاهم إلى مواقع خارج المدينة ، ولقى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة الجزاء المناسب لخيانتهم ونقضهم عهودهم مع صاحب الدعوة ولم يقاوموا مقاومة عسكرية تُذكر ، ولكنهم حملوا ضغائنهم فى

قلوبهم وأخذوا وجهة أخرى فى الكيد للإسلام فوضعوا الأحاديث عن صاحب الدعوة ، ودسوا الأقوال فى تفاسير القرآن الكريم إلا ما عصم الله ، وزوَّروا التاريخ والسير ، وبعضهم أظهر الإسلام ليكيد له من الداخل وهو آمن . وقطعوا فى هذا أشواطاً بعيدة المدى .

* *

● الفُرس والروم :

هاتان هما الجبهتان الخارجيتان اللتان كانتا تتربصان بالإسلام الدوائر ، وهما الدولتان اللتان كانتا على جانب كبير من الحضارة المادية والنظم الإدارية ، وكانتا تبسطان نفوذهما على العالم المعمور حينذاك ولهما ولاء سياسى على بعض الإمارات والقطاعات العربية نفسها فى شمال شبه الجزيرة وجنوبها وشرقها ، وكانت دولة الروم تسيطر على بلاد الشام ومصر وشمال غرب إفريقيا سيطرة تامة .

وبعد أن أدَّت مواكب الدعوة الجديدة (الإسلام) واجبها داخل شبه الجزيرة ، وكانت تدخل كلها فى الإسلام ، ما عدا نصارى نجران الذين تصالح معهم صاحب الدعوة وأقرَّهم على عقيدتهم بشروط أُبرمت بين الطرفين ، بعد هذا الدور العظيم الذى قامت به مواكب الدعوة داخل شبه الجزيرة العربية كان لزاماً عليها أن تخرج بالدعوة إلى العالم الخارجى لتقيم حُجَّة الله على عباده . وهذا هو ما نهض به الخلفاء الراشدون بعد وفاة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .

* *

● عمل صاحب الدعوة نحو الجبهات الخارجية :

والحقيقة أن صاحب الدعوة قام – قبل وفاته – بعملين بارزين نحو الجبهات الخارجية :

الأول : يتمثل فى كتبه إلى الملوك والأمراء ورؤساء العشائر يدعوهم دعوة

سلمية إلى الاستجابة لدعوة الحق . وكان من أهم كتبه كتاباه إلى عاهلى الفُرس والروم .

والآخر : قيامه – صلى الله عليه وسلم – ببعض الأعمال العسكرية ضد الروم (غزوتا مؤتة وتبوك) وكان لقيامه بهذه الأعمال أسباب وجيهة . أما « مؤتة » فكانت رداً على قتل مبعوث (سفير) والسفراء لا يُقتلون ، ولو كان بين الدولتين حرب قائمة .

وأما « تبوك » فكانت رداً لعدوان متوقع من الروم على المسلمين تأكدت أخباره لدى صاحب الدعوة .

ومما هو معروف أن صاحب الدعوة – صلى الله عليه وسلم – جهَّز جيشاً قبيل وفاته بقليل كانت وجهته الشام ، حيث يتجمع فيها الروم . وجعل قائد الجيش أسامة بن زيد (١٨ عاماً) وتوفى عليه السلام والجيش لم يزل بالمدينة . فأنفذه أبو بكر الصدِّيق لما ولى أمر المسلمين بعد صاحب الدعوة .

* *

● عمل الخلفاء :

نهض الخلفاء الراشدون ، ومعهم المسلمون ، بأعباء الدعوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت كل من الفُرس والروم قد اختارت الصدام المسلح وسيلة للمواجهة ، ولم يرعب المسلمين ما عند هاتين الدولتين من حُسن الإعداد والتدريب على القتال وكثرة الجنود ، فهم – أعنى المسلمين – ما عرفوا يوماً أن الانتصار يكون بالقوة المادية وحدها ، وإنما الانتصار من عند الله يؤيد به المؤمنين العاملين من عباده : ﴿ وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

وإنهم إذا نصروا الله على أنفسهم أولاً . وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا

---

(١) الروم : ٤٧

نواهيه ، وأقاموا منهجه فيما يتصل بالأفراد والجماعات . فإن الله ناصرهم لا محالة ، فهو القائل وقوله الصدق : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) .

وأنهم إذا نصرهم الله فلا يغلبهم غالب : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (١) .

وإذا كان توقع الموت فى القتال ، والإصابة بأضرار جسدية دون الموت من عوامل النكوص والإحجام . فإن القرآن طهَّر قلوب المؤمنين من هذه العلل . فالموت فى سبيل الله حياة وأى حياة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ (٣) .

والموت نفسه لا يخضع لأعمال يقوم بها الإنسان ، وإنما هو قَدَرٌ حكيم وكتابٌ معلوم عند الله ، فلا يُقرِّبه إقدام ، ولا يؤخِّره إحجام : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ... ﴾ (٤) .

وكذلك ما يصيب الإنسان من خير أو شر ، لا يجرى اعتسافاً وإنما هو تصريف لله فى عباده . وقدر حكيم يجرى فيهم حسبما هو فى إرادته : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ... ﴾ (٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٦) .

(١) محمد : ٧ (٢) آل عمران : ١٦٠ . (٣) آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠ .
(٤) آل عمران : ١٤٥ (٥) التوبة : ٥١ (٦) الحديد : ٢٢ - ٢٣

وإذا أصيب المؤمن فى نفسه أو ولده أو ماله فصبر محتسباً فجزاؤه عند اللّه موفور : ﴿ ذَلكَ بأنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فى سَبيل اللّه وَلا يَطَؤُنَ مَوْطئاً يَغيظُ الكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلَّا كُتبَ لَهُمَ به عَمَلٌ صَالحٌ ، إنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسنينَ * وَلا يُنفقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلَا كَبيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادياً إلَّا كُتبَ لَهُمْ ليَجْزيَهُمُ اللَّهُ أحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

هذه هى الروح التى ربَّى عليها القرآن جنود الإيمان وأنصار الحق ، وبهذه الروح واجهوا الدنيا من حولهم ، غير عابئين بكثرة العدو لقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فئَة قَليلَة غَلَبَتْ فئَةً كَثيرَةً بإذْن اللّه ، وَاللّهُ مَعَ الصَّابرينَ ﴾ (٢)

* *

● مواجهة الروم :

لم يكد الأمر يستقر لأبى بكر رضى اللّه عنه داخل شبه الجزيرة العربية ، من القضاء على حركات المرتدِّين ، وتعود راية الإسلام خفَّاقة على ربوع شبه الجزيرة كلها . لم يكد يحدث هذا إلا ونجد أبا بكر رضى اللّه عنه يواصل المسيرة فى غزو العالَم الخارجى لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة ، ويواجه فى عزم وإصرار أعتى قوَّتين ضاريتين فى العالَم حينذاك . يواجههما فى وقت واحد . فيُسيِّر خالد بن الوليد سيف اللّه المسلول إلى العراق لمواجهة الفُرس .

ثم يُسيِّر خمس كتائب أخرى لمدن الشام لمواجهة الروم :

فكان يزيد بن أبى سفيان حامل لواء الجهاد إلى دمشق .

وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل لواء الجهاد إلى حمص .

وكان عمرو بن العاص حامل لواء الجهاد إلى فلسطين .

---

(١) التوبة : ١٢٠ - ١٢١ (٢) البقرة : ٢٤٩

وكان شرحبيل بن حسنة حامل لواء الجهاد إلى الأردن .

وكان خالد بن سعيد بن العاص حامل لواء الجهاد فى مقدمة قوة احتياطية تعسكر فى تيماء وأمره أبو بكر ألا يغادرها إلى جهة إلا بناء على أمره .

فهذه ستة لواءات قتالية خرجت من المدينة المنوَّرة لتؤدى مهامها حسب الخطة الموضوعة ، تتكوَّن من شيوخ وشباب الصحابة ، مجاهدين فى نُصرة الحق ، منظَّمين تنظيماً حربياً حكيماً لم يُعرف له مثيل فى تاريخ شبه الجزيرة .

* *

● توحيد الجيوش والقيادة :

لما علم هرقل عظيم الروم بالحشود الإسلامية التى خرجت من المدينة قاصدة الشام ، بادر بتوحيد جيوش الروم وتوحيد قيادتها أمام المقاتلين المسلمين ، وعلم قادة الجيوش الإسلامية بما أقدم عليه هرقل ، فخطوا نفس الخطوة وتوحَّدت الجيوش التى توَّجهت إلى الشام ، وكتبوا إلى أبى بكر رضى اللّه عنه بذلك فنزل على رأيهم . ثم قال : « واللّه لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

ثم أرسل إلى خالد أن يغادر العراق متوجهاً إلى جبهة الروم بالشام فسار خالد فى طريق وعر لم يسلكه أحد قبله حتى لا يشتبك مع الروم قبل انضمامه إلى اللواءات الإسلامية الموحَّدة . واستغرق مسيره من العراق إلى الشام خمسة أيام لقى الجيش فيها العناء ، ومع هذا فقد أيَّدهم اللّه بمعجزات عظيمة فى أثناء سيرهم إلى الشام ، وكان وصول خالد إلى الجبهة الموحَّدة فى أوائل شهر ربيع الأول . فقسَّم خالد الجيش إلى مجموعات (كراديس) كل مجموعة تضم ألف جندى وكان عدد المجموعات ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

قلنا : إن الجيش الموحَّد الذى كان يواجه الروم كان منظَّماً تنظيماً عسكرياً ومدنياً على درجة قصوى من الكفاءة .

فقد خرج الصحابى الجليل أبو الدرداء وكانت مهمته أن يكون قاضياً بين المقاتلين إذا حدث بين طرفين منهم نزاع . فهو « قاضى ميدان » أو طوارىء ، وهذا يبيِّن مدى الحرص الذى كان لدى المسلمين الأوائل على العدالة .

وكان يقوم بالوعظ – أو التوجيه المعنوى بلغة العصر – قاض وواعظ معاً .

وكان مع الجيش مقرىء يتلو عليهم آيات الجهاد وسورة الأنفال التى سجل الوحى الأمين فيها انتصارات المسلمين فى بدر ، وهو المقداد بن الأسود .

ثم كان أبو سفيان بن حرب – الرجل المحنَّك – هو الراوية الذى يقص عليهم أخبار الحروب والأيام .

وإلى جانب هذا كان كبار الصحابة يتبادلون الخُطَب فى الجيش يوصونه بتقوى اللّه والثبات على دينه ومصاولة الأعداء ، فلا يرهبهم العدو بكثرة عدد ، ولا بتفوق سلاح .

ثم كانت الخطة الأخيرة قبل ملاقاة العدو ، التى اختطها القائد العام للجيوش « خالد بن الوليد » فقد كان الخليفة أبو بكر قد ولأه القيادة العامة للجبهة الموحَّدة .

وتقضى الخطة بوضع النساء والأطفال خلف الجيش المسلم ، ويوزع عليهن سلاحاً من عصى الخشب والحجارة لا ليقاتلن العدو ، ولكن ليقتلن كل جندى مسلم إذا هو ولَّى هارباً من قتال العدو . (؟) وفعلاً فقد حدث ما توقعه القائد الملهَم . والنساء قمن بالمهمات التى أوكلها اليهن القائد العام . ولكن لم يقتلن أحداً . بل كان كل مَنْ يحاول الفرار يُشْهرن سلاحهن فى وجهه فيعود إلى الجبهة من فوره .

ودارت المعركة بين الفريقين ، وأظهر المسلمون بطولات نادرة فيها ، ومع أن الروم قد حققوا تقدماً – أحياناً – فى أثناء القتال ، فإن النصر فى النهاية كان لحزب اللّه . تلك هى غزوة « اليرموك » التى حطم الحق فيها ظهر الباطل . ولما علم هرقل بانتصارات المسلمين فرَّ هارباً إلى أنطاكية ، ولحق به فلول الروم .

ودار الحوار الآتى بين هرقل وبعض قوّاده ؛ قال هرقل : أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟

قالوا : بلى هم بشر مثلنا .

قال : أأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن .

قال : فما بالكم تنهزمون ؟

فقال شيخ من كبارهم : « من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم (أى يعدلون) ، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر ونزنى ونرتكب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يُرضى اللّٰه . ونُفسد فى الأرض » ؟!

قال هرقل - وقد حملته الهزيمة على الصدق : « أنت صدقتنى » .

هذا الشيخ الجليل لخَّص فى صدق وأمانة أسباب نصر المسلمين على الروم ، وأسباب هزيمة الروم أمام المسلمين .

ثم قال هرقل - وقد أدرك خروج ما بيده من المدن إلى أيدى المسلمين كما خرجت الشام : « أما الشام فلا شام . وويل للروم من المولود المشؤوم » ؟!

* *

● وقعة فاصلة :

لم تكن غزوة « اليرموك » آخر غزوات المسلمين للروم ، فقد وقعت بعدها وقائع أخرى مثل وقعة « أجنادين » وفتح « دمشق » ، ووقعة « فحل » وغيرها ، وقد وقعت كل هذه الوقائع فى العام الثالث عشر الهجرى .

لم تكن غزوة اليرموك - إذن - هى آخر الغزوات مع الروم ، وإنما كانت هى الضربة القاصمة . كان الروم قبلها أقوياء أعزاء ، فصاروا بعدها ضعفاء أذلة .

ثم دالت دولة الروم ، وهى أقوى دولة فى ذلك العصر ، دالت ودالت معها ممالكها ومدنها وقراها وسواحلها ، ولم يكن يدور بخلد الروم يوماً أن قوة ما تقف أمامها وتحطم فى وقت قصير صروحها الحصينة ، وعروشها الشامخة .

إنها مفاجأة من مفاجآت التاريخ وستظل تلك المفاجأة مذهلة لكل من قرأ التاريخ .

مفاجأة حافلة بالدروس والمعجزات . أمة أمية يصنع منها الإسلام فى مدى ربع قرن قوة جبارة تحمل للعالم كله رسالة الهدى والنور وتحارب الباطل مهما تحصن بعروش القياصرة وجنودهم المدجَّجين بالسلاح .

* *

● مواجهة الفُرس :

كانت دولة الفُرس إحدى الدولتين العظميين خلال القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) بَيْدَ أن الفُرس لم تبلغ مبلغ الروم فى القوة والاتساع ، وكانت الحرب بينهما سجالاً ، وقد أشار القرآن الأمين إلى غلبة الفُرس على الروم فى أخريات أيام الدولتين قبل أن يدك عروشهما الإسلام ، لا من حيث القوة المادية فحسب التى كانت تتمتع بها الدولتان ، بل من حيث الأسس والمبادىء والقيمَ والعقائد التى كانت شائعة فيهما .

وفى الوقت الذى أشار فيه القرآن الأمين إلى انتصار الفُرس على الروم أخبر بأن الروم سيغلبون الفُرس فى مدة وجيزة : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ .. ﴾ [١] .

ثم كان الإسلام هو الوارث لهما شرقاً وغرباً . ومن البديه أن مواكب الدعوة فى عصر أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما قد بدأت بالاهتمام

(١) الروم : ٢ - ٣

بالقضاء على الروم قبل الفُرس على النحو الذى مرَّ بنا ، ولما تم لهم تحطيم قوى الروم اتجهوا بالدعوة وجهة أخرى فأيَدهم الله فى الثانية كما أيَّدهم فى الأولى .

* *

● غزوة القادسية :

كانت قادسية الفُرس مثل يرموك الروم فى أن كلا منهما قصمت ظهر مَن وُجِّهَتْ إليه . فالروم لم تقم لهم قائمة بعد اليرموك ، بل بدأ العد التنازلى لها يجرى بسرعة بعد اليرموك .

وكذلك الفُرس لم تقم لهم قائمة بعد القادسية . بل كانوا مثل فارس مغوار أصابه مبارزه فى مقتل فأخذ يترنح لاختلال توازنه وإن بقى سلاحه فى يده يدفع به وهو لاهث الأنفاس ثم هوى إلى الأرض ، فإذا هو جثة هامدة .

هكذا كان وضع الفُرس بعد القادسية . وقد كان الفُرس قد أعدُّوا عُدَّتهم من الناحية المادية خير إعداد ، ونظَّموا كتائبهم القتالية تنظيماً دقيقاً ، كما كان سعد بن أبى وقاص (قائد المسلمين فى القادسية) قد أعدَّ للأمر عُدَّته بحيث لم يبق عمل مستطاع للبَشر إلا وقد وضعوه فى خطط المواجهة . ولم يبق شئ لم يعملوه تنفيذاً لقول قيوم السموات والأرض : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴾ (١) .

الشئ الوحيد الذى بقى هو وعد الله للمؤمنين : ﴿ وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

* *

(١) الأنفال : ٦٠ .

(٢) الروم : ٤٧

● أيام القادسية :

وقعت القادسية فى السنة الرابعة عشرة من الهجرة الشريفة على أقوى الآراء . والتقى المسلمون فيها بالفُرس أربعة لقاءات . وتسمى هذه اللقاءات عند المؤرخين بالأيام :

فالأول يوم أرماث ، والثانى يوم أغوات ، والثالث يوم عمواس ، ثم الرابع : يوم القادسية . وفيها قُتِل « رستم » عاهل الفُرس بعد « كسرى » .

انفرط عَقْد الفُرس بمقتل « رستم » ، وكان المسلمون من قبل قد قتلوا كبار قوّاد الفُرس ، كما قتلوا من عامة جنودهم خَلْقاً كثيراً .

كانت القادسية بداية النهاية لدحر الفُرس ، وإزالة عروش الطغيان من على ظهر الأرض ، ثم الإطاحة بها فى أتون الجحيم .

تتابعت الوقائع والأحداث بين مواكب الدعوة وبين الجبهات الخارجية ، وأخذت الدعوة تحرز نصراً بعد نصر ، فشملت تلك الفتوحات أقطار شمال غرب إفريقيا ، ومنها دلفت إلى الأندلس ، ومن الأندلس طرقت أبواب أوروبا .

كما شملت مصر والإسكندرية وزحفت جنوباً حتى بلاد النوبة ثم بلاد الصين والهند شرقاً ، وكانت الفتوحات تلو الفتوحات من أجل تبليغ الدعوة لا استعماراً ونهباً واستعلاءً ، كما يجرى فى العصر الحديث . هذه الفتوحات جعلت رجلاً مثل ليوبولد فايس النمساوى الأصل (أسلم فيما بعد وتسمى بمحمد أسد) يقول : إن الدولة الإسلامية الناشئة التى أقامها محمد ﷺ فى المدينة استكملت كل مقوِّمات الدولة العالمية خلال ثمانين عاماً من قيامها ، ثم تأبت على السقوط على مدى ألف عام . ودولة الروم استكملت قيامها على مدى ألف عام. ثم سقطت سريعاً خلال مائة عام . ويهدف الأستاذ أسد من هذه المقارنة أن دولة الإسلام دولة مبادىء تنمو بسرعة وتزول ببطء . أما دولة الروم وما كان على شاكلتها فهى دولة قوة وبطش تنمو ببطء وتزول بسرعة . لأن سلطانها على النفوس ضعيف . فهى تقوم على الإرهاب والتخويف ، والإسلام قام على الإقناع وصدق التوجيه .

دانت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها لمواكب الفتح الإسلامى ، وسجَّل وعى التاريخ حلقات وضيئة للفاتحين ، بدءاً من انتصارات الإسلام فى شبه الجزيرة ، والقضاء على الفتن والاضطرابات فيها ، ثم الانتصارات الرائعة التى حققها حملة مشاعل النور فى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها . إنهم لم يغزوا ما غزوا بالسيف وحده ، إنما غزوا القلوب والمشاعر بتلك المبادىء والقيَم النبيلة من العدل والرحمة والمساواة وتحرير الإنسان من طواغيت الأرض وظَلم القياصرة والأكاسرة والملوك المتوَّجين . السيف كان لا يُشهر إلا فى وجه مَن يأبى الحق ويناوئه ويريد أن يجعل من نفسه رباً للعباد يستذلهم ويخضعونه بكل الولاء والخضوع .

فالإسلام عدو لكل باطل ، حرب على كل اعوجاج . جاء ليحارب كل سُبل الغى والضلال ، ويدعو العباد إلى توحيد الخالق وعبادته وإقامة أمره فى الكون كله .

ودولة هذا شأنها لا بد أن يكون لها حُسَّاد ومناهضون يتربصون بها الدوائر . وهم أهل الباطل والزيغ والانحراف فى كل عصر ومصر .

وأعداء الإسلام منذ وُجدَ الإسلام ، ومنذ وُجدوا هم يغيظهم من الإسلام أمران أساسيان ، ثم أمر ثالث كان ثمرة لهما :

الأمر الأول : تلك المبادىء والأسس والقيَم التى جاء بها الإسلام وقد تجاوبت معها وانقادت بها العقول المستنيرة ، والفطر الإنسانية السليمة فدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

الأمر الثانى : تلك الانتصارات الرائعة - حقاً - التى حققها الإسلام فى فجر تاريخه . وعلى يد مَنْ ؟ على يد أمة أُميِّة كانت قبل الإسلام خاملة بين الأمم ، بأسها بينها شديد ، وقلوبهم شتَّى ، يخافون - لضعفهم - أن يتخطفهم الناس من حولهم فآواهم الله وأيَّدهم بنصره . وصيَّرهم بالإسلام : خير أمة أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ويدعون إلى الخير ، لا يخافون فى الله لومة لائم » .

الأمر الثالث : إن الإسلام - الآن - هو الصيغة المناسبة جداً لجمع البَشرية كلها على اختلاف أجناسها وطباعها ولغاتها تحت لواء واحد وهو - وحده - القادر - بحق - على صهر كل الفوارق التى شاعت بين الأفراد والجماعات ، والرجوع بالبَشرية إلى أصول جامعة لا سيد فيها ولا مسود ، ولا فاضل ولا مفضول إلا بالإيمان والعمل الصالح . أما الناس من حيث أنهم ناس ، فهم سواسية كأسنان المشط . ربهم واحد ، وأبوهم واحد ، وأمهم واحدة . ووجهتهم واحدة .

وأنه - وحده - قادر على مخاطبة العقل الحديث المثقف ، وقادر على تسوية مشكلاته وحلول معادلاته الصعبة فى كل مجال من مجالات الحياة : عقيدة ، وتعاملاً ، وسلوكاً ، ومبدءاً ، ومصيراً ، إنه الوسيلة - الوحيدة - التى - إذا أتيحت لها الفُرَص ، وأزيحت العراقيل من طريقها - هى القادرة على إعادة الطمأنينة إلى الإنسان وتهيئة السبيل له لتأدية رسالته فى الحياة عن وعى وعمق بصيرة حتى يلقى ربه .

وهذا - مع الإيجاز الشديد - يكشف لنا القناع عن سر العداء المستحكم - الآن - وقبل الآن ، الذى تبديه القوى المعاصرة ضد الإسلام .

ففى الإسلام جانبان عرفهما أعداؤه ، هما مصدر القلق والاضطراب لديهم .

أولهما : قدرة الإسلام على تكوين قوة مادية ضاربة ، تقهر مَن يقف له بالمرصاد . وتاريخه الذى أوجزنا الحديث عنه خير وأصدق شاهد على هذا الجانب .

والآخر : هو الإسلام نفسه : عقائده ، قيمه ومبادئه ، أخلاقه ، منهجه فى الحياة بكل ما فيها من مجالات وميادين .

والجانب الأول لا يقلق أعداء الإسلام مثلما يقلقهم الإسلام نفسه لأنه - أى الجانب الأول - يمكن ، وقد أمكن فعلاً ، تحصيله ، وهو القوة المادية اللازمة

فى السلم (مثل المخترعات التكنولوجية) واللازمة فى الحرب (مثل الأسلحة المتطورة التى يملكها الآن المعسكران الشيوعى والرأسمالى) .

أما الجانب الثانى .. فليس فى أى من القوى المناهضة للإسلام أن تُحصِّله إلا باعتناق الإسلام نفسه ، وهذا - عندهم - تزاح الرءوس عن الأجسام ولا يكون.

وهذا هو السبب فى أن تجمع قوى الباطل - الآن - على مناهضة الإسلام ، وتُنفق الأموال الطائلة ، وتبذل الجهود المضنية لتحقيق واحد من أمرين :

الأول : القضاء على الإسلام - كليِّة - إذا أمكن .

والآخر : وقفه عند حد معيَّن ، والتقليل من خطره . وهذا هو البديل الذى اتخذ منه خصوم الإسلام عزاءً وسلوى .

وموضوع هذا الكتاب ، هو الكشف عن الوسائل التى يستخدمها الآن أعداء الإسلام من صليبيين ، ويهود ، وشيوعيين لتشويه حقائق الإسلام بُغية الوصول إلى أحد الهدفين المشار إليهما آنفاً ، ومن الخير - قبل الدخول فى صميم الموضوع - أن نعرض - فى إيجاز كذلك - لوضع الإسلام فى أوروبا بين منصفى الإسلام منهم والحاقدين عليه ، المتربصين به الدوائر .

* * *

الفصل الثانى

الإسلام فى أوروبا بين منصفيه والحاقدين عليه

ينقسم الوضع بهذا الاعتبار « الإسلام فى أوروبا » ثلاثة أقسام : منصفون . وحاقدون ، ومحايدون لا على الإسلام ولا للإسلام ، وبالطبع فإن الذى يهمنا هو المصنفون والحاقدون . وعلى هذا ندير الحديث .

● منصفو الإسلام فى أوروبا [1] :

ممن درس الإسلام فى الغرب طائفة من العلماء والمفكرين غلبت عليهم روح النزاهة والموضوعية فى البحث ، ولم يتأثروا بالعواطف الخاصة التى تربطهم بمعتقداتهم المخالفة للإسلام ، وثقافاتهم المتحررة من كثير من القيود ، وقد تركت دراستهم للإسلام آثاراً ناصعة فى نفوسهم فلم يمنعهم مانع من تسجيلها والإفصاح عنها والإشادة بها . ثم تركوا ما قالوه فى الإسلام يُقرأ فى مؤلفاتهم بلغاتهم الأصلية أو فى الترجمات إلى اللغات الأخرى . ومن أبرزها اللغة العربية فى هذا المجال . بفضل الجهود التى بذلها بعض المسلمين فى نقل مؤلفاتهم إلى اللغة العربية .

ومما هو جديد بالذكر أن تناولهم للإسلام لم يكن من جهة واحدة بل تناولوه من عدة جهات كما سيتضح من العرض الآتى :

---

(١) لا نقصد بأوروبا هنا التحديد الجغرافى للكلمة ؛ بل نقصد بها خصوم الإسلام فى الغرب كله والشرق المتصل به .

● عظمة صاحب الدعوة :

حياة النبى ﷺ وأعماله لفتت أنظار مفكرى العالَم لفتاً قوياً . ومنهم الفيلسوف الإنجليزى برنارد شو . فقد أشاد أيما إشادة بعظمة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك قوله :

« إن العالَم هو أحوج ما يكون إلى رجل فى تفكير محمد (ﷺ) هذا النبى الذى أحلّ دينه محل الاحترام والإجلال . إنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، خالد خلود الأبد . وإنى أرى كثيراً من بنى قومى (الأوروبيين) قد دخلوا فى (هذا) الدين على بيِّنة . وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح فى هذه القارة (أوروبا) وإذا أراد العالَم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين . إنه دين السلام والعدالة والسعادة فى ظل شريعة محكمة ، لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطىء أبداً .

إن محمداً (ﷺ) يجب أن يُدعَى منقذ الإنسانية ، إننى أعتقد لو تولى رجل مثله زعامة العالَم الحديث لحل مشاكله بطريقة تجلب للعالَم السلام والسعادة . إن محمداً هو أكمل البَشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يُتصور وجود مثله فى الآتين » .

هذه كلمة حق قالها رجل غير مسلم فى الإشادة برسول الإسلام ومحاسن الإسلام نفسه . كلمة صوَّرت فى صدق مشاعر قائلها نحو عظمة الإسلام وكل ما يتصل به .

* *

● إدوارد بروى :

ويتناول رجل آخر الحديث عن الإسلام مصوِّراً روعة ماضيه وأثره فى الحضارة الإنسانية المعاصرة ، وينحى باللائمة على الذين ينقصون من قيمة الإسلام وتاريخه ، ويضعونه موضعاً سلبياً بين وقائع التاريخ ، ويتناول أموراً أخرى من

مآثر الإسلام الخالدة ، ثم يطالب فى النهاية باعتبار التاريخ الإسلامى الحافل تاريخاً خالداً للبَشرية كلها .

ذلكم الرجل هو البروفسور « إدوار بروى » أستاذ تاريخ الحضارات فى جامعة السربون بباريس . وإليك قوله :

« ظهر الإسلام كالشهاب الساطع ، فحيَّر العقول بفتوحاته السريعة وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التى أنشأها . نحن أمام شعب كان بالأمس الغابر مجهول الاسم ... فإذا هو يتحد فى بوتقة الإسلام ، الذى انطلق من الجزيرة العربية فاكتسحت جيوشه فى بضع سنوات الدولة الساسانية (الفُرس) ... ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية (الروم) من آسيا وإفريقيا . ولم تلبث جيوشه قليلاً حتى استولت على معظم أسبانيا وصقلية . واقتطعت بعض المقاطعات غربى أوروبا وجنوبها . ودقت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربى .

وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربى - يعنى الإسلامى - وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبَّات سبحة انفرط عقدها النظيم (؟) وهذه الأديان التى سيطرت على الشعوب والأقوام ... ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد أن أطل على الدنيا دين جديد (الإسلام) ... وانجلى غبار الفتح عن إمبراطورية جديدة (الدولة الإسلامية) ولا أوسع . وعن مدينة ولا أروع ، عوَّل [1] عليه الغرب فى تطوره الصاعد ورقيه البنَّاء ، بعد أن نفخ الإسلام فى جسم موات روحاً جديدة عادت معه إلى الحياة فنبض - يعنى الغرب - وأشع وأسرى ولهذه الأسباب كان لا بد أن يحتل التاريخ الإسلامى محلاً مرموقاً فى ثقافة رجل العصر .

... وعلى رجل العصر أن يعرف جيداً أنه قبل « توما الإكوينى » الذى رأى النور فى إيطاليا ظهر « ابن سينا » فى إحدى مقاطعات التركستان ، وأن

---

(١) أى : على الإسلام - الذى هو الدين الجديد - كما وردت الإشارة إليه هنا .

مساجد دمشق وبغداد وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام فى باريس . إن علينا اعتبار هذا التاريخ - تاريخ الإسلام - من صميم التاريخ الإنسانى ، المتنوع فى الأزمنة والأمكنة ، والذى لا يزال - على الرغم من جزئياته وخصائصه - تاريخ هذه البَشرية الجامعة جمعاء » (١) .

هذا تقرير واف عن جوانب جد مضيئة من حقيقة الإسلام . واعتراف صريح من رجل متخصص فى علم التاريخ والحضارات الإنسانية ، دوّن مشاعره عن الإسلام بروح خالية من أدنى أثر للتعصب المذهبى كما ترى .

* *

● تولستوى :

ويسجل الأديب الروسى « تولستوى » كلمة يتخذ من صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم محوراً لها ، ولكنه يتناول فيها محاسن الإسلام نفسه ، ويدرك عن كثب سمة من سمات عالَمية الإسلام فيقول :

« ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين ، وكان فى حداثة سنه راعياً يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى ، متأملاً فى الله خالق الكون ، لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها ، واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات ، وقدّموا لها الضحايا المختلفة . وكان كلما تقدّم به العمر ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الناس والشعوب .

« وقد ازداد إيمان محمد (ﷺ) بهذه الفكرة فقام يدعو أهله وأمته إلى فكرته . معلناً أن الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة . ودأب يعلن عن عقيدته وديانته . وخلاصة هذه الديانة التى

---

(١) تاريخ الحضارات العام - المجلد الثالث ، للبروفسور إدوار بروى ص ١٠٩ ، وأثر العلماء والمسلمين فى الحضارة الأوروبية ، للأستاذ أحمد على الملا ص ١٣.

نادى بها الرسول ، هى : أن الله واحد لا إله إلا هو ، ولذلك لا يجوز عبادة غيره . وبأن الله عادل ورحيم بعباده ... وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده فإن الله يثيبه فى الحياة الآخرة أجراً حسناً . وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يُعاقَب فى الآخرة عقاباً أليماً . وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ، ومحبة بعضهم بعضاً ... ومحبة الله تكون بالصلاة . ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السرّاء والضرّاء ، وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يجب عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية ، ويحتم عليهم ألا يخدموا الجسد فحسب ويعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها » .

*

- سماحة الإسلام وعالَميته [1] :

« ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد . بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى وعيسى وقال : إن اليهود والنصارى لا يُكْرَهون على ترك دينهم - يعنى أن الإسلام أقر لهم بحرية الاعتقاد - ... وقد امتاز المسلمون كثيراً عن الغرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا . وحب العمل والقناعة ، وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم . ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً . ويُعظّمون قدرهم . وظل عدد المؤمنين يزداد يوماً بعد يوم .

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيراً بغير المسلمين ، وأمر بحسن معاملتهم . ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم .

---

(١) وضعنا هذا العنوان من عندنا لأن كلام المؤلف يوحى بهذا المعنى .

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم . وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام » [1] .

* *

● دولة فى الأرض وأخرى فى السماء :

هكذا انتهى الفيلسوف الفرنسى لامارتين وهو يتحدث عن عظمة الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ونضع أمام القارىء نصه بالحرف :

« إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته . ورباطه جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية ، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذىً ، أو يعيش على باطل . فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرِّع ، وهادٍ للإنسان إلى العقل وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللُّب ، وهو مؤسس دين لا فِرية فيه ، ولا جبروت فيه . ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك ؟ وأى آفاق بلغ إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد » ؟

* * *

● ديورانت :

الملحوظ فى النصوص التى نقلناها عن المنصفين من مفكرى الغرب وعلمائه أن حديثهم عن الإسلام جاء فى إطار الحديث عن عظمة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . فهو المفتاح الجذَّاب الذى وقفهم على حقائق الإسلام وفى هذا

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٠٦ ، مرجع سبق ذكره .

الإطار نجد عالماً آخر ذائع الصيت ينحو المنحى نفسه ، وهو « ول ديورانت» صاحب المؤلفات العالمية العديدة : « قصة الحضارة » ، « قصة الفلسفة » وإليك نص كلمته :

« وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن محمداً (ﷺ) كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى فى شعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجدب الصحراء . وقد نجح فى تحقيق هذا الهدف نجاحاً لم يدانه فيه أى قائد آخر فى التاريخ كله » [1] .

* * *

● الإشادة بالمسلمين :

ونحن الآن أمام مجموعة أخرى من شهادات المنصفين غير ما تقدَّم إذ يتجه بها أصحابها اتجاهاً آخر ، فيولون وجوههم شطر تاريخ الإسلام من حيث جهود علماء المسلمين وإسهاماتهم البنَّاءة فى النمو الحضارى الإنسانى ، والمُثل العليا التى ضربوها فى هذه المجالات ، مسجِّلين أن حضارة الإسلام كانت أسبق الحضارات الإنسانية . وأن الرعيل الأول من المسلمين ، وتابعيهم ، كانوا - بحق - أساتذة العالَم المتحضر . والشهادات فى ذلك كثيرة ومتنوعة يضيق بنا المقام لو حاولنا رصدها بمجرد الإشارة إليها . لذلك سوف نسلك - هنا - مسلك التمثيل . وذلك من خلال محورين :

أحدهما : أقوال وشهادات موجزة أدلى بها قائلوها فى مؤتمرات أو محاضرات .

والأخر : ما دوَّنه بعضهم فى كتب وأطنبوا فى الإشادة بفضل المسلمين على العالَم .

---

(١) قصة الحضارة : ٤٧/٢ - المجلد الرابع - « عصر الإيمان » .

● نهرو وأسبقية حضارة الإسلام :

وضع البنديت جواهر لال نهرو كتاباً دعاه « لمحات من تاريخ العالم » تحدّث فيه - فيما تحدّث - عن فضل المسلمين فقال :

« .. كانوا - بحق - آباء العالم الحديث . وإن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية - عدا قرطبة عاصمة أسبانيا العربية - يقصد الإسلامية - وإنه كان لا بد من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا ، والخوارزمى ، والبيرونى لكى يظهر (يعنى فى الغرب) جاليليو وكبلر وكوبرنيق ونيوتن » .

إن مغزى شهادة نهرو - هنا - أن حضارة الإسلام سبقت حضارة الغرب الحديثة . وأن حضارة الغرب لم تكن لتقوم لولا اعتمادها على الحضارة الإسلامية . وهذا الذى يقوله نهرو قد تكررت الشهادة به من علماء الغرب أنفسهم ، وصار هو الاعتقاد السائد وإن طمسته روح الحقد والعصبية أحياناً . وبخاصة فى العصر الحاضر لعوامل لا تخفى على أحد .

* *

● دورمنجم :

ويقول الأستاذ « دورمنجم » فى كتابه « القيم الخالدة فى الإسلام » ما نصه :

« إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعى يقوم على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادى يعتبر المال وسيلة لا غاية ، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة ، وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعرفة . ولا شك أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية » .

لقد لخص « دورمنجم » أسس الحضارة الإسلامية تلخيصاً أميناً كما ترى . فارقاً بينها - ضمنياً - وبين الحضارات المادية المدمرة ، فالفرق جدُّ كبير بين حضارة تقوم على القهر للآخرين والكفر بالقيم كحضارات الغرب المعاصرة ، وبين حضارة تسعى لتحقيق الخير للإنسان والإيمان بخالق الكون .

* * *

● اعتراف بالجميل :

ونضع بين يدى القارىء نموذجين للاعتراف بالجميل قبل الانتقال لعرض شهادة مستفيضة فى فضل الإسلام وحضارته على العالم أجمع ؛ أحد هذين النموذجين فقرات وجيزة جاءت فى خطاب ألقاه « الدكتور غريسيب » مدير جامعة برلين ورئيس فرع الطب بها مشاركة فى احتفال أقامه الطلأب المسلمون بألمانيا الغربية بمناسبة المولد النبوى الشريف منذ أكثر من نصف قرن . ودعوا إليه « الدكتور غريسيب » فكان مما قال :

« أيها الطلأب المسلمون .. والآن قد انعكس الأمر . فنحن الأوروبيين يجب أن نؤدى ما علينا تجاهكم . فما هذه العلوم إلا امتداداً لعلوم آبائكم ، وشرحاً لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا - أيها الطلبة - تاريخكم ، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر ، ما دام كتابكم المقدَّس - عنوان نهضتكم - ما يزال موجوداً بينكم ، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم .

فارجعوا إلى الماضى لتؤسسوا للمستقبل . ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة ، وسلام عليكم يا طلأبنا - اليوم - وإن كنا بالأمس طلأبكم » [1] .

فانظر إلى الحقائق التى اهتدى إليها الرجل الواعى المنصف ويكفيه - ويكفينا معه - أن أرجع روعة الحضارة الإسلامية إلى الكتاب والسُنَّة . واعترف - طائعاً مختاراً - أن القرآن هو عنوان التحضر الإسلامى الخالد .

وفى عام ١٩٥٣ انعقد بواشنطن مؤتمر كان موضوعه : « أثر الإسلام الثقافى فى المسيحية » .

وقد ألقى الأستاذ الدكتور « كويلويونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة « برنستون » ورئيس قسم اللغات الشرقية بها محاضرة فى ذلك المؤتمر جاء فيها :

---

(١) أثر علماء المسلمين ص ١٤٢ - مرجع سبق ذكره .

« وبعد .. فهذا عرض تاريخى موجز ، قُصِدَ به التذكير بالدَّيْن - بفتح الدال المشددة - الثقافى الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا - نحن المسيحيين - داخل هذه الألف السنة ، نسافر إلى العواصم الإسلامية ، وإلى المعلمين ، ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية ... ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أديْنا ما علينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا عن حب ، واعتراف بالجميل » .

هذه مواقف سريعة ونبيلة لأولئك الرجال المنصفين من علماء الغرب ومفكريه . ولو كانت قد ظلت تلك الروح هى العلاقة السائدة بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى لتغيَّر وجه التاريخ .

* * *

● جورج سارتون وحقائق مذهلة :

نختم هذا الفرع - منصفو الإسلام فى أوروبا - بحقائق مذهلة عن الإسلام وحضارته ومفكريه وعلمائه فى شتَّى ميادين العلم والمعرفة سجَّلها ودوَّنها الأستاذ الدكتور « جورج سارتون » بما لا يُعرف له نظير فى التاريخ المعاصر .

● من هو جورج سارتون ؟

وقبل الخوض فى الموضوع نعرِّف القارىء بالأستاذ الدكتور « جورج سارتون» الذى سنعرف لشهادته بعد قليل .

« جورج سارتون » بلچيكى الأصل والمولد ، حصل على الدكتوراة من جامعة « چان » البلچيكية عام ١٩١١ . واشتغل بعد حصوله على الدكتوراة بالعلم والحضارة . فحاضَرَ فى بلچيكا وإنجلترا ورحل عام ١٩١٥ إلى الولايات المتحدة الأمريكية . يُحاضِر وينشىء جيلاً من الباحثين ، ويُسهم فى تأسيس المجلات العلمية الدولية . وكان قرأً ً نهماً . وأهلته منزلته العلمية ليكون رئيساً للاتحاد

الدولى لتاريخ العلوم . ثم رئيساً شرفياً لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية . وكان نزيهاً فى البحث إلى أبعد مدى [1] .

*

● عمل جورج سارتون :

قام « جورج سارتون » بوضع كتاب دعاه « مقدمة لتاريخ العلم » تتبع فيه نشأة الحضارة الإنسانية من عهد « هوميروس » إلى آخر القرن الثالث عشر بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان منهجه أنه يقسِّم القرن الواحد قسمين ، كل قسم مقداره خمسون سنة . ويُطلق على كل نصف قرن اسم أشهر العلماء الذين عُرفوا فيه .

وقد أبرز دور الحضارة الإسلامية طوال سبعة قرون ، ثم أكد من خلال التتبع الواعى لنمو الحضارة أن العلماء المسلمين - عرب وغير عرب - كانوا أساتذة العالَم أجمع طوال تلك القرون السبعة التى تبتدىء بالقرن السابع ، وتنتهى بالقرن الثالث عشر . وحرص المؤلف كل الحرص على أن يُطلق على كل نصف قرن منها اسم أعظم عالِم وُجِدَ فيه . وأحياناً كان يتوقف طويلاً عند اختيار مَنْ يُسمِّى نصف قرن باسمه لنبوغ أكثر من عالِم فيه .

وعند نسبة أى نصف قرن لعالِم إسلامى كان يشير إلى منزلته وميادين المعرفة التى نبغ فيها ، ثم إلى تقريظ علماء الغرب له إن وجد .

وليس معنى هذا أن الجهود العلمية فى هذه الحقبة جَفَّت ينابيعها عند غير المسلمين ، ولكن ما وُجِدَ منها لم يكن شيئاً ذا بالٍ بالنسبة لما جادت به قرائح المسلمين . اللّهم إلا القرنين التاسع والعاشر الميلاديين فإن « جورج سارتون » يقطع بأنهما إسلاميين صرفاً . فجميع الاختراعات والاكتشافات فيهما تولَّدت على أيدى علماء الإسلام .

---

(١) انتهى التعريف ملخصاً من كتاب « أثر العلماء المسلمين » ص ١٠٨ - مرجع سبق ذكره .

ويقول « جورج سارتون » : إن اللغات الثلاث - اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية - توارت خلال ذينك القرنين وتقلصت ظلالها . وأن اللغة العربية وحدها كانت خلالهما : الوسيلة الدولية للتقدم العلمى .

أما توزيع أنصاف القرون المشار إليها ونسبتها إلى علماء مسلمين فقد سجلها « سارتون » على النحو الآتى :

بدأ « سارتون » بالعلأمة « جابر بن حيان » ونسب إليه النصف الثانى من القرن الثامن . وجابر معروف فى تاريخ العلوم فى أوروبا بأنه عالِم كيماوى . وله فى علم الكيمياء آراء صائبة .

أما النصف الأول من القرن الثامن فقد اكتفى فيه « سارتون » بالحديث عن بغداد وما كان لها من صدارة علمية بفضل تقاطر العلماء المسلمين إليها .

أما النصف الأول من القرن التاسع فقد دعاه بـ « الخوارزمى » وهو عالِم رياضى يقول عنه سارتون : « وكان أثره فى الفكر الرياضى أبعد من أى أثر لأى كاتب آخر فى القرون الوسطى » ومما هو معروف أن « الخوارزمى » كان من مؤسسى علم الجبر على القواعد التى ارتكز عليها الجبر نهائياً .

وكان يعاصره « الكندى » الذى يُنسب إليه ٢٧٠ مؤلفاً فى الرياضيات والفلك والطب وغيرها .

والنصف الثانى من القرن التاسع أطلق عليه سارتون اسم « الرازى » وقد نبغ الرازى فى الطب . ومن أشهر مؤلفاته فيه كتابه « الحاوى » ، وله رسالة فى الجدرى والحصبة كانت أول كشف علمى عن هذين الداءين . وقد تُرجمت إلى اللغات الأخرى أكثر من أربعين مرة خلال أربعة قرون كان آخرها عام ١٨٦٦

وسمى النصف الأول من القرن العاشر باسم « المسعودى » ، وقد نبغ المسعودى فى علمى التاريخ والجغرافيا . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « مروج الذهب » .

والنصف الثانى من القرن العاشر نسبه إلى « أبى الوفاء الفلكىّ » وقد نبغ أبو الوفاء فى علم الرياضيات .

وحفل هذا النصف بعلماء آخرين كـ « الفارابى » المسمى بـ « المعلم الثانى » و « ابن النديم » صاحب الفهرست المشهور .

كما سمى النصف الأول من القرن الحادى عشر باسم « البيرونى » وكان البيرونى فيلسوفاً ورياضياً وجغرافياً ورحَّالة . ملماً بكثير من الثقافات الأجنبية .

وكان يعاصره عالمان جليلان هما « الحسن بن الهيثم » . ثم الشيخ الرئيس « ابن سينا » وفضلهما فى مجال البحث العلمى ذائع الصيت .

أما النصف الثانى من القرن الحادى عشر فقد نسبه إلى « عمر الخيام » وهو وإن اشتهر عند العامة بالرباعيات فى فلسفة الحياة والمصير فإنه معروف عند العلماء بأنه من الرياضيين والفلكيين .

ومع بداية القرن الثانى عشر بدأ الأوروبيون يشاركون علماء الإسلام فى ميادين البحث ، ومع هذا يقول سارتون : إن القيادة كانت لعلماء الإسلام . وقد عبَّر عن هذا - بل وأكثر منه - « جيرار الكريمونى » الذى كان يمثل أوروبا علمياً فى ذلك العصر ، إذ يقول :

« إن روح التقدم كانت تنطوى بمقدار كبير على الحكمة فى جمع ثمار الحضارة الإسلامية » .

ومشاركة الأوروبيين لعلماء الإسلام فى مجال الكشف العلمى لم تمنع بعض علماء المسلمين - كما يقول سارتون - من اختصاصهم بالريادة فى بعض مجالات العلم والحضارة مثل : الفلك والرياضيات والنبات والصيدلة وبعض فروع الطب وأهمها طب العيون ، ولسارتون عبارة جامعة فى بيان الفضل الذى أسهمت به الحضارة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية . وفيها يقول سارتون : إن الانتقال من الحضارات الأخرى إلى الحضارة الإسلامية : « يكاد يشبه الانتقال من الظل إلى الشمس المشرقة . ومن عالَم ناعس إلى آخر متفجر بالنشاط » .

هذا غَيض من فَيض من أقوال منصفى الإسلام فى أوروبا ، إن الحقائق القوية الناصعة هى التى أملت عليهم بهذه الاعترافات الرائعة . ومنهم مَن بقى على عقيدته حتى مات ، ومنهم مَن جذبه الإسلام إلى آخر الطريق فاعتنقه ديناً وشرعة .

ومن أقرب الأمثال إلى الأذهان ما ذكرناه من قبل عن « محمد أسد » الذى اعتنق الإسلام بعد أن أتيحت له فرصة دراسته عن قرب . ثم المفكر « جارودى » وقد كان من أقطاب الفكر الشيوعى . والطبيب « موريس بوكاى » صاحب كتاب « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » ، وغيرهم كثيرون .

* * *

● الإسلام فى أوروبا عند الحاقدين عليه :

لن نطيل الوقوف عند هذا الفرع ، بل سنشير إشارات عابرة إلى تأكيد قيام هذه الظاهرة . والسبب أن موضوع هذه الدراسة كله ينصب على بيان المواقف العدائية من أوروبا التى وقفتها خلال القرن التاسع عشر من الإسلام والمسلمين ، ثم اشتد أوارها بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) وما تزال تمارسها إلى الآن متنقلة من أسلوب إلى أسلوب . لذلك فستكون الصفحات التالية حتى نهاية الدراسة حافلة بصور الحقد والعداء الأوروبى للإسلام وللمسلمين معاً ؛ لأسباب سيأتى ذكرها تباعاً إن شاء الله .

وأمامنا الآن حقيقة يجب أن تأخذ مكانها من الظهور أمام القرَّاء ، وهى أن الحاقدين على الإسلام - على اختلاف منازعهم وأيديولوچياتهم - معترفون بقوة الإسلام وخصائصه العالمية ، وهم لا يقلون فى هذا الاعتقاد عن أولئك الذين تحدَّثنا عنهم آنفاً باعتبارهم منصفين للإسلام . والفرق بين الفريقين أن المنصفين وقفوا عند حد إظهار مشاعرهم نحو الإسلام ، أما الحاقدون - وهم لا يحصون عدداً - فقد حملهم وقوفهم على عظمة الإسلام أن يُصوِّبوا نحوه السهام ، وقد تعددت أساليبهم فى هذا المجال تعدداً واسعاً ، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

* *

● الغارة على العالَم الإسلامى :

من أبرز النماذج المعادية للإسلام - نظرياً - كتابان شاع أمرهما شيوعاً كبيراً فى البيئات الإسلامية ، وهو كتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » ، أما ثانيهما فهو وإن لم يشتهر اشتهار كتاب الغارة التى سبقت الإشارة إليه ، فإنه مثله فى العداء والكراهية للإسلام والمسلمين معاً . ونقدِّم حديثاً موجزاً عن كل منهما بادئين بكتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » .

اسم هذا الكتاب « الغارة على العالَم الإسلامى » ومعنى « الغارة » : أى الغزو والفتح . وهدف « الغارة » هذه : إزاحة الإسلام عن الحياة وعزل المسلمين عنه لتتمكن الصليبية العالَمية من تنصير المسلمين . هذا هو الهدف الأول والمباشر لأوروبا من هذا العمل .

ويتكوَّن هذا الكتاب من قرارات مؤتمرات التبشير التى عُقدت فى عواصم وأوقات مختلفة من عواصم العالَم . كما تضمن دروساً أخَرى فى تنظيم الإرساليات التبشيرية وإعداد المبشرِّين ووسائل ممارستهم لعملهم فى ديار الإسلام ، ثم الأهداف المقصودة من جهاز التبشير العالمى . وكان أصل الكتاب بحوثاً تتعلق بتبصير المسلمين أصدرتها مجلة العالَم الإسلامى الفرنسية فى عدد خاص من أعدادها باللغة الفرنسية ، وهى إحدى المجلات الغربية التى تعمل فى مجال ما يسمى بـ « التبشير » بين المسلمين لتحويلهم من عقائدهم إلى النصرانية ، وكان يرأس تحريرها « شاتلييه » من عُمَد التبشير فى الغرب آنذاك. وكان ذلك عام ١٣٣٠ هـ . وقد قام بتعريب ما ورد فى العدد المذكور من مجلة العالَم الإسلامى المرحوم الشيخ محب الدين الخطيب ، والمرحوم مساعد اليافى ، وجعلا عنوانه « الغارة على العالَم الإسلامى » .

وهذا الكتاب من الأعمال الجَماعية الطافحة بالحقد على المسلمين والإسلام . وبحسبه أنه يُعتبر خطة عمل للحروب الباردة ضد الإسلام والمسلمين . وتتركز أهدافهم حول المطالب الآتية :

أولاً : تنصير مَن يستطيعون من ضعاف المسلمين شعوباً أو أفراداً . وهذا كان هو المطلب الأهم لهم فى أول الأمر .

ثانياً : تشويه حقائق الإسلام وتشكيك أبنائه فيه إذا لم يمكن تنصيرهم بشكل قاطع .

ثالثاً : وقف المد الإسلامى الزاحف فى آسيا وإفريقيا وبخاصة بين الشعوب « المحايدة » والشعوب الإسلامية غير العربية كأندونيسيا والأفغانستان وغيرهما .

رابعاً : تفتيت وحدة المسلمين حتى لا يعيد التاريخ نفسه كما كان فى صدر الإسلام حيث أسقط المسلمون دولتى الفُرس والروم ، وفتحوا ما شاء الله لهم من الأقطار حتى إنهم هددوا أوروبا نفسها بالاجتياح بعد تمكنهم فى شمال غرب إفريقيا ومصر والشام والعراق ثم الأندلس ، أو كما قامت دولة الخلافة « العثمانية » وتمكنت عن طريق الإسلام من توحيد صفوف المسلمين من مختلف الأجناس ، كما تمكنت من التوغل فى أوروبا نفسها وصارت هى القوة الوحيدة المرهوبة الجانب فى العالَم .

وإلى القارئ الكريم مقتطفات من أقوالهم وردت فى الكتاب ، أما الوسائل التى استخدموها فى تحقيق مقاصدهم فسوف يأتى الحديث عنها فى موضع لاحق :

قال أحدهم - وهو المستر « بلس » - يبين خطورة الإسلام وكونه عقبة فى تحقيق مطالبهم :

« إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى إفريقيا ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا .. » (؟!) .

وللمستر « بلس » - هذا - كتاب عدائى للإسلام دعاه « مشروع التبشير » وقد أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان « ملخص تاريخ التبشير » .

وقال أحدهم - وهو المسيو « شاتلييه » رئيس مجلة العالم الإسلامى الفرنسية - يبين جناحى العمل التبشيرى فى البلاد الإسلامية : « إن لنتيجة إرساليات التبشير فى البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ، ومزية هدم ... » .

ويقصد بمزية الهدم : هدم الإسلام عقائد وأخلاقاً ... !!

ويريد بمزية التشييد : الترويج للنصرانية والعمل على اعتناقها بديلاً عن الإسلام !!

* *

● مجلة الشرق المسيحى :

لم تكن فرنسا وحدها هى التى تصدر مجلة إسلامية لغرض تدميرى . بل تساندها دول أوروبية أخرى فى نفس الاتجاه . فأصدرت بريطانيا مجلة أخرى باسم « مجلة العالم الإسلامى » وكذلك ألمانيا وسويسرا . ولكن مع اختلاف فى التسمية واتحاد فى الهدف . فألمانيا أصدرت « مجلة الشرق المسيحى » وجعلتها وسيلة ذات خطر فى محاربة الإسلام والمسلمين عن طريق الكلمة الخبيثة . وإلى القارىء الكريم فقرة من مقال صدر فى مجلة الشرق المسيحى الألمانية . طافحاً بالمكر والكيد للإسلام . جاء فى هذه الفقرة ما يلى :

« إن أعمالنا قد ازدادت أهمية بين مسلمى البلغار بنعمة اللّه تعالى الساطعة ... وازدياد أهمية التبشير كان بوجه خاص عقب تأسيس المدرسة الدينية الإسلامية (؟!) ... بقصد مقاومة الإسلام (؟!) ويبرهن لنا على أنه قد أزف الوقت الذى يُزعزَع فيه الإسلام من أركانه (؟!) وينتشر الإنجيل بين الشعوب الإسلامية ... » .

كانت هذه المخاطرات تجرى فى الربع الأول من القرن العشرين ولعل القارىء يربط بين تلك المساعى وما يدور فى بلغاريا الآن من اضطهاد للمسلمين وهدم مساجدهم ودفنهم فى مقابر النصارى وتغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء أخرى ..

* *

● الإسلام قوة الغد العالمية :

هذا هو الكتاب الثانى الذى أشرنا إليه من قبل . ومؤلفه « باول شمتز » ألمانى الجنسية . والكتاب ضخم يقع فى ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير نقله إلى العربية الأستاذ الدكتور محمد شامة ونشرته مكتبة وهبة بالقاهرة . ومؤلف الكتاب عاش فى مصر (القاهرة) عدة سنوات قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ، وموضوع الكتاب يمكن أن يقف عليه القارىء من خلال الكلمة التى صدَّر بها الناشر الألمانى الطبعة الأولى منه حيث قال ما ترجمته :

« بول اشميد عاش فى القاهرة عدة سنوات ، ويعرف جيداً الأسس التى ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذى يُعَد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الإنسان فى أوروبا بكل بساطة ، وفى غير اكتراث ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم فى جبهة واحدة معادية للغرب ، بينما الغرب نفسه لا يستطيع سوى أن يعرض تمزقه فى غير حدود تجاه هذه الإرادة الحازمة ، وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجَدِّى من أجل مصلح الغرب وحدها » .

أى أن الكتاب الذى وضعه باول « الإسلام قوة الغد العالمية » وقدَّم له الناشر بتلك المقدمة الموجزة البليغة ، إنما هو كشف عن قوة الإسلام ، وتحذير منها ، فهو - إذن - خطة عمل محكمة يقدِّم من خلالها المؤلف لبنى قومه النصح الخالص الأمين ليقفوا فى وجه الإسلام قبل أن يجذبهم ببرائنه ، ثم يرمى بهم بين فكيه ، وفى الواقع إن المؤلف أصاب أيما إصابة وهو يستعرض عناصر القوة والتمكين فى الإسلام ، فى العقيدة والأخلاق والسلوك ، وفى الموقع الاستراتيجى للرقعة التى يفترشها العالَم الإسلامى على سطح الأرض ، وفى غنى الموارد الطبيعية والبَشرية . ولا نضيف جديداً فى وصف الكتاب أكثر مما قلنا ، ولكننا نقتطف فقرات من كلام المؤلف . ثم نختم الحديث عنه بعبارة ختم بها المؤلف كتابه هى فى الواقع جملة موجزة كل الإيجاز ، ومع هذا فإنها جمعت كل كلمة سبق أن سطرها فى « الكتاب » .

من أبرز الحقائق التى حذَّر « باول » منها أوروبا : عودة الإسلام بكل قواه إلى تولى زمام القيادة والتوجيه عالَمياً ، لأن مؤهلات الإسلام من هذه الناحية لم يصبها الوهن . وهو يعبِّر - أحياناً - عن الإسلام بـ « الشرق » فيقول :

« وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق (الإسلامى) عَوْداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة الإسلامية العالَمية فى الصدر الأول للإسلام . وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية . وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون : كيفية استخراجها والعمل على الإفادة منها وستقلب موازين القوى ؛ لأنها (يعنى قوة الإسلام) قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيَّارات القُوَى العالَمية (ص ٣٢٣) .

*

● التفوق العددى فى القُوَى البشرية :

ومن الظواهر الفعَّالة فى ميزان القُوَى الإسلامية التى فطن إليها « باول » وحذَّر منها كل قوى الغرب والشرق المناوئة للإسلام من تلك الظواهر نمو القوى البشرية وتزايدها فى بلاد الإسلام وقد أطال « باول » فى الحديث عنها ، وكان مما قال : « تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الإسلامى إلى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق (الإسلامى) والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بَشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الإنتاج البَشرى الشرق على نقل السُلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود ، وسوف ينجح فى ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم إلا النذر اليسير » (ص ١٨١) .

*

● مثال من مصر :

وبعد هذا العرض الموجز لخطورة الرصيد البَشرى فى بلاد الإسلام يذكر المؤلف أرقاماً لمعدلات الزيادة كل عشر سنين فى بعض البلاد الإسلامية . ويركز على مصر بالذات ، ثم يأخذ معدّل الزيادة فى مصر ويقوم بعمل إحصائية لما يُستقبل من الزمن خلال ألف سنة قادمة . ويدهش للرقم الذى سيصل إليه السكان فى مصر فى نهاية تلك المدة (١٠٠٠ سنة) فيقول : « وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة أمة تعدادها : ٩٧٣ ملياراً من البشر ، أى أنها سوف تنمو بَشرياً إلى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيَّارة الأخرى » (ص ١٨٣) .

هذا .. ولم يفت المؤلف أن يقارن بين زيادة المواليد العرب فى فلسطين ، ومواليد اليهود ، ويتنبأ بأن معدّل زيادة المواليد العرب فى فلسطين مقارَناً بهبوط معدّل مواليد اليهود حيث بلغت زيادة المواليد مرتين ونصفاً على مواليد اليهود . هذه الحقائق جعلت المؤلف يتنبأ بأن هذه الزيادة الملحوظة إنما هى عقبة كأداء أمام آمال الصهيونية العالمية فى فلسطين (ص ١٨٦) .

فتأمل - عزيزى القارىء - إلى أى مدى بلغت حساسية المؤلف من نمو العناصر المناصرة لعالَمية الإسلام ، وأن الإسلام إذا تُرِك وشأنه ولم تقاومه أوروبا فسيحدث اختلال فى موازين القُوَى العالَمية ، ثم تنتقل السُلطة العالَمية إلى الإسلام مرة أخرى ويعيد التاريخ نفسه ، ثم تعال معى وقِفْ ملياً أمام العبارة التى ختم المؤلف بها كتابه ، إذ يقول :

« إن انتفاضة العالَم الإسلامى صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها ؟! يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ، وينفض النوم عن عينيه . هل يسمعه أحد ؟! ألا من مجيب » ؟! (ص ٣٢٤) .

* * *

● تغليب العداء على الإنصاف :

تقدِّم لنا نموذجان لصدى الإسلام فى أوروبا : نموذج التمدح والإنصاف والاعتراف بالجميل .

ونموذج العداء المستحكم ، والحقد الأسود الدفين .

فإلى أى الاتجاهين استجابت أوروبا يا ترى ؟!

إن الإجابة معروفة . فقد أغمضت أوروبا أعينها ، واستغشت ثيابها ووضعت أصابعها فى آذانها حتى لا تبصر صوت الحق ولا تسمع دويه وهديره .

واستجابت بكل قواها لصوت الكراهية والحقد والانتقام .

هذا هو الواقع . ولكن لماذا اختارت أوروبا هذا الاتجاه وآثرت البغض على الحب ، والعداء على الصداقة ، ونكران الجميل على الاعتراف والوفاء ؟

● الأسباب فى إيجاز :

إن الأسباب التى من أجلها اختارت أوروبا أن تواجه الإسلام بكل ما تملك من وسائل الكيد والدحر ، يمكن إرجاعها إجمالاً إلى سبب واحد هو : الخوف من الإسلام . فقد عرفت أوروبا نظرياً أن الإسلام صالح - بجدارة - لأن يكون رائداً للبَشرية دون أن يضيق بهذه الريادة ، أو يُقصِّر فى أدائها ، وأن المشكلات التى تكدر صفو الحياة لها علاج حاسم فى منهج الإسلام ، فإذا لم تقاوم أوروبا هذا « العملاق » فستُغرب شمسها ويزول سُلطانها .

وإذا كان المعسكران اللذان يتنافسان على قيادة العالَم الآن ، وهما المعسكر الرأسمالى الصليبى ، والمعسكر الشيوعى الإلحادى ، إذا كانا يخاف كل منهما الآخر ، فإن هذا الخوف مصدره هو « القوة العسكرية » لكل منهما ، أما فى مجال المبادىء والقيَم التى تحكم مسيرة الحياة كلها ، فليس عند أى من هذين المعسكرين ما يخافه الآخر ، فهما كلاهما لا أقول فقيران فى هذا المجال ، وإنما هما لا يعرفان شيئاً قَط فى هذا المجال ، وكل ما يعرفه كل منهما هو ما يتعلق

بالمذهب الاقتصادى لكل منهما . بل إنهما يلتقيان عند أمر مخيف جداً وإن كان المعسكر الشيوعى ضالعاً فى هذا الجانب . فهو يقوم على « الإلحاد » والكفر بالله وبما وراء الطبيعة ، ويحصر إيمانه بالماديات المحسوسة وكفى !

والمعسكر الاقتصادى وإن لم يعلن - صراحة - الكفر بالله والقِيَم الإيمانية ، فإن الواقع الذى يسيطر عليه هو تحييد الإيمان وعزله عن مواكبة الحياة . وهو ما عُرِف عندهم بـ « فصل الدين عن السياسية » وإن كان هذا الشعار لا يكفى فى تصوير صلة أوروبا بالدين .

هذا من الناحية النظرية ...

أما من الناحية العملية فقد عرفت أوروبا انتصارات الإسلام قديماً وحديثاً .

أما قديماً .. فقد أشار مؤلف كتاب « الإسلام قوة الغد العالَمية » إلى بصيص فيما سبق أن نقلنا عنه وهو يتحدث عن الصدر الأول للإسلام .

ثم عرفت أوروبا قوة الإسلام إبَّان الحروب الصليبية التى لا تزال جروحها تنزف فى مشاعر القوم إلى الآن .

ثم عرفت قوة الإسلام فى أثناء قيام دولة الخلافة العثمانية وانتصاراتها المذهلة على أوروبا نفسها .

فالإسلام « أمس » أثبت أنه إذا أتيحت له الظروف لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، أو ينال منه .. لذلك كله فإن أخشى ما تخشاه أوروبا أن تتاح الفرصة من جديد لعودة الإسلام ، وصارت كل القوى تحذر عودته .

الرأسمالية الصليبية ، والشيوعية الإلحادية ، والصهيونية العالَمية ، هذه القوى الثلاث لا تخشى بعضها بعضاً وإنما هى مجتمعة ومتفرقة لا تخشى إلا « الإسلام » - أو العملاق النائم - كما يحلو لكثير من مفكريهم وخبرائهم

أن يصفوه . هذا هو سبب الأسباب فى تغليب أوروبا جانب الحقد والعداء على جانب الإنصاف والاعتراف بالجميل . وكان لا مناص من المواجهة مهما كلفتها من ثمن . ثم بدأت أوروبا العمل ، وعلى محاور مختلفة . إنها لم تدعْ وسيلة رأت أنها مفيدة لها فى القضاء على الإسلام أو تقليل الأضرار المتوقعة منه على أوروبا ، إلا وسلكتها فى عزم وإصرار وكان من أبرز المحاور فى هذا المجال : « الغزو العسكرى » .

* * *

الفصل الثالث

الغزو العسكرى

استخدمت أوروبا الغزو العسكرى ضد الإسلام من خلال محورين :

أحدهما : غزو عسكرى قامت به دول أوروبية قياماً مباشراً ضد معاقل الإسلام .

والآخر : غزو عسكرى لم تكن أوروبا طرفاً مباشراً فيه ، بل هى المحرِّك له من وراء الكواليس ، وذلك بخلق قُوَى إسلامية متضاربة ؛ إما دولتين إسلاميتين ، أو بين قُوَى متصارعة داخل الوطن الواحد . وكلا المحورين كانت أوروبا هى الكاسبة لنتائج عملياته . فأى طرف ينتصر فهو انتصار محسوب لأوروبا بالطبع . وقد تناصر أوروبا أحد الطرفين المتصارعين إذا كان الطرف المناصر من قبَل أوروبا ذا أيديولوچية معادية للإسلام ، وتخدم الأهداف الكبرى التى وضعت من أجل كسر شوكة القُوَى الإسلامية الحرة .

وقد يكون هذا الطرف الذى تناصره أوروبا طرفاً ناشئاً غير معروف من قبل ، سعت أوروبا لتكوينه لضرب نظام قائم يقف من سياسة أوروبا موقفاً سلبياً فتصاب مصالحها بالجمود ، أو موقفاً إيجابياً صريحاً ضد أطماع الغرب فى قُطر إسلامى أياً كان .

ومما هو جديد بالذكر أن المعسكرين - الرأسمالى الصليبى والشيوعى الإلحادى - قد مارسا هذه السياسة فى معاقل الإسلام ، وكل منهما له « ليلى » يغنى عليها ، وقد يكون - وكثيراً ما كان - هذا التنافس بين المعسكرين

الكبيرين هو السيطرة وبسط النفوذ على العالم الإسلامى من أجل تقليص ظل المعسكر الآخر فى المنطقة وللاستئثار بموارده الطبيعية وأسواقه الاقتصادية .

ولا أعتقد أن التمثيل لتلك الصور التى سردناها بمستعصٍ على القارىء ، وسوف يتضح فيما يأتى معنى تلك الإشارة العابرة التى أوردناها من واقع الغزو العسكرى الحديث للعالم الإسلامى المتآمَر عليه .

● **الغزو المباشر :**

بدأ الغزو العسكرى المباشر من دول أوروبا على العالم الإسلامى من وقت مبكر ، ففى عام ١٨٥٧ تم احتلال الإنجليز للهند ، وقضت على أكبر دولة إسلامية فيها وهى دولة المغول أو الدولة التيمورية . وخضع الهند سياسياً لسيطرة الإنجليز . وفى العام نفسه - ١٨٥٧ - بسطت فرنسا نفوذها على جميع أراضى الجزائر بعد أن بدأت بغزوها عسكرياً منذ عام ١٨٣٠.

ومن قبل ، وفى بداية القرن السابع عشر بسطت هولندا نفوذها على جذر الهند الشرقية (أندونيسيا) وكانت من قبل خاضعة لدولة البرتغال ، قبل أن يضمها ملك أسبانيا إلى مملكته عام ١٥٨٠ ، وبذلك توغل الاستعمار منذ ذلك التاريخ فى السيطرة على مواقع حساسة جداً من البلاد التى يقطنها المسلمون ، وظل خارج النفوذ الاستعمارى بقية البلاد الإسلامية العربية فى إفريقيا وآسيا ، ثم الدولة الصفوية فى فارس ودولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وشرقى أوروبا .

ودول إسلامية أخرى (غير عربية) لم تكن مصدر خطر على أمن أوروبا فى ذلك الوقت ، وإن كان بعضها قد بادرت إليه البرتغال قبل استفحال الاستعمار الأوروبى لبلاد الشرق الإسلامى ، ونجحت البرتغال فى بسط نفوذها على مواقع ذات خطر فى العالم الإسلامى ، وتعتبر البرتغال رائدة الدول الاستعمارية قبل أن يلتهمها ملك أسبانيا كما تقدَّم .

* *

● وإن خالها تخفى على الناس :

قامت البرتغال بدور تمهيدى خطير لتنشيط حركة الاستعمار فيما بعد وقام رحّالتها الشهير « فاسكودى جاما » برحلات فى أنحاء العالم الإسلامى اكتشف خلالها رأس الرجاء الصالح فى أقصى جنوب القارة الإفريقية عام ٩٠٣ هـ (الموافق ١٤٩٧ م) . وسميت تلك الرحلات بالكشوف العلمية زوراً وبهتاناً . بل كان لها هدف آخر ظنوا أنه سيكون سراً إلى الأبد ، ولكن كما قال زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

فقد حفظ التاريخ عبارة لـ « فاسكودى جاما » حين وصل إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) فقد قال : « الآن طوّقنا عنق الإسلام ، ولم يبق إلا أن نجذب ليختنق ويموت » !!

صحيح إن كل واقعة استعمارية لم تخل من المطامع المادية .. ولكن استعمارأوروبا لبلاد الشرق الإسلامى كان المقصود منه – ولا يزال ذلك المقصود – هو القضاء على الإسلام كما أفصح « جاما » فى عبارته السابقة ، أو – إن لم يتحقق ذلك – تشويه حقائق الإسلام وعزله عن واقع المسلمين .

والمرحلة المبكرة التى أشرنا إليها من مبادرة بعض دول أوروبا لاحتلال بعض المواقع المهمة من العالم الإسلامى ، تلتها مرحلة أخرى أخطر وأعم ، إذ كان ما يزال أمامهم عمل آخر للقضاء على قوة الإسلام فى فارس ، والبلاد العربية ، وفى تركيا التى استطاعت أن تجعل من المسلمين على اختلاف أجناسهم ومواقعهم ولغاتهم قوة ذات خطر تحتل المنزلة الأولى بين القُوَى العالَمية . وفيما يأتى عرض سريع لما تلا تلك المرحلة ، والهدف الأسمى الذى كانت القُوَى المعادية للإسلام تجد فى تحقيقه :

● المؤامرات ضد دولة الخلافة :

مهما أخذه الآخذون على دولة الخلافة من مآخذ ، سواء أكانوا مقلدين عُمْياً لدعاية أوروبا تلك التى روَّجتها باعتبارها إحدى الوسائل التى استُخدِمت فى تقويض دولة الخلافة العثمانية حين كانت قائمة ، وفى تشويه سيرتها فى التاريخ بعد غروب شمسها حتى لا يراود المسلمين أمل فى العود إلى مثلها ، مهما أخذه الآخذون على تلك الدولة من مآخذ ، وما ألصقوه بها من معايب ، فإنها كانت علامة بارزة فى وجه التاريخ القريب على أن الإسلام هو القادر وحده على صهر كل الفوارق بين الأفراد والمجتمعات ، وجمعهم على أسس قوية راسخة تجعل منهم وحدة قوية متماسكة تستقطب ولاء الأصدقاء ، وترهب تكتلات الأعداء ، وأنه القادر وحده على إكتساح كل الأيديولوچيات التى تنحرف عن منهج الله فى الكون مهما ملكت من أسباب القوة والتمكين فى الأرض وبخاصة إذا أقام المسلمون أمرهم على هدى الإسلام كما جاء فى وحى الله الأمين ، وسُنَّة رسوله الكريم ، وسيرة خلفائه الراشدين ، وآمنوا بالإسلام كله بلا تأويل زائغ ولا انحراف محتال .

والتاريخ صادق وأمين ؛ فحظ المسلمين من العزة والكرامة والانتصار يتناسب تناسباً طردياً وحظهم العملى الصادق من الإسلام ؛ وبذلك جاء الوحى الأمين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

والاستخلاف فى الأرض ، ثم تمكين الدين الذى ارتضاه لنا رب العزة ، وتبديل الخوف أمناً غايات ثلاث يُبذل من أجلها كل عزيز ، ويُنفق كل غال ،

---

(١) النور : ٥٥

وتهون كل التضحيات . غايات لن تصل إليها إلا أمة تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً ، يكون ولاؤها الخالص لرب السموات والأرض ، متمسكة بعُرَى الإيمان الصحيح ، عاملة بما يقتضيه ذلك الإيمان فى كل ما تفعل وما تَذَر . والأمة المؤهلة فعلاً لهذه الخلافة الراشدة هى الأمة الإسلامية إذا ثابت إلى ربها ، وثابت إلى رشدها . وأعداء الإسلام يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، لذلك فهم حريصون كل الحرص على محاربة كل وسيلة تُقرِّب المسلمين من إسلامهم . ولذلك - مرة أخرى - قوومت دولة الخلافة وتحالفت دول أوروبا على إسقاطها من أقصى طريق .

بالغزو العسكرى ؟ نعم .

وبوسائل أخرى تمهد له ؟ نعم .

هذا هو الذى كان .. وهذا هو الذى كائن الآن .

* *

● الوسائل الممهدة للغزو العسكرى :

أدرك قادة الغرب أن مواجهة دولة الخلافة بالغزو العسكرى وحده - وجميع المسلمين كانوا ينضوون تحت لوائها - أدركوا أن الغزو العسكرى وحده محفوف بكثير من المخاوف . وأدركوا أنه لا مناص من وسائل أخرى تفتت كل القوة قبل مواجهتها وتبث الدمامل والجروح الغائرة فى كيانها فتصاب بمرض عضال ، ثم يأتى الغزو المسلح للإجهاز على « الرجل المريض » للتعجيل بإنزال المنية به .

وكانت الوسائل الممهدة للإجهاز قوية وفعّالة . وهى فى إيجاز :

١ - إثارة الأقليات داخل نطاق الدولة ؛ لإحداث بلبلة وخلل فى الداخل فتصاب الدولة بدوار فظيع ، وهى - كما ترى - حيلة ماكرة لا تكلف الدول المتآمرة سوى الدس والتحريش مع بذل المناسب من المال إذا اقتضى الأمر .

فقد كانت روسيا القيصرية تثير الآرثوذكس وبخاصة نصارى أرمينية . وكانت بريطانيا تثير الأقليات الأخرى . وكان يهود الدونما ، وهم اليهود النازحون من المغرب قد تجمعوا فى « البلقان » أكبر خطر داخلى على الدولة . والأداة الطيعة فى يد المتآمرين ، وفيهم ومنهم نشأ حزب « الاتحاد والترقى » الذى اضطلع بدور خطير فى القضاء على دولة الخلافة ، وعمل جاهداً على « تغريب » تركيا فيما بعد بقيادة الرجل الصنم « أتاتورك » .

٢ - تشجيع حركات الانفصال عن الدولة : ومن الوسائل الممهدة للغزو المسلح أن شجعت دول أوروبا حركات الانفصال عن الدولة من بعض الشعوب التى كانت خاضعة لسلطان دولة الخلافة . والتى أُطلقَ عليها اسم « الحركات الوطنية » فقد استضافت فرنسا عام ١٩٠٧ مؤتمراً كان أعضاؤه من اليونانيين والبلغاريين والألبان وبعض الأتراك الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان عبد الحميد الثانى خلف السلطان عبد العزيز ، وكان الغرض من هذا المؤتمر تنظيم حركة المقاومة ضد الدولة ثم الإطاحة بالسلطان عبد الحميد نفسه . كما كانت إنجلترا تعمل جاهدة على حماية زعماء الحركات الوطنية كما حدث فى وقف الحكم الصادر بالإعدام على مدحت باشا أحد زعماء حزب « تركيا الفتاة » وقامت بضغط شديد على السلطان عبد الحميد لوقف الحكم المشار إليه .

٣ - إشعال « فتيل » القوميات : أشعلت دول الغرب فتيل القوميات داخل تركيا نفسها ، لتستفيد من هذه الوسيلة على نطاق واسع . فراحت تُزيِّن للأتراك العودة إلى القومية الطورانية - وهى قومية الأتراك قبل دخولهم فى الإسلام - كما زيَّنت لهم العودة إلى الطوطم القديم وهو « الذئب الأغبر » معبود الأتراك قبل الإسلام .

وحين شاعت هذه « الثغرة » الجاهلية داخل تركيا نشطت دول الغرب فى الاستفادة منها على نطاق واسع خارج تركيا .. فأخذت تُحبِّب للفُرس إحياء القومية الفارسية ، وللعرب إحياء القومية العربية . والوقود الذى ساعد على هذا الاشتعال أن الترك بدأوا يهتمون بأنفسهم فعلام يظل العرب والفُرس

مخدوعين بذلك الشعار الواهى وهو شعار الأخوة والوحدة الإسلامية وها هى دولة الخلافة نفسها بدأت تتنكر لها ؟!

٤ - وصف دولة الخلافة بالظلم والاستبداد : نجحت أوروبا - بحق - فى أمرين فى هذا المجال ؛ الأمر الأول : تجسيم أى خطأ يقع من دولة الخلافة مهما كان صغيراً . والأمر الثانى : افتراء أخطاء لم تقع أساساً وإلصاقها بدولة الخلافة . فإذا طارد السلطان العثمانى مَن يتآمرون على وحدة الدولة وتفتيت قواها هلَّلت أوروبا وطبَّلت وأذاعت أن السلطان قد بلغ المدى فى الظلم والاستبداد مع أن كل دولة فى كل عصر - وإلى الآن - تعتبر الخروج عن نظامها ومحاولة السعى لإيجاد نظام بديل جريمة من أقبح الجرائم ، أو هى « الخيانة العظمى » التى ترتكب ضد النظام ، وظلت أوروبا تُلصق التهم جزافاً لدولة الخلافة حتى رسخ فى البيئات الإسلامية - وإلى هذه اللحظة - أن عهد دولة الخلافة إنما هو عهد انحطاط وجهل وظلام خيَّم على المسلمين حيناً من الدهر ، وما تزال مناهج الدراسة فى كثير من الدول الإسلامية تُعلِّم النشء هذا الدرس دون أن يفطن ولاة الأمور وقادة المسلمين إلى المغزى من هذه التوجيهات .

٥ - عزل العرب عن دولة الخلافة : ولما كانت النيَّة مبيَّتة لدى أوروبا بتوجيه ضربة عسكرية عنيفة لحكومة الباب العالى ، كان لا مناص من عزل العرب المسلمين عن الرباط الإسلامى الجامع بينهم وبين المسلمين الأتراك .. واستثمرت أوروبا فى هذا المجال فتيل القومية العربية ، وذكَّرت العرب بما يقع عليهم من ظلم من سياسة الباب العالى ، كما ذكَّرتهم أنهم أولى من غيرهم بخلافة المسلمين . فنبى الإسلام عربى ، والقرآن نزل باللغة العربية ، وأنصار الإسلام الأوائل كانوا عرباً ، وهم الذين نشروا الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية ، وبلَّغوه لشعوب الأرض ، والمقدَّسات الإسلامية لا موطن لها إلا البلاد العربية (مكة المكرَّمة ، والمدينة المنوَّرة) فعلام يرضى العرب بتلك التبعية ، وهم الأحقاء بريادة المسلمين فى كل مكان ؟!

هذا مع وجود وعود أخرى معسولة تعهدت أوروبا بمقتضاها بتمكين العرب من الاستقلال التام وتخليصهم من مخالب تركيا ومساعدتهم على نقل الخلافة إلى مقرها الصحيح « مكة المكرمة » بعد التخلص من الكابوس العثمانى الجاسم على صدر أوروبا والعرب معاً .

* *

● تجنيد لا عزل :

وفى الواقع أن محاولات إنجلترا وفرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى لم تكن لعزل العرب عن دولة الخلافة فحسب ، بل كانت مساعى جادة لتجنيد العرب ضد تركيا ، وبذلت الدولتان - وبخاصة إنجلترا - وعوداً وعهوداً ، وقدّمتا التزامات مغرية للعرب سال لها لعاب القادة العرب ، وعلّقت عليها الشعوب العربية آمالاً لا حد لها . وعلى الرغم من تخوف العرب من الخديعة ، واحتمال أن تُغرِّر بهم أوروبا فإنهم قبلوا بعد تأكيدات من إنجلترا للشريف حسين شريف مكة ، قبلوا أن ينضموا للحلفاء : إنجلترا - فرنسا - روسيا القيصرية ، وأن يحملوا السلاح ضد إخوانهم من أتراك وغيرهم !! وقبل أن تعلن الثورة العربية فى ربيع ١٩١٦ بالدخول فى الحرب بجانب الحلفاء ضد تركيا وألمانيا ، سلّم العرب وثيقة لبريطانيا تحدد شروط دخول العرب مع الحلفاء بكل وضوح ودقة . وقد جاء فيها :

١ - اعتراف بريطانيا بالبلاد العربية الواقعة ضمن حدود مرسومة تشمل البلاد العربية فى آسيا كلها عدا مستعمرة « عدن » جنوب غرب اليمن .

٢ - إلغاء جميع الامتيازات الخاصة الممنوحة للأجانب بموجب نظام الامتيازات .

٣ - عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة التى ستنشأ فى المستقبل .

٤ - منح بريطانيا أفضلية فى المعاملة الاقتصادية وكان رد بريطانيا الذى حرّره « مكماهون » شديد المراوغة فقد طمأن فيه العرب على نقل الخلافة إليهم

من تركيا . أما مسألة الحدود فقال : ليس من المناسب بحثها الآن وفى ظروف الحرب الدائرة . وبخاصة أن المواقع العربية ما تزال فى يد تركيا .

* *

● أثر اشتراك العرب فى الحرب :

باعتراف واضح وصريح أن نجاح الحلفاء فى الحرب ضد تركيا لم يتحقق إلا على يد العرب ، ولولا اشتراك العرب فى طرد تركيا من البلاد العربية لكان للنتائج الحربية اتجاه آخر . فقد أعلن سلطان تركيا الجهاد المقدَّس - كعادته - وهو فريضة على كل مسلم قادر ، بَيْدَ أن الثورة العربية التى قادها الشريف حسين شريف مكة أحبطت كل فعالية لإعلان الجهاد المقدَّس ، وهذا ما كانت تعمل حسابه الدول الحلفاء .

حقق العرب أروع نصر للحلفاء ، لأن كلاً من جنود الفريقين المتحاربين كانوا يحاربون على أرض هم عنها غرباء . أما العرب فقد كانوا خبراء بكل بقعة يقاتلون فيها . فكانوا أقدر من غيرهم على إحسان الكر والفر ، وانتهت الحرب العالمية الأولى ، وقد مات الرجل المريض (تركيا) وسال اللعاب لتوزيع التركة ، فيا تُرى مَن كان هو الوارث لها ؟

العرب ، وهم الورثة الشرعيون .. أم الحلفاء وهم الدهاة الماكرون ؟

* *

● تدابير جرت فى الخفاء :

والواقع أن نظام توزيع التركة كان قد وُضع فى الخفاء بين الحلفاء الثلاثة ، بعيداً عن العرب الذين كانوا دمية متحركة فى أيدى الحلفاء لا أقل ولا أكثر .

ففى ربيع ١٩١٦ تم عقد اتفاقية سرية للغاية بين الحلفاء على تقسيم تركة الرجل المريض ، وهى الاتفاقية التى عُرفت باسم اتفاقية « سايكس - بيكو » . تم فيها الاتفاق سراً على كل شئ . فتم الاتفاق على أن تقتسم كل من بريطانيا

وفرنسا البلاد العربية بعد إجلاء التُرك منها . أما روسيا القيصرية فكان نصيبها من تركة الرجل المريض خارج الوطن العربى .

ظلت هذه الاتفاقية سراً مكتوماً . ثم كشفت عنها روسيا البلشفية بعد إسقاطها لنظام روسيا القيصرية . كشفت عنها فى إطار سياسة جديدة غير التى كان يتبعها القيصر ، وألغت العمل بتلك الاتفاقية (سايكس - بيكو) من جانبها ، وحين كشفت عنها القناع ظهر للعرب أنهم كانوا مخدوعين إلى أبعد مدىً وأنهم أشبه ما يكونون بما عناه الشاعر الذى هجا قديماً قبيلة « تيم » فقال :

ويُقضـى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يُستأمرون وهم حضور ؟!

إنها خيبة رجاء لا مثيل لها فى التاريخ . وربما كان ذلك عقاباً من الله ، ودرساً لأولئك الذين شاقوا الله ورسوله ، وحاربوا إخوانهم المسلمين ، متعاونين مع أعداء العروبة والإسلام معاً .. إنهم ارتكبوا خطأين فادحين :

● خطآن وقع فيهما العرب :

أحدهما : موالاة مَن نهى الله عن موالاته :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ ... ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ﴾ (٣) .

---

(١) المائدة : ٥١ (٢) آل عمران : ٢٨ (٣) النساء : ١٤٤

والخطأ الآخر : قتلهم لإخوة لهم فى الإيمان ، وأخذهم على غرة مع أن الله تعالى ألزم رسوله ﷺ إذا كان بينه وبين أحد من الكافرين عهد أن يُعلمهم بإلغاء ذلك العهد قبل أن ينابذهم بالقتال ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾ (١) .

والعرب غدروا بإخوانهم المسلمين غدراً حين فاجأوهم بالانضمام لصفوف الحلفاء إنهم نظروا إليهم بالعين التى كان يجب أن ينظروا بها إلى عدوهم ، ثم أثخنوهم بالجراح والقتل . ناسين قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ... ﴾ (٢) .

ثم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ (٣) .

أجل إن خيبة الأمل التى مُنوا بها لهى درس بليغ من الله ليعتبروا . ولكن للأسف لم يعتبروا ، وما يزالون يوالون أعداءهم ، ويثقون فيهم ثقة عمياء . والمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين ..

*

● ومفاجأة أخرى :

لم يكن الغزو العسكرى التى اشترك فيه العرب إبّان الحرب العالمية الأولى موجهاً ضد دولة الخلافة كما كانوا يعتقدون . بل كان غزواً خاضه العرب ضد أنفسهم ، ولصالح أعدائهم من النصارى واليهود . فقد استبدّت الدولتان - بريطانيا وفرنسا - بتقسيم الوطن العربى فيما بينهم . فكان العرب أنفسهم من المتاع الموروث لتلكما الدولتين ، وهم قد دخلوا تلك الحرب - أعنى العرب - ليكونوا وارثين لا موروثين . وكانوا واهمين فلم يتنبهوا إلا وهم على أسنة رماح

---

(١) الأنفال : ٥٨ (٢) النساء : ٩٢ (٣) النساء : ٩٣

أعدائهم فى الباطن ، أصدقائهم فى الظاهر ، ثم أفصح الصبح لذى عينين . ولكن بعد فوات الأوان .

وإذا كانت اتفاقية « سايكس - بيكو » مفاجأة مذهلة للعرب - الأغرار حينذاك - وقد أشرنا إليها من قبل . فإن مفاجأة أخرى لا تقل عنها خطورة . فى هذه المفاجأة يظهر وريث ثالث مشاكس إلى أبعد الحدود . إنهم اليهود الذين كانوا قد وُعدوا سراً بأن يُمَكنوا من فلسطين ليقيموا لهم دولة عليها . وقد تضمن هذه المفاجأة « المرة » وعد بلفور الصادر فى نوفمبر عام ١٩١٧ - أى فى أثناء الحرب العالمية الأولى .

فوجىء العرب بكل هذه الصدمات فثاروا واحتجوا ولات حين مناص . فقد مضى كل شئ دبَّره الأعداء حسب الخطط الموضوعة وورثت إنجلترا وفرنسا واليهود تركة الرجل المريض . وكان ذلك جزاءً وفاقاً من اللّه للعرب . وصدق الشاعر الذى قال :

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى فأول ما يجنـــى عليه اجتهاده

لقد تخلّى العرب عن اللّه ، وضربوا بكتابه عُرض الحائط ، فتخلّى اللّه عنهم ، وباءوا بالذل والعار ، والتشتت .

وإذا كان الوريثان الأولان - إنجلترا وفرنسا - قد رحلا عن الوطن العربى . فإنهما ما رحلا إلا بعد أن أفسدا ما شاء اللّه لهما أن يُفسدا ، ووضعا العراقيل أمام الإسلام ، وتركا لهما عملاء مخلصين يقودون حملات الطعن والتشويه ضد الإسلام من بعدهم .

أما الوريث الثالث - إسرائيل - فهو باق يعبث فى الأرض فساداً ، ويعبث بمقدسات الإسلام وحرمات المسلمين على مرأى ومسمع من العالم كله ، بالإضافة إلى ما أنزل هذا الوريث - وما يزال ينزل - بالعرب المسلمين من خسائر فادحة فى الأرواح والأموال وما حطم من كرامة وعزة .

إن الحرب العالمية الأولى كانت ضربة قاصمة لا للعرب وحدهم ، بل للإسلام والمسلمين . ومنها بدأ العد التنازلى لمجد المسلمين فى سجل التاريخ الحديث .

* *

● وشهد شاهد من أهلها :

ليس فى ما قلناه تحامل على أحد ، ولا تزيُّد فهذا « لورانس » الذى رافق الثورة العربية بإرادة الشريف حسين ضد دولة الخلافة يعترف بكل وضوح بأنهم كانوا يخدعون العرب حين زجوا بهم فى الحرب فيقول : « إذا ربحنا فإن عهودنا للعرب أوراق ميتة ، غير أن الاندفاع العربى كان وسيلتنا الرئيسية فى كسب الحرب الشرقية . وعلى ذلك أكدتُ لهم أن بريطانيا تحافظ على كلمتها نصاً وروحاً . فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة..ولكننى بالطبع ، بدلاً من أن أكون فخوراً بهذا الذى فعلناه معاً . كنت أشعر دائماً بمرارة الخجل » ؟!

وفى تركيا ينفذ كمال أتاتورك الخطط المرسومة للقضاء على الإسلام . فيلغى الخلافة نهائياً عام ١٩٢٤ ويلغى منصب شيخ الإسلام ، ويحارب اللغة العربية ، ويعاقب النساء المحجبات ، ويدعو إلى الإباحية ، ويحارب التعليم الإسلامى ، وينشر الكتابة بالحروف اللاتينية ، ويحوِّل تركيا المسلمة إلى بلد أوروبى . وفى عبارة أجمع : أنه أغرب شمس الإسلام عن ربوع الدولة التى كانت تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين جميع المسلمين . ويأبى سلطانها أن يستجيب لـ « هرتزل » الزعيم اليهودى المتعصب ليهوديته بمنح اليهود فلسطين ليقيموا لهم وطناً قومياً عليها مقابل إسكات الأقليات داخل حدود الدولة المترامية الأطراف ، وتقديم مساعدات مالية خاصة للسلطان وأخرى لشئون الدولة. ومع شدة احتياج الدولة للمال حينذاك فإن السلطان عبد الحميد يقول فى شجاعة المؤمن :

« هذه ليست أرضى - يعنى فلسطين - وإنما هى أرض المسلمين فلن أفرِّط فى شبْرٍ واحدٍ منها » !

* *

● إلا الحجاز :

إن الغزو العسكرى الأوروبى لم تكد تسلم منه دولة إسلامية قَط ، عربية أو غير عربية ، اللّهم إلا أرض الحجاز التى حماها الله من أبارهة العصر وأفيالهم ، كما حماها من قبل من أبرهة اليمن وأفياله .

* *

● أهداف الغزو العسكرى لديار الإسلام :

إن أبرز أهداف الغزو العسكرى لديار الإسلام هو دحر الإسلام نفسه . وضربه من الداخل بأسلحة الحرب الباردة ، وهذا ما نقصد إليه بالدرجة الأولى فى هذا الكتاب . ونحن لا ننكر أن للغزو العسكرى أهدافاً أخرى اقتصادية أو سياسية . ولكننا نملك عشرات الأدلة على أن كل غزو أوروبى لبلد إسلامى كان بالدرجة الأولى لدحر الإسلام عن طرق أخرى غير الصدام المسلَّح ، فما الصدام المسلَّح إلا وسيلة للاقتحام ، وبعد التمكن يفعل المقتحم ما يريد .

*

● المبادرة بتعطيل الشريعة :

ومن أقوى الأدلة العملية على أن هدف الاستعمار الغربى لديار الإسلام هو دحر الإسلام نفسه ، أن أول عمل كان يبادر إليه المستعمر بعد توطيد أقدامه فى أى بلد إسلامى ، هو تعطيل الشريعة الإسلامية ، وعزلها عن حياة المسلمين المغلوبين على أمرهم :

حدث هذا فى الهند : فقد بادرت بريطانيا بوقف الشريعة الإسلامية ، وفى نفس الوقت تركت الوثنيين يمارسون ضلالاتهم فى حرية تامة ، وكان العمل بالشريعة سارياً فى الهند حتى عام ١٧٩١

وحدث هذا فى مصر : فقد أدخل الخديو إسماعيل القانون الفرنسى فى مصر - بدلاً من الشريعة - عام ١٨٨٣ أى بعد فرض النفوذ البريطانى على مصر بعام واحد .

وحدث هذا فى الجزائر : عقب الاحتلال الفرنسى لها عام ١٨٣٠.

وحدث هذا فى تونس : فقد أدخل القانون الفرنسى فيها عام ١٩٠٦

وحدث هذا فى المغرب : فقد سادها القانون الفرنسى منذ عام ١٩١٣

وحدث هذا فى تركيا : عقب إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ ومعلوم أن أتاتورك كان صنيعة الاستعمار وعميله الوفى .

وحدث هذا فى العراق والشام : وكان إلغاء الشريعة فيهما مواكباً لإلغاء الخلافة فى تركيا .

وما من بلد إسلامى كان للاستعمار وجود فيه ثم رحل عنه إلا وعمل فيه أعمالاً ضخاماً ضد الإسلام . ومن الظواهر البارزة أن دولاً إسلامية سلّمت القيادة فيها لأقليات نصرانية بعد رحيل الاستعمار منها - مثل تشاد والسنغال - ويمكن درج الحبشة فى هذه القائمة ، فإن نسبة المسلمين بها تبلغ أكثر من ٦٥٪ تحكمهم أقلية نصرانية متعصبة حاقدة . وهناك دول مسخت هويتها الإسلامية تماماً تحت وطأة الاستعمار مثل ألبانيا .

*

● اضطهاد الأقليات الإسلامية :

ومن أبرز الأدلة - كذلك - اضطهاد الأقليات الإسلامية فى العالم . فما من أقلية إسلامية فى بلد غير إسلامى إلا وتتعرض لأنواع من الاضطهاد فيما عدا النذر اليسير من الدول ، ويبلغ الاضطهاد مداه فى بعض الدول الشيوعية والنصرانية حين يقوم أعداؤهم بهدم المساجد ، وحرق المصاحف كما حدث فى روسيا الشيوعية ، والفلبين وبلغاريا . ثم الإبادة لآلاف من المسلمين على فترات

متقطعة . والتدخل فى شئونهم الخاصة ، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر [1] .
ومَن يُرد أن يقف على حجم المشكلات التى تتعرض لها الأقليات الإسلامية فعليه أن يرجع إلى مصدر موثَّق من أهم المصادر الحديثة ، وهو كتاب « الأقليات المسلمة فى العالَم : ظروفها المعاصرة . آمالها وآلامها » وهو يقع فى ثلاثة أجزاء بلغ عدد صفحاتها . ١٥٠٠ صفحة من القطع الكبير . ضم أكثر من خمسة وستين بحثاً ومحاضرة حافلة بالإحصاءات ودقة البيانات . وهو عبارة عن وقائع المؤتمر العالمى السادس للندوة العالَمية للشباب الإسلامى ، الذى انعقد فى الرياض بالمملكة العربية السعودية من ١٢ - ١٧ من شهر جمادى الأولى عام ١٤٠٦ هـ (الموافق ٢٢ - ٢٧ يناير عام ١٩٨٦ م) . إن القلب يكاد ينفطر حين يطلع على ما يتعرض له المسلمون فى كثير من بلدان العالَم دون أن يكون لهم ذنب سوى أنهم مسلمون . وبعض البلدان تواجه المسلم بهذا الاختيار الشديد المرارة ، وهو : « أكفر أو تمت » !!

وفى نفس الوقت لا تجد أقلية غير مسلمة مضطهَدة فى دولة إسلامية مهما كانت عقيدة تلك الأقلية - نصرانية ، أو يهودية ، أو بوذية ، أو حتى ملحدة - هذا هو الفرق بين أخلاق الإسلام ورحابه صدره ، وبين العقائد والأيديولوجيات المعاصرة .

وأرجو من القارىء أن يأذن لنا بالانتقال من الغزو العسكرى باعتباره إحدى الوسائل التى واجه بها الإسلام خصومه الحاقدون ، مكتفين بالنماذج الموجزة التى قدَّمناها لأن المهمة التى وضعنا من أجلها هذا الكتاب هى تتبع وسائل الكيد الأخرى ، مما أطلقنا عليه اسم : الحرب الباردة ؛ فهى أخطر من الحروب المسلَّحة والغزو العسكرى أضعاف المرات .

* * *

(١) ومن أبشع الأمثلة - ما يحدث الآن (١٩٩٢) - لمسلمى البوسنة والهرسك على أيدى قوات الصرب الغاشمة ؛ من قتل للرجال والنساء والأطفال ، وانتهاك للأعراض وإحراق للقرى ، ونسف للمنازل .. كل هذا بهدف القضاء على الهوية الإسلامية فى أوروبا (المصحح) .

الفصل الرابع

محاولات خادعة لاحتواء العالَم الإسلامى

كان الغزو العسكرى الأوروبى للبلاد الإسلامية أحد المحاور التى سلكها الغرب لمواجهة الإسلام ، ولم يكن المحور الوحيد ولا الوسيلة الوحيدة فى سلوك الغرب . وقد رأينا منذ قليل كيف استخدم الغرب أو الدول الحليفة فى الحرب العالَمية الأولى ، كيف استخدمت كل الإمكانات العربية فى الحرب مقابل وعود كانت تلك الدول تنوى عدم الوفاء بها تجاه العرب بعد أن تضع الحرب أوزارها ويتحقق لها النصر .

وقد سبقت الحرب العالَمية الأولى محاولات خادعة لاحتواء الإسلام كما واكبتها محاولات أخرى خادعة من جانب القُوَى العظمى فى الغرب والشرق معاً (أعنى روسيا البلشفية) .

ولكن المسلمين كانوا على حذر مما يقال لهم . وقد حماهم الله فلم يرتموا فى أتون تلك الظواهر الخادعة كما ارتموا فى أتون الوعود البريطانية إبَّان الحرب ، وقاموا بثورتهم العربية التى اكتشفوا فى النهاية أنهم كانوا يقاتلون أنفسهم ويخطون خطوات سريعة إلى الهاوية ، والمحاولات الخادعة التى نعرض لها هنا فى إيجاز نعرضها حسب أهميتها غير ناظرين للترتيب الزمنى فى عرضها . وهذا يقتضى أن نبدأ بعرض الموقف الروسى بعد قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧

● البيان الروسى :

لم يكن لروسيا القيصرية نصيب فى الوطن العربى حسب اتفاقية « سايكس - بيكو » ، كما تقدَّم . بل كان نصيبها من تركة الرجل المريض « تركيا » خارج نطاق الوطن العربى ، وقبل أن تنتهى الحرب العالَمية الأولى بعام قامت الثورة البلشفية الحمراء فى روسيا وأطاحت بالنظام القيصرى ، وبسطت الشيوعية نفوذها على أرجاء البلاد . وأدرك قادة روسيا « الجديدة » مطامع القُوَى الأوروبية فى العالَم الإسلامى . وبعد تفكير سريع ، والحرب العالَمية الأولى ما تزال معلنة ، قرر البلاشفة أن يسبقوا أوروبا فى احتواء العالَم الإسلامى وأن يتخذوا منه - من العالَم الإسلامى - جبهة فعَّالة لمواجهة أوروبا . وقد ساعدتهم الظروف إذ ذاك ، فقد وضعوا أيديهم على وثائق المعاهدات السرية والعلنية التى عقدها القيصر - قبل الإطاحة به - مع الإنجليز ضد العالَم الإسلامى بعامة ، وضد العالَم العربى بوجه خاص . هذه الظروف هيأت للبلاشفة أصول اللعبة التى يريدون القيام بها . فأعلنوا عن اتفاقية « سايكس - بيكو » ، وأفشوا أسرارها ، وتسببوا للإنجليز وفرنسا فى حرج شديد أمام مَن اصطنعوا معهم الود والإخلاص وجرُّوهم إلى الحرب جراً (العرب) وبذلك بدأوا يغازلون العرب ويأخذون طريقهم إلى قلوبهم .

ثم أصدرت روسيا فى بداية عهدها الجديد بيانين : أحدهما لمسلمى روسيا نفسها ، وكان عددهم حينذاك عشرين مليوناً . وقد جاء فى ذاك البيان :

« لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين - تعنى أوروبا - وإن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين والاستعماريين . يا مسلمى روسيا ، يا مَن خربت مساجدهم ، وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداءً من اليوم مصونة ، لن تمتد إليها يد آثمة . أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية ، دون أن يعوقها عائق . فلكم الحق فى ذلك » (!؟) .

كان هذا البيان موجهاً لمسلمى روسيا ، ومما لا نزاع فيه أن البلاشفة قد نجحوا فيه . فإن من شأن بيان كهذا أن يساعد إلى درجة كبيرة على استقرار الأحوال الداخلية فى ربوع الدولة . وإسكات عشرين مليوناً من المسلمين مكسب رائع جداً للثوّار ، وهم كانوا ما يزالون من أمَسِّ الحاجة إلى توطيد أقدامهم فى البلاد .

*

● وبيان إلى مسلمى العالَم :

ويبدو أن البيان الأول قد أثمر بشكل ملحوظ وسريع ، لذلك أقدم البلاشفة على إذاعة إعلان آخر موجهاً إلى العالم الإسلامى يحمل نفس الطابع الذى أذيع به الإعلان الأول . يقول الإعلان أو البيان الشامل :

« يا مسلمى الشرق : يا إيرانيون ، يا أتراك ، يا عرب . يا مَن مارس المغتصبون القادمون من أوروبا التجارة قروناً بأرواحهم وأموالهم وحرياتهم ، وأوطانهم . يا مَن قسَّم دياركم هؤلاء النُهَّاب الذين أشعلوا الحرب العالَمية ، نعلن لكم :

إن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مُزِّقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية (؟!) .

إن معاهدة تقسيم إيران قد مُزِّقت وأزيلت من الوجود (؟!) .

إن معاهدة تقسيم تركيا ، واغتصاب أرمينية قد مُزِّقت ومحيت من الوجود » [1] .

كان لهذين البيانين أثر بعيد المدى فى ربوع العالَم الإسلامى ، وبخاصة فى تركيا وإيران . وتزايد عدد المؤيدين لسياسة روسيا تزايداً كبيراً وكان من الحتمى

---

(١) الإسلام قوة الغد - تعريب د . شامة - ص ٢١٨

أن تنجح هذه السياسة فى العالَم الإسلامى ما دامت تمنح الحريات المطلقة للشعوب ، وتدفع عنها وطأة الاستعمار الغربى الذى أسفرت التجارب عن مساوئه ووجوهه الكالحة .

* *

● مجلس أعلى للشئون الإسلامية :

وفى يناير سنة ١٩١٨ أنشأت حكومة موسكو لجنة مركزية إسلامية عليا (مجلس أعلى للشئون الإسلامية) للنظر فى شئون المسلمين داخل البلاد . ثم دعمته الحكومة بالمال ووسَّعت من سلطانه وسمحت له بالعمل خارج حدود الدولة ، فعَلاَ البِشر الوجوه ، وزاد نجم روسيا تألقاً فى ديار الإسلام .

وعقد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مؤتمراً فى ديسمبر ١٩١٨ - أى بعد مولده بعام واحد - وفى أثناء عقد المؤتمر تكوَّنت « رابطة تحرير الشرق » ، وجمَّع المؤتمر أعماله فى مذكرات بعنوان : « الشرق والثورة » واهتم أيما اهتمام بالحديث عن منهج روسيا السياسى الخارجى .. وقد أشاد هذا المؤتمر (الموجَّه) بالوحدة الإسلامية ، كما بدأت النيِّات الخفية لروسيا تجاه العالَم الإسلامى تتراءى بوضوح من خلال هذه العبارة التى وردت فى المذكرات المشار إليها :

« كانت الوحدة الإسلامية فى جوهرها حركة دينية وطنية . فالإسلام دين سياسى كان له دور لا يُستهان به فى توجيه أجهزة الدولة السياسية فقد كانت حياة المسلمين الدينية إيجابية فى المجتمع ، تخللها الفكر المناضل السياسى . ولهذا تستطيع الوحدة الإسلامية أن تقوم بنشاطها مرة أخرى ، كحركة دينية استعادت هيئتها وهيبتها ، وتقف للنضال ضد الاستعمار الغربى ، فتعقد تحالفاً بنَّاءً مع روسيا الجديدة التى تناضل فى نفس الميدان » .

ولا نريد أن نقطع عن القارىء موارد التفكير الحر بالمبادرة إلى كشف اللثام عن الوجه الحقيقى لروسيا الجديدة وراء هذه السياسة . فسوف نعود لهذا فيما بعد ، ولكن الذى ندعو القارىء إليه أن يتأمل جيداً الجملة الأخيرة التى وضعناها فوق الخط ، فهى « الثقب » الذى يرى من خلاله كل الخبايا .

وأنشأت « رابطة تحرير الشرق » مدرسة عليا فى طشقند لتخريج القادة والرسل والسفراء فى كل من آسيا وإفريقيا لاستقطاب الشعوب الإسلامية وتوجيههم إلى موسكو وسياستها للاستفادة منها فى النضال المرتقب ضد الاستعمار الغربى .

* *

● باكو - وإزاحة الستار عن اللعبة :

فى أوائل خريف عام ١٩٢٠ دعت الحكومة الروسية إلى عقد مؤتمر عام (عالمى) لشعوب الشرق فى مدينة « باكو » عاصمة أذربيجان الآن ، ووجهت الدعوة إلى ٢٥٠٠ عضو من جميع العالم الإسلامى ، وكانوا يمثلون المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وكان عددهم يُقدَّر بـ ٢٥٠ مليون مسلم . أى عضو واحد لكل عشرة آلاف مسلم .

*

● بريطانيا تتنبه :

أحست بريطانيا بخطورة ما تنتهجه روسيا الجديدة ، فوضعت بعض العراقيل فى طريق نجاح المؤتمر ، فألقت القبض على الأعضاء والمدعوين من الهند ، ووضعت القنابل فى السفينة التى ستنقل الوفد الإيرانى (؟!) ورفضت أن تعطى تأشيرات خروج للأعضاء الذين تسيطر بريطانيا على مقاليد الأمور فى أوطانهم كمصر والعراق والهند .

وقد أحدثت العراقيل التى وضعتها بريطانيا خللاً فى خط سير المؤتمر ، فلم يتمكن من الحضور إليه سوى ١٨٠٠ عضو من إجمالى المدعوين ، وهم ٢٥٠٠ عضو ! ولكنه عدد لا بأس به .. ثم انعقد المؤتمر فعلاً .

*

● وقائع المؤتمر :

باختصار شديد نقول : إن المؤتمر قد أسفر عن واقعتين شديدتى الخطورة كانتا فى مقدمة الظواهر التى أدت إلى ما يمكن أن نشبهه بعملية « فسخ الخطوبة » وهى ما تزال على الأعتاب ، والواقعتان هما :

الأولى : أن الشيوعيين أعلنوا فى المؤتمر أن الشيوعية والإسلام صنوان لأصل واحد . أو هما شقيقان يحمل كل منهما خصائص « الأبوة » وملامحها ، بالإضافة إلى الملامح الخاصة بكل منهما . قال الشيوعيين :

« كما أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى ، الذى يدعو إلى المساواة ، فهو يشبه النظام الإسلامى » (؟!) .

وقد قابل الأعضاء المسلمون فى المؤتمر هذا الزعم بالرفض التام ، وأصيب الشيوعيون بصدمة عنيفة . فهم ما فعلوا من قبل من التزلف والبيانات المعسولة تجاه العالم الإسلامى إلا من أجل « اصطياد المسلمين » ولكن المسلمين فى هذه المرة لم يكونوا كالعرب الذين كانوا قد خُدعُوا بغزل بريطانيا الكاذب وشنُّوا حرباً شعواء ضد أنفسهم قبل أن يشنُّوها ضد تركيا إخوانهم فى الدين .

الواقعة الثانية : كانت روسيا تهدف إلى قيام ثورات تحريرية فى العالم الإسلامى ضد الاستعمار الأوروبى ، وقد ألمحت الفقرة التى نقلناها ووضعنا جزءاً منها فوق الخط فيما مضى إلى هذا المعنى . وأن روسيا ترحب بهذا النوع من الحملات والثورات ، والإسلام ، وهو دين سياسى كما جاء فى الفقرة المشار إليها ، قادر بوحدته أن يقوم شعوبه بهذا الدور . وجاء الشيوعيون إلى المؤتمر ، وأرادوا أن يطرقوا الحديد وهو ساخن فأعلنوا للمؤتمرين أن تلك الثورات المزمع القيام بها فى أرجاء العالم الإسلامى يجب أن تقوم على الفكر الاشتراكى ، وهنا ظهرت نيَّة روسيا الجديدة فى احتواء العالم الإسلامى ، وجعله مسرحاً

لانطلاق الأيديولوچية الشيوعية الحبيسة حتى ذلك الحين أى أن روسيا نظرت إلى العالم الإسلامى إلى أنه « كبش هزيل » (؟!) ثم أرادت أن تسمنه ثم تذبحه وتأكله » (؟!) .

* *

● رد الفعل :

انقسم المسلمون المؤتمرون أمام هذه « اللعبة » قسمين كبيرين ، قسم رحَّب بالفكرة ولم ير فيها أية غضاضة ، وقسم فطن إلى أصول اللعبة فرحَّب بمساندة روسيا للثورات التحررية فى العالم الإسلامى ، وفى نفس الوقت استبعد أن تغذى روسيا تلك الثورات بفكرها الشيوعى . وأن على روسيا أن تقتصر بتوجيهها الفكرى على الثورات التى تقوم بها داخل حدودها . ومعنى هذا أن على روسيا أن تنظر إلى العالم الإسلامى على أنه « صديق كفء » وليس دمية يحركها الشيوعيون متى وكيف شاءوا .

* *

● البديل :

خابت آمال روسيا نسبياً فى مؤتمر « باكو » وتبيَّن لها أن احتواء العالم الإسلامى كله - وفى جرعة واحدة - من أصعب ما يكون إن لم يكن مستحيلاً . وقد أملت عليها هذه الخيبة أن تبحث عن بديل ممكن تحقيقه . فاتجه تفكيرها إلى ثلاثة أقطار إسلامية غير عربية تقع قريباً من حدود روسيا ، وهى : الأفغانستان - إيران - تركيا . ووطَّدت علاقاتها مع هذه الدول كُلاً على حِدة :

● أفغانستان :

كانت أفغانستان واقعة تحت التبعية الكاملة لإنجلترا ، فبدأت روسيا بتشويه سمعة أصدقاء إنجلترا فى أفغانستان ، وبثَّت عملاءها فى داخل البلاد ، وسخت مساعداتها المادية ، وبفضل الدعاية الشيوعية تكوَّنت « حركة الاستقلال

الوطنى الأفغانية » وكانت هذه الحركة هى القشة التى قصمت ظَهْر البعير (إنجلترا) وكان أول انتصار لسياسة روسيا فى أفغانستان على إنجلترا حين دبَّ النزاع بين أفغانستان والهند على مسألة الحدود بين البلدين عام ١٩١٩ . ومُنِىَ الجيش الإنجليزى بهزيمة مُرَّة آنذاك ، ثم مُنيت الدبلوماسية الإنجليزية بهزيمة أشد مرارة حيث قبلت شروط صلح « روالبندى » فى نفس العام ١٩١٩ وأخيراً جنت روسيا ثمار هذه السياسة بتوقيع معاهدة مع أفغانستان عام ١٩٢١ جاء فيها :

« إن الطرفين - روسيا ثم أفغانستان - قد التزما بأن لا يعقد أحدهما مع قوة ثالثة معاهدة تضر بمصالح الطرف الآخر .. وبتدعيم التمثيل الدبلوماسى بين البلدين . وأن تقدِّم روسيا مساعدة مالية كريمة لحكومة كابول ... » إلخ .

وقدَّمت روسيا تنازلات أخرى استقطبت بها ولاء أفغانستان السياسى والاقتصادى . والحق يقال : إن الأفغانيين وقفوا عند حدود معلومة فى علاقة روسيا بهم . فلم يسمحوا للمبادىء الشيوعية داخل حدودها . ولما يئست روسيا من بَثِّ مبادئها داخل الأفغان أخذ عملاؤها يوجِّهون تلك الدعاية إلى الهند .

* *

● إيران :

وخطت روسيا خطوات جبارة لاحتواء إيران . ومن أبرز تلك الخطوات وأسرعها إرسال فرق من الجيش الأحمر إلى فارس ، ورحَّب به الشعب والحكومة معاً ليكون درعاً لهم ضد النفوذ الإنجليزى ، ولكن مناوشات قام بها بعض الإيرانيين حين اكتشفوا المهمة الحقيقية للجيش الروسى فى فارس ، كادت تفيت الفرصة على روسيا ، لولا أنها أسرعت إلى تفاديها .

وقد تمكنت روسيا من عقد معاهدة مع حكومة « فارس » فى شهر فبراير ١٩٢١ قدَّمت من خلالها تنازلات سخية أسالت لعاب الإيرانيين للترحيب بروسيا كصديق وفىّ ، وسند قوى ضد الاستعمار الغربى . فالتزمت بحدود البيان العام

الذى كانت روسيا قد قررت فيه مساندتها للعالم الإسلامى ، وإلغاء كل المعاهدات التى كان القيصر قد أبرمها من قبل ضد حرية البلاد الإسلامية ومصالحها وجعلها مناطق نفوذ بين روسيا وإنجلترا وغيرها من دول الغرب الاستعمارية . كما ألغت بمقتضى المعاهدة كل الديون التى على فارس لروسيا . ووهبتها كل المنشآت الروسية داخل إيران .

* *

● تركيا :

وتقرّبت روسيا من تركيا . وقامت روسيا فى هذا المجال بعمل متواصل لدرجة أن عرضت المساعدة العسكرية برجال جيشها ليساندوا تركيا فى حربها ضد المستعمرين ، ولكن أتاتورك رفض هذا العرض . وأخذت روسيا تصطنع مظاهر الود والتزلف إلى تركيا حتى تمكنت من عقد معاهدة صداقة بينها وبين تركيا عام ١٩٢١ فى ١٦ مارس . . وحاولت روسيا عقب ذلك عن طريق عملائها فى تركيا قيام حزب شيوعى يكون سنداً لها من الداخل . وكل هذه المعاهدات والتنازلات كانت البديل عن احتواء العالم الإسلامى الذى كان هو الهدف الأول لروسيا عقب قيام ثورتها الحمراء ، وهكذا حققت روسيا بعض النجاح فى العالم الإسلامى المتاخم لحدودها .

كما سلكت سياسة شبيهة فى البلدان الإسلامية البعيدة عن حدودها عن طريق عقد المعاهدات والصداقات وقيام الأحزاب الشيوعية داخل البلاد . وما تزال روسيا تنتهج تلك السياسة إلى الآن فى بعض العواصم العربية كلما سنحت لها فرصة الظهور .

وروسيا تعمل جاهدة – الآن (١٩٩٠) – على بَثّ مبادئها فى العالم الإسلامى عن طريق الأحزاب الشيوعية أو عن طريق عملائها ومُلحقاتها الثقافية ونشراتها وكتيباتها التى توزع مجاناً فى أحيان كثيرة ، وعن الصحف الموالية لهم ، أو الزعماء الذين تجندهم لخدمة مصالحها وأيديولوجياتها وتدرب دعاتها

تدريباً ذكياً ليخدموا الشيوعية متسترين وراء شعارات تخفى وجه الشيوعية الخبيث . ووسائلها فى هذا المجال لا تكاد تُحصَى . والهدف الأول والأخير هو القضاء على الإسلام بأى ثمن ؛ لأنه العائق والمنافس الوحيد لسيطرة المبادىء الحمراء .

* *

● أثر هذه السياسة :

من البديه أن سياسة روسيا المعسولة تجاه العالَم الإسلامى لم تحقق المقصود الأهم منها ، وهو احتواء العالَم الإسلامى فكرياً وأيديولوجياً . وأنها رضيت بالبديل الذى أشرنا إليه ..

ومن ناحية العالَم الإسلامى فإنه استفاد بعض الإيجابيات من خلال سياسة روسيا تجاهه . فنمت لديهم موجات من الوعى المبشِّر . كما تخلَّصت بعض الأقطار الإسلامية من وطأة الاستعمار الغربى بفضل مساندة روسيا لهم ، ورُبَّ ضارة نافعة ، كما يقول المثل .

أما من ناحية الغرب ، فقد كان أبرز أثر لسياسة روسيا نحو الشرق الإسلامى أن اضطرت إنجلترا لتعديل سياستها نحو البلاد الإسلامية التى كانت واقعة تحت سيطرة التاج البريطانى . فعدلت عن أساليب الغزو المسلَّح والقمع إلى اتخاذ الوسائل الدبيلوماسية فى رسم سياستها نحو الشرق وفى برامج تنفيذها . وقد استفاد الشرق من هذا الاتجاه فزال عنه كابوس الحروب ، وأفاق نوعاً ما إلى نفسه ، ويمكن إيجاز الموقف الجديد لبريطانيا فى النقطتين الآتيتين :

الأولى : إعتماد بريطانيا على معتمديها السامين فى تنفيذ ما تراه فى البلاد الإسلامية ، والإشراف على برامج التلقى والتنفيذ .

والأخرى : اصطناع عملاء مخلصين لها من الوطنيين يروِّجون لسياساتها ، ويَدْعون بنى وطنهم إلى الإيمان بها واحترامها ، مع توليتهم المناصب المؤثرة فى

القيادة وصنع الرأى العام والإغداق عليهم بالنعم والألقاب الرفيعة البراقة ليكونوا أكثر جذباً لبنى وطنهم [١] ، واصطناع أساليب التمويه والنفاق بشكل عام .

ويمكن كذلك أن نقول إن خصوم الإسلام من زعماء أوروبا ودولهم الاستعمارية عوّلوا أولاً على الغزو العسكرى . وثانياً على الدبلوماسية الهادئة . وثالثاً : على إيجاد عملائهم بصفة مستمرة من أبناء الوطن نفسه . وليس لهذه الوسيلة بديل ، فهى تقع فى نهاية المطاف لأنها أخلد وأبقى ، وأقوى .

ويحضرنى - الآن - معنى كلام لأحد المندوبين السامين لإنجلترا فى مصر قاله فى آخر عهده بمصر - وكان صادقاً فيما قال - وإليك معنى كلامه لا نصه :

« إن الإسلام هو العقبة الكئود التى تتصدى لأى نفوذ أجنبى فى مصر . وإننا سنرحل عن مصر ، ولكن لن يصلح لحكم مصر إلا الذين سيتربون تربية غربية .. سنرحل عن مصر ، ولكننا سنحكم مصر بعد رحيلنا عنها برءوس مصرية ، ومبادىء وقِيَم أوروبية » (؟!) .

والواقع أنهم نجحوا إلى حد بعيد فى تنفيذ المخطط الذى أفصح عنه « كرومر » وأثبتنا معناه فيما تقدم .

* *

● خطبة لورد لويد :

أرخص سلاح يستعمله خصوم الإسلام هو النفاق والكذب والتمويه . وبريطانيا بالذات جنت أينع الثمار من حقل النفاق والخداع ، وما قصة الثورة العربية إبّان الحرب العالمية الأولى ببعيدة عن الذاكرة ، وقبيل الحرب العالمية الثانية علت أصوات بعض الزعماء الغربيين بالتودد إلى الإسلام فى محاولة أخرى للتمويه على المسلمين وكسب رضاهم ولو إلى حين . فقام لورد لويد ،

---

(١) على سبيل المثال منحوا أحمد لطفى السيد لقب : أستاذ الجيل ، وطه حسين : عميد الأدب العربى ، وقاسم أمين : محرر المرأة .

وكان مندوباً سامياً سابقاً لإنجلترا فى مصر . قام هذا « اللورد » بإلقاء خطبة معسولة فى أحد مساجد لندن . وكان مما جاء فيها :

« أعتقد أن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء دون حماية كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، فالإسلام - على ما أعتقد - بإمكاناته الروحية والفكرية هو إحدى القوى الجوهرية فى العالم ، وسوف أعمل - دائماً - كل ما أستطيعه لتوجيه إنجلترا إلى إنشاء علاقات ود وصداقة مع الإسلام فى كل مكان فى العالم ... » (؟!) .

إن أقل ما يوصف به هذا الكلام أنه لعبة مكشوفة من ألاعيب أعداء الإسلام ، وبخاصة : إنجلترا . فهل كان اللورد المحترم صادقاً مع نفسه ومع الواقع حين قال : إن الإمبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء إلا بحماية كاملة من المسلمين ؟!

إن المسلمين ما أضيروا من دولة استعمارية مثلما أضيروا من إنجلترا . فهى التى استنزلت الشعوب الإسلامية ، ووطئت ديارهم وهم لها كارهون . وهى التى وزّعت دولهم وجزأت أوطانهم لإحكام القبضة عليهم ، وهى التى وضعت الألغام فى كل بلد إسلامى كان لها وجود فيه قبل أن ترحل عنه . هذا هو الواقع ، فكيف يكون اللورد المحترم صادقاً فيما قال !! إن الذى جاء فى هذه الخطبة يعتبر إهانة فى حد ذاته للمسلمين ، إذ معناه أنهم « أغرار » لا يميِّزون بين الخداع والصدق ، ويسيرون وراء كل ناعق . وكفى بذلك ضياعاً ..

والحق يقال .. إن المسلمين كانوا قد عرفوا ألاعيب بريطانيا وحيلها ، فقابلوا هذه الخطبة بوعى مشرِّف ، وكثرت التعليقات الناقدة لها والمتسائلة عم تريد بريطانيا من المسلمين بمثل هذه المراوغات .

والشئ بالشئ يُذكر . فموسولينى الزعيم الإيطالى حاول - كذلك - شراء سرائر المسلمين قبيل الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٣٣) ، وأعلن فى رحلة له إلى ليبيا : أنه صديق الإسلام والمدافع عنه ؟!

وإن المرء ليتساءل سواء أكان مسلماً أو غير مسلم : كيف يكون موسوليني صديقاً للإسلام ومدافعاً عنه . وكانت أوروبا كلها - وما تزال - قد أجمعت على ضرب الإسلام وشل قواه في الحياة ... ؟!

* * *

● خداع نابليون :

لست أدري لماذا كان أعداء الإسلام والمسلمين في بداية اتصال أوروبا بالشرق الإسلامي . لست أدري لماذا كانوا يفترضون في المسلمين أنهم « مهابيل » أو « سذج » يمكن إغراؤهم والتغرير بهم . فروسيا وإنجلترا وإيطاليا والبرتغال من قبل عاملت المسلمين بهذا الأسلوب . وقد ضربنا الأمثلة بالنسبة لروسيا وإنجلترا وإيطاليا منذ قليل . أما البرتغال - دولة الاستعمار العجوز - فقد تسللت إلى مخادع البلاد الإسلامية للوقوف على أسرارها والاستفادة منها في فرض التحكم على تلك البلاد ، وسمَّت هذا التجسس والخداع كشوفاً علمية . وانطلت هذه الخديعة على المسلمين . ومن المعروف أن الذى سهَّل مهمة « فاسكودى جاما » في رحلته إلى جزر الهند الشرقية (أندونسيا) رجل عربي مسلم يدعى : « أحمد بن ماجد » . وأن خرائط علماء المسلمين عن البحار والمواقع هي التي قد فتحت كل المغاليق للرحَّالة البرتغالي « جاما » .

وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يمنع فرنسا أن تسير فينا نفس السيرة . فنحن قوم كنا لا نمانع أن نُلدغ من الجحر الواحد مرات . وكنا - ولعل بعضنا ما يزال - نحسب كل أصفر ديناراً حتى ولو كان الاصفرار لون عقرب أو أفعى ؟!

أجل .. ما الذى يمنع فرنسا من هذه السيرة ؟ فبطلها « العظيم » نابليون بونابرت حين جاء بحملته إلى مصر عام ١٧٩٨ فما كان يضع أقدامه على أرض عروس الثغر « الإسكندرية » حتى يوجه منشوراً إلى القاهرة وضواحيها . يقول نابليون :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له في

مُلكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير ، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يُعرِّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق [1] الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق المِلّة الفرنساوية .

قد قيل لكم : إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم . فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين : إننى ما قدمتُ إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه ، والقرآن العظيم .. (؟!) .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة ... وأعيان البلد .. قولوا لأمتكم : إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ... » (؟!) .

وانطلت هذه الخديعة ، وصدَّق الناس أن نابليون مسلم ، وأن الفرنساوية الذين جاءوا معه - كذلك - مسلمون ؟!

وانطلت الكذبة على صاحبها نابليون فأطلق لحيته وحمل المسبحة بين أصابعه ، وغيَّر اسمه إلى « عبد الله » ؟!

وانفتحت له المغاليق فى مصر ، لدرجة أن نابليون كان يرأس مجالس العلماء .. ؟ يا للعار ، بل يا للهول ؟!

* *

● غياب التوجيه الإسلامى :

تلك المواقف الخادعة التى قصصناها ، وإن قوبل بعضها بشئ من الريبة والوعى فإن سَلَفنا الأدنين قد انخدعوا ببعضها وغرقوا فيها إلى الأعناق ، كما حدث فى الثورة العربية عام ١٩١٦ وكما حدث أمام نابليون مصر ، وألاعيبه

(١) يقصد بـ « الصناجق » : المماليك ، الذين كانوا يُضيِّقون الخناق على الفرنسيين فى مصر والشام .

المكشوفة فى بداية الأمر .. والسبب فى هذا كله أن المسلمين - العرب - كانوا كالعيس التى أهلكها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول - كما يقول الشاعر .. والماء الذى كان محمولاً على ظهور المسلمين هو القرآن وأحاديث رسوله ﷺ ، وما فيها من توجيهات مفيدة جداً فى مثل هذه المواقف .

أين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

وأين كان العمل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (٢) .

وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « المُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ » ؟!

فأين ذهب كياسة المؤمن وفطنته يا تُرَى ؟!

وأين كان العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين » ؟!

إن العربى فى الجاهلية كان ذا وعى وحنكة بمثل هذه المواقف وقد سجَّل شاعرهم هذا بكل وضوح فقال :

غيـــرُ لاهٍ عداك فاطـــرح اللهو ولا تغتـــرر بعـــارض سِلْـــم

وقال آخر فأصاب :

إذا رأيتَ نيوب الليث ضاحكة فلا تظنـــنَّ أن الليث يبتســم

لقد لعبت المحاولات الخادعة لاحتواء العالم الإسلامى فصلاً طويلاً فى تمثيلية الدهاء والمكر ، التى وضعها وأخرجها وأجاد حبكتها دهاة الغرب ، وسماسرة الحيل ، وأضير الإسلام والمسلمون من جرائها . ولن يمحو عار ما فات سوى

---

(١) النساء : ٧١ (٢) الحجرات : ٦

الوعى والتنبه ، والحذر من تكرار أمثاله ، فما أكثر أصدقاء اللسان للشعوب الإسلامية - الآن - وهم لا يتورعون من استعمال التمويه والخداع إذا أتيحت لهم الظروف .. فلنكن أكفاء لأعدائنا ، ولأصدقائنا على حدٍ سواء ، ليحترمنا الصديق ، ويخافنا العدو . فلا فضل للإنسان فى الحياة : إذا طمع فيه عدو ، أو استخف به صديق ..

* * *

الفصل الخامس

زرع إسرائيل

من أكبر العوائق التى وضعتها أوروبا فى طريق الإسلام قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين . إنها - أوروبا - نجحت إلى أبعد حدود النجاح حين أقدمت على هذه الخطوة ونفذتها ورعتها وحمتها من كل سوء . وإذا نحينا جانباً مشكلة تشريد الشعب الفلسطينى العربى المسلم ، تشريده من أراضيه ودياره ووطنه ، والإلقاء به فى مهب الريح بلا مأوى ولا ملاذ . إذا نحينا هذه المشكلة جانباً نجد أنفسنا أمام مشكلات أخرى أوجدها قيام هذه الدولة ، وتتلخص تلك المشاكل فى الأعباء الضخام التى ناءت بحملها ثلاث دول إسلامية عربية مجاورة لإسرائيل وهى : مصر ، وسوريا ، والأردن . أعباء أقعدت هذه الدول عن بناء نفسها ، واستنفدت مواردها المادية والمعنوية لأمر يراد وخطط تدبر . إنه الثأر من الإسلام نفسه كوسيلة من الوسائل التى وضعتها أوروبا لتحطيم القوة الإسلامية ، وشغل المسلمين عن أن يصبحوا قوة عالمية لها وزنها إذا ما تُركوا وشأنهم . والإجابة على السؤال الآتى تكشف عن خطوط المؤامرة الأوروبية ضد الإسلام والسؤال : كيف قامت دولة إسرائيل على أرض المسلمين التى ظلت فى أيديهم أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؟ وهى لم تكن خلاء . بل كان فيها شعب مسلم أصيل ؟!

والجواب .. حديث ذو شجون :

فى مأساة فلسطين تجمّعت كل ألوان الظلم والقسوة على أحد طرفى النزاع (العرب) ، وانحازت كل مشاعر الود والحنان والمحاباة ، بل والتدلل ، إلى جانب الطرف الآخر (اليهود) ، وتآمرت أوروبا كلها ، وروسيا ، على بلد إسلامى ، وشعب مسلم ، بل وعلى الإسلام نفسه .

وكان اليهود موزّعين على دول أوروبا بنسب متفاوتة ، وموجودين بروسيا وغيرها من دول الكتلة الشيوعية ، بنسب متفاوتة كذلك ، وعاش بعضهم - بعد الحرب العالمية الثانية - لاجئين فى معسكرات وخيام خاصة بهم ، وصاروا عبئاً ثقيلاً على الدول المقيمين بها ، رغم أن اليهود كانوا قد شاركوا فى صنع الحياة للدول التى كانوا مواطنين بها ، وبخاصة فى مجال التقنية والاقتصاد . وكانت لليهود عامة مشكلة أو قُلْ أحلام لم تفارقهم لحظة ، ولا وهم نيام ، ولا وهم أيقاظ ، تلك الأحلام رضعوها مع ألبان أمهاتهم من أمهم الكبرى : « التوراة » وما أضيف إليها من الأسفار المقدّسة وغير المقدّسة .

إنها حكومة الكون أو المملكة الكونية والسيادة على شعوب الأرض كلها لا فرق بين مسلم وغير مسلم . وامتلاكهم لخزائن المال عن طريق الربا الفاحش ، واتجارهم فى الذهب جعل لهم ثقلاً ملحوظاً فى الأقطار التى يعيشون فيها ، وبخاصة فى فرنسا ، وإنجلترا ، ثم أمريكا حين بدأت تأخذ مكانها بين القُوَى العظمى ، وتمكنوا أن يحصلوا على صفة « المواطنة » فى دول أوروبا ، وتولى كثير منهم مناصب حسّاسة فى تلك الدول : سياسية ، وعسكرية ، وعلمية ، وإعلامية .. إلخ .. إلخ

ومكّنتهم هذه « المزايا » من ممارسة الضغوط على أجهزة السياسة العليا فى دول الغرب العظمى . وفى روسيا كذلك بعد الثورة الحمراء ..

ومن خلال هذه « المؤثرات » أخذوا يخطون خطوات جادة نحو تحقيق الأمل

المنشود ، وهو قيام وطن قومى لهم فى فلسطين . أو قيام دولة يهودية تجمع شتاتهم . وتحقق لهم هذا الأمل من خلال بداية على يد بريطانيا ، ثم رعاية لاحقة على يد أمريكا . وقامت دولة إسرائيل .

* *

● توطين مُشَرَّدين .. وتشريد مُوَطَّنين ؟!

هذا هو ملخص مأساة فلسطين : توطين مُشَرَّدين هم اليهود ، وتشريد مُوَطَّنين هم شعب فلسطين العربى المسلم .

بدأت فصول المؤامرة على يد إنجلترا بوعد « بلفور » المعروف . وأرادت إنجلترا أن تبر بوعدها فأصرَّت عند توزيع تركة الرجل المريض (تركيا) أن يكون جنوب سوريا (فلسطين) من نصيبها . وغالبت فرنسا على هذا التوزيع فرضيت فرنسا .

وأخذ اليهود فى الهجرة إلى فلسطين لا من بريطانيا وحدها ، ولكن من جميع الدول التى كان يستوطنها اليهود غرباً وشرقاً . وصحا العرب هذه المرة لأصول اللعبة أو عرفوا خيوط المؤامرة ، فقد أزعجهم من قبل العلم بوعد « بلفور » فثاروا ، ولكن المسكنات لدى « الدهاة » كانت جاهزة . فتجرعها العرب على مضض . ومن تلك المسكنات ما كان يقوم بصنعها اليهود أنفسهم ، فقد قام الدكتور « وايزمان » اليهودى المعروف ذو الجهود النشطة فى قيام الكيان الصهيونى . قام بزيارة للملك فيصل حينذاك وطمأنه بأن هجرة اليهود إلى فلسطين لا ضرر يُخشى منها على العرب . إنهم ما جاءوا إلى فلسطين – يعنى اليهود – إلا لترشيد العرب ولنقل أصول الحضارة الحديثة إليهم . وابتلع صاحب الجلالة هذا المسكّن . وغاب عنه وعن أمثاله قول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

* *

(١) النساء : ٧١

● حلول عربية :

وحين تحركت دول أوروبا لتمكين إسرائيل - بكل إخلاص - على أرض فلسطين ، وإعلان قيام الدولة اليهودية ، عالجت الأمر فى الظاهر بأنه حَلٌّ لمشكلة اللاجئين اليهود ، وكثير منهم كان يقيم فى معسكرات عقيب الحرب العظمى . وصدَّق العرب - مرة أخرى - ألعوبة الدهاة ، فما كان منهم إلا أن تقدَّموا بحلول مخلصة من بنات أفكارهم . وقدَّموا مذكرات شرحوا فيها موقفهم ثم تقدَّموا بطلبين لإنهاء مشكلة اللاجئين اليهود ، وهما :

١ - يُطلب من البلاد الأصلية أن تقبل إعادة اللاجئين اليهود الذين أُخرجوا منها (يعنى فى أثناء الحرب) وأن تُقدِّم لهم كل المساعدات الممكنة من أجل استيطانهم .

٢ - أن تستوعب بلاد الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة - كل بالنسبة لمساحتها ومواردها الاقتصادية ، ودخل الفرد فيها وعدد السكان والعوامل الأخرى المتعلقة بهذا كله - جميع اللاجئين اليهود ، ومَن لا مأوى لهم ممن لا يمكن إعادتهم إلى مواطنهم الأصلية » .

حلول إنسانية معقولة كما ترى . ومعنى هذا أن العرب - باعتبارهم أعضاء فى هيئة الأمم - كانوا على استعداد أن يقبلوا حصتهم من لاجئى اليهود حسب الخطة التى وضعوها . وعند التصويت على المشروع العربى وافق عليه ١٦ عضواً ، وصوَّت ضده ١٦ عضواً ، وامتنع عن التصويت ٢٣ عضواً ، وتغيَّب عن جلسة التصويت عضوان . وباء المشروع بالفشل لا لشئ إلا لأن « الدهاة » لا يريدونه . وإنما يريدون : « فلسطين » وطناً لليهود ؟!

والحق يقال : إن الديبلوماسية العربية كانت يقظة إلى أبعد الحدود وبذلت جهوداً ملموسة للحفاظ على كيان فلسطين ، بَيْدَ أنهم لم يكونوا يملكون إلا سلاح الكلمة . وليس لهم ثقل فى هيئة الأمم التى كانت تسيطر عليها أمريكا وبريطانيا والدول العظمى

كانت أوروبا لا تريد إلا تقسيم فلسطين ، وقد ناضل العرب نضالاً ديبلوماسياً رائعاً للحيلولة ضد إمضاء قرار التقسيم . واحتُجوا بالمواثيق الدولية وبالعوامل الجغرافية والتاريخية والسياسية . ووقفوا وقفات عادلة وقوية . ومع هذا فقد تم قرار التقسيم ، وتدفقت الهجرات اليهودية إلى فلسطين ، وأعلنت إسرائيل قيام دولتها . وأخذت تعتدى على عرب فلسطين ، فتوقع بهم المذابح ، وتطردهم من أراضيهم ومنازلهم وتُلقى بهم فى الأراضى « البور » فإذا استصلحوها وعمروها جاء اليهود فطردوهم منها إلى أماكن قاحلة غيرها ... وهكذا .

وكانت بريطانيا تشدِّد على عرب فلسطين وتمنع تسليحهم بأى نوع من أنواع السلاح . بينما تتساهل مع اليهود فتتركهم يتسلحون بما شاءوا ، بل إن كتائب اليهود كانت تتدرب على فنون القتال تدريبات ظاهرة للعَيان فى معسكرات تدريب مخصوصة . كل هذا تراه بريطانيا فلا تمنعه ، بل هى تشجعه . هذا بالنسبة لليهود فحسب ؛ لأنهم مؤهلون للقيام بمهمة خطيرة لا ضد الفلسطينيين فحسب ، بل ضد كل العرب ، وضد الإسلام ، ذلك العملاق المخيف .

تم قرار التقسيم ، وتم إعلان دولة اليهود ، واشتد اضطهاد اليهود للعرب المسلمين ، والعرب المسيحيين معاً . وغضب العرب لهذا كله ، ولما دخلت الجيوش العربية فلسطين احتجاجاً على الأوضاع الظالمة التى لحقت بفلسطين نفسها ، وبسكانها ، وبالعرب جميعاً ، وعلى الرغم من الخيانات التى وقعت ، والأسلحة الفاسدة التى ظهرت فى أيدى الجنود العرب ، كانت القُوَى المساندة لإسرائيل ، والمزوِّدة لها بالمال والسلاح إذا أحست بتفوق العرب على إسرائيل سارعت لعقد هدنة بين الطرفين المتقاتلين . لكى تسترد إسرائيل أنفاسها ، وتعيد تنظيم قواتها ، وتحصل على مزيد من السلاح .

وكانت النتيجة أن شُرِّد الشعب الفلسطينى من وطنه التاريخى العريق . وجىء باليهود من مختلف الدول فاستوطنوا فلسطين : وطنيون يُشَرَّدون ، ومشرَّدون يُوَطَّنون ؟! نعم هذا هو منطق القوة والظلم ، وإذا كانت إنجلترا قد ألقت بكل ثقلها لمساندة اليهود داخل فلسطين فإن أمريكا ألقت ثقلها لمساندة

إسرائيل فى المحافل الدولية وحتى روسيا كان لها نصيب ملحوظ فى مساندة إسرائيل . قُوَى عظمى تحالفت مع الشيطان من أجل إسرائيل . وقد وصف بعض سياسى الغرب سياسة أمريكا فى تلك الأثناء بأن أمريكا لم تكن تفكر فى شئ إلا فى توطين اليهود على أرض فلسطين ..!!

وبقيام دولة إسرائيل ، وتوسعاتها المستمرة بالإغارة على أراضى العرب ، واحتلال أجزاء حسَّاسة منها ، وبعدوانها المستمر على الدول العربية « الطيبة » وعلى خيام اللاجئين ، بهذا كله ضمنت القُوَى المعادية للإسلام وضع آفة قاتلة فى جسم الأمة العربية الإسلامية تهدد أمنها ، وتمنع تقدمها ما استطاعت .

فمثلاً مصر - الدولة العربية الكبرى - تعرَّضت لخوض أربع حروب مع إسرائيل أودت بخيرة شبابها ، واستنفدت مواردها ، وأضير اقتصادها واحتاجت إلى التعامل بالربا الفاحش مع سادة إسرائيل ، واضطرت مصر أن تمنح الدول صاحبة الديون شيئاً من الولاء السياسى منعها من التمتع بالسيادة الكاملة على أراضيها ، وبالتخلى عن واجبات دولية مهمة تجاه شقيقاتها الدول الإسلامية والعربية .. مصر - هذه - لو لم تخض تلك الحروب مع إسرائيل . لو كانت وجُهت نفقاتها الباهظة على الحروب الأربع فى إصلاح شأنها الداخلى فاستصلحت أراضيها البور ونُمّت مواردها الزراعية والصناعية ، لو كان هذا قد حدث لأنتجت ما يكفيها لأمنها الغذائى ، ولصدَّرت ما يزيد عن حاجتها ، ولملكت أمرها بيدها ، ولصارت كفؤاً لأرقى الدول المعاصرة . ولكنها منيَت بإسرائيل فتخلَّفت عن الركب : جائعة البطون ، عارية الظهور ، حافية الأقدام . ومَنْ كان هذا حاله فلا مناص له من أن يدور فى فلك غير فلكه . ومَنْ وجد الإحسان قَيْداً تقيَّدا ؟!

وليس هذا حال مصر وحدها فلها نظائر وشركاء فى الفقر والاستدانة ، إن أوروبا تتبع مع العالم الإسلامى - منذ حين - السياسة التى كان يريد منافقو المدينة المنوَّرة أن يتبعوها مع المهاجرين . وقد صاغوا تلك السياسة فى عبارتين نستأذن القارىء فى ذكرهما :

العبارة الأولى تقول : « سمِّن كلبك يأكلك » ؟!

والعبارة الثانية تقول : « جوِّع كلبك يتبعك » ؟!

وأوروبا تعمل - دائماً - على إجاعة العالَم الإسلامى بعامة والعربى بخاصة ، لتضمن تبعيتهما لها ، لكى يظل العملاق (الإسلام) فى نوم عميق .

* *

● ثلاثة مقاصد لإسرائيل :

أما إسرائيل فلها ثلاث أمنيات فى الحياة ، تحققت إحداها وبقيت اثنتان :

١ - قيام دولة لإسرائيل على أرض فلسطين .. وقد تحققت .

٢ - قيام دولة لإسرائيل من النيل إلى الفرات .. وهى تعمل الآن لتحقيقها .

٣ - قيام حكومة كونية يكون اليهود هم الأسياد فيها ، وغير اليهود هم الأرِّقاء والعبيد . وهذا هو الأمل الأكبر الذى يراود أحلام اليهود . وقد وعدتهم به توراتهم المحرَّفة وكتبهم المقدَّسة ، واللّه من ورائهم محيط .

* *

● لا .. لن يكون :

دولة إسرائيل قائمة على التوسعات والأطماع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت قُوَى الغرب تنظر إلى « فلسطين » على أنها لا أقول « مهجر » وإنما أقول « مصفاة » لليهود الموزعين فى أوروبا لكى يتجمعوا فيها . يؤكد ذلك تصاعد أرقام المهجَّرين إلى فلسطين من اليهود فى السنوات الآتية :

ففى سنة ١٩٣٣ جاء إلى فلسطين ٣٠ ألف يهودى . وفى سنة ١٩٣٤ ارتفع الرقم إلى ٤٢ ألفاً ، وفى سنة ١٩٣٥ وصل الرقم إلى ٦١ ألفاً .. (؟) .

وتقول الحقائق إن عدد اليهود الذى دخلوا فلسطين خلال فترة الانتداب البريطانى وقبل إعلان قيام الدولة اليهودية بلغ أكثر من ٦٠٠ ألف يهودى ..

وقد أبدت دولة قبل الحرب العظمى الثانية ، وهى بولندا ، رغبتها فى أن تتخلص كل سنة من ٧٠ ألف يهودى من يهودها بالهجرة إلى فلسطين ، كما تقدَّم الرئيس الأمريكى لحكومة بريطانيا أن تسمح بدخول ١٠٠ ألف يهودى من يهودها إلى فلسطين ، وفى نفس الوقت أصدر مجلس الأمة الأمريكى حينذاك قانوناً يحظر على أى يهودى دخول الولايات المتحدة ؟! إن أوروبا كانت ترى فى اليهود شراً يجب إبعاده منها . وإلى أين ؟ إلى فلسطين العربية المسلمة . فما هو سر تجمع اليهود فى فلسطين يا تُرى ؟ هل هو البقاء فى نصيبها بمقتضى قرار التقسيم ؟ أم لها نيَّة أخرى ؟

بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق حين سُئِل وهو يتحدث عن هجرة اليهود إلى فلسطين : هل سيقيم اليهود القادمون داخل الحدود التى أقرها قانون التقسيم لليهود ؟ أجاب : « أشك فى ذلك . وما كنا لنخوض هذه الحرب للاكتفاء بهذه الدولة الصغيرة » (؟!) .

وكان الرجل صريحاً كل الصراحة حين أجاب على السؤال . والخطوة التى ترتقبها إسرائيل الآن قيام دولة من النيل إلى الفرات (؟!) .

وهذا رهن بالأوضاع العربية الإسلامية .. والمستقبل بيد الله . فإذا أعدَّت الأجيال القادمة العُدَّة لأطماع هذا العدو ، وتحررت من التبعية للغرب . وأقامت أمرها على كتاب الله وسُنَّة رسوله ، وأنتجت بيدها أساسيات حياتها فإن الأمل كبير فى تصحيح الأوضاع الراهنة .. ووقف العدو عند حدوده حتى يفعل الله ما يريد .

إن الذى أضاع فلسطين هو ضعف العرب والمسلمين ، وصيرورتهم دمىً متحركة فى أيدى عدوهم . فهل تأخذ الأجيال القادمة العِبرة من الماضى القريب ، والحاضر القائم ؟!

أما الحكومة الكونية التى تحلم بها إسرائيل ، ووعدتها بها توراتها فلا ولن تكون أبداً ، لأن الوعد بها كاذب . فهو من خيالات أحبارهم ورهبانهم الذى حرّفوا التوراة وأرادوا من هذا الوعد ثقة اليهود فى أنفسهم ، بعد أن دمرتهم أحداث التاريخ القديم والجديد . والذى سوف ينفذ فيهم هو وعيد القرآن : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ﴾ (١) لأن وعيد القرآن من كلام الله وهو أصدق القائلين . ووعد التوراة خرافات وأوهام .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٧

الفصل السادس

المبيدات البَشرية

لا تعجب أيها القارىء الكريم حين تقرأ هذا العنوان : « المبيدات البَشرية » فقد يقفز إلى خاطرك سؤال : ما علاقة المبيدات البَشرية بموضوع هذه الدراسة التى نرصد فيها مواجهة أوروبا للإسلام والمحاور التى تشن من خلالها الحرب عليه ؟

فالواقع أن سلاح المبيدات البَشرية واحد من أسلحة أعداء الإسلام ، ومناسبة الحديث عنه عقب الحديث عن زرع إسرائيل فى جسم الأمة العربية الإسلامية مناسبة صحيحة سنرى صلتها القوية بها بعد قليل . والمقصود من المبيدات البَشرية هى تلك « المدمرات » التى عُرفت فى وسائل الإعلام العربية بـ « السموم البيضاء » التى ذاع خطرها - الآن - ذيوعاً واسعاً .

وأعداء الإسلام سلكوا فى محاربته عدة وسائل . منها ما يسمى الآن بالغزو الفكرى وسيأتى الحديث عنه تفصيلاً فى الفصول القادمة .. أما المبيدات البَشرية فنريد أن نقدِّم جملة قصيرة من الحديث عنها هنا لنفرغ لما سواها .. وهناك فرق جد واضح بين الغزو الفكرى وبين المبيدات البَشرية . ففى الغزو الفكرى يحرص أعداء الأمة على إفساد عقيدة الشباب المسلم وأخلاقه وسلوكه معَ الإبقاء على سلامة جسمه وعقله . أما فى المبيدات البَشرية فيتناول الفساد صحة الشباب وعقله ، ويفسد تبعاً لذلك عقيدته وخُلُقه وسلوكه .

هذه المبيدات تمسخ متعاطيها مسخاً وإن بقى فى هيكل الإنسان ؟!

ولكنه إنسان مريض تسرى فى جسمه وعقله آفات تهدمه هدماً وتُفقده رشده وتوازنه . ويصبح بين أمرين أحلاهما - إن كان فيهما أحلى - مُرٌّ شديد المرارة ..

فإما أن يتعاطى ما تعوَّد تعاطيه ، وهذا يكلفه ما لا طاقة له به من المال . وإما أن لا يمكنه تعاطى ما اعتاد . وفى كلتا الحالتين فهو يفقد رشده ووعيه ، أو يفقد توازنه . وتحت تأثير هذه المبيدات لا يتورَّع المدمن من فعل أى شئ ، ولو كان زناً بالمحارم ، وقتلاً لنفس حرَّم اللّه قتلها ، أو سرقة لمال أو نهباً واغتصاباً . ويصاب بمرض الهلوسة ويسير يتطوَح إن سار . ويخرف عقله ، ويهذى لسانه ، وتنطلق « الريالة » من فمه خيوطاً وسَيْلاً . منظره مخيف ، بل ممسوخ مسخاً قبيحاً . إنه ميت وإن كان فيه نَفَسٌ يتردد ، وقلب ينبض ، وأذن تسمع ، وأعين تنظر ، وأيد تبطش ، وأرجل تخطو . كائن محكوم عليه بالفشل والهلاك . فماذا بقى فيه من إنسانية وحياة ؟

لا شئ .. كما قال زهير ابن سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبــــق إلا صورة اللحم والدم

هذه المدمرات والمبيدات البَشرية تنتشر - الآن - بين الشباب المسلم ، وبخاصة طلأب الجامعات . فما المقصود منها يا تُرى ؟ هل المقصود الكسب المالى لتجار المخدرات فى الداخل . أما أن يكون الكسب المالى لليد الأولى المحرِّكة لهذه الآفة هو المقصود فلا ثم لا . وحتى لو كان داخلاً فى حساباتهم فإنه ليس الباعث على تحريك هذه الآفات . وإنما الباعث هو القضاء على الأجيال الجديدة للأمة . وفى تقديرهم أنه سيأتى يوم لن يكون فى البلاد الإسلامية - وفى مقدمتها مصر - شباب يحملون السلاح لدفع أخطار تأتى من الخارج ، ولا جهاز إدارى فى الداخل يحمل أمانه حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ولا ربة بيت ترعى النشء حق الرعاية . ولا عائل أسرة يقوم بشأنها ، ولا علماء يحملون

أمانة الدعوة والتبليغ ، ولا قدوة حسنة يترسم خطاها الشباب ، ولا قادة يرعون مصالح الأمة فى الداخل ، ويزودون عنها فى المحافل الدولية .

ويوم يأتى ذلك اليوم فلا عقبات تقف فى طريق أعداء الأمة إذا أرادوا أن يجوسوا خلال الديار ، يستعبدوا أهلها وترفرف أعلامهم على ربوعها : « غنيمة باردة هنيئاً لغانميها ؟! ومائدة شهية مريئاً لآكليها » .. ؟!

ونسأل الآن سؤالاً : لماذا استفحل داء المبيدات البَشرية فى البلاد الإسلامية وفى مقدمتها مصر ، فى العشر السنوات الأخيرة ؟ من قبل كان « الأفيون » هو البضاعة السائدة فى سوق التلف والإتلاف . والآن يكاد يتوارى المدمر التقليدى - الأفيون - بعد أن نافسه فى أسواق الشيطان بدائل أخرى أفتك وأقتل ؟

ونعيد السؤال مرة أخرى مع شئ من التحديد : لماذا استفحل داء المبيدات البَشرية فى مصر الإسلامية وأم العروبة خلال السنوات الأخيرة ؟

والإجابة إذا أردنا الإنصاف ، وتسلحنا بالشجاعة والصراحة معاً . السبب هو الصلح مع إسرائيل . هو سبب الوباء والبلاء والمحنة . فقبل الصلح مع إسرائيل ، ومع يقظة سلاح الحدود المصرى كان الخطر يسيراً .

أما الآن .. وقد تصالحنا مع إسرائيل ، وطبّعنا علاقاتنا معها . وفتحنا لهم منافذ الدخول إلى مصر : بَرّاً ، وبحراً ، وجواً . فقد أمن القوم على أنفسهم وعلى بضاعتهم . ومنهم ديبلوماسيون يدخلون آمنين ، ولا ندرى ماذا يحملون فى حقائبهم الديبلوماسية المصونة المقدسة ؟!

إسرائيل لا ترعى فى المسلمين عهداً ولا ذمة ، هكذا يُعلّمنا القرآن الذى تركناه وراءنا ظهرياً فى المعاملات الدولية . وفى غير المعاملات الدولية .

قد تقول : إن مشكلة المخدرات منتشرة فى دول الغرب ، ومنها أمريكا وهى دعامة إسرائيل الآن فى كل صغيرة وكبيرة ، فهل إسرائيل هى التى تقوم بزرع الألغام فى أمريكا كما تقوم بزرعها فى مصر ؟

والجواب : نعم . ولإسرائيل هدف - هنا - وهدف - هناك - أما هدفها هنا فهو التمكن من قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات ، وأما هدفها - هناك - فهو قيام الحكومة الكونية التى تسود فيها إسرائيل على جميع شعوب العالم : مسلمين ، ونصارى ، وملحدين . وهى تعمل الآن على جميع الجبهات لتثأر لنفسها من جميع « الأمميين » وهم الشعوب من غير اليهود . ولا ننس أن دول أوروبا كانت تضطهد اليهود الموجودين بها اضطهاداً شديد المرارة قبل أن تقيم أوروبا دولة إسرائيل على أرض الإسلام « فلسطين » ، وإسرائيل لا ترهب غير القوة . وحين تلمس ضعفاً فى دولة ما - وإن كانت أمريكا - فسوف تنقض عليها وتبتلعها ، ولن تخشى لومة لائم .

وكأن الشاعر الذى قال :

شجاع إذا ما أمكنتنى فرصة　　　　وإن لم تكن لى فرصة فجبان

كان يتحدث بلسان اليهود .

إن حرب « المبيدات البَشرية » الموجَّهة ضد الشباب المسلم الآن جديرة بأن يقف أمامها المسلمون وقفة صادقة وحاسمة ، لا تعتمد على برامج التوعية بين الشباب فحسب . بل عليها أن تُحكم الرقابة على منافذها الدولية ، وموانيها البحرية ، وحدودها البَرِّية ، ولو أدَّى ذلك إلى توزيع فِرق كاملة من الجيش المسلح . أما الاعتماد على التوعية مع عدم إحكام الرقابة على الوافدين فغير كاف . فعلينا أن نجفف منابع الفساد أولاً مهما كلَّفنا الأمر ، وإلا وقع علينا قول الشاعر الحكيم :

لا تقطعن ذَنَبَ الأفعـى وترسلها　　　　إن كنت شهماً فأتْبِع رأسها الذَنَبا

* * *

الفصل السابع

التبشير والمبشرون

استخدم أعداء الإسلام سلاحين خطيرين – غير ما تقدَّم – فى مواجهتهم للإسلام ، أو هما جيشان لهما ملمس الحرير ، وسم الأفاعى الرقش . وهما المبشِّرون وتلاميذهم المستشرقون . ونقدِّم الحديث هنا عن المبشرين ؛ لأنهم أسبق وجوداً من المستشرقين ، وأساتذه لهم فى نفس الوقت .

وعند الحديث عن المبشِّرين نشير إلى أن هذه التسمية « المبشِّرون » إحدى خطط التمويه التى يتبعها الغرب فى الكيد للإسلام . فالبشارة لا تكون إلا فى الخير ، والمبشِّرون الذين نتحدث عنهم أبعد ما يكونون عن الخير . فالمبشِّر فى الأصل هادٍ وداعٍ إلى الحق . والمبشِّرون هؤلاء إنما هم دعاة فتنة وضلال وباطل . وسموا « مبشِّرين » للتضليل والتمويه وإخفاء وجوههم الحقيقية القبيحة .

والوصف الذى ينطبق عليهم تمام الانطباق أنهم : مضلِّلون خادعون دُعاة زيف وباطل . فهم – إذن – المضلِّلون الخادعون ، وليسوا مبشِّرين ، وبينهم وبين « البشارة » ما بين الظلام والنور ، وما بين الأرض والسماء . هذا ما يجب أن يفطن إليه القارىء من ألاعيب التمويه والخداع .

* *

● أهداف التبشير :

من الأمور التى يجب أن نعيها دائماً فى موضوع التبشير أن له هدفين كبيرين سنذكرهما بعد قليل . وأن اليهودية والنصرانية تلتقيان عند هدفٍ واحدٍ منهما – سيأتى بيانه – وتنفرد النصرانية بالهدف الآخر : وهدفا التبشير الكبيران هما :

الأول : هدمى تدميرى ، ويُراد منه إما القضاء على الإسلام كليَّةً - إذا أمكن وقوع هذا القضاء . أو تشويه حقائق الإسلام وإدخال الريب فى نفوس المسلمين فى كل ما يتصل بالإسلام . وحول هذا الهدف تلتقى اليهودية والنصرانية معاً . وجهودهما فيه مشتركة . واليهود قد حاولوا النَيْل من الإسلام من هذا المحور منذ ظهور الإسلام ، وكما مَرَّ فإنهم وضعوا كثيراً من الدسائس والتحريفات فى كتب تفسير القرآن الكريم ، وزوَّروا أحاديث على صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، كما حاولوا تزوير وقائع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى والدينى - وبخاصة قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام . وكان قصدهم من هذه المحاولات تشويه حقائق الإسلام وإدخال الريب فى نفوس المسلمين حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق .

أما الهدف الثانى للتبشير فهو هدف بنائى تشييدى . والمقصود منه الترويج للعقيدة التى يتبناها المبشِّرون بين المسلمين ليرتدُّوا عن إسلامهم ويعتنقوا العقيدة التى يُروِّج لها المبشِّرون . وهذا الهدف مقصور على النصرانية ، فهى وحدها التى تمارس هذه « اللعبة » منذ حين . أما اليهودية ؛ فإنها ديانة مغلقة ، فليس لدى اليهود الرغبة فى جذب أحد إليها ؛ لأنها عندهم ترادف معنى الأصل السلالى أو الجنس ، أى أنها ديانة مَن كان يهودياً من نسل يعقوب عليه السلام ، فالمِلَّتان - اليهودية والنصرانية - مجمعتان على هدم الإسلام ، ولعل القارىء الكريم يذكر ما ذكرناه من قبل عن « شاتلييه » وهو يحدد بكل وضوح أهداف المبشِّرين ، وحصرها فى ركنين كبيرين - « الهدم » و « البناء » - ويتسع نطاق التبشير النصرانى - بعد الهدم - فى ممارسة الهدف الثانى وهو قيام النصرانية على أنقاض الإسلام ؟!

وهذا يضع أمامنا سؤالاً ذا خطر : متى بدأ التبشير النصرانى ؟ وهل هناك أسباب دعت إلى نشأته وتحمسه ؟

والجواب : إن معرفة الأسباب التى دعت إلى نشأته تحدِّد مولد تلك النشأة .

ولنأخذ فى الاعتبار أن النشأة وإن وُلِدت ضعيفة فإن أسبابها هى التى تتحكم بكل قوة فى خطر التبشير المعاصر وإتساع وسائله ، وتعدد أهدافه .

* *

● الأخذ بالثأر :

كانت الكنيسة فى الغرب تسيطر على حياة الناس ، وتدَّعى أنها هى مصدر المعرفة الحقة ، ولا مصدر للمعرفة سواها . وفشلت فشلاً زريعاً فى تقديم معرفة صحيحة . وظلّت تفرض سلطانها إلى منتصف القرن الثامن عشر من الميلاد على كل الشئون ، وفى غضون تلك المدة قامت حركات إصلاح فى أوروبا مناوئه للفكر الكنسى من جهة ، ومجارية لبعض منه من جهة أخرى ، وأبرز تلك الحركات حركة « مارتن لوثر » ، ثم « كالفن » من بعده ، ولكن تلك الحركات وقفت عند حد معيَّن ، فظلت المشكلة قائمة إلى أن ظهر الفكر العقلى أو « عصر التنوير » - كما يسمونه - فى تاريخ أوروبا الحديث ، وصار العقل منافساً خطيراً لمنهج رجال الدين ، واستمر خطره طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ثم أعقبه عصر العلم التجريبى (العلمانية) التى أطاحت بسلطان الكنيسة وسلطان العقل . وفرضت الاتجاه الأخير - العلمانية - الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ على فرنسا أولاً ثم على العالم الأوروبى ثانياً ، فعصر التنوير العقلى والعلمانية كلاهما كانا رد فعل للتسلط الكنسى المشار إليه ، وإن انفردت العلمانية بمحاربة الاتجاهين : الدينى والعقلى .

* *

● الكنيسة تدين الإسلام :

والكنيسة - مع ذلك - تتجاوز بالوقوف أما عدوها المباشر (العقل - العلمانية) وتدين الإسلام . لأن حركات الإصلاح الأخيرة التى سبقت نهاية التسلط الكنسى كانت مدينة فعلاً للإسلام . فالإسلام هو الذى أيقظ الفكر العقلى ونماه فى أوروبا .. وعن الإسلام نقلت أوروبا أصول النهضة العلمية التى

غيَّرت مجرى التاريخ فيها . فقد نشطت الحركة العلمية فى الأندلس إبَّان سيادة المسلمين عليه ، فكثرت فيها المدارس ومعاهد العلم وحلقات الدرس فى شتَّى العلوم والفنون النظرية والعملية ، ورحل إلى معاهد العلم فى الأندلس الطلاَّب الغربيون ، بل وبعض علمائهم ، وبعد عودتهم إلى بلادهم نقلوا إليها معهم أصول الحضارة العربية الإسلامية . وما كانت نهضة العلوم فى أوروبا تعتمد على شئ مثل اعتمادها على ما تلقوه من معاهد العلم الإسلامية فى الأندلس ، سواء فى ذلك العلوم العقلية كالفلسفة ، والعلوم العملية كالطب . وإذا رجع القارىء إلى ما نقلناه من قبل عن « چورج سارتون » سكنت نفسه إلى ما نقول هنا . وأسماء العلماء المسلمين كابن سينا ، والفارابى ، وابن الهيثم ، والمسعودى والغزالى كانت تحتل مكانة مرموقة بين أساتذة الجامعات وطلأبها فى أوروبا إلى عهد قريب .

أضف إلى ذلك الكم الهائل من الكتب العربية والإسلامية التى تُرجمت إلى اللغات الغربية ، وبعضها تُرجم أكثر من أربعين مرة قبل ظهور النهضة الغربية الحديثة . ولكى لا نطيل على القارىء نشير إليه بالرجوع إلى ما كتبه « شارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » و « چوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » ، وما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أثر الحضارة العربية فى حضارة أوروبا » وسوف يرى مَن يطَّلع على تلك المصنفات ، وغيرها كثير ، أن أوروبا مدينة فعلاً فى تقدمها الحضارى للفكر والحضارة الإسلامية وفيما نقلناه من قبل من اعترافات لقادة الفكر الأوروبى فى فصل : « الإسلام فى أوروبا » عند منصفيه تأكيد وترسيخ لما نسجله هنا . وكانت هناك معابر أخرى لنقل الحضارة الإسلامية الشرقية إلى الغرب غير الأندلس التى تقدَّم الحديث عنها منذ قليل . وقد ظلت الأندلس إسلامية من سنة ٧١١ م إلى سنة ١٤٩٢ م .

* فقد كان الشرق كله معبراً لنقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا إبَّان الحروب الصليبية ، وقد أتاحت هذه الحروب الفرصة لأوروبا نحو التقدم والازدهار العلمى .

* وكانت صقلية فى عهد الأغالبة منارة للعلم والمعرفة ، وظلت نهضتها العلمية حتى بعد ذهاب الدولة نفسها . واستفادت أوروبا من نهضة صقلية العلمية .

هذا الفضل العظيم الذى ناله الغرب من حضارة الإسلام ، واحد من الأسباب الذى أحنقت الكنيسة ورجالها عليه - على الإسلام - وسموه غزواً فكرياً من الشرق الإسلامى للغرب المسيحى ، وقد بادرت الكنيسة ، بمحاربة بعض مؤلفات العلماء المسلمين ، ومنها مؤلفات ابن رُشد ، فقد تنبهوا لأثرها بعد ترجمتها وقاموا بجمع نسخها وحرقوها ، وحظروا الاطلاع عليها إذا وُجدت ، وحكموا على مَن يطلّع على مؤلفات ابن رُشد بالهرقطة . فإن ما اقتبسته أوروبا من المعارف الإسلامية تعلّم منه الأوروبيون كيف يفكرون ؟ وكيف يميِّزون بين الحقائق والأباطيل ، ولولا المد العلمى الذى استمدته أوروبا من حضارة الإسلام لطال عهد سيطرة رجال الدين على مجريات الحياة فى أوروبا . ولكن حضارة الإسلام ، وما أحدثته فى أوروبا من تغيير عجّلت بنهاية الكنيسة . لذلك فإن رجال الكنيسة كيفما وأينما وُجدوا يُضمرون للإسلام كل عداء .. والحروب الصليبية كانت إحدى الوسائل التى أُريد منها وقف الإسلام عند حد معيَّن أو القضاء عليه إن أمكن ، وقد فشلت الحروب الصليبية فى تحقيق ما أُريد منها . بل زادت الصدور إيغاراً ، وأشعلت الحقد فى القلوب ناراً . وعادت الجيوش الأوروبية إلى حيث أتت تجر أذيال الخيبة ، بعد أن أوقع بهم الناصر صلاح الدين هزائم لا ينساها القوم هناك حتى تقوم الساعة .

* *

● التبشير بديل عن الحروب الصليبية :

ترجع بدايات التبشير إلى الفترة التى فشلت فيها الحروب الصليبية . وليس هذا السبب والتحديد (فشل الحروب الصليبية ثم قيام التبشير عقبها) اختراعاً أو تخميناً . بل هما حقيقة سجّلها القوم فى مؤلفاتهم . فالمستر « إدوين بلس »

له كتاب سبقت الإشارة إليه ، وهو « مشروع التبشير » ذكر فيه صراحة سبب ابتداء التبشير ، ومتى بدأ فقال :

« إن « ريمون لول » الأسبانى هو أول مَن تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها ، فتعلم « لول » اللغة العربية بكل صعوبة وجال فى بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين فى بلاد كثيرة » (١) .

فالتبشير – إذن – وسيلة من وسائل الحرب الباردة ضد الإسلام والمسلمين بعد أن فشلت الحرب « الساخنة » فى العصور الوسطى فى النَيْل من الإسلام بل عادت جيوش الأعداء مثخنة بالجراح . وكان لهولندا نشاط ملموس فى جاوة وبقية بلاد أندونيسيا ، كما نشطت إنجلترا فى الهند والسند – وهى الباكستان حالياً – وأخذ رجال النصرانية لا شغل لهم سوى التفكير فى هدم الإسلام من الداخل ، وعن طريق الكلمة الخادعة وطمس معالم الحق (الإسلام) وتزييف الباطل والترويج له . فأنشأوا المدارس والمعاهد لتخريج المبشِّرين ، وأصدروا المجلات العلمية التى وقفوها على شئون العالَم الإسلامى فى فرنسا ، وفى إنجلترا ، وفى ألمانيا . كما استفادوا من التطور العلمى فأنشأوا المحطات الإذاعية ، وألَّفوا الكتب والنشرات ، ثم استخدموا أشرطة الكاسيت لهذا الغرض . وما من وسيلة لتكوين الرأى إلا وأدخلوها فى برامجهم ، كالمدارس والإرساليات والجامعات والمؤسسات التى لها ظاهر خيرى كالملاجىء والمستشفيات والجمعيات الخيرية فى الظاهر ، وقد انتشرت هذه الوسائل فى لبنان ومصر وسوريا والبحرين وعُمان والسودان وبلاد شمال غرب إفريقيا الإسلامية العربية . أما فى البلاد الإسلامية غير العربية ، وبخاصة فى آسيا فإن جهود المبشِّرين تلقى رواجاً كبيراً ، وهم يعملون فى حرية أكثر مما يعملون فى البلاد الإسلامية العربية . بل إن بلاداً إسلامية فى آسيا مثل أندونسيا قد وُضِعت لها خطط

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ١٢ - ١٣

زمنية ليعتنق شعبها خلالها النصرانية ويرتدُّوا عن الإسلام كليَّةً فلا يبقى منهم واحد على الإسلام ؟!

وقد اشتد نشاط التبشير فى البلاد الإسلامية منذ أوائل القرن العشرين الميلادى ، فبعد أن كان يتوارى عن الأنظار وهو يمارس ألاعيبه صار يعلن عن نفسه ، ولأول مرة ، بعقد مؤتمرات عالَمية أعمالها مقصورة على خدمة التبشير ودراسة جميع الأحوال للشعوب الإسلامية التى يراد غزوها دينياً .

ومن العجب أن أول مؤتمر تبشيرى يُعقد فى القاهرة عام ١٩٠٦ فى الرابع والعشرين من إبريل . ويكون مكان الانعقاد هو منزل الزعيم أحمد عرابى قائد الثورة العرابية ضد الإنجليز عام ١٨٨٢ . وكان أعضاء المؤتمر مندوبى إرساليات التبشير الأمريكية والإنجليزية والألمانية والسويدية والإسكتلندية والهولندية والدنمركية ، وعددهم بلغ ٦٢ عضواً ؟!

فما الذى طرأ على مصر وشعبها وقادتها وزعيم حركتها الوطنية أحمد عرابى ؟! إن الأمر يدعو إلى الحيرة حقاً . فليس الاحتلال العسكرى لبلد ما إسلامى بأخطر على أمنها وسلامتها وقيمها ودينها وخُلُقها من مثل هذا المؤتمر الذى عُقد فى مصر فى بيت الزعيم الوطنى ليتآمر أعضاؤه على الشعوب الإسلامية ويعزلوها عن دينها وتاريخها . وإليك المسائل التى دُرِست فى ذلك المؤتمر بعد انتخاب القس « زويمر » رئيس إرسالية التبشير فى البحرين رئيساً للمؤتمر وعُيِّن له نائب رئيس وجهاز إدارى :

« ملخص إحصائى عن عدد المسلمين فى العالَم ، الإسلام فى إفريقية ، الإسلام فى السلطنة العثمانية ، الإسلام فى الهند ، الإسلام فى فارس ، الإسلام فى الملايو ، الإسلام فى الصين – المعلومات التى ينبغى إذاعتها بين المسلمين المتنورين (المثقفين) والمسلمين العوام – التنصر – الارتداد – وسائل إسعاف المتنصرين المضطرين – التبشير بين النساء المسلمات » ... إلخ .

هذه هى خطة مؤتمر التبشير الأول الذى عُقِد فى القاهرة فى ٢٤ إبريل

١٩٠٦ وفى بيت زعيم الأمة الوطنى أحمد عرابى .. ؟! غريبة جداً تبدو هذه الواقعة أمام القارىء الآن ؟!

ولكن حين يعلم أن الذى كان يحكم مصر فى تلك الفترة هم الإنجليز وليسوا المصريين تزول الغرابة والحيرة والعجب .

إن الوظائف القيادية والحسَّاسة فى الجيش والداخلية ، والقضاء ، والتعليم كان يتولاهم السادة الإنجليز ، وقَلَّ أن يُعيَّن مصرى واحد فى منصب قيادى اللَّهم إلا إن كان عميلاً لسادة البلاد . وكان المصريون يعملون فى الوظائف الدنيا : سعاة بريد ، وسعادة مكاتب . وفراشين ؟!

وكان الجهاز الإدارى إنجليزياً محضاً . وكذلك الاستبداد بالجهاز الوظيفى كله ، ففى سنة ١٨٩٦ كان عدد الموظفين فى الحكومة المصرية (الإنجليزية فى الواقع) ١٣٢٧٩ موظفاً ، وكان عدد الموظفين الإنجليز منهم : ١٢٥٢ موظفاً فى مواقع قيادية بينما وُزِّعَ المصريون على الخدمات الصغيرة : عمال سكة حديد - تلغراف - سعاة بريد . وفى سنة ١٩٠٦ التى انعقد فيها مؤتمر التبشير فى القاهرة كان عدد الوظائف الإدارية العليا التى يشغلها الإنجليز ٦٩٠ وظيفة ، منها رياسة الجيش ، والقضاء ، والداخلية .. ؟!

ومعنى هذا أن مصر كانت فى ذلك الوقت ولاية إنجليزية من الناحية الفعلية . وكان المصريون مغلوبين على أمرهم إلى الحد الذى يجتمع أعداؤهم فى بلدهم مصر ، وفى بيت الزعيم عرابى ليخططوا هكذا علانية ضد الإسلام والمسلمين .. ؟! وفى حياة عرابى نفسه (توفى عرابى سنة ١٩١١) . وتتابع عقد المؤتمرات بعد ذلك ، فكان مؤتمر أدنبرج بإنجلترا عام ١٩١٠ ثم مؤتمر لكنؤ بالهند عام ١٩١١ ، ثم مؤتمر القدس عام ١٩٢٤ ، وعام ١٩٣٥

* *

● المسلم يتأبَّى :

ومن الحقائق التى كانت تُعرض وتُدرس فى تلك المؤتمرات الصعوبات التى كانت تقف فى طريق المبشِّرين . فقد وجدوا من الصعوبة أن يتحوَّل المسلم عن إسلامه مهما كانت المحاولات والمغريات . فالمسلم يتأبىٌّ على كل محاولة لإخراجه عن دينه ، وقد عُرِفت هذه الظاهرة فى أثناء انعقاد مؤتمر القاهرة التبشيرى عام ١٩٠٦ فكان ردّ القس « زويمر » رئيس المؤتمر على هذه الشكوى أن قال : « ليس غرض التبشير التنصير فقط ، ولكن أقصى ما يجب على المبشِّر عمله هو تفريغ قلب المسلم من الإيمان بالله » هذا ما قاله « زويمر » فى مؤتمر القاهرة عام ١٩٠٦

وفى مؤتمر القدس عام ١٩٢٥ ترددت نفس الشكوى بكل قوة . فالمبشِّرون يقرون أن من المحال إخراج المسلم عن إسلامه وإقناعه بعقيدة أخرى غير الإسلام .

* *

● خطبة زويمر :

وكان على « زويمر » أن يواجه هذه الظاهرة مرة أخرى بعد أن صار رئيس المبشِّرين فى الشرق كله ، بل كانوا يصفونه بأن الرسول المختار لتنصير العالَم الإسلامى . قام « زويمر » خطيباً فى مؤتمر القدس فقال :

« أيها الإخوان الأبطال ، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام . فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدَّس ..

لقد أديتم الرسالة التى نيطت بكم أحسن أداء ، ووفقتم لها أسمى توفيق ... إننى أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين فى حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين . لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة :

* إما صغير لم يكن له من أهله مَن يُعرِّفه ما هو الإسلام ؟!

* أو رجل مستخف بالأديان لا يبغى إلا الحصول على قوته (طعامه وشرابه) ، وقد اشتد به الفقر ، وعزَّت عليه لقمة العيش .

* وآخر يبغى الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية [(١)] .

ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ... وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله (؟!) .

وبالتالى لا صلة له تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها (؟!) وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية . وهذا ما قمتم به خلال المائة سنة الماضية خير قيام (؟!) وهذا ما أهنئكم عليه (؟!) وتهنئكم دول المسيحية والمسيحون جميعاً كل التهنئة » [(٢)] .

هذا الكلام يفصح عما يأتى :

أولاً : أن جهاز التبشير لم يكن جهازاً مستقلاً . بل كان خادماً للاستعمار ودوله المسيحية .

ثانياً : أن المبشِّرين لم يكونوا حَمَلة رسالة شريفة ، ولا دُعاة حق وفضل بل كانوا - وما يزالون - جهاز تدمير للأمة الإسلامية . ولو أنهم سَعْوا فعلاً لتنصير المسلمين على أساس هدايتهم إلى عقيدة هم مؤمنون بها - أعنى المبشِّرين - لالتمسنا لهم العذر ، ولكن ماذا يفيد المبشِّرين من تضليل المسلم وقطع صلته بالله وتفريغ قلبه من الإيمان به ؟! هل لهذا العمل من تفسير سوى الحقد والحسد ؟ وهذا ما نبهنا إليه القرآن الأمين مرات ، ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) هذه الحقائق التى ذكرها زويمر هى خلاصة التقارير الميدانية التى كتبها المبشِّرون .. ومعنى هذا أن المسلم العارف ما هو الإسلام مستحيل أن يرتدَّ عنه

(٢) جذور البلاء : عبد الله التل ص ٢٧٥

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ .. ﴾ (١) .

ثالثاً : أن التبشير نابع من المجتمعات المسيحية بكل طبقاتها ومستوياتها فليس هو هدفاً لرجال الدين وحدهم ، وليس هو هدفاً لحكومات الدول المسيحية ورجال الدين وحدهما . بل هو هدف لرجال الدين والحكومات المسيحية والشعوب المسيحية معاً .. (؟!) وإلا فما معنى أن توجِّه دول المسيحية والشعوب المسيحية التهنئة إلى المبشِّرين على لسان الدكتور القس « زويمر » البروتستانتى ؟ وما الذنب الذى جناه الإسلام والمسلمون نحو المسيحية والمسيحيين حتى يُعامَل الإسلام والمسلمون هذه المعاملة الصعبة الظالمة .

* *

● الفروق بين الغزوين :

قلنا : إن اشتداد غضب أوروبا على الإسلام ، واستماتة قوافل التبشير فى الكيد للإسلام والمسلمين كان من أسبابه البارزة الثأر لأنفسهم من الإسلام الذى غزا أوروبا بنقل حضارته إليها عن طريق البعوث العلمية التى كانت تفد على الأندلس الإسلامى وتتلقى العلم فى مدارس المسلمين ومعاهدهم ، وعن طريق الشرق كله خلال الحروب الصليبية ، وعن طريق صقلية فى عهد الأغالبة وبعدهم ، وعن طريق سوريا ، وعن طريق الترجمات من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية .

هذا كله صحيح ، وأكثر منه صحة .. أن الإسلام خدم أوروبا بما نقل إليها من علوم وفنون ومعارف وحضارة . خدمها ونقلها من عهود الجهل والظلام إلى عصر العلم والنور والرقى . إنه لم يدمر أوروبا ولكن أحياها ، ونفخ فيها من أسباب الحياة والرقى ما به تجاوزت أوروبا كل الأخطار التى كانت محدقة بها

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

أو ناشبة فى داخلها ، ثم تنفست الصعداء وذاقت طعم الرقى وكحل أعينها النور وتبوأت ما تبوأت من منازل الصعود والرفعة .. !

الإسلام غزا أوروبا ؟ نعم . غزاها وعلّمها وغذّاها وهذّبها . أما الغزو التبشيرى والغزو الاستشراقى للشرق الإسلامى فلم يكن إلا بنيّة التدمير المتعمد ، والفساد والإفساد ، والضلال والتضليل فهل هذا هو جزاء المحسن ؟!

ومن التعاليم التى يؤمن بها الغرب المسيحى ، التى يسندونها إلى المسيح : « مَن لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ومعنى هذا أن المسيح يدعو إلى التسامح والعفو ، والإعراض عن إساءة المسيئين ، فإذا كان هذا هو خُلُق المسيح عليه السلام مع المسيئين فماذا يكون خُلُقه مع المحسنين يا تُرى ؟

والإسلام أحسن إلى أوروبا ولم يلطم خدها الأيمن ولا الأيسر ، وحتى لو كان قد لطم فإن الواجب على آباء الكنيسة والحكومات والشعوب التى تؤمن بالأناجيل ، كان الواجب عليهم أن يغفروا للإسلام إساءاته .. فما بالك والإسلام محسن إليهم أروع ما يكون الإحسان ؟ فهل القوم يؤمنون بالإنجيل لفظاً ويكفرون به معنى ؟! حقاً إنه لأمر غريب ومريب . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟!

* *

● النتائج التى سعد بها زويمر :

ويتابع « زويمر » فى خطابه المشار إليه فيذكر النتائج الحميدة - عنده - التى حققها المبشِّرون ضد الإسلام والمسلمين ، وهى وإن لم يكن من بينها إقبال المسلمين على المسيحية وتركهم دينهم ، فإن القس « زويمر » سعيد كل السعادة لما توصل إليه جيشه المنظم (المبشِّرون) من فساد وإفساد فى البيئات الإسلامية ، وبين الشباب المسلم بالذات . فتراه يواصل خطابه قائلاً : « لقد قبضنا أيها الإخوان .. على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية ، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير ، والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية ...

« إنكم أعددتم شباباً فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ؟! وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه المسيحية ؟! وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراده له الاستعمار ، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات ...» (؟) .

« إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه (؟!) وانتهيتم إلى خير النتائج (؟!) وباركتكم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ؟! فاستمروا فى أداء رسالتكم ، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب » (١) .

ومرة أخرى نعود فنقول : معقول جداً أن يكون هدف التبشير الترويج لعقيدة ما هم بها مؤمنون . ولو كان ذلك صحيحاً لعددنا المبشِّرين دعاة إصلاح اجتهدوا فأخطأوا حين حسبوا أن ما يدعون إليه هو صواب من وجهة نظرهم . ولكن ليس من المقبول ، ولا من المعقول أن يُطلَق على المبشِّرين أنهم دعاة إصلاح مع أن هدفهم هو الإفساد والتضليل وهدم العقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة . فهم إذن من المفسدين فى الأرض وإن أطالوا لحاهم ولهجت ألسنتهم بذكر « الرب » وملأوا الكنائس والأديرة بقصد العبادة والخشوع . إنهم - وهذا منهجهم - لا رَبَّ لهم يعبدونه سوى الشيطان . فقد زيَّن لهم أعمالهم وأضَلَّهم وهم يحسبون أنهم مهتدون : ﴿ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُواً ﴾ (٣) .

---

(١) جذور البلاء، ص ٢٧٥ (٢) الأعراف : ٣٠ (٣) الكهف : ١٠٤ - ١٠٦

فالتبشير – إذن – خطر دينى وسياسى معاً ، وهو سلاح موجَّه ضد الإسلام والمسلمين ، والمبشِّرون لا يعتقدون أن المسلمين على باطل يجب إنقاذهم منه وهدايتهم إلى الحق ، ولكنهم يعتقدون أن المسلمين على الحق الذى لا يقبل الجدل ، لذلك فهم يعملون دائبين – أعنى المبشِّرين – لهدم ذلك الحق الذى عليه المسلمون . ولذلك – مرة أخرى – فإن نطاق الحرب التى يشنها هؤلاء الحاقدون على الإسلام والمسلمين لم يقف عند محور معيَّن ، ولكنهم ينقضُّون على الإسلام وعلى المسلمين من كل جهة يرون أنها مجدية لهم . وسيأتى تفصيل وإيضاح لهذه المساعى الماكرة فيما يُستأنف من الحديث حتى نهاية الكتاب .

* *

● الاتجاه بالمؤتمرات وجهة أخرى :

وحين تنبَّه المسلمون لخطر التبشير اتجه المبشِّرون بالمؤتمرات وجهة أخرى ، فبعد أن كانوا فى عواصم إسلامية كمصر والهند والقدس بدأوا يعقدونها فى عواصم مسيحية مثل مؤتمر كولارادو عام ١٩٧٧ بأمريكا ، ومؤتمر لوزان بإنجلترا عام ١٩٧٤ وكان لتحرر البلاد الإسلامية من الاستعمار تأثير فى هذا الاتجاه الجديد لقوافل التبشير .

* * *

الفصل الثامن

المستشرقون

جيش آخر من جيوش الحرب الباردة التى خاضتها - وتخوضها - أوروبا ضد الإسلام والمسلمين . جيش سلاحه : القرطاس والقلم . وقذائفه الكلمات . وغزوه موجه إلى العقول والقلوب . وهدفه إحداث خلل فى العقائد والسلوكيات والأخلاق . والمستشرقون والمبشِّرون صنوان لشجرة واحدة - ملعونة - هى « الحقد على الإسلام والمسلمين » .

والفرق بينهما أن نشاط المبشِّرين موجَّه إلى العامة : الشعوب ، أما المستشرقون فقد وجَّهوا نشاطهم - منذ وُجِدوا - إلى الخاصة : المثقفين . وتستروا وراء شعار : البحث العلمى الدقيق المَنظَّم . وهم أبعد ما يكون عن العلم والنظام .

وهناك فرق آخر ذو خطر بين المبشِّرين والمستشرقين ، وهو أن المبشِّر يُوجِّه نشاطه - غالباً - إلى إفساد عقائد المسلمين وإثارة الشكوك حولها ، ويُشوِّه حقائق الإسلام بين المسلمين . أما المستشرق فمع اتفاقه فى الهدف المشار إليه مع المبشِّر فإن له مهمة أخرى لا يوليها المبشِّر كبير اهتمام ، لأنها ليست من اختصاصه حسب الخطة الموضوعة . وإنما هى من صميم عمل المستشرق . وهى : تشويه حقائق الإسلام بين الشعوب المسيحية ، وبخاصة الشباب وتصويره فى صور جد منفرة .

والقصد من هذا هو « تحصين أوروبا ضد الإسلام » حتى لا يفلح الإسلام فى غزو أوروبا مرة أخرى مثلما أفلح فى غزوها « فكرياً وعلمياً » قبل الحروب الصليبية .

وقد نجح المستشرقون إلى حد ما فى هذا المجال فجعلوا شباب أوروبا ينظر إلى الإسلام على أنه دين « التوحش والتخلف » بل « ودين الوثنية » ؟!

ثم نظروا إلى « الشعوب الإسلامية » نظرة احتقار وأطلقوا عليهم لقب « البرابرة » .

*   *

● متى ولماذا نشأ الاستشراق ؟

الأسباب التى أدَّت إلى قيام الاستشراق هى نفس الأسباب التى أدَّت إلى تكثيف نشاط المبشِّرين والاهتمام به فى أوروبا على المستوى الدينى ، والمستوى السياسى . وجميع هذه الأسباب يرجع إلى فشل الحروب الصليبية فى القضاء على الإسلام وعلى العالم الإسلامى . فهو - أى الاستشراق - أحد البدائل التى اهتدت إليها أوروبا لمواجهة الإسلام حين ظهر لها أن الحروب المسلَّحة باءت بالفشل أمام قوة الجهاد الإسلامى التى حسمت الأمور بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى إبَّان الحروب الصليبية .

*   *

● إحصاء لعمل المستشرقين :

وجيش المستشرقين دائم الحركة والعمل ضد الإسلام ، حتى لقد أحصى الدكتور إدوار سعيد مؤلفاتهم ضد الإسلام خلال مائة وخمسين سنة فوجدها بلغت ٦٢ ألف مجلد ؟! كلها ضد العروبة والإسلام أفرزتها المطابع ودور النشر فى الغرب فيما بين عامى (١٨٠٠ - ١٩٥٠) .

والإسلام عند المستشرقين متهم دائماً . وقد أحسن التعبير عن هذا المعنى الأستاذ محمد أسد فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » حين قال :

« ويظهر فى جميع بحوثهم - بحوث المستشرقين - على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يُعالَج على أنه موضوع بحثٌ فى البحث العلمى . بل على

أنه متهم يقف أمام قضاته . إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدَّعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة . وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شئ من الفتور اعتبارالأسباب المخففة » (ص ٥٣) .

ثم يُشبِّه الأستاذ محمد أسد موقف المستشرقين هذا من الإسلام بصورة رائعة فيقول :

« وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى قد أنشأتها الكنيسة فى القرون الوسطى . أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً فى القرائن بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها .. » (ص ٥٤) .

هذا العداء المستحكم من مستشرقى أوروبا ضد الإسلام ، يقول عنه الأستاذ محمد أسد إنه ليس خاصاً ببلد دون بلد ، بل هو عام فى كل ما كتبه مستشرقو أوروبا :

« إنك تجده فى إنكلترا وألمانيا وفى الروسية وفرنسا وفي إيطالية وهولندا . وبكلمة واحدة : فى كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام » . (ص ٥٤)

ولا يختلف باحث فى هذا الموضوع أن قيام الاستشراق كان بعد الحروب الصليبية بشكل واضح ، وهذا لا يمنع من وجود بذور للاستشراق قبل الحروب الصليبية . ومن الممكن القول بأن الاستشراق المعادى للإسلام بشكل كثيف وسافر هو الذى أعقب الحروب الصليبية للانقضاض على الإسلام وتدميره بعيداً عن هدير المدافع وتفجير القنابل وصليل السيوف ، فأوروبا كانت فى مرحلة المراهقة الفكرية والحضارية حين غزت الشرق تحت راية الصليب . ولما عادت تلك الراية مجلَّلة بعار الهزيمة تراجعت أوروبا عن مغامرة الحرب الساخنة إلى الحرب الباردة علَّها تحقق من خلالها ما فشلت فيه جيوشها .

* *

● ثمار الغرس :

قلنا من قبل إن الاستشراق كان له مهمتان : خارجية تتمثل فى بث كل الشكوك حول حقائق الإسلام بين مثقفى العالم الإسلامى ، وداخلية تتمثل فى تشويه حقائق الإسلام بين الشعوب المسيحية وشبابها . وقد أثمرت غروس المستشرقين فى المهمة الداخلية إثماراً سريعاً . والفقرة الآتية تصوِّر تلك الحقيقة فى وضوح :

« ... إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ولكنه كان قبل كل شئ ، وفى مقدمة كل شئ شراً ثقافياً . لقد نشأ تسميم العقل الأوروبى عما شوَّهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ، ومُثُله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . فى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوروبيين من أن الإسلام دين شهوة وعنف حيوانى . وأنه تمسك بفروض شكلية وليس تزكية للقلوب أو تطهيراً لها . ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفى ذلك الحين أيضاً نبز الرسول « محمد » بقولهم : كلبى » [١] .

* *

● إتجاهات الاستشراق :

من الإنصاف أن نُخرج من حديثنا هذا نوعاً من الاستشراق . وهو الذى قام على مبادىء نزيهة فأقبل على دراسة حضارة الشرق حباً فى العلم والاستطلاع أو التزموا مبدأ الحياد فى بحوثهم سواء أدَّت إلى صواب خالص أو صواب مشوب بخطأ أو حتى أدَّت إلى خطأ خالص ، فما دامت نيَّاتهم تخلو من تعمد الإساءة فهم مجتهدون برآء . ومن هؤلاء مَن أخرج عملاً مقبولاً فى مجال تحقيق المخطوطات الإسلامية العربية والتعليق عليها ، أو عمل فهارس لبعض العلوم الإسلامية كالحديث ، ومصادر التراث . ومنهم مَن سحره الإسلام بما فيه من قِيَم

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٨

وروائع فاعتنقه عقيدة وشريعة . ومنهم مَن اكتفى بالثناء عليه واعترف بدوره الحضارى العالَمى ثم ظل على عقيدته . وقد قدَّمنا صوراً من شهاداتهم عند حديثنا فى بدء هذه الدراسة عن منصفى الإسلام من علماء الغرب ومستشرقيه مثل « چورچ سارتون » و « برنارد شو » و « نهرو » وغيرهم ، وفيما عدا هذا النوع فإن للاستشراق مدارس واتجاهات تتمثل فى الآتى :

الاتجاه النصرانى ، وله فرعان : كاثوليكى وبروتستانتى . ومع اختلاف الفرعين فى التصور والاعتقاد فإن هدفهما واحد هو محاربة الإسلام .

الاتجاه اليهودى : وهدف هذا الاتجاه هو التمهيد لمطامع الصهيونية العالَمية ، والتى أهمها عندهم إقامة الحكومة الكونية أو مملكة الكون التى يكون اليهود فيها هم السادة . وغيرهم هم العبيد .

الاتجاه الإلحادى الأوروبى : ويمثل هذا الاتجاه الملحدون الغربيون الذين لا يؤمنون بدين قَط ، وعملهم محصور فى نشر الفكر الإلحادى من حيث هو لا باعتبار انتمائه إلى كتلة سياسية معيَّنة .

الاتجاه الإلحادى الشيوعى : والفرق بينه وبين الإلحاد الغربى أن الأول يمهد لسيطرة الشيوعية على جميع شعوب العالَم ، كما بشَّر بها « ماركس » من قبل .

* *

● أهداف الاستشراق :

تلتقى أنواع الاستشراق الأربعة ، التى أوجزنا الإشارة إليها فى هدف واحد : هو التدمير والفساد والإفساد . وبعضها يوجِّه نشاطه ضد الإسلام خاصة ، وهو الاستشراق النصرانى بفرعيه . أما الاتجاه اليهودى أو الأوروبى أو الشيوعى فهذه الأنواع الثلاثة موجَّهة ضد المسلمين وغير المسلمين ، اللَّهم إلا الاتجاه اليهودى فإنه يوجِّه نشاطه لهدم الدين بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين معاً . وإن كان يهادن المسيحية - الآن - فإن ذلك يرجع إلى ظروف سياسية معلومة .

* *

● محاور انقضاض المستشرقين على الإسلام :

لم يترك المستشرقون ثغرة يمكن الوثب منها على الإسلام إلا وقد وثبوا منها . ومن ذلك :

(أ) القرآن نفسه وقد أثاروا حوله عدة شُبهات وأباطيل .

(ب) صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم وقد أثاروا حوله لغطاً كثيراً .

(جـ) عقائد الإسلام - الأصول والفروع - وقد أثاروا حولها مطاعن مختلفة .

(د) صحابة الرسول ﷺ ورضى الله عنهم ، وقد حاولوا تشويه سيرتهم فى صور متباينة .

(هـ) التاريخ الإسلامى بصفة عامة . وقد وجدوا فيه مادة صالحة للتحريف وإشاعة الريب حوله .

(و) قِيَم الإسلام عموماً . فقد تعمدوا الانتقاص من شأنها ، وأكثروا الغمز واللمز حولها .

(ز) بعض التشريعات الإسلامية ، كتعدد الزوجات ، والزكاة وبعض العبادات كالطواف حول الكعبة . والطهارة الترابية « التيمم » .

(ح) محاربة اللغة العربية الفصحى وإحلال العامية محلها بدعوى صعوبة الفصحى وعدم ملاءمتها للحياة المعاصرة .

(ط) الزعم بأن ما فى الإسلام من حق إنما هو مأخوذ عن مصادر أخرى غير إسلامية ..

(ى) الادعاء بأن الإسلام استنفد أغراضه ، ولم يعد صالحاً لمواكبة الحياة .

(ك) نقد منهج الترغيب والترهيب فى الإسلام ، علماً بأن ما نقدوه منه موجود فى الديانتين اليهودية والنصرانية بما لا يسمو إلى ما سما إليه الإسلام .

(ل) السعى الدءوب لتمزيق وحدة المسلمين بحيل ماكرة . وبدائل تنافى أسس الدعوة إلى الوحدة العامة فى الإسلام . كالجنس والوطنية ، ثم إثارة النعرات الطائفية فى الوطن الواحد .

(م) اتهام الإسلام بأنه كان السبب فى نظام الرِّق ، وجعله مسرحاً لإشباع الرغبة الجنسية ..

(ن) تزيين الخروج عن الإسلام بأوصاف برَّاقة كالتحرر والمعاصرة وإطلاق الوصف الذميم على المتمسك بدينه (الإسلام) مثل الرجعية والتزمت .... وهكذا .

* *

● أخصب الحقول :

لكل من المبشِّرين والمستشرقين ميادين مختارة ، وحقول خصبة يعملون فيها ، وهى إجمالاً كل ما يؤثر فى عقول المسلمين . بَيْدَ أن الحقول التى يعملون فيها متفاوتة فى الخصوبة والأهمية فى الواقع من فريق إلى فريق .

فأخصب الحقول عند المبشِّرين الإرساليات التعليمية والمؤسسات الخيرية التى يبثونها فى بلاد الإسلام فى شكل خدمات ومساعدات تنفق عليها الدول المسيحية والاتحاد العالمى للكنائس ، وتُسهم هيئة اليونسكو أحياناً ، إذا كان المشروع الخدمى ذا صبغة ثقافية . وتقوم فى مدينة بألمانيا الغربية الآن مؤسسة تبشيرية عالمية ، سموها « مركز الشبيبة » ، ولها أفرع فى بعض العواصم الغربية ، وتعتمد هذه المؤسسة فى ممارسة مهماتها على إصدار الكتب وأشرطة الكاسيت والنشرات ومراسلة الشباب المسلم فى كل مكان بادئين معهم باليسير ثم تتدرج رويداً رويداً فى جذب « الضحية » ولا مانع عندهم أن يرسلوا له دعوة مجانية التكاليف لزيارة المركز أو أحد فروعه إذا وجدوا فيها استجابة صادقة لما يدعونه إليه من خلال الرسائل المتبادلة بين المركز وبين الضحية .

ولدينا براهين خطيّة وكتب من أعمال المركز ، وقد قمنا بدراسة نقدية لشبهات أوردوها فى أحد مؤلفاتهم وأقمنا قواطع الأدلة على زيف القوم وافتراءاتهم على الإسلام (١) .

ومن صور تدرجهم مع بعض الشباب أنهم طلبوا منهم تحرير رسائله إليهم بالإنجليزية بدلاً من العربية (؟) علماً بأنهم بدأوا هم كتابة الرسائل إليهم بالعربية .. (؟!) .

أما أخصب الحقول عند المستشرقين فهى الجامعات ودور التعليم العالى ووسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية . وتؤدى الجامعات خدمة جليلة للاستشراق من ناحيتين إحداهما أهم من الأخرى :

الأولى : إذا أتيحت الفرصة لأحد المستشرقين بالعمل فى إحدى الجامعات العربية الإسلامية أو العربية فقط . فنحن نعلم أن المستشرقين « مرجليوث » و « كازانوفا » عملا أستاذين فى الجامعة المصرية حين نشأتها عام ١٩٠٨ وكان من آثارهما المنهج « العلمانى » الذى نادى به تلميذهما « الوفى » الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى صودر بمعرفة السلطات المصرية عام ١٩٢٦ لما أحدث ثورة عنيفة عليه فى مصر وفى خارج مصر من البلاد الإسلامية . ثم عاد فبثَّ شيئاً من مبادئهما فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » عام ١٩٣٨ ، وسيأتى الحديث عن الدكتور طه حسين باعتباره أحد عملاء التبشير والاستشراق فى مصر حين تحين مناسبته فى هذه الدراسة .

أما الجامعات العربية - غير الإسلامية - فأهمها الجامعات الأمريكية فى مصر وفى بيروت .

وعيب هذه الجامعات (الأمريكية وما على غرارها) أنها تتجاوز مهمتها المأذون لها بها وتزج بأنفها فى أمور لا صلة لها بها . وفى مقدمتها مهام

(١) الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى ، دار الوفاء بالقاهرة .

الاستشراق والتبشير . فالجامعة الأمريكية فى مصر قد أصدرت كتاباً ضخماً باللغة الإنجليزية ، جعلت عنوانه « مصر المسيحية قديماً وحديثاً » ومادة الكتاب كلها وقف على الطابع المسيحى لمصر من أقدم العصور إلى تاريخ طبع الكتاب (فى أوائل الثمانينات) وكل فصل من فصوله مدعوم بصور الكنائس والمعابد والأديرة . وخرائط فرعية موضحة بالإضافة إلى خريطة لمصر وخرائط لشبكة المواصلات الحديدية ، وتركيز على المواقع التى بها آثار قبطية كالواحات والفيوم ووادى النطرون . ومع أن الكتاب بلغ عدد صفحاته أكثر من سبعمائة صفحة من القطع الكبير فإنه يخلو من الحديث عن الإسلام الذى أظل مصر أكثر من أربعة عشر قرناً . اللّهم إلا فصلاً صغيراً جعلوا عنوانه : « الفتح العربى بقيادة عمرو ابن العاص » .

ومما يدعو إلى الريبة أن الكتاب لا يُباع فى مصر إلا داخل أسوار الجامعة الأمريكية بمصر ، وقد صُدِّر الكتاب إلى عواصم الدول المسيحية . فقد شاهده صديق لنا بمكتبات لندن .

وقد عُرِض الكتاب على لجنة التعريف بالإسلام ، إحدى لجان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وكلّفت اللجنة أحد أعضائها الدكتور محمود دياب أحد أساتذة طب الأنف والأذن والحنجرة ، وله نشاط عريق فى خدمة الدعوة ، كلّفته اللجنة - وكنت أحد أعضائها - بتقديم تقرير واف عنه . وتبيَّن من التقرير أن الكتاب يحمل بين طيَّاته خطراً على « الوحدة الوطنية » ويهدد أمن مصر وسلامها . وقال : إن الكتاب حملة بالغة الخطورة يخاطِب بها مؤلفوه أقباط مصر ، ويدعونهم إلى ترقب ساعة الخلاص « فالليل المظلم لا بُدَّ أن يعقبه فجر جديد » (؟!!) .

ولدينا نسخة من هذا الكتاب بلغته الأصلية .

*

● مدعاة للتساؤل :

والغريب حقاً أن هذا الكتاب - على خطورته - طُبع بمعرفة الهيئة العامة للكتاب ، وعلى مطابعها . وعلى صفحته الأخيرة ترقيم دولى من دار الكتب المصرية . وهذا يثير فى النفس تساؤلاً لحوحاً : كيف تُصرِّح المؤسسات الحكومية بطبع ونشر وتوزيع هذه الكتب . وهو ضد مصالح الدولة العليا ؟!

أما الجامعة الأمريكية فى بيروت فهى أكثر خطراً من سميتها فى القاهرة . وسيأتى الحديث عنها فى فصل لاحق بإذن الله .

* *

● نقل المواجهة إلى الداخل :

عرفنا مما سبق أن المبشِّرين وكثيراً من المستشرقين يعملون داخل البلاد الإسلامية التى كانت واقعة تحت وطأة الاستعمار أو ما تزال آثاره سائدة فيها . وكانت أوروبا قد بدأت مواجهتها للإسلام من الخارج فى شكل حروب وغارات انتهت بعد أن فتحت الأبواب أمام كيدها للإسلام عبر الحروب الباردة (الساخنة) التى تُشَن الآن على جميع الجبهات .

وكان السبب فى تغيير ذاك الاتجاه وتفضيل محاربة الإسلام والمسلمين من الداخل نصيحة مخلصة وجهها إلى قومه صليبى عجوز عقب الحروب الصليبية .

وقع لويس التاسع (الصليبى العجوز) فى الأسر فى الحروب الصليبية الأولى فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وسُجِن فى أحد سجون المنصورة مدة . ثم أُطلق سراحه وعاد إلى فرنسا بعد أن عاين وشاهد قوة المسلمين فى الدفاع عن حرماتهم ، وقد حَلَّ بالصليبيين ما حل . فكَّر ذلك الصليبى العجوز فى أسلوب آخر للمواجهة يفلح فى تدمير المسلمين . ثم اهتدى إلى البديل وهمس فى أذن قومه قائلاً : « إن التغلب على المسلمين بقوة السلاح وحده أمر غير ممكن . وإن على أوروبا إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من

داخل أنفسهم (؟!) وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من قلوبهم (؟!) فهذا هو الطريق » (١) .

هذه النصيحة يمكن أن نعتبرها هي الأساس في تعديل أسلوب مواجهة أوروبا للإسلام والمسلمين من الحروب المسلَّحة إلى الحروب الباردة . وفي داخل بلاد المسلمين .

*

● خطوات التنفيذ :

وقد تم تنفيذ هذا التوجيه على مرحلتين فيما أرى :

الأولى : مباشرة جيوش المبشِّرين والمستشرقين نشاطهم عَبْر المحاور التى تقدَّم الحديث عنها . المبشِّرون بالاندساس فى المجتمعات الإسلامية ، والمستشرقون بالكتابة والتأليف والنشر ، ثم بث مؤلفاتهم فى الأوساط الثقافية فى المجتمعات الإسلامية . هذه هى المرحلة الأولى من تنفيذ توجيه لويس التاسع .

أما المرحلة الثانية : فهى تجنيد بعض المسلمين من الحكَّام والمفكِّرين وصبغهم صبغة غربية اعتقاداً وسلوكاً ثم مساعدتهم على ارتقاء المناصب الحسَّاسة فى البلاد سياسياً وفكرياً وإعلامياً وتربوياً لكى يكونوا منفذِّين مخلصين أمناء لمناهج الغرب فى البلاد الإسلامية وهم فى مكان الصدارة من بنى جنسهم ودينهم . وقد سبق لنا ذكر ما قاله « كرومر » حين خروجه من مصر بعد رعاية المخطط البريطانى فى مصر سنين طويلة فقد قال : « سنرحل عن مصر ، وسنحكمها برؤوس مصرية وفكر أوروبى . أى أن الاستعمار المادى سيرحل عن مصر . أما أثره الفكرى فباق فى أشخاص مصريين . وهم الذين سيحكمون مصر بفكرنا المعادى للإسلام نيابة عنا » (٢) .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ٥٧٦

(٢) انظر : عقبات فى طريق الدعوة - للأستاذ أنور الجندى .

وليس معنى هذا أن دور المبشِّرين والمستشرقين قد انتهى بوجود العملاء الوطنيين . كلا ، إنهم باقون . وأقرب مثال لوجودهم أنهم بمثابة مُلقنين يقبعون وراء الكواليس يملون على عملائهم ما يقال . فالعملاء الوطنيون يرددون ما قاله ويقوله أولئك المحرِّكون لهم من وراء الكواليس . وفى ذلك خطر وأى خطر ؟! وسوف يتضح لنا أن كل ما يقوله المفتونون منا ما هو إلا فكر مستورَد ليس لهم فيه إلا الحكاية وحبكة الإخراج . وما يزال هؤلاء العملاء يؤدون أدوارهم المرسومة ، ومنهم مَن يتصدر قطاعات هائلة فى بلاده فى مجال الحكم أو الثقافة ، أو التعليم أو الإعلام ، وهم - بالطبع - لا يروِّجون باطلاً إلا بعد أن يلبسوه ثوب الحق ، ليكون ذلك لهم معواناً على الجهر به وفرضه على الناس من موقع المسئولية العليا بحسب المنصب الذى يشغلونه فى إدارة البلاد . وتلك هى الطامة الكبرى . إذ لم تُبْتلَ الأمة بمصيبة أخطر من أن يتولى أمورها أو بعض أمورها أناس تربُّوا على غير موائد أمتهم فآمنوا بقيَمٍ غير قيَمها ، وخصوا بولائهم قبْلةً غير قبْلةُ أمتهم وخدموا أغراضاً لأعدائها ثم احتموا بالمنصب فأساءوا القول والعمل وأحلُّوا الأمة دار البوار ؟!

وليس بلازم أن تكون المناصب التى اعتلوها واحتموا بها مناصب سياسية أو إدارية ، فقد تكون مناصب أخرى أدبية أو اجتماعية ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبَله العذاب ؟

والآفات التى تُسلَّط على الأمة من الداخل أصعب مقاومة بكثير من الآفات الوافدة . وهذا ما قدَّره الصليبى العجوز « لويس التاسع » كما مَرَّ بنا من قبل .

وهؤلاء العملاء يؤدون أدوارهم من خلال محورين ؛ أحدهما : إيجابى بعرض ما ليس فى مصالح الأمة من قيَم وسلوكيات فى ثوب كثيف من التمويه والتزييف .

والثانى : سلبى . حيث يقاومون كل دعوات الإصلاح بما أُوتوا من قوة ويرمون الدعاة إليها بالجمود والتخلف والتزمت والرجعية . وقد يُوقِعون الأذى

الجسماني والأدبي بالدعاة إلى الإصلاح على أسس المنهج الذى لا يصلح حال الأمة إلا به .

ومَن يعود إلى الوراء قليلاً يجد أن ما من قيمة من قيَم الإسلام إلا وقد ووُجهَت من الداخل على أيدى العملاء ، وحُوولَ وضع بديل مكانها ، لتنحل عُرَى الإسلام عُروة عُروة . والهدف إشاعة روح التخاذل بين المسلمين ، والشعور بالنقص دائماً . وكفى بذلك داءً لا أقول يصيب الأمة بالخور فحسب ، بل إنه يمحوها من الوجود محواً إذا قُدِّر له - لا سمح اللّه - المضى حتى النهاية ، ولم يتصد له رجال يعاهدون اللّه على نُصرة دينه ولو أدَّى بهم الأمر إلى الاستشهاد فى سبيله . فإذا تخاذل مسلمو العصر عن نصرة دين اللّه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

هذا وعد اللّه ، ووعد اللّه صدق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

وهذه سُنَّته فى الذين خَلَوا من قبل : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) .

* *

• الإعداد لمباشرة العمل :

بقى أن نذكر فى إيجاز خطوات المبشِّرين والمستشرقين التى أعدُّوها لمباشرة العمل وتيسيره لمن يُستعان بهم فى ممارسته . فالقوم مخلصون لمهتهم متفانون فى تأديتها على أكمل الوجوه التى تحقق لهم رغباتهم . ولما كان اللسان العربى (اللغة العربية) هو وعاء الإسلام ، وكان اتساع نطاق المواجهة بين الإسلام وخصومه يتطلب الاستعانة بطاقات هائلة من البَشر ممن لغتهم غير

---

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الرعد : ٣١ (٣) الفتح : ٢٣

العربية . وأن الشعوب الإسلامية التى أُريد غزوها ليست لغتهم لغة المبشِّرين والمستشرقين ، وكان هذان الاعتباران يصنعان حاجزاً مزدوجاً بين جيوش المبشِّرين والمستشرقين وبين الإسلام نفسه من جهة ، وبين فَهْم أعمال المبشِّرين والمستشرقين وبين الشعوب الإسلامية من جهة أخرى . فكان لا بد من عملين يقوم بهما المبشِّرون والمستشرقون لكسر هذين الحاجزين . وفعلاً قد تم ذلك على النحو الآتى :

العمل الأول : كان العمل الذى أعدوه لإدارة المعركة ضد الإسلام هو المزيد من معرفة الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وتشريعات وسيرة وتاريخاً . وغرضهم من هذا هو البحث فى « صَرْح الإسلام » عن ثغرات يُصوِّبوا الهجوم عليه منها ، ومن البدائه أن أى ناقد لا بد أن يعرف دقائق الأمر الذى يريد أن ينقده . لأن الحكم على الشئ فرع عن تصوره . فإقبال المبشِّرين والمستشرقين على معرفة الإسلام لم يكن حباً فى العلم به ، ولكن ليتمكنوا من الكيد له والانتقاص من شأنه ، وتشويه حقائقه . وقد سلكوا لتذليل هذه الصعوبة مسلكين :

أحدهما : ترجمة أهم المصادر الإسلامية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم وهو أول ما بدأوا به . فقد رعى « صاحب القداسة بطرس » أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم . كما تَرجموا ما لا حصر له غير القرآن من مصادر الشريعة والتراث وكتب السيرة والتاريخ ، كما اهتموا بتحقيق النصوص العربية والإسلامية وقاموا بترجمتها إلى اللغات الأوروبية ليسهلوا درسها وفهمها ، ثم إساءة استعمالها فى مجالى التبشير والاستشراق معاً . ومما يتصل بهذا الجانب عقد المؤتمرات الدولية . وسيأتى حديث خاص عنها .

المسلك الثانى : الاهتمام بتعلم اللغة العربية للأفراد الكبار ثم لطلاَّب الجامعات . فقد تقدمت الإشارة إلى أن بعض المبشِّرين والمستشرقين بذلوا جهداً فى تعلم اللغة العربية ليمكنهم الاطلاع على معارف الإسلام .

أما بالنسبة لطلاب الجامعات فقد قرر مجمع ڤيينا سنة ١٣١٢ م إدخال اللغة العربية فى جامعات : باريس - بولونيا - اكسفورد - سلمنكا ، كما عمل « فرنسيس الأسيزى » على إدخال تعليم اللغة العربية فى المعاهد المسيحية فى الدراسات العليا . وقد اعترف بأن عمله هذا كان من أجل خدمة الكنيسة والتبشير وليس عملاً علمياً بحتاً .

وفى ١٦٣٦/٥/٩ م أنشئ كرسى للغة العربية فى جامعة كمبردج . وقد تضمن قرار إنشائه عبارة تُفصح عن المراد منه :

« ولكنّا نهدف .. إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة .. وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة ، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون إلى الآن - يقصد المسلمين - فى الظلمات » (١) .

وفى إنجلترا أدخل تعليم اللغة العربية فى جامعتيها لهذا الغرض كذلك .

العمل الثانى : ترجمة كتب المبشّرين والمستشرقين والأناجيل إلى اللغة العربية : تغلب خصوم الإسلام على الصعوبة الأولى بالاهتمام بتعليم اللغة العربية وتعليمها لطلأبهم فى الجامعات فأفسحوا أمامهم الطريق لدراسة الإسلام بهدف الكيد له .

أما « الصعوبة الثانية » التى تحول دون فهم عملهم بين الشعوب الإسلامية فقد تغلّبوا عليها بالترجمة إلى اللغة العربية . وبخاصة مختارات من الأناجيل ليسهلوا على ضحاياهم من المسلمين سرعه فهمها والتأثر بها .

* *

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : د . محمد البهى ص٥٨٣ - ٥٨٥

● **خطآن نقع فيهما :**

ونساعدهم - نحن المسلمين - فنترجم الكثير من أعمال المستشرقين حباً فى العلم . وإعجاباً بما كتبوا أحياناً . وهذا فى جملته عمل محمود حتى تتاح الفرصة لمن لا يعرفون لغات المستشرقين من أبناء الإسلام بالاطلاع على ما كتبوا ، لأنهم لم يتركوا مجالاً حيوياً من مجالات الفكر الإسلامى إلا ولهم فيه تأليف . ولكننا نرتكب خطأين فى هذا المجال - بقصد أو بغير قصد - أحد الخطأين نبّه عليه المفكر الإسلامى العالمى الأستاذ أبو الحسن الندوى . أما الخطأ الثانى فقد لفت أنظارنا إليه ما أتيح لنا قراءته من ترجمات إسلامية لبعض مؤلفات المستشرقين . ونشير إلى الخطأين هنا فى إيجاز آملين التخلص منهما حتى يكون ما نترجمه عنهم مفيداً حقاً وخالياً من الضرر .

الخطأ الأول : كان الأستاذ الندوى موفّقاً كل التوفيق فى محاضرته القيمة : « الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين » وقد أشار الأستاذ الندوى إلى بعض مؤلفات المستشرقين التى كثر تداولها فى أروقة العلم والثقافة فى العالم الإسلامى ، ثم قال : « ومما يدل على ضعف العالم الإسلامى والعالم العربى وفقد وسائلهما العلمية أن هذين العالَمين يعتمدان على مؤلفات المستشرقين فى المواضيع الإسلامية الخالصة .. ويُخيَّل إليهم أنه مما ينفرد فى موضوعه ، ويُعَد مصدراً علمياً له أهميته وقيمته لجامعات الشرق فى قسميها العربى والإسلامى ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين فى قسم الدراسات الإسلامية فى الجامعات » (١) .

يريد الأستاذ الندوى أن يقول : إن اعتماد العلماء المسلمين على نتاج المستشرقين قد أغراهم على الاسترخاء والكسل من ناحية حيث اكتفوا بها واعتبروها مادة علمية فريدة فى موضوعها ، وسليمة من الخطأ فى حقيقتها . مشيراً فى موضع آخر أن جلّة المستشرقين قد يدسون مقداراً من « السم » فى أعمالهم . وهذا يدعو إلى التحفظ والحد من الثقة المفرطة فيهم .

(١) المحاضرة ص ١٨ - ١٩

ثم يدعو الأستاذ الندوى إلى أن تخضع كتابات المستشرقين حين نترجمها إلى اللغات الإسلامية إلى فحص ومحاسبة دقيقة على أسس علمية صحيحة حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم وأخطائهم فى فهم النصوص وبيان المعنى (١) .

وهذا توجيه صائب حبذا لو وضعه المسئولون عن الأمانة العلمية والتوجيه العلمى عندنا فى الاعتبار .

وقد فطن أستاذنا المرحوم عباس محمود العقاد من قبل إلى ما دعا إليه الأستاذ الندوى . فكتب مقالاته القيمة « ما يقال عن الإسلام » فى مجلة الأزهر حين كان مديراً لتحريرها . ثم طُبِعت فى كتاب بهذا الاسم فيما بعد .

وكان المرحوم العقاد يتناول فى كل مقال مؤلَّفاً من عمل المستشرقين عن الموضوعات الإسلامية التى كثر تناولهم لها . ثم يلخِّص ما فى المؤلَّف من أفكار . ثم يكتب تعقيباً نقدياً عليه مبيِّناً ما فيه من صواب ، ومفنِّداً ما فيه من أخطاء . وبوفاة العقاد توقف هذا العمل فى مجلة الأزهر وإن تابعه الدكتور الأهوانى قليلاً .

ولصديقنا الأستاذ أنور الجندى إسهام فى هذا المجال فى كتابه « سموم المستشرقين » . وأياً كان الأمر فإن ما دعا إليه الأستاذ الندوى ينبغى أن يكون له أقسام متخصصة فى الجامعات الإسلامية والعربية .

الخطأ الثانى : لحظنا فى بعض الأعمال المترجَمة - إسلامياً - أن المترجم يقف عند حدود النقل إلى العربية دون أن يكتب فقرات فى الهامش عن التصورات المخطئة التى يقع فيها المؤلف صاحب النص موضوع الترجمة . وهذا - فيما أرى - قصور واضح فى أعمال المترجمين . فعلى سبيل المثال وقع « كارل بروكلمان » فى خطأ شنيع فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » حيث يرى أن محمداً ﷺ لم يقل إنه رسول من عند الله إلا بعد أن لمس رواج دعوته فى

---

(١) المرجع السابق ص ٢ .

شبه الجزيرة . ثم خُيِّل إليه أن ما يقوله قرآن موحىً به من عند الله ، فجاهر بأنه رسول (؟!) .

هذا الخطأ الشنيع سواء أكان متعمَداً أو كان سببه جهل المؤلف لم أجد إشارة للتنبيه عليه من الأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار وله مساعدون فى هذا العمل .

ومثال آخر كتاب « حضارة العرب » لـ « چوستاف لوبون » الذى ترجمه المرحوم زعيتر ونشرته دار إحياء التراث (عيسى البابى الحلبى) بالقاهرة . ورد فيه خطأ متكرر مرات من المؤلف بأن القرآن من تأليف « محمد » ﷺ (؟!) وقد مَرَّ المترجم على هذا الخطأ مرور الكرام دون أن يكتب أى تعليق عليه فى أى موضع من المواضع التى ورد فيها .

وهذه الأخطاء المسكوت عنها من « المعرِّبين » أخطاء ظاهرة لا تحتاج إلى متخصص فى علوم الدين ليكتشفها ثم يقوم بالتنبيه عليها . فتركها بدون تصويب يلقى باللائمة على السادة المعرِّبين ولا يُجدى عنهم أى دفاع .

* *

● هيئات متعاونة :

ونقترح - هنا - اقتراحاً آملين أن يجد آذاناً صاغية . وملخص هذا الاقتراح أن تتم ترجمة ما نرى ترجمته بواسطة هيئة علمية متعاونة متكاملة ، يكون بها أعضاء متمكنون من اللغة المترجَم عنها ، ثم إذا كان الكتاب موضوع الترجمة واحداً من العلوم الشرعية وجب أن يكون بالهيئة متخصصون فى تلك العلوم يقرأون النص العربى المترجَم ، ويصوِّبون - هامشياً - ما فيه من أخطاء مع إبقاء المادة المترجَمة كما هى حرصاً على أمانة النقل .

وإذا كان الموضوع لُغوياً اشترك فى العمل متخصصون فى العلوم اللُّغوية ليقوموا بنفس الدور . وهكذا إذا كان الموضوع تاريخياً . إلخ ... إلخ . على أن لا يتم اختيار عمل ما للترجمة إلا بعد تقديم تقرير عنه من متخصصين فى لغة

المؤلف فإذا كان فيه إضافة حسنة للمعارف والعلوم أقررنا ترجمته .. وإلا وَفَّرْنا الجُهد والمال وأعرضنا عنه وبذلك نتجنب الأخطار والسموم التى يدسها المستشرقون فى كتاباتهم عن الإسلام والشرق .

* *

● المأمون وهذا الاقتراح :

ومن الطريف - حقاً - أن الخليفة المأمون العباسى حين أنشأ « دار الحكمة » استعمل فى نقل الكتب إلى « العربية » مَن يجيدون اللغتين المترجَم عنها والعربية من السريان وغيرهم . ثم أنشأ هيئة علمية من فضلاء المسلمين تقرأ النص العربى المترجَم وتقوم بتنقية المادة المترجَمة من الأخطاء والأضرار التى تتجافى والقيَم الإسلامية ، والاقتراح الذى نتقدم به هنا ما هو إلا إحياء لما سبق أن قام به المأمون مع تعديل نراه ضرورياً . وهو ما أشرنا إليه من قبل من أن تبقى المادة المترجَمة كما هى فى صلب الكتاب .. ويكون التصويب تعقيبات وتعليقات تُثبَت فى الهوامش .

ويبلغ الحرص مداه ، والوعى غايته إذا عملنا على إصدار كتاب متتابع نرصد فيه الأخطاء الجسيمة التى يقع فيها المستشرقون وخصوم الإسلام ، وننقدها نقداً علمياً وموضوعياً ، ونُسهِّل وصول هذا الكتاب إلى أيدى الشباب لنحميهم من الانخداع والشكوك . ونضع أقدامهم على الطريق الصحيح .

* *

● مؤتمرات المستشرقين :

من المحاور الحيوية جداً ، والخصبة جداً التى اتخذها المستشرقون للنفاذ إلى أهدافهم : عقد المؤتمرات الدولية ، كما اتخذها المبشِّرون من قبل . بَيْدَ أن الفَرْق كبير بين مؤتمرات المبشِّرين ومؤتمرات المستشرقين . وإن كان الهدف واحداً هو : التربص بالإسلام والمسلمين بغية الإطاحة بهما معاً .

فمؤتمرات المبشِّرين إنما هى بمثابة « غُرف عمليات مغلقة » كل أعضائها من أهل المهنة (التبشير ضد الإسلام) وليس من المستساغ أن يُدْعى لحضورها أعضاء مسلمون .

أما مؤتمرات المستشرقين فهى مجال مفتوح أمام المسلمين وغيرهم ؛ لأنها تعمل تحت شعار ديبلوماسى . وموضوعاتها تسمح بدعوة المسلمين إليها والمشاركة فيها ؛ لأنها موضوعات مُعَدَّة بذكاء شديد ، وكثيراً ما تكون هذه الموضوعات « إسلامية صرفة » تُدرس بواسطة جميع الأطراف بعد أن يُختار لها ظاهراً براقاً هو بمثابة « الطُّعم » الذى يقود الفريسة إلى « المصيدة » . وهذا ما سيظهر لنا من العرض الوجيز الآتى ...

* * *

الفصل التاسع

الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة

هذا عنوان لموضوع ثاني مؤتمر استشراقى يُعقد فى جامعة « برنستون » الأمريكية ، وكان المؤتمر الأول قد عُقِد فى نفس الجامعة « برنستون » عام ١٩٤٧ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وكان موضوعه : « الشرق الأدنى مجتمعه .. وثقافته » ودُعِىَ إليه أعضاء مسلمون من آسيا وإفريقيا .

أما هذا المؤتمر : « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » فقد عُقِد عام ١٩٥٣ ، والبحوث التى قُدِّمت فى المؤتمرين كلها تدور حول قُطب واحد ، هو تطور الفكر والحضارة الإسلامية فى جانب لتلائم روح العصر (؟!) هذا هو الهدف المعلن (البرىء) ، أما الأهداف الحقيقية من وراء هذه المؤتمرات التى موَّلتها أمريكا ، ونظَّمتها وأشرفت عليها فكانت بعيدة عن الأنظار حتى على الأعضاء المسلمين - الذين اختيروا بعناية خاصة - وذلك سيظهر من آرائهم وبحوثهم التى تقدّموا بها للمؤتمر . حيث تورَّطوا فيما لا يُحمد عقباه ، ولم يسلم منهم أحد حتى الذين عُرِفوا بالغيرة على الإسلام فى أوطانهم ؟!

وكان اختيار الأعضاء من الجانبين - الأمريكى والإسلامى - يقوم على اعتبارات تخدم الأهداف المرجوَّة من هذه المؤتمرات . فمثلاً كان الأمريكيون إما قسساً ورجال لاهوت ضليعين فى تخصصاتهم ، وإما رجال سياسة سبق لهم العمل ممثلين لبلادهم فى بلاد إسلامية ، ولذلك فإن ما كان يدور فى جدول

أعمال تلك المؤتمرات وطريقة معالجته مثيراً للريبة ، وكاشف القناع عن حقيقة الأطماع التى عُقدت من أجلها المؤتمرات ، وتُعقد .

فمثلاً ... الدكتور « ميلر بروز » أستاذ الفقه الإنجيلى فى جامعة « ييل » له جهود متواصلة فى التبشير ضد الإسلام .

والدكتور « هارولد سميث » أستاذ ونائب ورئيس قسم الديانات بكلية « ووبستر » بولاية « أوهايوا » الأمريكية . وكان قبل هذا أستاذاً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والدكتور « چون كريزويل » الذى كان ملحقاً للعلاقات الثقافية ببيروت .. هؤلاء وأمثالهم كانوا أعضاء فى هذا المؤتمر ممثلين صادقين لإدارة الولايات المتحدة العليا .

أما الأعضاء المسلمون فقد اختيروا من ثلاثة طوائف :

١ - الذين تخرجوا من الجامعات الأمريكية ، إما فى القاهرة أو فى بيروت .
٢ - الذين أتموا دراساتهم العالية فى جامعات أمريكا نفسها .

٣ - الذين يشغلون مناصب قيادية فى بلادهم كوزراء المعارف أو رؤساء تحرير الصحف ، ولم يُعرف عنهم صلابة فى دينهم .

وقَلّ أن يُختار عضو مسلم لا تنطبق عليه الشروط السابقة . وحتى هؤلاء قد بهرهم كرم الضيافة . وسحرهم بريق الحضارة الغربية فراحوا - فى لين وخفة - يحاولون التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية ونُظُمها الوضعية . وعلى حساب الإسلام - طبعاً - فقد أحسوا أن الإسلام متهَم أمام الحضارة الغربية فراحوا يُزيِّفون الإسلام بإلباسه ثياباً مستعارَة ، وطبعاً هذا هو المطلوب لأمريكا صاحبة « الائتمار » والمنفقة السخية عليه .

ونتقل للقارىء الكريم مقتطفات من وقائع المؤتمر [1] :

---

(١) الجدير بالذكر أن مؤسسة فرانكلين نشرت وقائع المؤتمر فى كتاب باسم المؤتمر نفسه : « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » .

فالأستاذ الدكتور مصطفى الزرقا ، وهو مَن هو فى مجال الدعوة والفقه يقدِّم تنازلات تحت أضواء المؤتمر الباهرة فيقول : « فالصفة الدينية فى الفقه الإسلامى لا تنافى أنه مؤسَّس على قواعد مدنية بحتة (؟!) منتجة لفقه متطور كفيل بوفاء الحاجات العصرية وحل المشكلات النابتة فى الطريق » (ص ١٥٧) .

وفى هذا الكلام عدة أخطاء منها تعميم أن الفقه الإسلامى كله مؤسَّس على قواعد مدنية بحتة يعنى مثل القوانين الوضعية . وهذا مطلب مرغوب فيه عند المستشرقين .

ومنها : إخضاع الفقه للحاجات العصرية بدلاً من إخضاع الحاجات العصرية لكليات الفقه الإسلامى . وسيأتى أن « العضو » قد ورَّط نفسه فى مخالفات صارخة إرضاءً لمطامع المستشرقين وإن كانت النية حسنة ، فيما نرجِّح .

ومنها : نسبة التطور للفقه الإسلامى ، وهذه عبارة كالسكين ذات الحدين فقد يُراد منها تنازل الفقه الإسلامى عن أحكام سابقة بالحِلِّ أو المنع ، فيحلِّل ما مُنِعَ ، ويمنع ما أُحِلَّ . وهذا مطلب آخر يسيل له لعاب المستشرقين والمبشِّرين ومن ورائهم الاستعمار (؟!) .

ولو أن « العضو » قال : إن الفقه الإسلامى بما فيه من أصول كلية صالح لاستيعاب كل المعاملات المستحدَثة ، وإصدار أحكام لها فى إطار الأصول العامة للإباحة والمنع ، لشكر اللّه والناس له موقفه . ولأثابه اللّه خيراً ، أما أن ينحدر هذا الانحدار فالأمر جد خطير .

ويقول عن الحدود الإسلامية : « فإذا لوحظ أن تطبيق بعض عقوبات الحدود الأربعة [1] أصبح متعذراً فى أى زمان أو مكان فمن الممكن تطبيق عقوبة أخرى ولا يوجب هذا ترك الإسلام » (؟!) (ص ١٥٨) .

وهذه محاباة ظاهرة لفكر المستشرقين ، وتصديق لدعاواهم ودعاوى المبشِّرين الذين يطعنون فى التشريع العقابى الإسلامى ، ويرون فى قطع يد السارق ،

---

(١) يقصد عقوبات : الزنا - السرقة - شرب الخمر - الردة .

وجلد الزانى (غير المحصن) وجلد شارب الخمر ، يرون فى ذلك قسوة ووحشية . فجاء كلام الدكتور الزرقا محاولة « طريفة » لإسقاط الحدود ، و « سخيفة » فى نفس الوقت .

وهو – كذلك – فى ذكره للحدود الإسلامية اقتصر على « الجَلْد كعقوبة للزانى ، وأهمل « الرجم » فلم يكن أميناً فى العرض ، ولا حريصاً على « شخصية » الإسلام .

وخطأ فاحش وقع فيه الدكتور الزرقا وهو بصدد الحديث عن نشاط البنوك فى الغرب ، ومنها تقاضيها الفائدة الربوية على القروض ...

فماذا قال الدكتور الزرقا يا ترى ؟ اسمع :

« إن هذه المشكلة : يمكن حلها فى مبادىء الشريعة الإسلامية بطرق عديدة (منها) الرجوع إلى تحديد الحالة الربوية التى كان عليها العرب ، وجاءت الشريعة بمنعها . إذ كان المرابون يتحكمون كما يشاءون فى الفقير المحتاج إلى القرض الإستهلاكى لا « القرض » الاستثمارى » (؟!) (ص ١٥٩) .

وهكذا مضى الدكتور الزرقا يتودد للغرب ليرضى عن الإسلام وعلى حساب الإسلام – وحده – وكان بوسعه أن يتحدث عن مزايا الاقتصاد الإسلامى ، ومنها حظر الربا ، ويبيِّن المضار التى تترتب على الربا الفردى والجَماعى . وكان بوسعه أن يقول للقوم : إن تحريم الربا ليس وقفاً على الإسلام . فقد حرَّمته اليهودية وحرَّمته المسيحية قبل الإسلام – وإن لم يسلم التحريم فى اليهودية من تحريف – وأن كثيراً من زعماء الفكر الغربى الإصلاحى قد ذموا الربا مثل « مارتن لوثر » الذى وصف فوائد الربا بالسرقات المقنَّعة .

*

وإذا ودعنا الدكتور الزرقا وكانت كلماته فى المؤتمر « معاول » حَطَم بها حصون الفقه والتشريع لإحداث ثغرات ينفذ منها أعداء الإسلام للانقضاض على الإسلام نفسه . فإننا نقف أمام « قذائف هدم » أخرى . ولكن فى هذه المرة مصوَّبة ضد « العقيدة الإسلامية » فقد كان من أعضاء المؤتمر الدكتور فضل

الرحمن الهندى . فقد اشترك ببحث عن « الفلسفة الإسلامية الحديثة » وشطر الإسلام شطرين .

أحدهما الإسلام فى عصر النبى ﷺ وسماه : « الإسلام الكلاسيكى » ثم كان الشطر الثانى عنده هو « الإسلام فى العصر الحديث » وقال :

إن الإسلام الحديث متأثر بالمذاهب الغربية ، وهو الذى قامت من أجله فى الهند « جامعة عليكره » التى أنشأها السيد أحمد خان وسماها عند إنشائها : « الكلية المحمدية الإنجليزية » (؟!) .

ويدعوا ؛ الدكتور فضل الرحمن الهندى - صراحة - إلى إعادة النظر فى العقائد الإسلامية ، لأن المعرفة تسير - دائماً - إلى الإمام ولن تتوقف . يقول الدكتور فضل :

« إن العقل الإنسانى لا يقف قط ، والمعرفة دائماً تسير إلى الأمام ، وكل تغيير كبير فى رأى الإنسان عن العالَم يستلزم ترجمة جديدة وإعادة تغيير للحقائق الأساسية للعقيدة » (ص ٩١) .

وهذا خطأ محض ؛ لأن العقيدة خبر صادق يُتلقى عن الوحى - هذا فى الإسلام - ويقام على صدقها قواطع الأدلة . وليست العقيدة - وبخاصة الإسلامية - مجالاً للنظر والتعديل . ولكن المنافسة فى إرضاء - الخصوم - دعت الدكتور فضل الرحمن الهندى إلى هذا الحد من الاستخفاف بالإسلام وأصوله . ويبدو أن الأدوار كانت قد وُزِّعت بعناية . فذاك للإطاحة بالشريعة ، وهذا للإطاحة بالعقيدة . ، وهلم جراً يا ترى .

*

وتعال معى إلى نموذج آخر شديد الخطورة . فقد كان من أعضاء المؤتمر المسلمين الدكتور آصف على فيظى الإسماعيلى المذهب (أحد مذاهب الشيعة) وكان سفيراً لبلاده « الهند » فى مصر . قدَّم الفيظى هذا بحثاً للمؤتمر عنوانه : « القانون الإسلامى واللاهوت فى الهند .. مقترحات لاتجاه جديد » يدور هذا البحث حول النظر فى الإسلام ومحاولة إخضاعه لحضارة الغرب المعاصرة ، وللفكر اليهودى وجميع المعارف العصرية (؟!) .

على أن يتم ذلك بالتدريج لا طفرة (؟!) ولا نريد أن نطيل فى الحديث عن بحثه . ولكننا ننقل منه فقرات وجيزة دالة على انسياق الرجل وراء خصوم الإسلام ، ومنهم المستشرقون . يقول الفيظى :

« ينبغى أن يُعاد النظر فى اللاهوت الإسلامى من جميع نواحيه (؟!) وينبغى أن تستخدم الفلسفة الحديثة ، والميتافيزيقا - يعنى البحث العقلى ، والأخلاق وعلم النفس والمنطق - فى صياغة القواعد الأساسية وإعادة تقريرها » (؟!) .

(ص ٤١١)

إنها دعوة إلى « ذبح الإسلام » و « تقطيعه أشلاء » فى أحد مجازر المستشرقين ، وبتدبير من أمريكا الداعية لعقد المؤتمر ، والمختارة لأعضائه والمنفقة عليه بسخاء فى أرضها وفى إحدى جامعاتها وعلى يد عميل من عملائها .

ثم يقول الفيظى : « فالتيار المعاصر من الفكر الأوروبى ، والتقدم العظيم الذى حققه المفكرون البروتستانت (؟!!!) منذ أيام لوثر ... وتأملات المفكرين اليهود وغيرهم فى العالم الحديث يجب أن تستخدم فى بصيرة لتقوِّى وتجدد اللاهوتية الإسلامية » (ص٤١١) .

أشهد أن هذا الرجل حينما قال هذا القول أنه لم يكن يحقق من الإسلام فى نفسه شيئاً سوى النسبة الظاهرية إلى الإسلام والمسلمين ، وكيف يكون مسلماً حقاً وهو يدعو إلى الإمساك بتلابيب الإسلام وتقديمه إلى النصارى واليهود ليطوِّروه ؟! أهذا كلام يصدر من عاقل ؟ كلا والله . أهذا كلام يصدر من مسلم صادق فى إسلامه ؟! كلا والله ، ويقينى أن اتصالات « ما » جرت بين منظمى المؤتمر وبين هؤلاء الأعضاء المارقين ، وكُلِّف كل عضو بما يناسب أهواءه وصلته بالإسلام . فجاءوا إلى المؤتمر وقالوا منكراً من القول وزوراً .

*

ثم جاء دور أندونسيا . وقد مثَّلها فى المؤتمر (إياه) الدكتور محمد كفراوى ، وكان يشغل منصب السكرتير العام لوزارة الشئون الدينية فى بلده ، وكان نصيب هذا الرجل من النفاق لمنظمى المؤتمر له وزن وتقدير لدى خصوم الإسلام ... وننقل من كلامه فقرتين كذلك ليشترك معنا القارىء فى تصور الهوة التى تردى فيها :

قال : « إن إنشاء وزارة للشئون الدينية فى أندونسيا ، إنما جاء توسطاً بين النظرية العلمانية المسيحية التى تفصل الدولة عن الكنيسة ، والنظرية الإسلامية التى توحِّد بينهما » (؟!) (ص ٣٧٩) .

ومعنى هذا أن الدكتور كفراوى يقول لأمريكا ومنظمى مؤتمرها : إننا (أندونسيا) صرنا دولة نصف مسيحية ونصف إسلامية بل إننا خطونا خطوة رائدة للمصالحة بين المسيحية والإسلام (؟!) .

وقال الكفراوى : « إن حكومته تعين المساجد والكنائس على قدم المساواة (؟!) وتحمى بقوة القانون النشاط التبشيرى الأجنبى منه والأندونيسى » (؟؟) (ص٣٧٩) .

أى أن أندونسيا فوق مساواتها بين المسجد والكنيسة توفر كل أسباب الأمن والحرية والراحة للمبشِّرين الذين يُنَصِّرون المسلمين فى أندونسيا . سواء أكان المبشرين محليين أو كانوا عالميين قد وفدوا إلى أندونسيا من الخارج .

وهذا - بالطبع - يُسعد أمريكا وغيرها من الدول الصليبية ويُسعد السادة المستشرقين ؛ لأنه نجاح لهم وأى نجاح ؟!

هذا ما تيسَّر نقله من وقائع المؤتمر . ولك - الآن - أن تسأل :

إذا كان هذا هو ما قاله المسلمون المشتركون فى المؤتمر ، وفيه كفر صراح فماذا قال المستشرقون يا تُرى ؟

ولنا أن نجيب : إنهم اكتفوا بعبارات التشكيك « المغطى » ورسم الخطط ولم يعوزهم السادة المسلمون إلى شئ يقولونه . فقد عبّروا عن آمال الصليبين فى وضوح . ولا نملك ونحن ننهى الحديث عن هذا المؤتمر إلا أن نقول :

أولاً : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (1).

ثانياً : « ربنا : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا » .

* * *

(١) الكهف : ٥

الفصل العاشر

المواجهة من الداخل فى ظل الاستعمار

● **خطة عامة . ووسائل متشابهة :**

حين يفترس الاستعمار بلداً إسلامياً . فإنه يعيث فيه فساداً بوسائل مختلفة ومناسبة « جداً » للبلد الذى خضع لسلطانه ويصوِّب سهامه للقضاء على الإسلام فى ذلك البلد ، أو النَيْل منه بقدر المستطاع . والخطة العامة التى يتبعها المستعمرون هى نقل الحضارة الغربية لديار الإسلام ، وإحلالها محل الحضارة الإسلامية إذا كان ذلك مستطاعاً ، أو مزج الحضارتين معاً بحيث تنماع « الشخصية الإسلامية » للبلد المستعمَر ، أو تزول نهائياً إذا أمكن ذلك .

ويترتب على ذلك إذابة المجتمع الإسلامى فى قوالب الحضارة الغربية الخالصة ، أو الحضارة الممزوجة « الجديدة » وهذا هو الغالب كما ينبىء عنه الواقع ، حضارة لا شرقية ولا غربية (؟) وتتغير أنماط العقائد والفكر والسلوك ، بإحلال قِيَم جديدة محل القِيَم الإسلامية الأصيلة .

إنهم - المستعمرين - يقومون بعلميات « غسيل مخ » تخرِّب الشباب المسلم من « الداخل » وإن بقى فى ظاهره مسلماً عن طريق الوراثة والموطن وشهادة الميلاد .

ويعجبنى تعبير قرأته لأحد حكماء المسلمين فى الهند ، يقول فيه : « إن الشرقى - يعنى المسلم والعربى - إذا أراد القضاء على عدوه « شج

رأسه » ، أما الغربى فإنه يُبقى على حياة عدوه ، ولكنه يميته موتاً آخر فيغيِّر عقله وقلبه » (؟!) .

كلام حكيم فعلاً . وقد أدرك الاستعمار وأعوانه من المبشِّرين والمستشرقين خطورة هذا المنهج ، فطبَّقوه بكل حرص لمسخ المجتمعات الإسلامية مسخاً « معنوياً » وحققوا بممارسته من رغباتهم ومطامعهم ما عجزت عن تحقيقه قنابلهم ومدافعهم وصواريخهم وقوّاتهم الضاربة براً وبحراً وجواً .

ومن فضول القول أن نعيد : أن أوروبا أدركت أن سر قوة المسلمين واعتزازهم وانتصاراتهم المذهلة - يوم كانوا مسلمين بحق - إنما هو الإسلام ، والإسلام وحده . فاسمع إلى أحد مستشرقى أوروبا وهو « شاتليه » إذ يقول لقومه فى كتابه : « غزو العالم الإسلامى » : « إذا أردتم أن تغزوا العالم الإسلامى ، وتخضدوا شوكته ، وتقضوا على هذه العقيدة التى قضت على كل العقائد السابقة (عليها) واللاحقة لها . والتى كانت السبب الأول والرئيسى لاعتزاز المسلمين وشموخهم . وسبب سيادتهم وغزوهم للعالم .. عليكم أن توجهوا جهود هدمكم إلى نفوس الشباب المسلم ، والأمة الإسلامية ، بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم ، وكتابهم : القرآن (؟!) وتحويلهم عن كل ذلك بوساطة نقل ثقافتكم وتاريخكم ونشر روح الإباحية ، وتوفير عوامل الهدم المعنوى . وحتى لو لم نجد إلا المغفلين منهم والسذج البسطاء لكفانا ذلك (؟!) لأن الشجرة يجب أن يتسبب لها فى القطع أحد أغصانها » (ص ٢٦٤) .

يرسم المستشرق « شاتليه » طرفاً من الخطة العامة التى يجب أن تمارَس بين المسلمين عن طريق « الرفع والإحلال » : رفع كل ما هو من صميم الإسلام : عقيدة وخُلُقاً وسلوكاً .. وإحلال كل ما هو غربى مدمر لكيان المسلم . أو مسخ المسلم داخلياً بقتل إسلامه ثم تركه يحيا كما تحيا الأنعام بل هو أضل .

ويمكن الإشارة إلى المحاور أو الوسائل التى يستعملها أعداء الإسلام لتحقيق مخططاتهم فيما يأتى :

التربية والتعليم - التشريع - وسائل الإعلام - الاقتصاد - الطائفية - إحياء الحضارات القديمة السابقة على الإسلام - شئون المرأة - الفنون والآداب والثقافة العامة - الاحتفاء بالمارقين عن الأصالة - تولية شئون البلاد لقيادات لا دينية مع منحهم الألقاب الخادعة - تكوين عملاء وطنيين يروِّجون لسياسة المستعمر .. إلخ . إلخ .

وما من بلد إسلامى خضع للاستعمار إلا اتبع الاستعمار هذه السياسة فيه حسب الظروف المواتية لكل بلد ، وهم يحرصون على تأصيلها فى النفوس لتؤدى دورها حتى بعد رحيل الاستعمار . إذ ليس المهم عندهم أن يبقوا فى البلد المستعمَر طوال الدهر ، بل المهم أن تبقى حضارتهم وخططهم ؛ وهذا هو الواقع الملموس الآن فى كل البلاد الإسلامية التى عاش بها الاستعمار حيناً من الدهر . ثم رحل .

* مخاطر التعليم :

ففى مراحل التعليم المختلفة يجد خصوم الدعوة المجال فسيحاً لغرس مبادئهم إما فى أسلوب سافر ، أو طرق ملتوية ، وأول ما يولونه عنايتهم هو لغات الغزاة ومحاربة اللغة العربية ، بإشاعة التهم المنفرة حولها ، فهى مرة لغة معقدة صعبة . وقواعدها جافة ، وأساليبها بالية عنيفة ، ومرة أنها لم تعد تصلح للحياة العصرية . ولذلك ينبغى أن تنزوى فى ركن محدود من الحياة : لغة صلاة وتراتيل دينية . أما لغة الغزاة فهى اللغة الأولى فى التعليم كما حدث للغة الفرنسية فى شمال غرب إفريقيا ، وكما حدث للإنجليزية فى مصر فى عهد الاحتلال . وإن كان لا بد من لغة عربية على نحو ما فاللهجات العامية تكفى لخفتها وخلوها من القواعد والرسوم ؛ والهدف من القضاء على اللغة العربية الفصحى هو عزل الأجيال الحاضرة والآتية عن الإسلام .

وتمضى الخطة فى طريقها فتوظف كتب القراءة والمطالعة كبدائل لاهية فتعرض فيها موضوعات تافهة تمجد القومية والوطنية والقيَم الزائفة ويُنأى بها عن الموضوعات الجادة التى تحمى العقيدة والخُلُق والفكر الأصيل والسلوك القويم ،

وتسهم بما اختير لها من موضوعات فى خلق جيل ضيق الأفق ، محدود الصلة بدينه وتاريخ أمته .

وفى المواد العلمية تُدرس النظريات المهيئة للإلحاد بعناية ، وتُعرض على أنها حقائق علمية ثابتة كنظرية « داروين » فى التطور والانتخاب الطبيعى .

*

* أما فى التشريع :

فكما مرَّ بنا من قبل ، يبدأ المستعمرون بإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية ، وإحلال القوانين الوضعية محلها ، سواء أكانت مستوردة خالصة ، أو محلية قائمة على مبادىء القانون الوضعى الذى أرست أصوله الثورة الفرنسية تحت شعار برَّاق أطلقوا عليه الديمقراطية يزعم أن الأُمة أو الشعب هو مصدر السلطات . فالأمة أو الشعب هو الذى يسن القوانين ويعدِّلها حسب هواه ، ويولى مَن يقوم بتطبيق تلك القوانين . فالحاكمية - مطلقاً - للأمة أو الشعب ، ويعتمدون فى هذا الزعم على نظرية وهمية تخيلها « چان چاك روسو » . فآمن بها الغرب تم نقلها إلى الشرق الإسلامى فارتمت فى أحضانها كثير من دوله وآمنوا بالوهم « الچان چاك روسو » . وطافوا حول كعبته وصَلُّوا إليها ونسوا حظاً مما ذكَّرهم به ربهم فى القرآن الأمين ، وقام عليه أمر الأمة حيناً من الدهر . ومبدأ « الأُمة مصدر السلطات » أول مَن عرفه فى التاريخ هم المسلمون ، ثم نقلته أوروبا وحرَّفته فضلَّت وأضلت ؟!

فالحكم بما أنزل اللّه واجب ، وهو السمة التى تفصل بين الحكومة الإسلامية الواجبة الطاعة ، والحكومة اللا إسلامية . وإن ارتفعت فيها المآذن ، ودوَّى فى أرجائها الأذان خمس مرات فى اليوم ، وأقيمت فيها الصلاة ، وتُلِىَ فيها القرآن ، وحج القادرون من أبنائها واعتمروا ؛ لأن الإسلام كلٌّ لا يقبل التجزئة ، وهو كما قال الأستاذ محمد أسد - الذى كان مسيحياً فأسلم ؛ لأن الإسلام جذبه إليه جذباً - قال ذلك الرجل بعد دراسة متأنية ومستوعبة للإسلام فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » : « ليس فى الإسلام شئ غير مُحتاج إليه ،

ولا إلإسلام محتاج إلى شئ ليس فيه ، وإنما يؤتى الإسلام ثماره إذا أُخِذَ كله » [1] .

والاستعمار حين ألهى المسلمين ببدائل عن الإسلام ، ومنها القوانين الوضعية التى أحلّها محل الشريعة ، قد أوقع المسلمين وقادتهم فى حَرَج أمام اللّه ورسوله . ولسنا ندرى ماذا هم قائلون لربهم وهم يتلون قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [2] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [3] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [4] .

ونتيجة لعمل الاستعمار الدءوب فى هذا المجال (التشريع) فقد تحللّت معظم البلاد الإسلامية من التشريع الإسلامى ، ووضعت مكانه تشريعات وضعية هزيلة ، ترى ذلك فى مصر ، وسوريا ، والعراق ، وتونس ، والجزائر ، والسودان ، واليمن ، وليبيا ، والمغرب ، والأردن ، ثم البلاد الإسلامية غير العربية ، إلا مَن عصم اللّه .

*

* جنايات الإعلام :

ومن وسائل الإعلام بذل الاستعمار ، ويبذل أعوانه – الآن جهوداً مكثفة لمسخ الشخصية الإسلامية ، وطبع المجتمعات الإسلامية بالطابع الغربى فى كل كبيرة وصغيرة . وإعلامنا أصبح له موقف ثابت من بعض الظواهر ، فإذا تعارض اتجاهان أحدهما محافظ على الأصول الإسلامية ، والآخر متمرد عليها فإن إعلامنا يُلقى بكل ثقله لمناصرة الاتجاه المتمرد .

---

(١) انظر : كتابه ص ١٥ (٢) المائدة : ٤٤

(٣) المائدة : ٤٥ (٤) المائدة : ٤٧

وإذا شذَّ مفكر أو كاتب وانحرف عن الجادة ، وتطاول على شريعة الله ، أو أحلَّ حراماً فسرعان ما يقف الإعلام بجانبه ويُضفى عليه من الألقاب ما يكون مدعاة لتصديقه ، وهو دائماً - أعنى الإعلام - مصبوغ بصبغة غربية ، ويفتح أبوابه على مصاريعها لكل فكر مضاد باسم حرية الرأى أو التقدمية . ويضيق كل الضيق بالآراء التى تصوِّب الخطأ ، وتعرِّى الباطل . وهنا تجد لدى الإعلام أذناً من طين وأذناً من عجين ، ويضع على عينيه عصابة فلا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ؟!

ومن مساوىء الإعلام اهتمامه بالفنانات والفنانين ، والممثلات والممثلين ، ونشر الصور العارية المثيرة لنزوات الشباب وبخاصة المجلات الأسبوعية . بالإضافة إلى الإلهاء المستمر بالأبواب الثابتة عن الفنون والكرة وتسليط الأضواء على الأشخاص الذين لا يؤدون دوراً إيجابياً فى حياة الأمة ، وكأنهم هم الناس كل الناس . ولا تقيم شأناً للجادين والمكافحين كفاحاً حقيقياً فى الحياة .

هذا ، وقد ترك الاستعمار من ورائه كراهية شديدة لذوى الميول الدينية ، وقد ورث الإعلام عنهم هذه الكراهية فتراه يلاحق هؤلاء بالمطارق والفئوس ، ويترصدهم ويسخر منهم إما بالرسوم الكاريكاتيرية والنكات اللاذعة . وإما بنشر المقالات الطويلة والمتتابعة للتشنيع على هؤلاء المتطرفين والرجعيين .

فالتمسك بالدين وآدابه عند الإعلام رجعة إلى الوراء .. ؟ وعبادة الله والدعوة إلى طاعته عند الإعلام هوس دينى .. ؟! والخروج عن الدين وآدابه تحرر ومعاصرة وخفة دم ؟!

والدعوة إلى انسلاخ الأمة عن قيمها وتولية وجوهها شطر الغرب وحضارته تفتح وانطلاق .. ؟!

وقد ساعد على أن يقوم الإعلام بهذا الدور الخطير فى الترويج لمخططات خصوم الدعوة أن كثيراً من العاملين فى حقول الإعلام فى البلاد الإسلامية مخدوعون بالغرب وحضارته إلى أبعد مدى ، ويغلب على رؤساء المؤسسات

الإعلامية أن ثقافتهم نفسها ثقافة مدنية ، تلك التى رسم مناهجها الاستعمار قبل رحيله ، وسارت البلاد عليها مع تطور طفيف . ولم يتفق لقُطر إسلامى أن تولَّى رياسة مؤسسة إعلامية فيه رجل مثقف ثقافة دينية . فكيف تتوقع من أُمِّيٍّ فى الدين أن يصونه ويرعاه فيما يُنشر وما يُقال عنه فى المؤسسة التى هو يرأس مقاليد الأمور فيها ؟!

وبقيت حقيقة ينبغى أن نعيها كل الوعى ، وهى أن نصارى الشام كانوا هم الروَّاد فى مجال الإعلام الصحفى فى العالم الإسلامى العربى وهم إما خريجو الجامعة الأمريكية ببيروت ، وإما خريجو الجامعات الغربية أصلاً . وهم مشبعون بالمبادىء التبشيرية والاستشراقية وكانوا - كما يقول البرت حورانى فى كتابه الذى صدر عام ١٩٦٢ ، وهو (Thougrt in The liberalage Arabic) - أسبق أبناء العرب إتصالاً بالثقافة الغربية وساعدهم على ذلك حذقهم المبكر للغة الإنجليزية واللغة الفرنسية .

ومنهم مَن نزح إلى مصر ، وأصدر بها صحفاً أو مجلات مثل : سليم وبشارة تكلا اللذين أسسا جريدة « الأهرام » عام ١٨٧٦ ، ويعقوب صروف وفارس نمر صاحبى جريدة « المقتطف » ، وجورجى زيدان صاحب مجلة « الهلال » . فالإعلام الصحفى فى البلاد الإسلامية العربية كانت له منذ البداية ميول للحضارة الغربية ، ولم يستطع الإعلام الإسلامى العربى - حتى بعد تفلته من الأيدى الصليبية - أن يتخلص من تلك الميول إلى الآن . ولو كان قد قُدِّر للإعلام الإسلامى أن يقف موقفاً موالياً للأصالة الإسلامية لأمكنه - بقوة تأثيرة - أن يغيِّر وجه التاريخ المعاصر فى الشرق . ولكن هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟! واليوم يزداد الإعلام الإسلامى عنفاً وضراوة ضد المسائل الإسلامية حين اكتظت أروقته بالأقلام والقيادات العميلة من الماركسيين والعلمانيين سواء أكانوا يعملون فى مؤسساته ، أو يكتبون من الخارج ، بغية التخريب والتغريب !

وما أكثرهم وما أجرأهم ولا يخدعنك أن بعض الصحف ، أو البث الإعلامى المرئى أو المسموع يخصص جانباً من نشاطه للموضوعات الدينية ، فإن الباعث على هذا - وبخاصة فى الصحف - الرغبة فى اجتذاب القرَّاء ، وبخاصة فى ظل الصحوة الإسلامية المعاصرة . ويستوى عندها - أعنى الصحافة - الأبواب الأسبوعية التى تنشر خلالها مواد دينية ، وأبواب الكلمات المتقاطعة مثلاً . فكلاهما يلبيان حاجة القرَّاء ، بصرف النظر عن الإيمان بصدق التوجيه .

إن تاريخ الإعلام عندنا مؤسف .. والثقة فيه مفقودة . وخدمته لأهداف أعداء الأمة أكثر مرات من خدمته لأهداف الأمة الحقيقية . وجناياته على مصالحها العليا هى أبرز ملامحه منذ وُجِدَ وإلى الآن .. ؟!

*

* الإفساد الاقتصادى :

فى العالم المعاصر مذهبان اقتصاديان كبيران وضعهما الفكر البَشرى الخالص ، الذى لم يستند إلى أصول شرعية سماوية . وإنما مستنده معايير وضعية تقوم على الاختيار والتحسين النسبيين ، عملاً بفلسفات ونظريات أرضية ، يقف بعضها من بعض موقف النقيض من النقيض وهما :

المذهب الاقتصادى الرأسمالى ، وهذا المذهب مرتبط الآن بالغرب المسيحى ، والمذهب الاقتصادى الشيوعى ، وهذا مرتبط منذ وُجِدَ بالإلحاد ؟

المذهب الأول (الرأسمالى) : يُطلق الحريات لأصحاب رءوس الأموال إلى أبعد مدىً . ويسلِّم لمالك المال بالحرية المطلقة فى طريقة استثماره وإنفاقه وتحديد الأسعار والفوائد على القروض ، وتحديد الأجور لمن يعملون لديه . وليس على أصحاب رءوس الأموال حقوق نحو غيرهم . وملكيتهم للمال مقدَّسة لا تُمَس ؟!

والمذهب الثانى (الشيوعى) : لا يبيح للأفراد ملْكية خاصة للمال . بل إن

المالك الوحيد هو الدولة . وعلى الأفراد القادرين على العمل أن يعملوا فى حقول الدولة ومؤسساتها الصناعية ، وينال كل فرد نصيباً من المال من خزانة الدولة مناسباً للعمل الذى يؤديه لحسابها ؟!

ولا نريد – هنا – أن نتوسع فى ذكر المساوىء أو المحاسن ، وإنما نشير إشارة خاطفة إلى ما يأتى :

إن جَماع المساوىء فى النظام الاقتصادى الشيوعى أنه يحرم الأفراد من حق طبيعى – إن صح هذا التعبير – ويقضى على المواهب الإنسانية والتنافس فى العمل البنّاء لخير الفرد والجماعة ، ويحوّل الإنسان إلى « آلة صمّاء » تعمل بجبرية قاسية فى « ترس » القهر الشيوعى ، وإن جَماع المساوىء فى النظام الرأسمالى أنه يجعل من أصحاب رءوس الأموال أصناماً أو أنصاف آلهة إن صح – كذلك – هذا التعبير ، يسيطرون برءوس أموالهم على مجارى الحياة ، ويتحكمون فى سوق العرض والطلب كما يشاءون . ويتعاملون مع المحتاج إليهم بالربا المركّب الفاحش . فيبيعون المال بالمال (أعنى النقود بالنقود) وهذه بدعة بَشرية هى آفة الاقتصاد العالمى . فليست النقود سلعة تُباع وتُشترى ، وإنما هى وسيلة لتبادل المنافع التى تقوم عليها ضروريات الحياة وعن طريق « بيع النقود » فى النظام الربوى يقع الظلم الفادح على المحتاجين لحساب أصحاب رءوس الأموال .

فكلا النظامين مخالف لسنن الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، أحدهما أهدر الملْكية الخاصة تماماً ، والثانى بالَغَ إلى أبعد مدى فى تقديسها . وما فى كل من النظامين من مزايا هزيلة يقابله كم هائل من المساوىء الجسام .

● **منهج الإسلام دين العدل والرحمة :**

أما الإسلام فيقوم منهجه الاقتصادى على عدة مزايا تتسق مع الفطرة الإنسانية :

فأساس الكسب فيه هو العمل الشريف المشروع .

والمالك الحق هو الله وحده .

والملكية الفردية أو الملكية الخاصة فيه مصونة ، ومَن مَلك مالاً فهو خليفة فيه عن الله لا مالك له ملكية خالصة .

ومراد الإسلام من ملكية الله لكل مال كف مالكيه عن الطغيان فيه . فلا يتصرفون فيه جمعاً ولا إنفاقاً إلا حسب الشروط التى وضعها المالك الواهب سبحانه . فجمع المال يكون عن شروط مشروعة ليس منها الغش ولا الظلم .

وإنفاق المال يكون فى البر والنفع المشروع لا فيما حرّمه الله ، ومَن خالف فجمع مالاً من غير وجهه ، أو أنفقه فى غير وجهه فهو مسئول أمام المالك الحق يوم يقوم الحساب . فقد ورد فى الحديث أن من أول ما يُسئل عنه المرء يوم القيامة ماله من أين جمعه . وفيمَ أنفقه ؟

وفى المال إذا بلغ حداً معلوماً حق لأصحاب الأعذار الثمانية المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ .. ﴾ (١) وهذا هو الإنفاق الواجب المحدَّد المقدار ، ثم فيه حقوق أخرى ليست مرتبطة بأمر سوى أن تظهر حاجة ملحة عامة أو خاصة فيجب على مُلاَّك المال الإنفاق بقدر الطاقة فى تجهيز الجيوش ، أو بناء المؤسسات ذات النفع العام ، أو وقف بباب المالك سائل أو محروم .

ومَن استقرض مالاً من غنى وكان المال فائضاً عن حاجته الضرورية فالقرض يكون حسبة لوجه الله لا فى مقابل يبذله المقترض قَلَّ أو كثر إن كان المقابل مشروطاً بين الطرفين ، ولصاحب المال أن يستثمره وفق الشروط المشروعة فى تجارة أو صناعة ، أو زراعة ، إما بوصفه فرداً أو شريكاً لغيره .. أما أن يكون القرض بربا طريقاً من طرق الاستثمار فى الإسلام فلا ، سواء أكان المقترض

---

(١) التوبة : ٦٠ .

شخصاً طبيعياً احتاج المال (قيمة القرض) للإنفاق منه على بعض شئونه ، أو كان شخصاً اعتبارياً كالمصارف والبنوك والمؤسسات التى تتجر فى المال . تستقرضه بفائدة ثم تَقرضه بفائدة أعلى . وتستأثر هى بالفروق بين الفائدتين ، هذا النظام روّجه وزيّن له اليهود فى الغرب ، وأثروا ثراءً فاحشاً من ورائه . وقام عليه الاقتصاد الغربى الرأسمالى المعروف ، فلما بسط الغرب نفوذه على البلاد الإسلامية أدخل فيها هذا النظام ليحل محل التوجيه الاقتصادى فى الأموال . وفى كل بلد دخله الاستعمار تدفقت رءوس الأموال الأوروبية لتُستثمر فى البلاد الإسلامية عن طريق المؤسسات (البنوك والمصارف) الربوية التى اتخذت من النقود سلعة تُباع وتُشترى . وبفضل هذا النظام وقعت البلاد الإسلامية فى قبضة « سلأخيها » المستعمرين عن طريق تراكم الديون التى أسهم فى تراكمها نظام الربا أو الفوائد المركبة ، التى أسموها - زوراً وبهتاناً - بـ « الأرباح المركبة » ؟!

وسيأتى لهذا شئ من التوضيح والبيان . والذى نركِّز عليه الآن أن شيوع الاقتصاد الربوى فى البلاد كان سببه المباشر هو الاستعمار . ولما رحل الاستعمار ظل النظام الربوى مصدراً من مصادر الاقتصاد القومى . وارتبطت قيمة الأوراق المالية يومياً بأسعار البورصة العالَمية فى لندن . وقتلوا روح العمل والإنتاج عند صغار المُلاّك ومتوسطيهم ، فاتجهوا برءوس أموالهم للمصارف التى تعطيهم نسبة محدَّدة من رءوس أموالهم بعد مرور زمن على إيداعها فى تلك المصارف ، كما أحدثوا نوعاً من الجشع عند محبى الثروات فاتجهوا يستقرضون من تلك المصارف بفوائد مركَّبة ليُنشئوا لهم مشروعات صناعية أو تجارية عن طرق الأموال المستقرضة . ثم يحمِّلون قيمة الفوائد على ثمن مبيعاتهم فتغلو الأسعاد ويرتفع الغلاء . ويحتاج الناس إلى الاستدانة ولو بقرض ليمكنهم أن يجاوروا موديلات الأسعار . وتحقق فى المجتمعات الإسلامية التى شاع فيها التعامل الربوى وعيد الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ... ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢٧٦

ووعيده : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [٢] .

*

* الطائفية :

من أخطر الأسلحة التى أضعف بها الاستعمار العالَم الإسلامى سلاح الطائفية والتشرذم . فقد كان لهذا السلاح دور خطير فى بعض البلاد التى ظروفها قابلة لإشعال هذا الفتيل ، ولا نريد من الطائفية ذلك المعنى التقليدى الذى يأخذ فى الاعتبار التمييز فى العقيدة والدين حين يشعل الفتن فى البلد الواحد . بل نريد منه ما هو أعم من ذلك حتى يشمل النُظم الحزبية السياسية ، أو المذاهب الفكرية فى الكيان الواحد ، مثل أهل السُنَّة والشيعة ، ومثل حزب كذا ، وحزب كذا ، واليمين واليسار ، ومثل إيجاد الحزازات بين أهل إقليم وأهل إقليم آخر ، ومثل أنصار القديم وأشياع الحديث . إن هذه المثالب تدخل فى معنى الطائفية ، وكلها قد استثمرها الاستعمار فى تفتيت الجبهة الداخلية وضرب بعض القُوَى ببعض ، وهو قابع وراء الكواليس يحرِّش ، ويحرِّض ، ويتفرج . يشجع مَن يشجع لحاجة فى نفس يعقوب ، ويخذل مَن يخذل لحاجة فى نفس يعقوب ، كل ذلك عملاً بتلك السياسة التى راجت لدى الإمبراطورية البريطانية حيناً من الدهر وهى سياسة « فَرِّق تَسُدْ »

وقد استفادت القُوَى الاستعمارية كثيراً من اتباع هذا الأسلوب وأخصب الأقطار استجابة له كانت الهند ، ثم مصر ، ثم لبنان ، وسنعرض لما جرى فى مصر والهند فى شئ من التفصيل فيما بعد . أما فى لبنان فإن المستعمر – كما نعلم – خلق من المارون قوة ذات مخالب وقواطع فى لبنان . وكان قد هال المستعمر اتحاد القوى الوطنية فى الشام مسلمين ومسيحيين ودروز حين قاوموا

---

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩

غزو محمد على باشا الكبير لسوريا . فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فقد تناسى الشاميون أعراقهم وعقائدهم ووقفوا وقفة واحدة أمام قوات « الباشا » قبل تقسيم الشام إلى أربع دويلات : سوريا ، والأردن ، ولبنان ، وفلسطين . كان اتحاد الشاميين فى تلك المرحلة نذير شؤم للشام نفسه . حيث جاء قرار التقسيم فيما بعد قاصماً لظهر البعير . ووقعت لبنان من نصيب فرنسا الدولة الصليبية المتعصبة . ولم تكن كراهية فرنسا للمسيحيين بالطبع ، وإنما كانت وما تزال للمسلمين وحدهم سُنَّة وشيعة وغيرهما . يظهر هذا جلياً من المنشور الذى وزعته فرنسا - سراً - على نصارى لبنان . وباللغة الفرنسية عام ١٩١٣

وقد نشرت مجلة رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ترجمة عربية للمنشور نضعه - الآن - بكامله بين يدى القارىء الكريم .

وكان عنوان المنشور هكذا : « من الدولة الأم إلى أبنائها المخلصين .. إلى أبناء يسوع المسيح : يا من صبرتم على الذل والهوان عبر القرون دفاعاً عن عقيدتكم [١] . أيها الشرفاء الأطهار لا تنسوا هذه الوصايا العشر :

١ - قد رتبنا لكم أهم الأشياء التى تضمن لكم معيشة حسنة على هذه المنطقة ، مثل تمليك الأراضى ، والوكالات الأجنبية ، والوضع السياسى ، وشئون النقد (المصارف المالية) ويبقى عليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب ، وزيادتها مع الأيام (؟!) .

٢ - إن هذا الوطن (لبنان) لم يُخلق إلا لكم ، حتى تجمعوا شملكم وتباشروا حريتكم ، بعد الحرب الخيرة التاريخية . فاعلموا جيداً أن كلمة لبنانى معناها : مسيحى . أما العرب الذين جاءوا من الصحراء (يعنى المسلمين) فيجب أن يعودوا إليها (؟!) .

---

(١) لم يقاتل المسلمون أحداً لإخراجه عن عقيدته . وإنما أعداء الإسلام هم الذين يقاتلون المسلمين لإخراجهم عن الإسلام .

٣ - جاهدوا للسيطرة على المصايف ، وأمور السياحة وامتلاك ساحل البحر ، وأخرجوهم (المسلمين) من قراكم كلما أصبحتم أغلبية ولا تنسوا تجهيز ميناء احتياطى فى مدينة غير بيروت ، ولا يكون فيها مسلمون (؟!) وذلك عندما تسنح لكم الفرص (؟!) [١] .

٤ - عليكم بأسباب القوة من رياضة وسلاح وتنظيمات للشباب واهتموا بالجيش ، وعليكم بكتمان أموركم (؟!) .

٥ - احرصوا على الزعامة الأدبية ، مثل نشر الكتب ، والسيطرة على النقابات والاتحادات ، ولا تعترفوا بأن تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين . وحاربوا بلا هوادة الأفكار والأشخاص الذين يعاكسون اتجاهكم (؟!) .

٦ - إن الخلافات المذهبية بينكم يجب أن لا تخرج عن النظرية السطحية لأن حياتكم مرهونة باتحادكم أمام العدو الكافر (المسلمون) من حيث أنكم أبناء يسوع الذى علّمنا المحبة (؟!)

٧ - ادرسوا - دائماً - مخططات الآخرين (المسلمون) وتدَخَّلوا معهم لتعرفوا ما عندهم (؟!) ولا مانع للبعض من التظاهر بتأييدهم عند الضرورة . ولكن على كل واحد منكم أن يبقى مرتبطاً برؤسائه وكنيسته (؟!) .

٨ - ارفعوا رءوسكم فى كل مكان مرتفع ، واعلموا بأن كل القُوى الجبارة فى العالَم تساعدكم ، وتقف لجانبكم فى أسرع وقت (؟!) ولكن عليكم أن تتصرفوا وكأنكم لا تعرفون ذلك .. (؟!!!) .

٩ - اجتهدوا للتقرب من ملوك العرب ورؤسائهم بالخدمات الشخصية (يعنى اصطناع الود معهم) وهذا شئ سهل جداً ولكن يفتح لكم مجالات واسعة للعمل ، ويدر عليكم أموالاً هائلة ونفوذاً أكبر حتى فى البلدان المستعصية عليكم (؟!!) .

---

(١) لعل المقصود من هذا الميناء السرى أن يتلقى منه المارون المعونات الاقتصادية والعسكرية .

١ - إن حركة الجنسية اللبنانية شديدة الأهمية ، فدققوا كثيراً فى ذلك ، واهتموا بإخوانكم المغتربين ، والذين نزلوا عليكم من البلدان الأخرى ، حتى لا تضيع الأغلبية المقررة لكم .. ألا جدوا كل الجد » .

هذه صورة أو وثيقة من الوثائق المعبِّرة فى وضوح عن كراهية أوروبا الصليبية للإسلام والمسلمين ، وإثارتهم الفتن والاضطرابات فى كل بلد إسلامى يقبل وضعه مثل هذه الفتن . ولم يثبت لا فى التاريخ القديم ولا الحديث أن المسلمين اضطهدوا النصارى مثلما تحرص الآن الدول الصليبية على اضطهاد المسلمين . والخطير فى الوثيقة أن تكشف فى وضوح عن أن دول الغرب الصليبى كلها على أهبة الاستعداد لمناصرة مسيحيى لبنان إذا لزم الأمر . وهذا يؤكد لمن كان له عقل أن أوروبا إذا وجدت فرصة سانحة للقضاء على الإسلام والمسلمين فإنها لن تتأخر لحظة واحدة . كما يؤكد أن مثل هذه الوعود والضمانات التى تقدمها القُوَى الجبارة فى العالم (الصليبى) لنصارى لبنان هى وراء الموقف المتعنت للمارون والطوائف المسيحية فى لبنان من رفض أية تسوية عادلة للنزاع الدائر فيها منذ عام ١٩٧٦ مرحلة من مراحل ذلك الموقف المتعنت قادها الفريق « چورج حبش » حيناً من الدهر ، والمرحلة الراهنة يقودها « العماد عون » الذى رفض بشكل قاطع مقررات الطائف ، وهدد الحكومة التى ستقوم وفقاً لها بأنها لن تعيش طويلاً ؟!

ومن التضليل التاريخى أن تؤكد الوثيقة لنصارى لبنان أن لبنان (وطن) لم يخلق إلا لهم . وأن على العرب - يعنى (المسلمين) - الذين جاءوا من الصحراء أن يعودوا إليها ؟! ونسى كاتبو الوثيقة أن لبنان كانت جزءاً من سوريا وبلاد الشام ، وأن الفتح الإسلامي حرَّر بلاد الشام كلها من الرومان منذ أكثر من أربعة عشر قرناً . فهى بلاد إسلامية بلا نزاع . وتدَّعى الوثيقة أن نصارى لبنان لهم أغلبية مقررة . وطبعاً تبعاً لهذه الأغلبية يجب أن يكونوا سادة لبنان ؟!

وهب أنهم - فعلاً - أغلبية - فلماذا تكيل القوى الجبارة فى الغرب المسيحى بمكيالين :

أحدهما : مطفف ، وتكيل به للنصارى فى كل مكان .

والآخر : مبخس ، وتكيل به للمسلمين . فالحبشة يحكمها النصارى وعدد المسلمين فيها أكثر من ٦٥٪ من مجموع سكان البلاد ، فلماذا لم يوضع فى الاعتبار شأن المسلمين فى الحبشة . ويُغَالَى فى نفس الوقت فى شأن النصارى فى لبنان ؟! عجيب والله ؟!

*

* إحياء الحضارات القديمة :

وفى كل بلد إسلامي وطئه الاستعمار ، فإنه ينبش فى ماضيه قبل الإسلام . فإن كانت له حضارة فى ذلك الماضى عمل عملاً جاداً على إحيائها ورصد الأموال ، وأنشأ المعاهد والمتاحف ، واستجلب الخبراء لبعث تلك الحضارة من جديد ، وعرضها فى ثوب قشيب . والهدف هو زعزعة الولاء للإسلام الذى يغمر قلوب ومشاعر المسلمين ... كإحياء الفرعونية فى مصر ، والآشورية فى العراق ، والبربرية فى شمال إفريقيا ، والفينيقية فى فلسطين ولبنان .

وفى مؤتمر المستشرقين الذى عُقد فى جامعة « برنستون » بأمريكا عام ١٩٥٣ والذى تحدَّثنا عنه من قبل . تولى بعض الأعضاء الأمريكيين فى المؤتمر الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام فى البلاد التى فتحها الإسلام تولُّوا تلك الدعوة فى خبث ودهاء .

فقد أشاد الدكتور « ولسون » أحد أعضاء المؤتمر بالحضارات السابقة على الإسلام فى البلاد الإسلامية ، وأهاب بالمسلمين - أنفسهم - أن يُنقِّبوا عن تلك الحضارات وأن يوائموا بينها وبين الإسلام ؟! وزيادة فى الإغراء يقول الدكتور « ولسون » إن نهضة أوروبا المعاصرة مدينة للحضارات القديمة التى أحيتها أوروبا قبيل نهضتها . وبذلك يغرى المسلمين بأن نهضتهم المنتظرة لن تتم

بالحضارة الإسلامية وحدها ، ما لم يبعث كل بلد إسلامى حضارته القديمة فى البلاد الإسلامية ، كما يدعو الدكتور « ولسون » أن يُعهد ببعث الحضارات القديمة إلى الجامعات وليس إلى مصلحة السياحة .. (؟) .

ويتابع عضو أمريكى آخر هو الدكتور « كون » العزف على الوتر نفسه الذى عزف عليه زميله الدكتور « ولسون » . فينحى باللائمة على دولة الخلافة (تركيا) لأنها حالت بين المسلمين وبين الكشف عن حضارات بلادهم القديمة وتاريخها القديم السابق على الإسلام . ويشيد بالفترة التى وقعت بعد سقوط الخلافة حيث اهتم المسلمون بحضاراتهم القديمة . وأن عوناً ملموساً من علماء الآثار فى الغرب قد هيأ الفرصة لتدريب العلماء المسلمين على أن ينهضوا بهذا العبء بأنفسهم . يقول الدكتور « كون » :

« والذى حدث هو أن عالِم الآثار الغربى فى كل دولة من تلك الدول (يقصد مصر ، والهند ، وتركيا ، وإيران ، والعراق ، وليبيا) قد ساعد فى إعداد قانون خاص بالآثار للبلد الإسلامى الذى يعمل فيه ، وأصبح مستشاراً لموظف وطنى عُيِّن من حكومته مديراً لمصلحة الآثار » [1] .

ومما يدعو إلى العجب أن بريطانيا لم تكن تشغلها الحروب التى خاضتها ، والمشكلات الدولية التى كانت تضغط عليها قبل وبعد الحرب العالمية الأولى ، كل هذه الظروف لم تمنعها أن تملأ الفراغ بالخطة العامة التى تتبع فى كل بلد إسلامى فور وقوعه تحت سُلطة المستعمر . شاهد ذلك أن صك الانتداب الذى أصدرته عصبة الأمم لبريطانيا فى فلسطين ، وضعت فيه مادة خاصة بالآثار والتنقيب عليها ، وهى المادة (٢١) من صك الانتداب المذكور ونصها :

« أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ من السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات » (؟!) .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ١٤ .

وهنا نتساءل : إن صياغة المادة تدل دلالة قاطعة على أن عصبة الأمم تجبر الدولة المنتدبة أياً كانت - بريطانيا أو غيرها - فى انتداب أية بلدة إسلامية فلسطين كانت أو غيرها - على أن تهتم الدولة المنتدبة بمسألة الآثار والتاريخ القديم ومنذ السنة الأولى لمباشرة شئونها . إن هذه المادة أشبه ما تكون بالاستمارة العامة لا تدل على أشخاص معينين إلا بعد ملء خاناتها ، فالمسألة - إذن - سياسة عامة للغرب الصليبى ضد الشرق الإسلامي ، وليست مسألة مزاج دولة تنفذه أو لا تنفذه ؟!

إن خصومنا يفكرون بذكاء خارق ، ونظام دقيق ، سواء أكانوا من حملة « الصليب » أو « نجمة داود » أو حتى ملحدين .

وبذلك صار معروفاً لكل دولة تستعمر بلداً إسلامياً ماذا هى فاعلة فيه ؟

الخطة جاهزة ومُعَدة ، والمنفذّون تحت الطلب ، والأموال مرصودة ، والآمال برّاقة . وفى حبها كل شئ يهون ؟!

إن قهر أوروبا لقادة الشعوب الإسلامية ، وللشعوب الإسلامية نفسها لم يكن ثمرة ارتجال أو حظ ، بل كان ثمرة دانية القطوف لعمل محكم ، وجهد صادق ، وإصرار عنيد .

فهل أعددنا لعدونا ما أمرنا به قرآننا : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴾ (١) كلا : ولكننا أعددنا لهم ما أحبوا من ضعف . قوتنا بددناها ضد أنفسنا فهُنَّا واستكنَّا .. وليس هذا هو خُلُق المسلمين ؟!

حذّرنا ربنا فقال : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ .. ﴾ (٢) فصرنا أمام أعدائنا « بهاليل » نُضحك الناس ، والعدو آخذ بتلابيبنا ؟! وليس هذا هو خُلُق المسلمين .. ثم كان الجزاء من جنس العمل : غفلة أعقبها ضياع ؟!

*

---

(١) الأنفال : ٦٠ .   (٢) النساء : ٧١

* شئون المرأة :

لشئون المرأة لغط كثير عند خصوم الدعوة وعملائهم . وسنولى هذا الموضوع عناية خاصة فى موضعه إن شاء الله . أما هنا فإننا أوردناه باعتباره وجهاً من وجوه الخطة العامة التى وضعتها القُوَى الأوروبية المعادية فى مواجهة الإسلام . والنقاط التى يثيرها أعداء الإسلام حول شئون المرأة كثيرة منها :

تعليم المرأة - حقها فى العمل - نصيبها فى الميراث - خروجها من البيت - دورها فى البيئة العامة - اختلاطها بالرجال الأجانب - توليها بعض المناصب العامة - شهادتها أمام القضاء - سفرها بدون محرم - حقوقها السياسية - قوامة الرجل عليها ... إلخ .. إلخ .

فكما ترى الموضوع متعدد الزوايا ، ومن الخطورة بمكان . وقد اتخذ أعداء الإسلام ، وعملاؤهم من موضوع المرأة بزواياه المتعددة وسيلة فعَّالة لإحداث خلل فى بعض المجتمعات الإسلامية ، وما يزالون يمدون النار بالوقود فى هذا المجال ، وقد حققوا - بلا ريب - نجاحاً واسعاً من مخططاتهم لشئون المرأة .. ثم تولت النظم الحاكمة فى البلاد الإسلامية - إلا قلّة نادرة - تنفيذ الخطط الموضوعة لإخراج المرأة من التأدب بأدب الإسلام ، وأخلصوا كل الإخلاص فى المضى به إلى أقصى غاية مرجوة لخصوم الإسلام . وساندتها وسائل إعلامها وكثير من حملة الأقلام فيها . ووصل التضليل فى هذا الموضوع الخطير إلى درجة وُصِفَت فيها المرأة المتمردة على الآداب الإسلامية بأنها « متحررة » و« عصرية » والسيدات اللاتى بدأن يلتزمن بالسلوك الإسلامى وصفوهن بأنهن « رجعيات » ، ويعشن فى « عصر الحريم » كما وصفن بأنهن « مرتّدات جاهلات » ؟! وبهذا صيَّروا المنكر معروفاً ودعوا إليه ؟! وصيَّروا المعروف منكراً ونهوا عنه ؟!

هذه هى ملامح الخطة الموضوعة للتآمر على المرأة والفتاة المسلمة .. وهى خطة ناجحة كما تقدَّم .. وترتب على ذلك مآس ومشكلات وشرور لا حد لها . شقى بها المجتمع ، وشقى بها الأزواج ، وشقى بها الشباب ذكوراً وإناثاً ، وشقى بها الأطفال ، وشقيت بها المرأة نفسها .. أما الذى سعد بهذه الأوضاع فهم خصوم الدعوة وحدهم . وقد قال رب العزة فى كتابه العزيز : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (١) ولكن لم يسمع لله سامع ؟!

* *

* الفنون والآداب والثقافة العامة :

ونفذ أعداء الإسلام إلى أغراضهم ومطامعهم فى العالَم الإسلامى عن طريق الفنون والآداب والثقافة العامة . فقد تحررت هذه « الروافد » الثلاثة من الالتزام الجاد بتوجيهات الإسلام ، فتحوَّلت من لبنات بناء إلى معاول هدم وتدمير : هدم وتدمير للعقيدة ، وهدم وتدمير للخُلُق والسلوك ، ووضعت عوازل سميكة بين شباب الأمة والهدى الذى بعث الله به رسوله ليكون منهج حياة فيما عظم وفيما دَقَّ من شئون الحياة ، ففى ظل الاستعمار تسرَّب إلى العالَم الإسلامى الفن التمثيلى والفن المسرحى ، وخطا المسرح ودور السينما تدريجياً بالشعوب الإسلامية إلى الحياة اللاهية ثم إلى الحياة الفاتنة ، وصارت هذه الدور ملتقىً لعمل الشيطان وضحايا الشيطان ، واستبيحت باسم الفن محرَّمات شرعاً وقانوناً . وهذه الدور كان يمكن أن تقوم بعمل مفيد فى التثقيف والتوجيه لو أعدت لهذا العمل عُدَّته بدءاً من المواد الفنية المعروضة ، ثم الأداء الشريف ولكن شيئاً من هذا لم يحدث إلا فى النادر القليل ، والذى غلب على هذه الدور هو التهافت فى الأداء ، والمتسفل فى المادة المعروضة ، والإسفاف والمجون فى الحركات والأقوال ، والتنافس الدنىء فى الإثارة والإغراء وفتنة المراهقين والمراهقات ، حتى صارت

---

(١) النساء : ٨٩

شاشة السينما وخشبة المسرح منحراً تُنحر عليه الفضائل والقيَم ، فاختلاط الذكور والإناث من مختلف الأعمار هو اللُحمة والسُدى لهذه الموبقات .

وبالتدريج تحوّل التأليف الفنى لدور السينما والمسرح إلى منفذ لذوى الاتجاهات المنحرفة . فكتبوا وزيّنوا الباطل ، وهجّنوا الحق ، وسخروا من قيَم الإسلام ، وحرّضوا الشباب على التمرد والتحلل من الفضائل والسلوك الحميد ، وعلّموهم كيف يعشقون ويروون ظمأ عشقهم . وكيف يثأرون ممن يضايقهم أو ينافسهم على ليلاهم ، وتسابق كُتّاب القصة يُلهبون عواطف الشباب بما يصوّرونه لهم من أدب الجنس المكشوف ، أو أدب الفراش كما كان يسميه بعض الأدباء الكبار من الجيل الراحل .

أضف إلى « النتاج المحلى الساقط » للسينما والمسرح معاً تلك النماذج المنحطة من فنون الغرب التى استوردناها وعرضناها على الجمهور من مختلف الثقافات والأعمار . وهى تدور حول مواقف الحب والغرام ، أو العنف والبطش . وظلت الفنون منذ مرحلة مبكرة تهتم بالأدب الشعبى أو « الفلكلور » وهو مصطلح ظهر أول ما ظهر فى أوروبا ثم انتقل إلى بعض بلاد العالَم الإسلامى . ووظيفة هذا « الفلكلور » هى الاهتمام بما يتعلق بعادات الشعوب وتقاليدهم حقاً كانت أو باطلاً . فهو - كما ترى - مظهر ترف فى الفن ، ثم إلهاء عن الجوانب الجادة فى الحياة . وكانت الإذاعة تهتم بهذا النوع وحدها قبل أن ينضم إليها « التليفزيون » ، وحين انضم إليها التليفزيون عَمّ البلاء وطَمّ ، وتسلل الفساد إلى كل بيت : تراه العيون كما تسمعه الآذان سواء بسواء . وأصبح لدى كل أسرة فقيرة أو غنية « دار عرض » نشطة لا تتوقف إلا قليلاً خلال الأربع والعشرين ساعة .

ثم اتجه الفن عندنا اتجاهاً كوميدياً يسعى وراء الإضحاك بأى ثمن ؟! ألفاظ مسفة ، أو معان هابطة ، أو حركات « هستيرية » ، أو مظاهر « بهلولية »

ساعات طويلة تمر ، وأموال باهظة تُنفق ، وقيَم جليلة تموت ، وانحرافات خطيرة تسيطر على الموقف . وإذا نهى ناهٍ ، أو نصح ناصح ، أو نقد ناقد ، قيل له : إننا نروِّح على الجماهير ، ونفرِّج الهموم ونزيح الغموم . ساعة لقلبك ، وساعة لربك . فإذا بالساعات كلها تصبح ملكاً للشيطان ، إلا ما ندر . فلا هى لقلبك ، ولا هى لربك ، ولا خير فى ساعة لقلبك إذا هى أغضبت ربك ؟!

وكانت النتائج أن هذا الفن صار دعوة للاسترخاء والكسل ، ثم دعوة أشد خطورة إلى نبذ الحياء والوقار والعفة ، والتحشم ، وهجر كل ما هو جميل من الآداب والسلوك ودعوة إلى التجرؤ على « الممنوع » ولو كان هذا الممنوع قتلاً لنفس حرَّم الله قتلها . أو نهباً لمال خاص أو عام . ثم دعوة إلى تفريغ قلوب الشباب من القيَم السامية ، والسيرة المهذبة ، ثم الجرى وراء المتع الرخيصة ، والرذائل النكدة ، أو بعبارة أجمع : دعوة إلى الارتماء فى أحضان الشيطان ، ولقطع حاضر الأمة عن سيرة سَلَفها الصالح : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ (١) .

ومما له صلة بالفن والثقافة والأدب معاً ما يُعرف بـ « ألف ليلة وليلة » وما يُعرف بـ « كليلة ودمنة » وقد طبع الأخير فى مصر عام ١٩١٢ ، وكلا الكتابين يقوم على العمل الخرافى الفارغ ، وقد شغل الكتابان كثيراً من الكُتَّاب المسلمين ، وأولوهما عناية فائقة ، وما يزال كتاب « ألف ليلة وليلة » عنواناً لمواد تعرض فى التليفزيون لشغل الناس ، كما كانا مصدر إلهام للتأليف الخرافى الذى يبدأ من فراغ وينتهى إلى فراغ ، وقد منحناه من الألقاب ما يعين على وجوده واستمراره ، فسميناه بـ « الأدب الأسطورى » وهو إذا صلح لأمة فلا يصلح للأمة الإسلامية صاحبة الرسالة الخالدة ، والمهام الجسام التى يجب أن تمارس تأديتها .

---

(١) مريم : ٥٩

فقل لى بربك : ماذا يعود علينا من « على بابا والأربعين حرامى » ومن « مصباح علاء الدين » ؟ سواء أكان مضاءً أو مطفأً ؟!

وباسم الثقافة ترجمنا عن الغرب كثيراً من الأعمال المدمرة ، وياليتنا نقلنا عنهم مصادر العلم والمعرفة العملية التى كانت سبباً فى نهضتهم كما ترجموا هم عن المسلمين مصادر المعرفة الحقة فاستضاءوا بها وهم يأخذون بأسباب النهضة . إننا ترجمنا عنهم أقاصيص الحب والغرام ، وأعمال ذوى النزعة الإلحادية منهم ، أو الساخرين من القِيَم الفاضلة .

والوصف الجامع الذى يعم الآن كُلاًّ من الفن والأدب والثقافة أنها قِيَم لا تخضع لسلطان الدين ولا الأخلاق . وإذا خضعت فلا تكون فناً ولا أَدباً ولا ثقافة ، بل وعظ . فهى قِيَم جميلة وجمالها نابع منها وكفى . وقد شبَّه كاتب ماركسى فى مصر يدعى عبد المعطى أحمد حجازى ، وهو من كُتَّاب الأهرام الآن - ١٩٨٩ - راقصات الباليه بأنهن « ملائكيات » - ؟! - يا سبحان اللَّه ؟ فمن هم الشياطين يا تُرى ؟

وهذا من قبيل الزيف الذى يسيطر على حياتنا العامة الآن حين نسمى الأشياء بغير اسمها تزييناً لها ، فالممثلون والممثلات نجوم وأقمار وشموس ، ثم هم - كذلك - أبطال مغاوير ، ومن هذا القبيل : « كوكب الشرق » « وسيدة الغناء العربى » و « سيدة الشاشة » و « العندليب الأسمر » و« نجم الكوميديا » ، و« نجوم السينما » ؟!

وقد أثبت الواقع أن معظم هؤلاء « النجوم » و « الأبطال » هم أكثر الناس فساداً وإفساداً ، شمامون ، وتجار مخدرات ، ومديرو شبكات دعارة ؟!

أهكذا تكون النجوم والأقمار والشموس والأبطال ؟!

كلا ، وألف كلا .. ولكن أعداءنا خطَّطوا فأفلحوا ، ونحن إمعات نسير وراء كل ناعق ؟!

*

* الاحتفاء بالمارقين :

ومن الوسائل الفعّالة جداً التى انتهجها خصوم الإسلام للنَيْل من الإسلام : الاحتفاء والحفاوة والتمجيد بكل مارق منحرف فى فكره فهنا يسخو أعداء الإسلام بالثناء ، ويُضفون هالة من البهاء والرونق على صاحب الفكر المنحرف ، لأن ذلك الفكر يحقق لهم أملاً عظيماً ، أو حلماً ساحراً ، ألا وهو : تطوير الإسلام .. ؟!

وتطوير الإسلام عندهم يعنى تفريغه من قيمه وأصوله بوضع بدائل عوضاً عنها تفقد الإسلام أصالته وحيويته ، وأقل ما يوصف به صاحب الفكر المضاد هو أنه « مجدِّد » و « مجتهد عبقرى » . فَهِمَ من الإسلام ما لم يفهمه الخلفاء الراشدون ولا الأئمة الأعلام ؟!

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها المعروف المشهور ، ومنها الخفى المغمور ؛ لأن « هالات التمجيد والثناء والتلميع » تأتى على قدر الانحراف . فمَن أوغل فى البطلان ، فهو عبقرى الزمان والمكان ، ومَن تناول منه قدراً يسيراً ، مُنِحَ من التمجيد ما يناسبه .. وهكذا دواليك .

فقاسم أمين ، صاحب كتابى « تحرير المرأة » ، و « المرأة الجديدة » لما ابتدع فيهما بهتاناً من القول وزوراً . ودعا المرأة المسلمة إلى طرح « برقع الحياء » وزيَّن لها التبرج والسفور ، والاختلاط بالأجانب فى كل مكان ، واحتال على صحة دعواه بتزوير فهم النصوص الشرعية ، والاعتماد على الشواذ من الأخبار ، وتهكم برجال الدين المسلمين ، وادَّعى أن مفكرى الغرب أقرب إلى فهم الإسلام منهم . لما صدر عن قاسم هذا الهذيان منحوه لقباً ساحراً ، إنه « محرِّر المرأة » هكذا ، وكأن المرأة العفيفة المصونة من « الإماء » فجاء قاسم أمين وفك رقبتها وأعتقها ؟!

وعلى عبد الرازق أحد خريجى الأزهر فى أواخر القرن التاسع عشر لما أصدر كتابه « الإسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ وافترى فيه الكذب على الله ورسوله والخلفاء الراشدين ، وادَّعى أن الخلافة ليست من الإسلام فى شئ ولا الجهاد ، ولا القضاء ، وحصر وظيفة الإسلام فى العلاقة البحتة بين العبد وخالقه ، وعزل الإسلام عزلاً تاماً عن السياسة ، ولما صدر هذا الكتاب تلقته أوروبا بالرضا والقبول ، ورفعت من قدر صاحبه ، واعتبرته مجدِّداً حقاً وبخاصة أن الكتاب صدر فى الوقت الذى ألغى فيه الكماليون فى تركيا الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً عام ١٩٢٤ وكان وراء الكماليين قوى الغرب الصليبى ، وبخاصة بريطانيا .

وقد تُرجِم كتاب على عبد الرازق إلى عدة لغات إسلامية وأوروبية منها ترجمته إلى اللغة « الأوردية » التى يتكلم بها المسلمون فى الباكستان والأفغانستان ، كما ترجم إلى اللغة « الإنجليزية » .

وقد أشاد بالكتاب كثير من علماء أوروبا . منهم الدكتور « ولفرد كانتويل سميث » مدير معهد الدراسات الإسلامية وأستاذ الدين المقارن بجامعة « ماكجبل » بكندا . أشاد بكتاب على عبد الرازق فى بحث نال به درجة الدكتوراة من جامعة « برنستون » الأمريكية عام ١٩٤٨ وكان موضوعه : « مجلة الأزهر عرض ونقد » .

ففى فصل من البحث كتبه عن الباكستان يحرِّض المؤلف مسلمى باكستان على تطوير إسلامهم كما فعل الكماليون فى تركيا ، فيقول : « إن واجب المسلم إذا كان دينه صحيحاً أن يفسِّره تبعاً لما يعتقد مخلصاً أنه إرادة الله ومشيئته فى القرن العشرين » (؟!) .

ثم يقول : « إن باكستان لا تنجح كدولة علمانية إلا إذا اعتقد الناس بأن الدولة الإسلامية هى فى حقيقتها دولة علمانية » (؟!) .

وهنا تأتى المناسبة للإشادة بكتاب على عبد الرازق فيقول المؤلف : « إن نظرية على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » تدور حول هذه الفكرة » .

ويطرق المؤلف الحديد وهو ساخن فيشير للباكستانين بأن كتاب على عبد الرازق (العلمانى) توجد منه نسخ بكثرة فى مكتبات الباكستان باللغتين الأوردية والإنجليزية (؟!) .

وفى الجامعات الأمريكية يعتبر كتاب على عبد الرازق أحد المصادر المهمة لدراسة « علم الاجتماع الإسلامى » وقد أصاب الدكتور محمد البهى حين قال فى توجيه هذه الظاهرة ، ظاهرة اهتمام الغرب بكتاب « الإسلام وأصول الحكم » :

« ويأتى تقديمه على هذا النحو ، لا لأنه يعرض فكرة جديدة على الغرب فى الدراسات الإسلامية ؛ بل لأنه صدر من مسلم هو عالِم أزهرى . ومن ذلك ترويج لفكر الكتاب بين الطلأب الغربيين ، الذين يدرسون الإسلام ، والشعوب الإسلامية » .

أجل .. لقد أصاب الدكتور البهى - رحمه الله - فأوروبا لم تستفد علماً جديداً من كتاب على عبد الرازق ، فالفكرة التى قام عليها الكتاب فكرة أوروبية أصلاً فهى - إذن - بضاعتهم رُدَّت إليهم .. ! والذى استفادته أوروبا - فعلاً - من كتاب « الإسلام وأصول الحكم » إنما هو « موقف » مؤيد لا علم جديد . فها هو ذا : « قد شهد شاهد من أهلها » وهذا هو الجديد الذى تلقته أوروبا بالتطبيل والتزمير .

ومما يؤكد سوء نيِّة أوروبا أن ردوداً متعددة نقضت مزاعم « الشيخ على » فلم تُقِم لها شأناً ؛ لأن الذى يهمها عن الإسلام هو « الداء » وليس « الدواء » .

*

ونجيب محفوظ أول عربى مسلم يحصل على جائزة نوبل فى شُعبة « الأدب » وجائزة نوبل - كما يدل تاريخها - لا تُعطَى إلا لأصحاب « البدع » الشواذ من المسلمين ، نقول « البدع » ولا نقول « الإبداع » فالكلمتان وإن كانت أمهما

واحدة فليستا هما سواء فى المدلول العرفى . فالبدعة انحطاط وردَّة والإبداع أكثر ما يُطلق ، يُطلق على الابتكار النزيه ، فلماذا إذن سخا القائمون على منح جوائز نوبل ومنُّوا بها على الأستاد نجيب محفوظ ؟

هذا السؤال قد أجاب عليه تقرير « المنح » الذى أعدته اللجنة « المانحة » إنه تقدير واحترام ، بل وتقديس لما كتبه الأستاذ نجيب محفوظ فى « أولاد حارتنا » وهى قصة رمزية سخر فيها المؤلف من الأديان جميعاً ، وكان الإسلام صاحب النصيب « الأوفر » من الغمز واللمز والطعن والتشويه (؟!) .

ومن أجل خروج المؤلف « المحظوظ » على القيَم والأصول السماوية قررت الحكومة - فى عهد الرئيس « جمال عبد الناصر » مصادرتها منعاً للإثارة لا زوداً عن الإسلام . وكان بعض العلماء البارزين ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، والشيخ الغزالى أطال الله عمره ، قد كتبوا تقريرات عما ورد فى « أولاد الحارة » من غمز ولمز وسخرية بدين الأمة ، وإنكار « رمزى » للحياة الآخرة . ورفعت تلك « التقريرات » للإدارة العليا فى مصر فصدر قرار المصادرة وحظر النشر والتوزيع . ومات أولاد الحارة - فى مصر - حيناً من الدهر . ثم جاء بعثهم من جديد بمنح المؤلف تلك « الجائزة » المشبوهة . وبُعث معها كل ما كتبه المؤلف وتسابقت دور النشر فى الغرب فى الترجمة والطبع والتوزيع وقامت ضجة صاخبة فى البلاد الإسلامية ، وبخاصة العربية البعض يبارك ويصفق ، والبعض يحذِّر وينذر . وبعد هذا مَن هو المستفيد يا ترى ؟

إن المستفيد الوحيد هم خصوم الإسلام بترويج هذا العمل المدمر للعقيدة والأخلاق معاً .

هذه واحدة . أما الأخرى فهى تشجيع مَن عنده استعداد من الكُتَّاب العرب لينالوا من الإسلام - وعن طريق « الرمز » مثلما نال الأستاذ نجيب محفوظ . وسيحظى مَن عليه الدور بكلتا الحسنيين - أستغفر الله - بل بكلتا السوأيين : سمعة عالمية مدوية . وثروة دولارية مغرية (؟!) .

ولست أدرى لماذا خطرت على بالى الآن آية من كتاب الله . ولكنى أثبتها - هنا - لعل الله ذكرنيها لحكمة يعلمها هو ، وهى قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

*

- **الانحراف السياسى :**

والانحراف السياسى عند أعداء الإسلام مثل الانحراف العلمى والفكرى . وهما متلازمان ؛ لأن الانحراف السياسى العملى تطبيق للانحراف العلمى والفكرى . وهذا هو الذى يفسِّر لنا فى وضوح لماذا مُنِح رئيس الجمهورية السابق « أنور السادات » - نصفاً من جائزة نوبل بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٨ .. إن منح الرئيس محمد أنور السادات نصف الجائزة كان تقديراً لدوره الجرىء بانتهاكه أقدس أمانة حمَّلها الله إياه ، هى رعاية شئون المسلمين ، والحفاظ على عزة المؤمنين ، وعلى الحرمات التى أوجب الله على المسلمين حكاماً ومحكومين أن يرعوها حق رعايتها ، وأن يقدِّموا أرواحهم فداءً لها .

إن هذا « المنح » الذى حظى به الرئيس السادات كان أتفه وأرخص ثمن لانحرافه المزرى ، ولخروجه عن إجماع المسلمين . فقد خاضت إسرائيل ومن ورائها أسيادها : أمريكا ، وإنجلترا ، وفرنسا . أربع حروب ضارية مع العرب . ولم تحقق أهدافها وأحلامها . وفى لحظة انهار الوضع ، وذهب السادات ذليلاً صاغراً ، منكس الرأس ، خفيض الطرف . ذهب إلى تل أبيب ليأخذ أعداء الله

---

(١) الأعراف : ١٦٩

والإسلام والوطن بالأحضان . ثم يتحدث إليهم فى « الكنيست » ذلك المكان الذى طالما دُبِّرت فيه المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ، يتحدث إليهم وهم جلوس شامخو الأنوف ، مثلجو الصدور بما وصلوا إليه من غنيمة باردة . وتحطمت الأسوار بين مصر وإسرائيل . وداسوا بأقدامهم القذرة أرض الكنانة مصر التى أعزها اللّه بالإسلام ، فأذلها السادات بالاستسلام . وارتفعت أعلام إسرائيل الملطخة بدماء الأبرياء من شباب مصر وأطفاله ونسائه وشيوخه ، وبدماء الشعب الفلسطينى ضحية المؤامرات الغربية والنكوص العربى ، وسلبية الشعوب الإسلامية . إن بيتاً واحداً من بيوتات مصر فى اللحظة التى وقف فيها السادات يتحدث إلى قادة إسرائيل لم يخل من شهيد ، أو مصاب بعاهة مستديمة ، أو زوجة قد رُمِّلت أو أطفال قد تيتموا ، أو أم أصبحت وقد افتقدت فلذة كبدها . كل هذا دفنه السادات فى لحظة غلب اليأس فيها على النفس ، وكلّت الهمم ، وفترت العزائم ، وسرت الهزيمة فى النفوس سريان الدم فى الشرايين .

أجل .. إن السادات كان قد انحرف فغرق ، فأغرق معه مصر (؟!) وأكسب أعداء الأمة مكاسب لا تقدَّر بمال ولو كان بوزن الطور ذهباً (؟!) .

هذا هو السر وراء منحه « نصف جائزة نوبل » ؛ لأنه أمات أمام إسرائيل أكبر وأعظم دولة من دول المواجهة . وتفرَّغت إسرائيل لشعب فلسطين تقذفهم بالقنابل والمدافع والصواريخ وهم فى « مخيماتهم » وما « صبرا » و« شاتيلا » عن الذاكرة ببعيد ؟ ثم تعزل مَن نجا منهم من « القذائف » عن الحياة ، وتمنع عنهم الطعام والشراب حتى أكل بعضهم بعضاً . ثم بالغت فى الإيذاء فتدفن بعضهم وهم أحياء .. ؟!

ولِمَ لَمْ يفكر أعداء الإسلام فى « منح » السادات هذه الجائزة عقيب شنِّه الحرب على إسرائيل فى العاشر من شهر رمضان (السادس من أكتوبر) عام ١٩٧٣ ؟!

إن تشجيع « الخونة » من العرب والمسلمين ، والإشادة بهم من قادة الغرب

وسيلة من أخطر وسائل المواجهة التى تقوم بها أوروبا المعاصرة ضد الإسلام والمسلمين .

خيانة فى الفكر ، خيانة فى السياسة . أية خيانة لمبادىء الأمة فهى عملة رائجة فى سوق الأعداء ؛ لأنها صدع فى صرح الإسلام الشامخ ، وسرطان يفترس قُوَى الأمة من الداخل . فتحقق للأعداء آمالهم مع حقن دمائهم ، وتوفير معدَّاتهم وأموالهم .

* *

* المتمسلم البريطانى :

ومن الأمثلة المعروفة فى هذا الميدان قصة المدعو « سليمان رشدى » الهندى الأصل ، البريطانى الجنسية ، الذى احتمى بدخوله فى الإسلام ليكيد للإسلام من الداخل . فقد أتى هذا الدَّعى الزنيم منكراً من القول وزوراً . بل إنه اقترف الكفر فى رائعة النهار بروايته « الشيطانية » التى انفجرت كأنها بركان عالَمى فى بداية هذا العام - ١٩٨٩ - لأنه سخر من صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ومن أمهات المؤمنين زوجات النبى الطاهرات ، ومن أصحابه الأطهار الأبرار ، بل هزىء وسخر من الإسلام كله فى روايته « الشيطانية » تلك . فما كان من بريطانيا إلا أن تكافئه بمنحه جائزة من أرقى الجوائز التى لا تمنحها حكومة صاحبة الجلالة إلا فى الحالات « الممتازة » النادرة ، منحت حكومة صاحبة الجلالة « سليمان رشدى » تلك الجائزة ؛ لا لأنه طبيب عالمى اكتشف دواءً للقضاء على مرض « السرطان » الذى استفحل علاجه على حُذَّاق الطب ، أو اكتشف علاجاً لمرض « الإيدز » المعضل الذى انتشر فى أوروبا لانحرافها « الأصيل » عن هدايات السماء ؛ ولا لأنه مصلح عالَمى أفلح فى إقرار السلام لجميع دول العالم ودعا إلى الوفاق العالمى ونزع التسلح الرهيب فاستجابت له

روسيا وأمريكا وأبطلتا « مفاعيل ترسانتيهما المسلحتين » ولا لأنه .. ولا لأنه . ولكن لأنه سخر من خاتم النبيين ورسالته الخالدة ، بهذا وحده - وهذا وحده كثير - استحق « شيطان الضلال » أن تمجده بريطانيا وتمنحه أرقى جوائزها .

ثم تتسابق دور النَشر فى الغرب لترجمة الرواية الشيطانية إلى مختلف اللغات وطبعها ونشرها وتوزيعها على أكبر نطاق ممكن ، دور نشر أمريكية ، وأخرى فرنسية .. وأخرى .. وأخرى .. فلماذا هذا كله - يا تُرى - الجواب معروف ومفهوم . إنه الكيد للإسلام والتشويش المتعمد الذى يُراد إلحاقه به . ولما خرجت ردود الفعل الهزيلة من بعض العواصم العربية والإسلامية لم تحرّك لأوروبا ساكناً . فتلك « شنشنة نعرفها من أخزم » كما يقول المثل العربى القديم ، أو « زوبعة فى فنجان » كما يقول المثل الحديث . أو « نسمع جعجعة ولا نرى طحناً » كما يقول المثل الآخر . أى أن هذه الردود إنما هى مجرد أصوات .

ولكن لما صدر قرار المرحوم الخمينى بإهدار دم « سليمان رشدى » هنا تحركت أوروبا فى اتجاهين : أحدهما فرض الحماية المشدّدة على سليمان رشدى . وتحصينه ضد قرار الخمينى ، والتنقل به من مكان سرى إلى مكان سرى آخر .

أما الاتجاه الآخر فهو التباكى على حقوق الإنسان ، والدفاع عن حرية الفكر والرأى ، ثم التهجم على الخمينى ، لأنه إرهابى خطير .. (؟!) والمؤسف أن كثيراً منا - نحن المسلمين - شاركنا أوروبا فى حملتها على الخمينى . وسمعنا مَن يقول - مشافهة أو كتابة فى الصحف - : كان على الخمينى أن يدعو إلى « الحوار » حول ما جاء فى الرواية الشيطانية بدلاً من الدعوة إلى اتخاذ العنف (؟!) .

وهذا - بلا شك - تخاذل منا . وقياس للأمور بغير مقياسها الصحيح فالعمل الذى قام به « سليمان الضال » ليس فكراً حتى نحاوره فيه ، وإنما

هجوم متعمَد . فمثلاً : اختياره لأسماء زوجات النبى ﷺ لبغيات فى وكر دعارة ، هل نحاور حوله المؤلف ونقول له ما قصدك من اختيار هذه الأسماء ؟!

ومثلاً آخر وصفه لعصر النبوة بعصر الجاهلية ، كيف نحاوره فيه يا ترى ؟!

أنقول له : ماذا أردتَ بالجاهلية التى وصفت بها عصر النبوة يا بروفسير سليمان ؟!

شئ مُرْبِكَ وذى الجلال والإكرام . وهؤلاء الذين نَحَواْ باللائمة على الخمينى الإرهابى قد يكون الذى دفعهم إلى هذا هو الدفاع عن الإسلام وإظهاره بمظهر التسامح . وهذا خطأ محض وقعوا فيه لأن « سليمان رشدى » إن كان مسلماً - حقاً - فقد ارتدّ بروايته الشيطانية . والمرتد المُصِرّ على رِدَّته حده القتل فى الإسلام لقوله عليه السلام : « مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه » ولعمل الخلفاء الراشدين من بعده . ورد الفعل الذى قام به المسلمون فى عواصم الغرب والشرق يعتبر دعوة له للاستتابة . ولكنه لم يتب ؟

وإن كان غير مسلم .. فإن شرط معاملته بالحسنى فى الإسلام أن يحترم ديننا ولا يطعن فيه . فإن طعن فالواجب فى معاملته هو : ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ (١) .

فما الخطأ الذى وقع فيه الخمينى رحمه الله ؟!

فالتسامح الذى هو سمة الإسلام له مواضع يسود فيها ، وليس منها جنايات سليمان رشدى .. هذا . وقد مضى الخمينى إلى رحمة ربه . ولكن سيبقى ذكره فى التاريخ ، وإن القرار الجرىء الذى اتخذه فى مراحل شيخوخته الأخيرة بإهدار

---

(١) التوبة : ١٢

دم سليمان رشدى هو القرار الذى أرعد فرائص أعداء الأمة قاطبة . وأجبر الأفاعى أن تعود إلى جحورها وهى مسرعة .

الإسلام دين التسامح . نعم . ولكنه ليس مع اللئام المتربصين به الدوائر . التسامح فى الإسلام لين فى غير ضعف . وما جَرَّ الويلات على المسلمين - الآن - إلا لتزرعهم - دائماً - بالتسامح حتى فى المواضع التى أوجب الإسلام فيها الشدة . وهذا سوء فهم للإسلام أورث مسلمى العصر الاستكانة والوهن . فهانوا على عدوهم لأنهم هانوا - أولاً - على أنفسهم . فأغرى ضعفهم أعداءهم عليهم فساموهم أقسى ضروب الخسف والذل والهوان ، وصدق الشاعر الذى قال :

مَـن يهن يسهل الهوان عـــ ـــليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلام ؟!

وحسبنا - فى هذا الفرع - هذه الأمثلة .

* *

* القيادات :

ومن الوسائل التى اعتمد عليها خصوم الدعوة : النفوذ إلى أهدافهم فى بلدان العالَم الإسلامى بتولية أشخاص تتوفر فيهم شروط ومواصفات معروفة لهم . فإذا وصلوا إلى مراكز القيادة العليا فى أوطانهم أهلكوا الحَرْثَ والنسل وعاثوا فى الأرض فساداً ، وأحلُّوا قومهم دار البوار ، وليس من المهم أن يعود على خصوم الإسلام نفع مباشر من هذه القيادات . بل يكفى جداً ما يصدر عنهم من تخريب وتدمير داخلى للقِيَم والأخلاق .

ومن أبرز هذه القيادات « كمال أتاتورك » . فقد هيأته القُوَى المعادية للإسلام ليتولى شئون بلاده ويكون هو الآمر المطاع فيها . فماذا حدث من هذا الطاغية اللعين ؟

إن الخسارة التى منى بها الإسلام ليست فى إلغاء الخلافة فحسب ولم تقتصر على تركيا وحدها . الخسارة بالنسبة لتركيا هى أن ذلك الطاغية هَجَّرَ (بتشديد الجيم) الإسلام كله عنها . وشَنَّ عليه حرباً شعواء لم تبق منه شيئاً إلا الإيمان فى القلوب - على خوف من « أتاتورك وملئه » - ونضع بين يدى القارىء واقعتين لما صارت إليه الأخلاق فى العهد « الأتاتوركى » بعد أن صارت تركيا بلداً أوروبياً موقعاً وواقعاً :

بعد إعلان الدستور العثمانى - عام ١٩٠٨ - قال أحد زعماء الحرية فى تركيا (أحمد رضا بك) : « ما دام الرجل التركى لا يقدر أن يمشى علناً مع المرأة التركية وهى سافرة الوجه ، فلا أعد فى تركيا حرية ولا دستوراً » .

وقد وقع ما تمناه « رضا » فنزعت المرأة التركية الحجاب وأطاعت الأوامر الأتاتوركية القاضية بذلك . وكانت هذه هى الخطوة الأولى للشيطان نحو الانحلال .

ثم قال أتاتوركى آخر يدعى « رفقى بك » بعد تحقق السفور والعرى : « ما دامت الفتاة التركية لا تقدر أن تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين (؟!) بل ما دامت لا تعقد « مقاولة » مع رجل تعيش وإياه كما تريد (؟!) مسلماً أو غير مسلم فإنه لا يعتبر تركيا قد بلغت رقياً » ؟!

فهذا هو التخريب الأخلاقى الإباحى الذى قام به « أتاتورك » ، وقد سبقه ترجمة القرآن إلى التركية ومنع تعليم اللغة العربية فى مدارسها وتنقية التركية من كل أثر للغة العربية ، وكتابة التركية بالحروف اللاتينية ، وإلغاء الخلافة وهجر العمامة وارتداء القبعة ، ولبس الفتاة البنطلونات الضيقة ؟! وإطلاق سراح العلاقات الحرة بين الذكور والإناث .. فماذا أبقى أتاتورك من الإسلام يا ترى ؟ لقد أرضى أتاتروك شياطين الإنس والجن ، وأغضب رب السموات والأرض ، فسلَّط الله عليه « نملاً لا يُرى بالعين المجردة » فأكل كبده وأطباؤه محاصرون له

ليقدموا له كل خدمة علاجية ووقائية . ولم يعرفوا أن النمل « السحرى » كان سبب موته إلا بعد أن زهقت روحه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ .. ﴾ (١) .

أما بالنسبة لغير تركيا .. فإن كمال أتاتورك بعد أن انفرط عقد المسلمين بين يديه . فإن بعض مَن تولّوا شئون المسلمين قد اتخذوا منه « أسوة » وجعلوه مَثَلهم الأعلى فى الجرأة على التخريب والتدمير ، والعبث بقِيَم الأمة العليا . وقد صرَّح الرئيس السابق محمد أنور السادات فى أحاديثه التى كان يذيعها من منزله بميت أبو الكوم ، فى إحدى المناسبات الوطنية صرَّح بأن « أتاتورك » كان المثَل الأعلى للضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة عام ١٩٥٣ (؟!) .

هذا التصريح له خطورته البالغة من رئيس جمهورية أكبر بلد عربى إسلامى ، وله زعامة إسلامية لا تُنكر ؛ لأن الجناية التى جناها « أتاتورك » على الإسلام أخطر جناية عرفها التاريخ الإسلامى . فكيف تتخذ منه الثورة المصرية مثلاً وقدوة ؟!

وكيف يصدر هذا الكلام من رجل كان يوصف بالرئيس المؤمن بل كان مرشحاً من قِبَلِ « المنافقين » ليكون سادس الخلفاء الراشدين ؟! (٢) .

أليس فى هذا استخفاف بالإيمان ، وعبث بالخلافة الراشدة ؟!

هذا ، وإذا نظرنا إلى الثورة المصرية من جهة أخرى تأكد لنا أنها كانت إعداداً أمريكياً ؛ لأن أمريكا كانت تبحث لها عن وجود فى الشرق الأوسط لتسد الطريق أمام السيطرة الشيوعية عليه ، وجرَّبت أمريكا أن يكون مدخلها

---

(١) المدثر : ٣١

(٢) فى صحيفة الأهرام فى ١٩٨١/٨/٢١ نشر خبر يقول : إن مجلس الشعب سينظر فى اقتراح مقدَّم له بمنح الرئيس السادات لقب : سادس الخلفاء الراشدين .. ؟! وقد حالت أحداث سبتمبر عام ١٩٨١ دون هذا العبث .

إلى الشرق سوريا ، وتمثَّل هذا فى ثورة حسنى الزعيم ، ولكن خاب أملها فاتجهت إلى مصر ، وكان لها عدة لقاءات بالرئيس جمال عبد الناصر قبل قيام الثورة . والهدف من تلك اللقاءات هو البحث عن وسيلة تضمن بها أمريكا تغلغل نفوذها فى مصر عن طريق حركة تطيح بالنظام الملكى الذى كان قائماً قبل الثورة . وكانت نتائج تلك اللقاءات تُسجَّل فى تقارير وتُرسل إلى الإدارة الأمريكية فى ذلك الوقت (١) .

والمعروف أن الثورة المصرية أدارت ظهرها لأمريكا بعد فترة قصيرة من قيامها . ثم ارتمت فى أحضان المعسكر الشيوعى حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر . وأن علاقتها بالمعسكر الشيوعى كان لها آثار سيئة للغاية على حاضر مصر ومستقبلها .

* * *

---

(١) انظر : كتاب « لعبة الأمم » ففيه تفاصيل واسعة عن تلك اللقاءات وأماكنها وتواريخها .

الفصل الحادى عشر

نجيب - ناصر

قامت الثورة ، وتولى رياسة الجمهورية فيها - لأول مرة - اللواء محمد نجيب ، ومنذ أول يوم من قيام الثورة كان العقل المدبِّر فيها هو البكباشى جمال عبد الناصر ، وهو المرشح الحقيقى لرياسة الجمهورية ، لكن تولية محمد نجيب كانت خطة مرحلية كما ظهر فيما بعد .

لم يطل المقام بـ « محمد نجيب » فى رياسة الجمهورية ، حتى آلت الأمور إلى جمال عبد الناصر . والذى يهمنا من فترة رياسته للجمهورية فى هذا العرض السريع هو أبرز ما تحقق على يديه من أهداف لأعداء الإسلام :

حيناً للصليبية العالمية ، وآخر للإلحاد العالمى (الشيوعية) .

* *

● إلغاء الأحزاب إلا جماعة « الإخوان المسلمون » :

ألغت الثورة جميع الأحزاب السياسية عام ١٩٥٣ وكان فى هذه الخطوة تمهيد للانفراد بالرأى والإدارة والحكم ، والأحزاب السياسية ليست شراً خالصاً ، ولا خيراً خالصاً . ومن إيجابياتها الكشف عن عيوب « الحكّام » ونقدها . وهذا ما لم تكن الثورة على استعداد له . ومع حل جميع الأحزاب ظلت جماعة « الإخوان المسلمون » تعمل فى الساحة ، ولم يشملها قرار حل الأحزاب ، لأن المساس بجماعة الإخوان كان يتطلب تمهيداً عميقاً وواسعاً على المستوى الإعلامى والمستوى العملى معاً .

وكان الإخوان المسلمون فى الخمسينات يقومون بنشاط إسلامى - سلمى - واسع النطاق ، من خلال المركز العام للإخوان المسلمين ومركز الأخوات المسلمات ، ثم صحيفة « الدعوة » التى كانت تصدر عن الجماعة . ثم ذلك النظام الذى عُرف بنظام « الشُعَب » - جمع « شُعْبة » بضم الشين وسكون العين - إذ كان فى كل حى من أحياء القاهرة شُعْبة ، وكذلك فى عواصم المحافظات (المديريات) وكانت تلك الشُعَب تنهض بمسئولية الدعوة إلى الإسلام عملياً ونظرياً ، ولها عناية خاصة بالنشء والشباب . تربيةً وتعليماً . وكان هذا النشاط الإسلامى مراقَباً - بالطبع - من الداخل والخارج معاً وغير مرضى عنه كذلك . وكان طلاَّب الأزهر - معاهد وكليات - جنوداً مخلصين أوفياء فى نظام الجماعة . سواء مَن كان منهم مسجَّلاً فى سجلات الجماعة أو غير مسجَّل ، فقد كانوا - جميعاً - إخوانى الاتجاه . وكنا نشاهد الطلاَّب الأكبر منا سناً ، والأعلى منا تحصيلاً للعلم ، كنا كثيراً ما نشاهدهم يرفعون المصحف بأيديهم ويهتفون : « لن يحكمنا إلا هذا » - يعنى : القرآن - ثم يخرجون فى مظاهرات سلمية لإعلان رأيهم ، وعقب إحدى المظاهرات فوجئنا بفصل واحد وتسعين طالباً من معهدى القاهرة الابتدائى - الإعدادى الآن - والثانوى ، تأديباً لهم وزجراً لغيرهم حتى لا يعودوا يقولون : « لن يحكمنا إلا هذا » ، وظل أولئك الطلاَّب مشرَّدين لمدة ثلاث سنوات ؟!

ومكافحة لمثل هذه المظاهرات أنشئت « نقطة شُرطة » أمام إدارة الأزهر الحالية ، ملاصقة لحرم الجامعة ، لتتصدى لأية مظاهرة تخرج من الجامعة ، وتمنعها من الوصول إلى وسط البلد - ميدان العتبة - وتقضى عليها فى مهدها (؟) .

هذا هو الطابع العام لحركة الدعوة الإسلامية فى مصر بقيادة جماعة الإخوان المسلمين فى أوائل الخمسينات . وفى هذه الأثناء كان التمهيد الإعلامى لضرب الإخوان قائماً على أشده ، وقد أسهم فيه محمد أنور السادات بنصيب وافر فى « الجمهورية جريدة الشعب » كما كانت تسمى عند صدورها بعد توقف الصحف

الحزبية المنحلة . وكان السادات قد دأب على نشر مقالات مطوَّلة فى تشويه سمعة الإخوان المسلمين . وأذكر - الآن - أن « مانشتاً » ضخماً صدر على الصفحة الأولى من « الجمهورية » بالبنط الأحمر ، يقول : « الهضيبى يريد الحكم ؟! وما الدين إلا وسيلة » .

وكان المستشار حسن الهضيبى مرشداً عاماً للإخوان المسلمين فى ذلك الوقت .

* *

● حادث المنشية :

ثم كان التمهيد العملى المباشر لضرب الجماعة ، بافتعال حادث المنشية ، وهو الحادث الذى أشيع فيه أن عضواً من الجماعة - « محمود عبد اللطيف » - حاول اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر وهو يلقى خطاباً عاماً فى ميدان المنشية بمدينة الإسكندرية ، وهكذا أفسح المجال أمام الثورة للتنكيل بالإخوان المسلمين والقضاء على حركتهم ، وهذا هو المطلوب ، وقامت القيامة على جماعة الإخوان ، المخابرات تضع الخطط ، والشُرطة تتعقب ، والمعتقلات تستقبل ، والساسة يشنعون ، والصحافة ووسائل الإعلام تُحذِّر وتُنذر ، وتُصوِّر حركة الجماعة بأنها حركة إرهابية دموية ، وأن أعضاء الجماعة مصابون بهوس دينى ، وأن الجماعة تخطط وتُعد لحرب إبادة ضد الشعب ، أمام هذه العوامل سهل على الثورة أن :

* تصدر قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين .

* تعقد لهم محاكمات صورية .

* تعدم شنقاً مَن شاءت من قياداتهم مثل : الشهيد عبد القادر عودة ، والشهيد يوسف طلعت ، والشيخ محمد فرغلى ، والشهيد إبراهيم الطيب ، والشهيد هنداوى دوير .

* الزج بأكثر من عشرين ألفاً من الجماعة فى المعتقلات بعد محاكمات صبيانية مضحكة ، فقد كان جمال سالم يطلب من بعض الأعضاء أن يقرأوا الفاتحة بالمقلوب . وطبعاً هذا تحريف خطير للقرآن ما كان لعضو من الإخوان أن يقوم به ، فكان جمال سالم رئيس المحكمة يشنع عليهم ويقول : « موش عارفين يقرأوا الفاتحة بالمقلوب » ؟!

* تعذيب المعتقلين أشد ما يكون التعذيب ، وكثير منهم خرج من المعتقل وهو ذو عاهة مستديمة جسيمة .

* وقف كل نشاط للإخوان المسلمين ، وإغلاق مراكزهم العامة والشُعَب الخاصة بالأحياء . ووأدت الثورة اتجاهاً إسلامياً فى مصر لو قُدِّر له أن يستمر لغيَّر وجه التاريخ . كانت مصر فعلاً هى الخاسرة ، أما الكاسب الحقيقى فكان أعداء الإسلام من الصليبية العالَمية ، والصهيونية العالَمية ، والإلحاد العالَمى .

* *

● مثال صغير ولكنه ذو دلالة :

فى عام ١٩٥٤ كنت أقيم - وأنا طالب فى معهد القاهرة الأزهرى - فى المنزل رقم (٩) فى شارع إدريس راغب بحى الظاهر ، وكان يهودى اسمه « ناشد » يدير محلاً للبقالة فى نفس العمارة ، وقد خرجتُ مبكراً فى الصباح لشراء بعض « الحاجيات » منه فأبصرت مشهداً عنده لم أره من قبل . جماعة من اليهود القاطنين فى الحى متجمعون عنده ، وأحدهم ممسك بجريدة الأهرام يقرأها والباقون يسمعون ، وقد علا البِشْر وجوههم وهم يتضاحكون من الأعماق . فأردتُ أن أعرف السر وراء هذه الظاهرة . فأسرعتُ نحو بائع صحف وأخذتُ منه « الأهرام » .. ثم علمتُ بكل شئ كان وراء تجمع اليهود وسرورهم . إن الصحف يومها أعلنت عن شن حملة اعتقالات واسعة ضد جماعة الإخوان ، وأن عمليات « الضبط والإحضار » وتعقب أعضاء الجماعة قائم على أوسع نطاق .. هذا المثال الصغير ذو دلالة عميقة : مؤداها أن أعداء الإسلام هم فعلاً المستفيدون مما صنعته الثورة بالإخوان وحركتهم ، وإذا كان ما رويته عن « البقال اليهودى » ورفاقه فيه هذه الدلالة فما بالك بما كان قد أحس به القادة والساسة الكبار فى أروقة المعسكرات الثلاثة المعادية للإسلام فى غرب العالَم وشرقه ؟!

* *

● الضربة الثانية :

كانت الضربة الأولى للإخوان عام ١٩٥٤ وما تزال مراسم الخطوبة بين الثورة والإدارة الأمريكية قائمة . وفى عام ١٩٦٥ كان كل شئ بين الثورة وأمريكا قد تغيَّر ، ونشأت تلك العلاقات الوطيدة بين روسيا وبعض الدول الشيوعية مثل يوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا من جهة ، وبين الثورة فى مصر من جهة أخرى . وتقدَّمت الثورة - مرة أخرى - بضرب جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥ قرباناً للمعسكر الشيوعى كما ضربتهم من قبل قرباناً للمعسكر الصليبى الغربى الرأسمالى .

وكان الإخوان المسلمين قد التقطوا أنفاسهم بقيادة الشهيد سيد قطب بعد ضربة ١٩٥٤ وتابعت مباحث أمن الدولة نشاطهم ورفعت التقارير عنهم للرئيس جمال عبد الناصر ، وقبيل شن حملة الاعتقالات على الإخوان عام ١٩٦٥ نشرت الصحف ملخصات لحديث أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر فى معسكرات الشباب الاشتراكى (الشيوعى) فى مدينة حلوان ، وكان مما جاء فيه أن الإخوان أعادوا نشاطهم من جديد ، وأنهم منظمون أكثر وأكثر من تنظيمات الاتحاد الاشتراكى ثم سافر الرئيس جمال عبد الناصر إلى روسيا فى صيف ١٩٦٥ وفى نفس الوقت كان قد أمر بشن حملة الاعتقالات على الإخوان فى شبه سرية . ولم يعلن عن الحملة إلا فى خطاب ألقاه الرئيس عبد الناصر فى مؤتمر للشباب العربى فى روسيا ، وكان مما قال فيه : إنه لن يسمح لجماعة الإخوان بالظهور مرة أخرى (؟!) وللمرء أن يتساءل لماذا تم الإعلان عن الحملة على لسان رئيس الجمهورية فى روسيا على خلاف ما جرت العادة ؟

ليس لهذا إلا تفسير واحد : إن الروس هم وراء هذه الضربة وأن الرئيس أحب أن يعلن نبأ الحملة هناك تكريماً لقادة الكرملين وتعبيراً عن عظيم ثقتهم فيه وثقته فيهم ، وبمجرد الإعلان عن الحملة هناك عادت الصحف المصرية تنهش فى لحوم الإخوان ، وتنهل من دمائهم : خونة - إرهابيون - هوس دينى - دمويون ؟!

كما قام التليفزيون بحملة دعائية واسعة النطاق كان يقدمها لكل بيت كل مساء . واكتظت المعتقلات بشباب الإخوان وكهولهم . وأعدم الشهيد سيد قطب عام ١٩٦٦ فى هدوء وأعلنت الصحف خبر إعدامه فيما لا يزيد عن أربعة أسطر ، وجُمعَت مؤلفاته من الأسواق وأُعْدِمت مثل إعدامه ومنها تفسيره الشهير « فى ظلال القرآن » .. فعلت الثورة هذه الفعلة الشنيعة وهى تعتقد أنها قضت تماماً على رموز الدعوة للإسلام فى مصر ، وأنها اقتلعت الإسلام من قلوب الشباب كما فعل « أتاتورك » فى تركيا من قبل .

*   *

● خصوم الإسلام يتكلمون :

حين قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ رداً على تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس بسبب أزمة تمويل السد العالى . بهذه المناسبة كتبت إحدى الصحف الإنجليزية تقول :

« لقد أيدنا جمال عبد الناصر حين قام بحركته عام ١٩٥٢ على أساس أنه « أتاتورك » جديد قوى ، ليحارب الشيوعية برفع مستوى المعيشة ، ويقر السلام فى الشرق الأوسط بالصلح مع إسرائيل . ولكنه اختار الحرب على السلام ، ونحن مستاءون من أجل ذلك ، ولكن ينبغى أن لا ننسى أنه هو الذى سحق الإخوان المسلمين » (!؟) .

هذا كان عقب ضربة ١٩٥٤ .، أما عقب ضربة ١٩٦٥ بثلاث سنين فقد قالت « أنديرا غاندى » فى حديث صحفى لإحدى المجلات الأمريكية : « إننا نحب جمال عبد الناصر ، ونؤيده ؛ لأنه قضى على الإخوان المسلمين المتعصبين » (!؟) .

هكذا كان ينظر أعداء الإسلام لتحركات جمال عبد الناصر . أن الرجل – عندهم – له سيئات . ولكن سيئاته كلها عندهم مغفورة لأن له حسنة واحدة –

عندهم – تزن ، بل تفوق كل أخطائه وسيئاته فى جانبهم تلك الحسنة هى : قضاؤه على الإخوان ؟ ولماذا ؟ لأنهم مسلمون ؟ والإسلام هو العدو اللدود لقُوَى الباطل . وعبد الناصر إن لم يكن كما كانوا يريدون ، أتاتوركاً كاملاً ، فهو على الأقل : نصف أتاتورك . ألم نقل من قبل : إن الكاسب الوحيد من ضرب جماعة الإخوان هم أعداء الإسلام وحدهم . وأن الخاسر هو مصر ؟!

* * *

الفصل الثانى عشر

الإضرار بالإسلام خارج نطاق الإخوان

لو كان عداء الثورة بقيادة جمال عبد الناصر مقصوراً على جماعة الإخوان المسلمين لالتمسنا له العذر ، ولقلنا إنه لم يعادهم من أجل الإسلام ، بل من أجل أنهم خصوم سياسيون مثل الأحزاب السياسية التى أطيح بها من قبل . ولكن أعمالاً أخرى وُجِّهت ضد الإسلام فى مصر خارج نطاق الإخوان تدل دلالة قاطعة على أن عداء الثورة بقيادة جمال عبد الناصر كان المقصود به هو الإسلام نفسه كيفما وأينما وُجِد .

● الإضرار بالإسلام فى الأزهر :

عرفت أوروبا وزن الأزهر وثقله منذ الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ حيث قاوم رجاله وطلأبه الاحتلال الفرنسى مقاومة شرسة وعبأ علماؤه قُوَى الشعب كله ضد نابليون وجنوده ، وضد مطامع فرنسا فى مصر ، وكان الأزهر هو قلعة النضال الوطنى العنيد ، ولم تفلح سياسة نابليون لا فى غزو الأزهر ، ولا فى التودد إلى علمائه ، والناس جميعاً يعلمون أن فتىً أزهرياً هو الذى قتل « كليبر » خليفة نابليون بعد عودته إلى فرنسا .

هذا الأزهر الذى دوَّخ الفرنسيين دوَّخ - كذلك - الإنجليز من بعدهم فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر ، وأحبط كل الخطط التى كانت تصنعها قُوَى الاحتلال لمحو شخصية مصر الإسلامية فى أتون الحضارة الغربية . والتقارير التى كتبها المندوبون السامون فى مصر ، واللوردات المعتمدون البريطانيون ، تلك التقارير

توضح فى جلاء كيف كان الأزهر هو الصخرة التى تحطمت عندها آمال الاستعمار . حتى لقد لخص « كرومر » رأيه فى إبعاد الأزهر عن الحركة الوطنية فى أمرين :

* إما أن يُطوِّر الأزهر نفسه بما يتسق مع السياسة البريطانية .

* وإما أن يموت ويختفى بإنشاء دور علم أخرى تناوئه وتقضى عليه .

وللأسف . فإن هذا الأزهر الذى لم يستطع أن ينال منه أعداء الإسلام كان عرضة للإضرار والإفساد على يد الثورة المصرية بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر .

لقد حققت الثورة خطط الاستعمار والتبشير ضد الأزهر . ففى مؤتمر التبشير العالمى الأول الذى عُقد بمصر عام ١٩٠٦ برياسة القس « صموئيل زويمر » ، حيث أعلن المؤتمرون عن محاربة الأزهر بما فيه من علوم عربية وإسلامية ، وحيث أعلن المستعمرون الإنجليز الحرب ضد الأزهر . جاءت أعمال الثورة وكأنها تطبيق متفَق عليه لآمال المبشِّرين والمستعمرين وخططهم . وليقرأ القارىء الكريم كلام اللورد « لويد » فى كتابه : (Egypt Sinee Crommer) :

« إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية ، الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً فى أى إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرَّجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً من مرونة التفكير والتقدير . فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، وليس من اليسير أن نتصور أى تقدم (طالما) ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة ، ولكن إذا بدا أن هذا الأمل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصوراً فى إصلاح التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح ، وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحدَ أمرين :

* فإما أن يتطور .. (؟!) .

* وإما أن يموت ويختفى (؟!) .

وبالطبع لم يستطع الإنجليز تطوير الأزهر ، ولكن استطاعوا إنشاء التعليم غير الدينى الذى يناوىء الأزهر ليضيقوا الخناق على الأزهر فإما أن يُطوِّر نفسه ، وإما أن يموت ويختفى ، بَيْدَ أن الأزهر لم يؤثر عليه كثيراً هذا التعليم اللادينى كما كان يرجو الإنجليز ويقدِّرون .

أما تطوير الأزهر فقد تولته الثورة نيابة عن الإنجليز بعد رحيلهم فصدر قانون تطوير الأزهر لعام ١٩٦١ ، ومرَّ ذلك القانون على مجلس الأمة - لاعتماده - مرور الكرام ، ومن خلال جلسة واحدة دعى إليها الأعضاء ليلاً من منازلهم (جلسة طارئة قصيرة) تم التصديق عليه وإلباسه ثوب الشرعية (السياسية) ثم أعلن على الناس فى صباح اليوم التالى فى الصحف اليومية ، بعد أن دُبِّر الأمر بليل - كما جاء فى المثل - ولا مجال هنا لسرد آثار التطوير الذى منى به الأزهر ، ولكن من اليسير أن نقول : إن كفة الخسائر أثقل بكثير من كفة الأرباح بالنسبة للرسالة المنوط بها الأزهر تاريخياً ، وأن مستوى خريجيه فى ظل التطوير قد تدهور ، ولهذا التدهور أسباب كثيرة من أبرزها إثقال كواهل طلاَّبه بالمقررات التى يدرسها طلاَّب وزارة التربية والتعليم بالإضافة إلى مقررات الأزهر نفسه ، ومن مساوىء التطوير أنه أدخل مقررات وزارة التعليم إلى الأزهر ولم يدخل مقررات الأزهر (الحيوية) فى برامج وزارة التربية والتعليم . كما أدخل دراسة القانون الوضعى فى كلية الشريعة بالأزهر وفروعها فى الأقاليم ولم يدخل علوم الشريعة فى برامج كليات الحقوق ، وفى هذا تطبيق لما كان يدعو إليه طه حسين فى أوائل الخمسينات من أن « شبابنا الأزهريون لا يتعلمون كما يتعلم الناس ، ولا كما ينبغى أن يتعلم الناس » كما قضى التطوير على استقلال الأزهر وجعله تابعاً لرياسة الجمهورية ، لأن طه حسين - كما سيأتى - دعا من قبل إلى ضرورة إشراف الدولة على الأزهر والقضاء على سلطان « هيئة كبار العلماء » التى تمثل دولة داخل الدولة ؟!

* *

● إلغاء المحاكم الشرعية :

وفى نفس الخط « الأتاتوركى المصرى » تم إلغاء المحاكم الشرعية لتحل محلها المحاكم المدنية بحُجَّة القضاء على ازدواجية القضاء فى مصر . وكأن المحاكم الشرعية محاكم أجنبية داخل البلاد كتلك التى ألغتها الثورة باعتبار أنها تمس سيادة البلاد فى الصميم .

تطوير الأزهر كان للقضاء على ازدواجية التعليم فى مصر ، وكان ضحية هذه الازدواجية هو الأزهر .

وإلغاء المحاكم الشرعية كان للقضاء على ازدواجية القضاء فى مصر ، وكان ضحية هذه الازدواجية هو كلية الشريعة إحدى قلاع الأزهر الثلاث قبل التطوير .

وكما جرت تمهيدات لتطوير الأزهر جرت تمهيدات للقضاء على القضاء الشرعى ، فقد نشرت شائعة كانت لها ضجة فى الصحف وفى الرأى العام أن اثنين من قضاة المحاكم الشرعية بالإسكندرية (الشيخان فيل وسيف) ارتكبا الفاحشة مع إحدى المترددات على المحكمة التى كانا يعملان فيها لخصومة لها مع طليقها . وقد استندت مبررات إلغاء المحاكم الشرعية على هذه الواقعة . ولكن بعد أن تم كل شئ أصدرت المحكمة التى كانت تحاكم الشيخين حكمها بالبراءة ، وأنهما لم يرتكبا الفاحشة (؟!) وطبعاً هذا الحكم العادل جاء بعد فوات الوقت ؟!

* *

● إلغاء مدارس تحفيظ القرآن :

وفى نفس الخط - كذلك - تم إغلاق مدارس تحفيظ القرآن الكريم التى كانت تابعة لوزارة التربية والتعليم حين كان وزيرها السيد كمال الدين حسين ، وكانت تلك المدارس من أغنى الروافد التى تمد الأزهر بالطلاَّب الحافظين للقرآن الكريم . وقد حدثُنى مَن أثق فى صدقة أن السيد كمال الدين حسين كان يرى

تعميم تحفيظ القرآن الكريم على جميع مدارس الوزارة ، ولما عرض فكرته هذه على « السلطان الأعلى » أشار بإغلاق مدارس تحفيظ القرآن كخطوة أولى تعمم بعدها تجربة تعميم التحفيظ فى جميع المدارس ، ولما قام السيد كمال حسين بإغلاق المدارس (إياها) وطلب إدخال التحفيظ فى جميع المدارس كما وعدوه . لم يستجب له أحد ، فرجع السيد كمال الدين حسين بخفى حنين ، وتبيَّن له أنهم خدعوه (؟!) .

* *

● تأميم أوقاف الأزهر :

كان الأزهر قبل الثورة غنياً بالأوقاف التى وقفها عليه أهل المروءة والفضل من المسلمين ، وكان يستفيد من تلك الأوقاف طلاَّب الأزهر للاستعانة بها على طلب العلم ، ويستفيد منها الأزهر فى الإنفاق على شئونه العامة . وبجرة قلم صودرت تلك الأوقاف وضُمَّت إلى موارد الدولة العامة ، وصار الأزهر يعتمد على ميزانية تقرر سنوياً ضمن حساب الموازنة العامة للدولة ، وجدير بالذكر أن الأزهر ظل يعانى طويلاً - وإلى الآن - من الضائقات المالية المتكررة . فتأثر مستوى الأداء فيه فى الداخل والخارج . وقد حدَّثنا - ونحن طلاَّب بثانوى الأزهر - أحد المدرسين ، وكان مبعوثاً للأزهر فى بعض بلاد إفريقيا - أن البعثات الأزهرية فى الخارج تشكو مُرَّ الشكوى من قلَّة ما باليد وأن المبشِّرين من الغرب يحملون معهم ما لَذَّ وطاب من الأغذية والأكسية والبعثات الصحية والاجتماعية ، وأنهم لا يبشِّرون بالنصرانية إلا بعد أن يأسروا مَن يريدون تنصيره بصنوف الإحسان : يطعمونهم ، ويكسونهم ، ويرعونهم صحياً واجتماعياً حتى إذا بلغ الإحسان بهم مداه عرضوا عليه النصرانية وقالوا له : إن المسيح هو الذى أهدى إليك هذه الخيرات .. ؟!

أما رؤساء البعثات الأزهرية فكانوا يراسلون مسئولى الأزهر الكبار ليمدوهم ببعض المعونات حتى تثمر دعواهم فى الناس فكانوا يصابون بخيبة الرجاء حين يتلقون الردود على مراسلاتهم بأن ميزانية الأزهر لا تسمح (؟) علماً بأن

الأوقاف التى يمتلكها من عقارات وغيرها كفيلة بأن تسد هذا النقص من موارد الأزهر . ولكن مَن الذى يستطيع أن يقول : « إن البغل فى الإبريق » - كما يقول المثل .

هذه دلائل قاطعة على أن الثورة لم تحارب جماعة الإخوان المسلمين ؛ لأنهم خصوم سياسيون ينافسونهم على كراسى الحكم . بل حاربتهم من أجل الدعوة التى يعملون من أجلها وهى الحكم بما أنزل الله ، لا فى مجالات الحدود فحسب . بل فى كل مرافق الحياة مهما صغرت أو كبرت (؟!) .

* *

● إفساد الشباب :

ومن الإضرار بالإسلام ، الذى مارسته الثورة بعد اتجاه الرئيس جمال عبد الناصر إلى المعسكر الشيوعى ، هو ما حَلَّ بشباب مصر ذكوراً وإناثاً ، حيث أريد لهذا الشباب أن يُربَى على الفكر الماركسى « الثورى » الإلحادى . فأنشىء ما عُرِف بـ « منظمة الشباب الاشتراكى » وأقيمت لهم المعسكرات الدائمة والموسمية مثل معسكر أبى بكر الصدِّيق بالإسكندرية صيفاً .

أما المعسكرات الدائمة فقد أنشئت بمدينة حلوان ، وكان كل عضو من تلك المنظمة - فتىً أو فتاة - يتلقى دراسات منتظمة فى الفكر الثورى الاشتراكى ، ولكل فِرْقة مُوَجِّه دائم من الشباب الذى قطع مرحلة معيَّنة من الدراسة والتدريب . ويقوم بالتحاضر فيهم شخصيات بارزة ، ولا يكتفى بإلقاء المحاضرة ، بل كانت تطبع بكميات هائلة وتوزع على الدارسين ، تلك المحاضرات كانت تدور حول الفكر السياسى الماركسى ، وحول ما كان يسمى بالتحول الاشتراكى العظيم (؟!) .

وبالطبع فإن ما كان يتلقاه الشباب من فكر لم يكن فكراً إسلامياً بل هو مناوىء للفكر الإسلامى ، وكثيراً ما كان المحاضرون يحاولون التوفيق بين الفكر الاشتراكى الماركسى وبين الفكر الإسلامى لإضفاء الشرعية على الفكر الماركسى

أو إعطائه تأشيرة دخول وإقامة فى عقول الشباب ، كانت هذه الدراسات مقصورة على الشباب « العضو » فى المنظمة ، وكانوا يُعَدون بالآلاف المؤلفة وقد عَوّد بعضهم كبار المسئولين فى النظام على « التجسس » وكتابة التقارير عن الأشخاص وعن الأوضاع العامة . وهذا من سمات السقوط الخُلُقى الذى شاع بينهم .

* *

● ثم عمَّ البلاء وطمَّ :

لما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر كتابه « الميثاق » وأريد له أن يكون أحد معالم النهضة الحديثة فى ظل المعسكر الشيوعى ، وأذيع ذلك الميثاق لأول مرة وسط ضباب كثيف من التهويل الإعلامى ، تناوله الصحفيون والمفكرون وبعض العلماء كأنه كتاب سماوى جديد نزل به الوحى من عند الله . فدبجوا المقالات والشروح المسهبة والتعليقات والمقارنات بينه وبين « الدساتير » ، واعتبروه نصوصاً مقدسة . وبذلك خرج التضليل من معسكرات « التشويع » التى كان ضحيتها شباب المنظمة ، ليكون الشعب المصرى كله - إلا مَن عصم الله - ضحية لهذا الوباء .

ثم رئى تدريس « الميثاق » فى المدارس الثانوية وما فى مستواها فطُبعت منه ملايين النسخ ، وأحدث أزمة خطيرة فى الأوساط التعليمية . لأن « المعلمون » الذين أسند إليهم تدريس الميثاق كانوا لا يفهمون منه شيئاً . والتلاميذ الذين أريد لهم تحصيل العلم بما فى الميثاق كانوا أبعد عن فهمه من معلميهم . وتبع ذلك - بالطبع - روتيبنية الامتحان للتخلص من هذا « البعبع » الثقيل الظل .

ثم انضم إلى « الميثاق » فى أواسط الستينات « بيان ٣٠ مارس » فكان له ما كان لأخيه « الميثاق » من حفاوة مفتعلة بين الدوائر التى أشرنا إليها من قبل . وفى الواقع فإن « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس » أحدثا موجة من

النفاق منقطعة المثيل .. واستمرت هذه الموجة فترة من الزمن لم تمت إلا بموت الرئيس جمال أو قبله بقليل تحت وطأة الأحداث الجادة التى كشفت الغطاء عن « التيه » الذى كنا فيه ، وكانت بداية تلك الأحداث هزيمة ١٩٦٧

هذا .. وقد صرَّح الرئيس محمد أنور السادات فى أحد أحاديثه العامة بأن « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس » كان المقصود منهما امتصاص بعض الحساسيات . يعنى : لم يكونا عملاً جاداً بل كانا تمويهاً وتضليلاً ؟!

ولا يسعنا إلا أن نقول هنا : « وشهد شاهد من أهلها » والآن : أين الميثاق ؟ وأين بيان ٣٠ مارس ؟ بل وأين ورقة أكتوبر التى شغل السادات بها الفكر ردحاً من الزمن ؟ أين ذهب هذا كله ؟ جواب هذا السؤال هو قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (١) .

* *

● التخلص من القيادات المخلصة :

تمكين القادة الموالين للسياسات المعادية للإسلام خطة من خطط مواجهة أوروبا للإسلام كما تقدم . وتقابلها خطوة أخرى هى التخلص من القيادات التى تدين بالولاء للإسلام ، ولمصالح بلادهم .. ومما يؤكد ذلك الوقائع الآتية :

* اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا أول مرشد عام للإخوان المسلمين ومؤسس الجماعة .

* اغتيال الرئيس عبد السلام عارف (العراق) لميوله الإسلامية .

* اغتيال الملك فيصل (السعودية) لدوره فى جمع كلمة المسلمين فى حرب العاشر من رمضان (١٩٧٣م) ولولائه الظاهر للإسلام .

---

(١) الرعد : ١٧

* اغتيال الرئيس ضياء الحق (باكستان) لولائه للإسلام ولسعيه الدائب لصنع مفاعل ذَرِّى يكون قوة للمسلمين .

* اغتيال الشهيد عبد الرحمن عزام لجهوده البطولية فى مساندة مسلمى أفغانستان المجاهدين لتحرير بلادهم من النظام الشيوعى العميل .

هذه الأحداث وقعت خلال نصف قرن تقريباً .

* *

● تربية العملاء :

من أخطر الوسائل التى نجحت فيها القُوَى المعادية للإسلام بعد رحيلها عن البلاد الإسلامية هى تربية العملاء الذين خدموا مخططات تلك القُوَى وكانوا – وما يزالون – البديل المخلص لها . والذى تحقق على أيديهم لم يتحقق على أيدى الاستعمار المباشر نفسه .

عملاء للمعسكر الصليبى الغربى الرأسمالى . وعملاء للمعسكر الماركسى الشيوعى . ثم عملاء للصهيونية العالَمية . وعملاء لشتَّى الأيديولوجيات سواء أكانت دينية أو سياسية أو فكرية ثقافية . ومما زاد من خطرهم أنهم يمارسون عملهم وهم محصَّنون بمراكز تحميهم من المساءلة وتمكنهم فى الوقت نفسه من أداء المهمات التى وكلت إليهم . إن الهدف الذى يسعون لتحقيقه هو : القضاء على الإسلام ، أو تشويه حقائقه وعزله عن الحياة ؟!

وطرق تربية العملاء عديدة ، ومن أبرزها الابتعاث إلى الخارج للدراسة فى جامعات الغرب ومعاهده . فعن طريق الابتعاث تم تجنيد أعداد وافرة من العملاء قديماً وحديثاً ، ومن كلا المعسكرين الرأسمالى والشيوعى . والمبعوثون إلى الخارج الذين يتم تجنيدهم نوعان : فريق جاد فى طلب العلم وتحصيله . وهذا يتأثر ببريق الحضارة والفكر الغربى ، فيقع فى أسره درى أو لم يدر . وفريق خامل لا يهتم بطلب العلم . وهذا الفريق يُتساهل معه فيُمنح الدرجات

العلمية المطلوبة لكن بشرط أن يكون جندياً مخلصاً فى الدعوة إلى الحضارة الغربية والاستهانة بالإسلام .

ولدىّ - الآن - نص توصية وزّعها المستشرقون والمبشّرون على جامعات الغرب ، أضعها بين يدى القارىء حرفياً :

« لا شك أن المبشّرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا ، ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية فيجب أن تختار طلأباً من ذوى الطبائع الضعيفة ، والشخصية الممزقة ، والسلوك المنحل من الشرق ، ولا سيما البلاد الإسلامية ، وتمنحهم المنح الدراسية ، وتبيع لهم الشهادات بأى سعر ، ليكونوا المبشّرين المجهولين لنا ، لتأسيس السلوك الاجتماعى والسياسى الذى نصبو إليه فى البلاد الإسلامية ، ومبشّرين ووعاظ ومدرسين لأهدافنا ، ومآربنا باسم تهذيب الإسلام والمسلمين » (١)

ومصداقاً لهذا فإن أكثر العملاء وأشدهم خطراً هم الذين درسوا فى الغرب الصليبى أو الشرق الشيوعى أو عملوا هناك ، أو كانوا كثيرى التردد على تلك الأقطار ، وستأتى أمثلة منهم ومن أعمالهم فى غضون هذه الدراسة .

وهؤلاء العملاء يباشرون عملهم داخل البلاد من مواقع مختلفة أهمها : الصحافة - وسائل الإعلام الأخرى - التأليف والنشر - الندوات والمحاضرات العامة - العمل الفنى المقروء (القصة والرواية) - والممثل سينمائياً أو مسرحياً أو تليفزيونياً أو إذاعياً .. ثم الحفلات واللقاءات الخاصة . وقد دخلت الجامعات فى هذا المضمار وصار بعضها أوكاراً للفكر العميل المضاد (؟!) .

*   *

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص ١٥ .

● التعليم الأجنبى :

وغير خاف دور التعليم الأجنبى فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، ونوادى الروتارى والليونز ، كل هذه مستنقعات تفجرت فى الداخل لتربية العملاء والاستفادة منهم حسب ما يعطيه كل عميل بالنسبة للموقع الذى يشغله فى المجتمع أو فى المؤسسات الحيوية . ومما نلفت إليه الأنظار أن بعض العملاء قد يؤدى الدور المطلوب منه دون أن يشعر أنه عميل مجنَّد . بل يتصرف بنيِّة بريئة (؟!) وهذا هو مكمن الخطورة فى الموضوع . ونريد الآن أن نضع النقط فوق الحروف ، فنسوق أمثلة لإنجازات العمالة التى تحدثنا عنها ؛ ليكون القارىء على ثقة من صدق ما يُقال .

* * *

الفصل الثالث عشر

دور العمالة الإنجليزية فى الهند

تعتبر الهند من أكثر البلاد الإسلامية تعرضاً لغزو الحضارة الغربية لها ، ومن أكثر البلاد الإسلامية واجهت فيه أوروبا الإسلام مواجهة شرسة ، ولم تخرج بريطانيا من الهند إلا بعد أن أفسدت كل شئ فيه : إما مباشرة ، وإما عن طريق عملائها الذين جنَّدتهم لهذه الأهداف .

دخلت بريطانيا الهند عام ١٨٥٧ لا على أنها دولة مستعمِرة فحسب . بل على أنها هى الدولة الحاكمة للهند ، وكانت الهند قبل دخول الإنجليز فيها دولة إسلامية دستورها الإسلام فى كل صغيرة وكبيرة .

● وقف العمل بالشريعة الإسلامية :

كان أول عمل قام به الإنجليز فى الهند بعد استيلائهم عليها هو وقف العمل بشريعة الإسلام ، وإحلال القانون الإنجليزى محلها ، ويحسن أن نشير فى إيجاز لخطوات العمل الإنجليزى فى الهند فى الآتى :

١ - وقف العمل بالإسلام وإحلال القانون الإنجليزى محله .

٢ - اضطهاد المسلمين كلما واتت الفرصة .

٣ - إلغاء التعليم الإسلامى وإحلال التعليم العلمانى الغربى محله .

٤ – إحياء الحضارة الهندوكية [1] القديمة و « تمويت » حضارة الإسلام .

٥ – العمل على تربية جيل زاهد فى الإسلام مفتون بحضارة الغرب .

٦ – تجنيد عملاء من المسلمين لتقويض قِيَم الإسلام ومبادئه .

نفذَّت بريطانيا هذه الخطة فى الهند بكل دقة وإخلاص ، فقد دأب الإنجليز على مضايقة المسلمين فى عقيدتهم الصحيحة وسلوكهم الحميد . وفى نفس الوقت منحوا « الهندوكيين » الحرية الكاملة فى ممارسة عقائدهم الفاسدة ، وسلوكهم المنحرف . أى أن الإنجليز : حاربوا الحق ، وسالموا الباطل ، بل ناصروه على الحق وأخلصوا له (؟!) .

ثم سعوا جاهدين لإحياء حضارة الهند القديمة (ما قبل الإسلام) ليخلقوا تمايزاً طائفياً بين المسلمين والهندوكيين ، وهذه الطائفية وُظِّفت لتمزيق وحدة الهند ، واستعار العداء الطائفى بين المسلمين والهنادكة (؟!) .

ثم أخذوا فى إنشاء التعليم العلمانى الغربى ، وأولوا هذا النوع من التعليم عناية فائقة ليناوىء التعليم الإسلامى الذى ظل فى أضيق الحدود ، ولما أحجم بعض المسلمين عن إلحاق أبنائهم بالتعليم العلمانى فى الهند لجأ الإنجليز إلى تضييق الخناق على خريجى المدارس الإسلامية فحرموهم من التوظف وقصروا التوظف على خريجى التعليم العلمانى ، وترتب على هذا أن وجد المسلمون أنفسهم فى عزلة ، وأنهم تسببوا لأبنائهم فى الحرمان من العمل فاضطر فريق منهم لقبول هذا الوضع وسمح بدخول الأبناء مدارس التعليم العلمانى تحت وطأة الظروف ، وظل فريق آخر منهم متمسكاً برأيه عازفاً عن هذا التعليم مهما كانت الإضرار التى تنجم عن مقاطعته ، فالدين وسلامة العقيدة لا يمكن التساهل فيها بتعرضها للخطر .



(١) معنى كلمة « هندوكى » : الهندى غير المسلم ، أما « هندى » فتطلق على المسلم الهندى وغير المسلم .

● بروز العمالة :

ولم يطل التفكير بالإنجليز أمام هذا التحدى ، فسرعان ما اهتدوا إلى تجنيد عميل من المسلمين (اسماً لا فعلاً) لكى يقوم بتطويع مسلمى الهند لقبول الحضارة الغربية المعادية للإسلام . وإذا قام بهذا الدور مسلم يكون أجدى وأنفع وأقدر على تحقيق التحول المأمول ، ذلك العميل الخطير هو :

● أحمد خان :

لقد لعب « أحمد خان » هذا دوراً خطيراً ضد الإسلام والمسلمين لا فى الهند وحدها ، بل إن فساده وإفساده سرى إلى بلاد أخرى خارج نطاق الهند . فقد نجح السيد أحمد خان فى تحطيم الموانع لدى المسلمين فأقبلوا لا على التعليم الأوروبى فحسب ، بل أقبلوا على الحضارة الغربية بما فيها من خير وشر إلا مَن عصم اللّه . ولم يقف دورأحمد خان عند هذا الحد بل تطاول على الإسلام نفسه ، وأفسد فى مجال العقيدة أيما إفساد . وبفضل جهود هذا العميل أنشأ الإنجليز كلية تحوَّلت إلى جامعة ، وهى جامعة « عليكرة » وزيادة فى التضليل أطلق عليها الإنجليز اسم « الجامعة الإنجليزية - المحمدية » وليت شِعْرى ما الذى يربط بين الإنجليز وبين رسول الإسلام ﷺ ؟!

فتحت هذه الجامعة أبوابها أمام أبناء الأغنياء من المسلمين ، وقد تمكن الإنجليز من تربيتهم تربية غير إسلامية ، فقد زهدوا فى الإسلام وافتتنوا بالحضارة الغربية إلى أبعد مدى ، أما أبناء فقراء المسلمين فحيل بينهم وبين هذا النوع من التعليم الذى كان يُمكِّن خريجيه من شغل أرقى المناصب فى الدولة ، والحظوة بكل تقدير واحترام . وظل خريجو المدارس الإسلامية محصورين فى العمل أئمة مساجد أو دعاة . وحرمت الدعوة من العناصر النشطة الزكية فى نفس الوقت . على أن الوظائف الدينية - بتحريض من الإنجليز - لم تكن تحظى

بأدنى احترام عند الجمهور ؟! وقد كتب الشيخ جمال الدين الأفغانى وصفاً جامعاً لحركة « أحمد خان » نضعه بين يدى القارىء الكريم :

● **حقيقة الحركة :**

« نزعوا - يعنى الإنجليز - إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند ، أو إضعافه ؛ لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك المُلك المنهوب والحق المسلوب ، فاتفق أن رجلاً اسمه أحمد خان بهادر [1] كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة من لديهم ، فعرض نفسه عليهم ، وخطا بعض خطوات لخلع دينه ، والتدين بالمذهب الإنجليزى ، وبدأ الأمر بكتابة كتاب يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرَّفين ولا مبدَّلين لينال بذلك الزلفى عندهم . ثم راجع نفسه ، فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول : إنى نصرانى ؟! وأن هذا العمل الحقير [2] لا يؤتى عليه أجراً جزيلاً ، خصوصاً وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة ، وما أمكنهم أن يحوِّلوا من المسلمين عن الدين إلا أشخاصاً معدودين ، فأخذ طريقاً آخر فى خدمة حكّامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين ، وتبديد شملهم ، فظهر بمظهر الطبيعيين الدهريين ، ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء ، وليس لهذا الكون إله حكيم .. وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين ، لا يعتقدون فى الإلٰه الذى جاءت به الكتب السماوية (؟!) ولقَّب نفسه بـ « الطبيعى » فراق لحكّام الإنجليز مشربه ، ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين فأخذوا فى تعزيزه وتكريمه ، وساعدوه على بناء مدرسة فى « عليكرة » وسموها مدرسة المحمديين ، لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل : أحمد خان بهادر » [3] .

*

(١) « بهادر » لقب هندى يفيد التعظيم باللغة الهندية

(٢) أى الكتاب الذى ألفه فى مدح التوراة والإنجيل .

(٣) الفكر الإسلامى ص ٤١

● سقطات أخرى :

ليس هذا هو كل ما جناه أحمد خان ، فقد أصدر تفسيراً محرَّفاً للقرآن . ونادى بما سمى « إنسانية الأديان » ليذوب الإسلام فى الأديان الأخرى ، وقلَّل من قيمة الجهاد ونادى بأن يتعاون المسلمون مع الغرب ، والأخذ بحضارته ، وأنشأ جريدة لنشر فكره ، واختار لها اسماً خادعاً « تهذيب الأخلاق » ولا يُنشر فيها إلا ما فيه إفساد عقائد المسلمين ، كما دأب على إثارة الفتنة ضد المسلمين .

* *

● الدهريون :

وأسهمت أباطيل أحمد خان فى قيام جماعة « الدهريين » فى الهند وهى جماعة مخرِّبة للعقيدة والأخلاق ، فكانوا يُروِّجون للإلحاد وترك الإيمان بالله ، فاحتضنهم الإنجليز ، وحاربوا بهم الإسلام والمسلمين ، حتى لا يقوم المسلمون باسترداد « هندهم » من الإنجليز ، وقد ساعدت الجامعة التى أنشأها أحمد خان بمساعدة الإنجليز على تخريج شباب فُرِّغت قلوبهم من الإيمان ، وهذا بدوره ساعد على انتشار هذه الأفكار الملحدة التى نادى بها الدهريون كما قامت سلطات الإنجليز بكل عمل من شأنه أن يقوى من روح المقاومة والتصدى لهذه الحركات الهدَّامة . فألغت أوقاف المساجد والمدارس الإسلامية . ونفت الدعاة والعلماء إلى جزيرة « أندرومان » كما حرمت مسلمى الهند من الوظائف المؤثرة فى أجهزة الدولة .

* *

● القاديانية :

كانت حركة أحمد خان ضد الإسلام والمسلمين فى الهند بداية وليست نهاية . وقد جنى الإنجليز منها ثماراً طيبة بدون ثمن يُذكر . بَيْدَ أن الذى جنوه لم يكن مقنعاً لهم . فهم يعلمون أن الإسلام كثيراً ما يتجاوز النكسات ويتغلب على

العراقيل ، وضربة واحدة كالتى صدرت عن حركة أحمد خان لا تعجز الإسلام . فهو وإن حوصر خارج النفوس والقلوب فإنه ما يزال قوة هائلة رابضة فى السرائر المؤمنة . فلا بد إذن من تتابع الضربات لإبطال مفعوله ولو إلى حين . وهذا لا يكلّف الإنجليز سوى حفنات من المال ، والمال عندهم وفير . وإلا تجنيد ضعاف الإيمان ومحبى الشهرة ، وهذه بضاعة وافرة مطروحة فى أسواق النفاق فى كل زمان ومكان . إذن فما الذى يحول بين الإنجليز وبين أن يجندوا أخلافاً لأحمد خان والدهريين من بعده ؟! وعناصر التركيبة من الخونة والمال جاهزة ؟!

كانت حركة أحمد خان قنبلة زمنية موقوتة تفجّرت ثم خمدت وكذلك حركة الدهريين من بعده . بل كانتا تقفان عند حدود الفكر المجرّد ، والحال تقتضى ضربات أخرى موجهة للإسلام والمسلمين فى الصميم . القنابل المؤقتة لم تعد تقنع الإنجليز . بل هم فى حاجة إلى « بركان » يتفجر ثم لا يتوقف . إنهم فى حاجة إلى حركة عميقة تقوم على العقيدة لا على الفكر المشوش . إلى سرطان يسرى فى جسم الأمة فيغتالها فى بطء . وقد تحقق هذا الأمل للإنجليز فى حركة « القاديانية » الماكرة الخبيثة .

ففى عام ١٩٠٠ سُجِّلت « القاديانية » رسمياً باعتبارها مذهباً إسلامياً له عقيدة وفلسفة إسلامية (؟!) وقد التف حوله أتباع فى كل من البنجاب وآفغانستان وإيران ، وكان زعيمه الروحى ميرزا غلام أحمد القاديانى (قاديان بلدة بالبنجاب) وقد مدَّ له الإنجليز يد العون وساعدوه على ترويج أفكاره الهدّامة . وخصّصوا له مجلة تصدر شهرياً لتكون معواناً له على نشر أباطيله بين المسلمين ، وهى « مجلة الأديان » الإنجليزية ، وإليك موجزاً لأباطيل القاديانية التى كانت تروج لها بمساعدة الإنجليز :

١ - ادعاء أن روحى محمد وعيسى عليهما السلام قد حلّت فى ميرزا غلام أحمد فصار نبياً بعد أن كان المهدى المنتظر ؟!

٢ - ادعاء أن عيسى عليه السلام هاجر بعد موته (الظاهرى) إلى كشمير لينشر فيها الإنجيل ، وأنه مات حقيقة بعد عمر بلغ ١٢٠ عاماً ؟!

٣ - ادعاء أن الجهاد فى الإسلام ليس من معانيه القتال وشن الحرب ضد غير المسلمين ، بل معناه الوحيد أنه وسيلة سلمية للإقناع ؟!

٤ - ادعاء أن الجهاد الذى كان فى صدر الإسلام (عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة) جهاد باطل ؟!

٥ - الدعوة إلى وقف القتال ضد غير المسلمين - ومنهم الإنجليز طبعاً - وإلى وقف العمل بالآيات التى تحث على الجهاد فى القرآن الكريم ؟!

٦ - الدعوة إلى وقف العمل بالآيات التى تفرّق بين المسلمين وغير المسلمين ، وإقرار المساواة المطلقة من كل قيد بينهم ؟!

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [1] يجب وقف العمل بها هى ونظائرها فى القرآن ؛ لأنها تدعو المسلمين لقتال غير المسلمين ؟!

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] يجب وقف العمل بها هى ونظائرها فى القرآن الكريم ، لأنها تفرّق بين المسلمين وغير المسلمين ؟!

* *

(١) التوبة : ١٢ (٢) المائدة : ٢١

● الهدف :

كان المقصود من هذه الإجراءات القاديانية هو خدمة الإنجليز وأضرابهم من دول الاستعمار ، لذلك كان التركيز على هذه المحاور الثلاثة :

* إفساد عقائد المسلمين .

* المساواة المطلقة بين المسلمين وغيرهم .

* تنكيس ألوية الجهاد حتى لا يجد أعداء الإسلام أية مقاومة فى بلاد الإسلام التى يحتلونها كالهند ومصر وغيرهما .

وغير خافٍ أن الدعوة إلى وقف الجهاد نودى بها فى وقت كان الجهاد واجباً مقدَّساً على المسلمين لاسترداد بلادهم من أيدى أعدائهم . لذلك اهتم الاستعمار بمثل هذه الدعوات التى تحبب للمسلمين الذل والاستكانة مهما نزل بهم من خسف وضيم ؟!

* *

● الركون المعاصر لهذه الدعوة :

ومما يؤسف له غاية الأسف أن كثيراً من قادة المسلمين الآن يعملون بما دعت إليه القاديانية من ترك الجهاد لعدوهم . وأصبح الركون إلى حل المشكلات عن الطرق السلمية والديبلوماسية هو المعمول به الآن . وقد رأينا بأعيننا أن الرئيس السادات حين قام بزيارته لتل أبيب تبادل مع مناجم بيجين وريقة تنص على أن حرب ١٩٧٣ هى آخر الحروب بين العرب وإسرائيل . والمؤسف أن إسرائيل لم تلتزم بما فى تلك الوريقة فما تزال تشن الحروب على عرب فلسطين . وأننا نحن وحدنا الذين التزمنا بها وما نزال ؟!

ولا يسعنا أن نقول هنا شيئاً سوى : مدد يا قاديانية مدد ؟!

* *

● وصف جامع للقاديانية :

وصف الداعية الإسلامى الكبير أبو الحسن الندوى حركة القاديانية فى كتابه الموسوم « القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام » فقال : « قد تحقق عملياً وتاريخياً أن القاديانية وليدة السياسة الإنجليزية ، فقد أهم بريطانيا وأزعجها حركة المجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان ، الشهيد عام ١٨٤٢ ، وكيف ألهب شعلة الجهاد والفداء وبث روح النخوة الإسلامية والحماسة الدينية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر المسيحى ، وكيف التف حوله آلاف المسلمين . وقد عانت منهم الحكومة الإنجليزية فى الهند مصاعب عظيمة ، وكانوا موضع اهتمامها ... واقتنعت أخيراً بأنه لا يؤثر فى المسلمين مثلما يؤثر قيام رجل منهم باسم منصب دينى رفيع ، يجمع حوله المسلمين ويخدم سياسة الإنجليز ، ويؤمِّنهم من جهة المسلمين و « يدفع عنهم » غائلتهم . وفى شخص ميرزا غلام أحمد القاديانى وجد الإنجليز وكيلاً لهم ، يعمل بين المسلمين لمصلحتهم ولم يزل يتدرج من المهدوية .. إلى المسيحية .. إلى النبوة حتى تم ما أراد الإنجليز وقام القاديانى بدوره وما كُلِّف به خير قيام ، وحماه الإنجليز ، ومكّنوه من نشر دعوته ، وحفظ القاديانى هذه اليد وقد صرَّح فى بعض كتبه : « إنه غَرْسٌ غَرَسَتْهُ الحكومة الإنجليزية » ؟!

قال القاديانى : لقد قضيتُ معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونُصرتها . وقد ألّفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر من الإنجليز من الكتب والنشرات ما لو جُمِعَ بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة . وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر ، والشام وكابل ؟! [1] .

ويتابع الندوى الوصف فيقول : « إن القاديانية تنشر فى العالَم الإسلامى الفوضى الفكرية وعدم الثقة بمصادر الإسلام الصحيحة ومراجعه وسَلَفه ،

---

(١) من كتاب « ترياق القلوب » لغلام أحمد ص ١٢

وتقطع صلة هذه الأمة بماضيها ، وبخير أيامها ، وأفضل رجالها ، وتفتح الباب للأدعياء والمتكلفين على مصراعيه ، وتسيء الظن بقوة الإسلام وحيويته ونتاجه ، وتؤيس المسلمين من مستقبلهم » .

بمثل هذه الحركات العميلة بقي الاستعمار الإنجليزي (الفعلي) في الهند إلى منتصف القرن العشرين ، وبقي الاستعمار الإنجليزي الفكري والثقافي والحضاري في الهند إلى الآن . واستطاع أن ينشئ أجيالاً لا تعرف عن الإسلام إلا اسمه . أجيالاً آمنت كل الإيمان بحضارة الغرب . وضعفت صلتهم بالإسلام فإذا تحدثوا عنه تحدثوا حديث الجاهل المفتون . ونضع بين يدي القارىء صورة لتفكير الشباب الذين أفسد عقولهم الإنجليز في الهند :

« فقرات من مقال لشاب هندي مسلم »

كتب هذا الشاب مقالاً يصف فيه رحلة سياحية قام بها ، وكان في الرحلة بعض النصارى وغيرهم من الشيوعيين ، قال الشاب : « إن الذين يصحبوننا من المسافرين الصينيين هم مدمنون للخمور ، آكلون للخنزير ، إلى حد أنهم لا يستطيعون العيش بدونه . وهذا هو السر وراء ارتقاء الديانة النصرانية ، فالصيني يعد من العار إتباع نحلته القديمة مع التعليم الجديد ولو أنه عرف الإسلام لما أحجم عن قبوله ، ولكن الآفة في الإسلام أنه يحرمه من جميع الأطعمة الشهية التي يستمرئها (؟!) .

فهو يصير - إذاً - نصرانياً على الرغم منه ... وإني لأوثر شخصياً أن نرخِّص للمسلمين الحديثي العهد من أهل أوروبا والصين بعض الترخيص في أمر لحم الخنزير . وإني أشك في كونه حراماً قطعياً حتى من نصوص القرآن . بل عندي الأمر لا يعدو أن يكون قد حُرِّم على العرب بسبب خاص (؟!) فأي حَرَج

الآن فى استعماله فى البلاد التى يكون أهلها مصداق الآية : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ .. ﴾ [1] على كل حال هذا هو الحكم الوحيد من أحكام القرآن الذى لم أدرك بعد علَّة التحريم العام الذى جاء فيه (؟!) .

إذ أن هناك من البُعْد الشاسع بين معدة الإنسان وحوافز الأخلاق ، ما لا ينبغى معه أن يتدخل الدين فى أمور مأكلنا ومشربنا ؟! ولو أنه يتدخل فيها ويقرأ لنا بيان المائدة (Menu) أيضاً . فلماذا لا يعلّمنا الخياطة والحدادة والصرافة (؟!) .

وإنى لأعتقد أن السر فى عدم ارتقاء الإسلام فى العالم أنه - يعنى الإسلام - يسلب الإنسان جميع حقوقه الإنسانية (؟!) ويتركه جسماً بلا حياة ، أو طفلاً بلا شعور (؟!) فهو يغمض عينيه عن كل ما هو لازم لرقيه فى هذه الدنيا (؟!) ومن الواجب عندى أن ينحصر الدين - الإسلام - فى تلك الحدود التى قد حدُّه فيها النصرانيون » (؟!) .

*

● تركيز الانتباه :

لا أعتقد أن القارىء الكريم فى حاجة إلى شرح لهذا الكلام ، بَيْدَ أن بعض ما فيه يحتاج إلى تركيز الانتباه ، فهذا العبقرى أعجوبة الزمان قد قارن بين المسيحية والإسلام ، ثم اتضح له أن المسيحية أرقى من الإسلام ؟! وأن سبب رقى المسيحية هو إباحتها أكل لحوم الخنازير ، واحتساء الخمور ؟! أما عدم رقى الإسلام - عند هذا العبقرى - فهو أن الإسلام يُحرِّم لحوم الخنازير واحتساء الخمور . هذه واحدة . أما الثانية فلأن الإسلام - عنده - ثقيل الدم يحجر على الإنسان ويحول بينه وبين حقوقه وأسباب رقيه ؟! هكذا علّموه ؟!

وهو - أى العبقرى أعجوبة الدهر - يسخر من الإسلام لثقل دمه حين يتدخل فى شئون المعدة ؟! ثم يتمادى فى السخرية ويطالب الإسلام بأن يضع بين يديه

---

(١) البقرة : ١٧٣ ، والأنعام : ١٤٥ ، والنحل : ١١٥

بياناً ليضعه يومياً فوق « ترابيزة السفرة » ؟! وبأن يعلمه القرآن الخياطة والحدادة والصرافة ؟! هكذا علّموه ؟!

ومن حرص هذا العبقرى اعجوبة الدهر ، على الإسلام يدعو إلى الترخيص بأكل لحوم الخنازير ، والخمور لمسلمى أوروبا وهو يرى أن تحريم الخنازير كان خاصاً بالعرب وحدهم فى عصر النبوة لسبب خاص ، ولكنه لا يعرفه ؟! ومع نزول الآيات القاطعة بتحريم لحم الخنزير يرى هذا المفتون أنه لم يجد فى القرآن نصاً واحداً يُحرِّم لحوم الخنازير ؟! هكذا علّموه ؟! وفى النهاية يدعو هذا العبقرى « البهلول » إلى عزل الإسلام عن الحياة كما فعلت أوروبا النصرانية ؟! هكذا علّموه ؟!

* *

● فقرات أخرى :

وكتب أعجوبة الزمان عن مشاهداته فى شنغهاى فقال : « وإذا رأى المرء هذا الخلق الذين لا يُحصون عدداً من الناس ينعمون برغد العيش ، فلا يكاد قلبه يشهد بأن هؤلاء سيكونون حطب جهنم بعد مدة من الزمان (؟!) كأن هذه هى الغاية الوحيدة عند الله من خلقه إياهم (؟!) وإن كان هؤلاء كلهم - إلا القليل - منكرين ووثنيين ، فهل ذنبهم الوحيد الذى يستحقون لأجله أن يُخلَّدوا فى جهنم هو أنهم عمَّروا أرض الله ؟! لماذا يا ترى ؟ ولأى ذنب » ؟!

*

● تعقيب :

إن أثر الحضارة الغربية هو السمة البارزة فى تفكير هذا الكاتب فتراه يتساءل هل من أجل كفر أهل شنغهاى وإلحادهم سيكونون فى الآخرة حطب جهنم ؟ الكفر وهو أشنع المعاصى لا يكفى عند هذا المفتون لإدخال صاحبه النار ؟ وإذا كان الكفر لا يؤهل صاحبه لدخول النار فحرى بالمعاصى الأخرى أن لا تُدخل صاحبها النار ، إذن فلماذا خلق الله النار يا ترى ؟!

الكافر إذا عمَّر الأرض فلا جريمة فى كفره ؟! هكذا يرى هذا المفتون ؛ لأنه لم يتعلم إلا هذا ؟! والمؤسف حقاً أن هذا الكاتب وأمثاله يُعبِّر تعبيراً صادقاً عما فى نفسه . وهذه هى المصيبة ؛ لأنهم هكذا علَّموه ؟!

* *

● فقرة ثالثة :

زار الكاتب فى رحلته السياحية ميناء « كوبى » باليابان ، ثم كتب هذه الفقرة عن مشاهداته فيها فقال : « بقيتُ أمشى فى شوارع كوبى مدة ساعتين ، فلم يقع نظرى على متسول واحد ، ولا وجدتُ رجلاً سئ الحال فى خِرَقٍ بالية ، هذا هو مستوى رقى الأمة التى لا تعرف الدين ، ولا الإيمان بالله » .

*

● تعقيب ثان :

من الوسائل التى واجهت بها أوروبا الإسلام فى العصر الحديث أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين . وأن الدين - عادة - عقيدة بدائية تجاوزتها المجتمعات الراقية إلى الإيمان بالعلم الحديث ولم تعد تقيم وزناً للدين كان أو لم يكن ؟!

وكاتب المقال الذى نتحدث عنه من خريجى الجامعات الأمريكية ، وأمريكا الآن تقوم بدور بريطانيا من قبل فى محاربة الإسلام ، وما قاله هذا « الشاب الهندى المسلم » صورة طبق الأصل لدعاوى المستشرقين والمبشِّرين من أمريكا وغير أمريكا . فهو لا يرى حاجة إلى التمسك بالدين ، وقد ساعدته مظاهر الحضارة الغربية على هذا الاعتقاد . وبلغ الفتى ذروة الضلال حين أعجب كل الإعجاب بمظاهر الحياة فى « كوبى » التى لا يؤمن أهلها بالله ، ولا صلة لهم بالدين . فالسعادة قد تتحقق مع الكفر والإلحاد ؟!

وهذا المسكين معذور معذور ؛ لأنهم هكذا علَّموه ؟!

* *

● دعوة إلى تحطيم الإسلام :

وينتهى الكاتب فى مقاله فيدعو المسلمين إلى تحطيم الإسلام ليأخذوا بأسباب الرقى والرفعة ، ويلحقوا بأمم الغرب .. ويقلّدوها فى كفرها وإلحادها بوضع إسلام جديد يساير ركب الحياة . وننقل كلام الكاتب بدون تصرف ليرى القارىء بنفسه إلى أى مدى دمرت الحضارة الغربية الشباب المسلم الذى تلقى العلم فى جامعاتها :

● كلام الكاتب :

« اعلموا أن الإحسان هو أصل الدين ، ولا يحتاج الإحسان إلى لغة أو فن . وإنما غايته الطبيعية أننا مسئولون عن أعمالنا فى هذه الحياة ، وسنكون كذلك فى الحياة الأخرى ، وهذا هو الدين الإسلامى فى حقيقة الأمر ، وأما ما عدا ذلك مما سميتموه الدين فهو جذام قد ابتليتم به أنفسكم أو خلط قد وقعت فيه أذهانكم . فإذا ما حصرتم دينكم فى هذين الأمرين - أى الإحسان والشعور بالمسئولية - وحطمتم كل ما ترسفون فيه الآن من قيود الشريعة وأغلالها فإنكم أيضاً ستركبون سنام الرقى مع الأمم الأخرى التى إن لم تضع عنها الدنيا فى هذه الحياة فلن يضيع عنها الملكوت السماوى أيضاً ؟!

إنكم لستم فى أنفسكم أمة كهذه الأمم ، بل أنتم مصلحون للأمم ، ولكن لا تجعلوا الناس - بالله عليكم - يقولون إن الأمة الفلانية - يعنى أى أمة من أمم الغرب - على قمة المجد والرقى من حيث المجموع ، ولكن المسلمين فى حال بؤس وشقاء . وإن السبب فى شقائهم هذا هو دينهم العجيب » [(١)] .

*

(١) الإسلام والحضارة الغربية : لأبى الأعلى المودودى ص ٢٩ - ٣٢

● تعقيب ثالث :

هذا هو أحد النماذج التى تكشف عن تفكير بعض الشباب المسلم الذى مسخ عقله خصوم الإسلام ، وأوصلوه إلى هذه الدرجة من الضلال والإضلال . وأعود فأذكّر القارىء بأن الكاتب مخلص كل الإخلاص فيما يقول . وهذه هى الكارثة ؛ لأنه بدعوته هذه ، وفكره هذا ، يحاول صادقاً أن يخدم الإسلام ؟ ولكن بِمَ يخدمه يا ترى ؟ يخدمه بهدمه وتدميره على النحو الذى تقدّم . فسعادة المسلمين - عنده وعند أمثاله - وكثير ما هم - طريقها الوحيد هو تحطيم الإسلام ؟! وقد بلغ به الجهل مداه ، ترى ذلك واضحاً فى أنه دعا إلى بقاء الإحسان والشعور بالمسئولية . وكيف يكون لهما وجود فى حياة المسلم إذا حطمنا قيود الشريعة على حد قوله ؟ على أى منهج نحسن ؟ وعلى أى منهج نستعد ونكون أهلاً للشعور بالمسئولية إذا لم تكن بين أيدينا الشريعة فنحرِّم ما حرَّمته ونُحلِّل ما حللَّته ؟!

لو كان الكاتب عالماً بأنه عميل لقلنا : سيأتى يوم يقلع فيه عن عمالته ؟ ولكنه عميل مسحور قد سكر بصره فظن أنه على صواب ؟ ومَن كان هذا شأنه فمن الصعب أن يُرجى منه خير ؛ ولا أن يبصر طريق الحق ، أو يراجع نفسه فيما هو فيه من فتنة وضلال ؛ لأنهم هكذا حطَّموه ؟! إن نجاح القُوَى المعادية للإسلام قد بلغ المدى فى هذا الشاب وأمثاله . ولك أن تتصور حجم الخسارة التى يمنى بها المسلمون والإسلام إذا آلت مقاليد الأمور إلى مثل هذا الشاب فى البلاد الإسلامية ؟! إن أقرب صورة لهذا التصور هى صورة « كمال أتاتورك » فى تركيا ، وهى ترحيل الإسلام عن البلاد ؟

* *

● ألعوبة ساحرة :

وينبغى أن نشير هنا إلى ألعوبة ساحرة أذاعها خصوم الإسلام فى بلاد المسلمين وهى ألعوبة « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ليساير العصر » ،

ومحاولات هذا الشاب صورة من تلك الصور التى تمارس الآن لتطوير الإسلام . وقد جنّدت لها أوروبا كماً هائلاً من « العملاء الأذكياء البُلْه » فى كل بلد إسلامى من حملة الأقلام وأساتذة الجامعات والإعلاميين والفنانين بل وبعض القادة والزعماء مسموعى الكلمة . وهؤلاء يمثلون الاستعمار الدائم فى البلاد الإسلامية بعد رحيل الاستعمار . ومع هذا فلا معنى لليأس فإن للباطل جولة . ولكنه - بإذن اللّٰه - زاهق أمام الحق .

* * *

الفصل الرابع عشر

مواجهة اللغة العربية الفصحى

فى إطار كراهية أوروبا للإسلام ، وخوفها منه ، كرهت كل ما يتصل بالإسلام ، ووقفت أمامه وجهاً لوجه . ومن ذلك اللغة العربية الفصحى . فهى لسان التنزيل ، ووعاء الإسلام ، وعامل من أكبر العوامل على تجميع المسلمين ، وتوحيد صفوفهم ، وقيام الروابط القوية بينهم . وأوروبا تخشى وحدة المسلمين ، وتعمل بكل وسيلة على تفتيتها بالقوميات ، والوطنيات ، والطائفيات .

إن نصيب اللغة العربية الفصحى من مواجهة أوروبا وافر إذ بذلت جهوداً جبارة فى القضاء على تلك اللغة ليقوم حاجز سميك بين الإسلام نفسه ، وبين الأجيال الحاضرة والأجيال التى ستأتى .

لأن أوروبا فى مواجهتها المعاصرة للإسلام تهدف إلى تحقيق واحد من هدفين : هدف أصلى ، وهدف احتياطى .

أما الهدف الأصلى .. فهو القضاء على الإسلام كلية إذا كان ذلك ممكناً .

وأما الهدف الاحتياطى .. فهو الحيلولة بين الإسلام وبين المسلمين ، ومحاربة اللغة العربية الفصحى واحدة من أبرز الوسائل التى لها صلة بالهدفين كليهما . وأمامنا الآن ثلاثة ميادين واجهت فيها أوروبا اللغة العربية الفصحى فى العصر الحديث نوجز الحديث عنها فى الآتى :

● شمال غرب إفريقيا :

تعرَّضت اللغة العربية الفصحى لحرب شرسة فى البلاد الإسلامية الواقعة فى شمال غرب إفريقيا ، وعمل الاستعمار الفرنسى على « تغييب اللغة العربية » عن تلك البلاد ، وفُرِضت اللغة الفرنسية على المسلمين فرضاً ، كما فُرِضت الحضارة الغربية فى كثير من الأخلاق والسلوك اليومى . فكانت الفرنسية لغة كتابة وتعليم وصحافة ومحافل ، وانزوت اللغة العربية حتى كادت تُنسى فى تونس والمغرب والجزائر . وقد التقيتُ بالعديد من أبناء هذه البلاد الذين نشأوا فى ظل الاستعمار الفرنسى ، تحدثتُ معهم فهالنى ضعف مستواهم فى اللغة العربية ، لا أقول فى نحوها وصرفها - فهذه مرحلة خاصة لا يُلام على عدم تحصيلها كل الناس . وإنما أعنى طريقة التحدث وضياع الحروف الهجائية ، ثم ثقل اللسان عند نطق كثير من الكلمات ، ولُكْنَةٌ فاحشة لم يكد يسلم منها أحد ؟! وممن التقيتُ بهم وسمعتُ منهم خطباء وأئمة مساجد فلم يكونوا بأحسن حال من غيرهم : تلعثم وكلفة وركاكة . تذكرك بقول الشاعر :

مغانى الشعب طيباً المغانى ... بمنزلة الربيع مـن الزمـــــان
ولكن الفتى العربى فيهـــا ... غريب الوجه واليد واللسان
مغانى جنة لو سار فيهـــا ... سليمـــان لسار بترجمــــــان

لقد جنت فرنسا على اللغة العربية فى تلك البلاد جناية بشعة . مرات بإحلال الفرنسية محلها . وأخرى بإحياء اللهجات البربرية التى كانت سائدة فيها قبل الإسلام ؟!

* *

● اللغة العربية فى لبنان :

كانت لبنان مسرحاً لنشاط استعمارى تبشيرى هائل ضد اللغة العربية الفصحى من قِبَل فرنسا كذلك ، ولكن فرنسا لم تكن وحدها هى التى تعمل ضد

اللغة العربية فى لبنان ، بل كان لها معاونون لا يقلون خطراً ولا كراهية للغة العربية عنها .

وكان الاستعمار - عموماً - يواجه اللغة العربية فى كل بلد عربى إسلامى من خلال محورين :

أحدهما : إحلال اللهجات العامية لكل بلد محلها ؟!

والآخر : الدعوة إلى كتابة اللغة العربية - أياً كانت فصحى أو غير فصحى - بالحروف اللاتينية .

وقد تفرَّع عن هذين المحورين محور ثالث على أيدى العملاء من العرب العرب ، أو العرب المسلمين ؟! وهو إلغاء الشكل بالحركات (الفتحة - الضمة - الكسرة) وكتابة الكلمة على حسب نطقها . وسوف نوضح هذا فيما بعد إن شاء الله .

*

● محاربة العربية فى لبنان :

ظهر الاتجاه المناهض للغة العربية الفصحى فى لبنان منذ وقت مبكر ، وحمل لواء العداء نحوها الدكتور أنيس فريحة ، وسعيد عقل ، وبعض المستشرقين والمبشِّرين من الغرب ، الذين كانوا يعملون فى حقول التدريس فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وفى المدارس اليسوعية ذات الطابع التبشيرى .

ومن الذين قاموا بهذا العبء قبل الدكتور أنيس فريحة : لويس ماسينيون ، وروفائيل نخلة ، واهتم روفائيل هذا بإحياء اللهجات المحلية فى كل من سوريا ولبنان . ووضع لهذا الغرض كتاباً دعاه « قواعد اللهجة اللبنانية السورية » وتم طبع الكتاب بإشراف جماعة اليسوعيين فى لبنان ، ومن الذين سبقوا أنيس فريحة : شكرى الخورى ، وله كتاب « التحفة العامية » نشره الأب لامى اليسوعى كذلك .

وألَّف خورى آخر اسمه « الخورى مارون الغصن » ، وهو مدرس بإحدى المدارس اللبنانية كتاباً فى اللهجة العامية دعاه « فى متلو هلكتاب » وهذا العنوان خليط من اللهجة العامية المحلية ، ومن اللغة العبرية . إذ استعمل الكاتب الحرف « ها » مكان علامة التعريف « الـ » فى اللغة العربية . والحقيقة أن اللهجة العامية فى لبنان تجرى على هذا النمط إلى الآن ، فيقال فى « اليوم » - مثلاً : « هَاليُوم » - هذه المحاولات المبكرة كانت تهدف إلى إزاحة اللغة العربية الفصحى وإحلال العامية محلها . وجعلها لغة كتابة وتأليف وفن ، وهلم جراً .

*

● أنيس فريحة :

مهدت هذه المحاولات لعمل آخر قام به الدكتور أنيس فريحة ، وبذل فيه جهوداً مضنية ومتتابعة فى إصرار وعناد . وكان فريحة أستاذاً للتاريخ واللغات السامية فى الجامعة الأمريكية ببيروت .

كان عمل فريحة موجهاً إلى هدم اللغة العربية تماماً (؟) مفردات وقواعد . ومارس عمله فى أسلوب تمويهى خدَّاع وهو تيسير اللغة العربية . وقد وضع فى ذلك عدة كتب ، وألقى كثيراً من المحاضرات ، حتى فى مصر نفسها (؟!) ومن الكتب التى ألَّفها لهذا الغرض كتاب « تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أساس منطقى جديد » .

ثم أتبعه بكتابين آخرين هما : « محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها » .

والآخر : « نحو عربية ميسرة » .

*

● شواهد من كتبه :

وإليك بعض الشواهد من كتبه وهى تكشف لك فى وضوح عن خبايا الرجل وخفاياه :

« لماذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لماذا يتهموننا بالخروج ؟ الأمر بسيط : لا يدركون أن هناك مشكلة ، ولماذا لا يدركون ؟ الأمر بسيط : الجهل عدو العرب الأكبر » ؟!

الدكتور فريحة يقدِّر تماماً خطورة اللعبة التى يؤديها ، وهو حريص كل الحرص على إقناع الناس بها ، فيدَّعى أن اللغة العربية الفصحى تشتمل على مشكلات يحاول هو حلها .. ويلوم العرب - ويقصد المسلمين - بأن عدوهم الأكبر هو الجهل ، وجهلهم هذا هو الذى حجب عنهم مشكلات اللغة العربية الفصحى فى زعمه ؟! ..

ثم يقول فى كتابه : « نحو عربية مُيَّسرة » : « ولكن لا يصح اعتماد اللغة كما انحدرت إلينا مدوَّنة . ذلك لأن الذين استنبطوا قواعدها ، وضبطوا أحكامها اعتمدوا الشعر الجاهلى أولاً . ثم القرآن الكريم مادة لغوية ؟ ومتى كانت لغة الشعر ولغة الأدب ولغة الدين مرآة تعكس لغة الناس فى معاشهم ومكاسبهم » ؟!

باختصار شديد : فريحة يرفض اللغة العربية الفصحى لأنها لغة القرآن ، ولكى يخفف من شناعة الجريمة فإنه زجَّ بالشعر الجاهلى فى الموضوع ؟!

ويقول : « إن علينا فى مواقفنا الرسمية أن نتكلم بلغة الأجيال الغابرة ، بلغة وقفت فى مجراها عند نقطة معيَّنة من الزمان والمكان - يقصد ظهور الإسلام فى شبة الجزيرة - عندما أحيطت بهالة من التقديس » ؟!

أليست كراهية الإسلام هى التى حملت هؤلاء ، ومنهم فريحة ، على كراهية اللغة العربية . ولو كانت العربية مفصولة عن الإسلام لما عاداها القوم ، بل لمجَّدوها لما فيها من مزايا الفن والتعبير ؟!

ويقول : « أقول لنفسى : إنه يجب أن تخضع العربية لى ؟! وأن تلين لفكرى ؟! لا أن يخضع فكرى وعلمى لقوالب معيَّنة راقت لأذواق جيل من الناس - يعنى المسلمين الأوائل - ماتوا منذ مئات السنين » ؟!

الله أكبر .. ﴿ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أكْبَرُ ﴾ (١) وهل بعد هذا الكلام يُطلب دليل على أن القوم يحاربون العربية الفصحى من أجل أنها لغة القرآن ، ووعاء الإسلام ، أما لو كانت العربية الفصحى لغة للتوراة والأناجيل لكان لها عندهم زمر وتطبيل . ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

* *

● نصيحة إبليس :

تم يتقدم « الخواجة » فريحة لنا - نحن المسلمين - لينصحنا بنصيحة شبيهة بنصيحة إبليس التى نصح بها أبانا آدم وأمنا حواء ، حين زيّن لهما مخالفة أمر ربهما ليخرجهما من الجنة : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلَّا أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ ﴾ (٣) وفريحة افترض أن المسلمين سيسمعون لقوله كما سمع آدم لقول إبليس ، فزيّن لنا قبول فكرته ، وهى هجر لغتنا التى نزل بها كتاب الله العزيز ، ولسان رسوله الكريم ﷺ .

يقول فريحة : « ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ، والأدب القديم ؟! وجوابنا : هو أن القرآن الكريم سيخلد ، سيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة ، رغم إنحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب . فإنها حافظت على روعتها وجلالها ، ومقامها الدينى ، ولكنها تخالف لغة الناس » .

وبعد أن ضرب أمثلة ببعض الترجمات للتوراة ، وبلغة شكسبير التى ألّف بها مسرحياته ، وأنها احتفظت برونقها الأدبى رغم ابتعاد لغة الإنجليز المعاصرين عنها ، بعد هذا كله طفق يضرب لنا أمثلة بالواقع الكَنَسى فقال :

---

(١) آل عمران : ١١٨ (٢) آل عمران : ١١٩ (٣) الأعراف : ٢٠ .

« وها هى الكنيسة الكاثولوكية فإنها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة اللغة الرسمية للكنيسة ، ولا يكون القدّاس إلا باللاتينية ، وقُلْ مثل هذا فى الكنيسة الأرثوذكسية التى حافظت على اللغة اليونانية التقليدية ، والكنيسة المارونية التى احتفظت باللغة السوريانية » ؟!

يواصل فريحة نصيحته الإبليسية ليطمئن المسلمين على أن القرآن سيبقى رغم غياب اللغة العربية الذى يدعو إليه هو وأمثاله ، يقول للمسلمين : إن الكنائس الثلاث التى ذكرها ظلت تحافظ على الكتب المقدسة والشعائر الدينية مع أن اللغة خارج هذه الكنائس تختلف تماماً عن اللغة المستعملة فى المراسم والطقوس الدينية . والمطلوب منا – نحن المسلمين – أن نحذو حذو هذه الكنائس فنحبس القرآن فى المساجد ، وما علينا أن نهتم باللغة خارج المساجد : تكون هى العامية مكتوبة بحروف لاتينية أو بحروف هيروغليفية . المهم أن القرآن يُقرأ فى المساجد (فقط) باللغة العربية الفصحى ، ويشعر فريحة بأن هذا « التخريف » سيلقى بعض المعارضات إذ يصعب على غير علماء الدين من المسلمين فهم القرآن الكريم ويبادر فيقول : « لن تكون لغة القرآن الكريم بعيدة عن أفهام الناس (؟!) وسيظل الناس يتعلمونه ويحفظونه غيباً ، ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم ، وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركاً » ؟!

أرأيتَ إلى أى مدى يستخف الخواجة أنيس فريحة بعقولنا وأفهامنا ؟! وإلى أى مدى يتجرأ على شئون المسلمين وأخص خصائصهم . وكما قال الشاعر الحكيم :

هـــذا كـــلام له خبىء   معناه ليست لنا عقول ؟!

ومع شناعة ما روَّج له هذا المدَّعى المتطفل . فإن مصر استدعته ليحاضر فى بعض معاهدها ، ويلقى محاضرات عن اللغة العربية ، تتضمن الكثير من دعاوى التخريب .

واليسوعيون بصفة عامة لم يتركوا باباً لتوهين اللغة العربية الفصحى إلا طرقوه . فجورجى زيدان فى كتابه المعروف « الفلسفة اللغوية » زعم مرات عزو مفردات من اللغة العربية إلى لغات أخرى كالحبشية والعبرية . مع أن تلك المفردات لها أصول لغوية مشتقة منها فى اللغة العربية مثل : الحج ، والنبوة .

وكذلك معجم « المنجد » الذى وضعه اليسوعيون حافل بالمغالطات والتحريفات . ومثلهما « الموسوعة العربية الميُسرة » فالقوم مصممون على محاربة اللغة العربية ، وكان آخر مَنْ حمل لواء الهدم سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية » وهو فى الواقع « البلادة العصرية » ؟!

* * *

● محاربة اللغة العربية فى مصر :

رأينا ماذا فعلت فرنسا تجاه اللغة الفصحى فى بلاد شمال غرب إفريقيا ، وماذا فعلت فى لبنان . أما مصر فقد كان التركيز فيها على محاربة العربية الفصحى شديداً للغاية لأسباب ترجع إلى أوضاع مصر بصفة خاصة منها :

* أنها أكبر بلد إسلامى عربى ، وأن ما يجرى فيها سيكون له تأثير على غيرها .

* ولوجود الأزهر فيها حاملاً أمانة العلم والمعرفة ، محافظاً على اللغة العربية وآدابها على مر العصور .

* وجود الاستعمار الإنجليزى فيها واضعاً كل ثقله لنقل الحضارة الغربية إليها بكل وسيلة ممكنة .

* وجود عمالة تدين بكل الولاء للغرب وحضارته من المصريين أنفسهم مسلمين وغير مسلمين .

لذلك كانت الفرصة فيها مهيأة لشن هجوم على اللغة العربية الفصحى على أوسع نطاق . كما أتيحت فيها الفرصة للدفاع عن العربية الفصحى على أوسع نطاق .

* *

● أول مَنْ حمل لواء الهجوم :

وكان أول مَنْ حمل لواء الهجوم على العربية الفصحى فى مصر هم ممثلو الاستعمار الغربى أنفسهم . ثم تولى القيام بهذه المهمة مَنْ استطاع الغرب تجنيدهم كعملاء من المصريين أنفسهم . وإليك الحديث موجزاً عن هذه الظواهر :

* كان أول داع لمحاربة اللغة العربية فى مصر هو الدكتور « ولهلم سبيتا » الألمانى ، وكان يشغل منصب المدير لدار الكتب المصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فى ظل الاحتلال الإنجليزى ، فقد أصدر كتاباً بعنوان : « قواعد اللغة العامية فى مصر » عام ١٨٨٠ . وحرص أن يبيِّن فى مقدمة الكتاب أن اللغة العربية الفصحى حين قدمت إلى مصر مع الإسلام فى الربع الأول من القرن الأول الهجرى قضت على اللغة القبطية لغة البلاد الأصلية ، وكأنه بذلك يريد أن يُحرِّض الأقباط ، ويدعوهم لاستعادة لغتهم ، ويُحدث نوعاً من الفتنة بين الأقباط والمسلمين ، ثم طفق - مثل أنيس فريحة - يبيِّن المزايا التى ستحدث إذا هُجرت العربية الفصحى وحلَّت العامية محلها فيقول : « بالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة ، لا يمكن أن ينمو أدب حقيقى ويتطور » ويستغل « ولهلم » انتشار الأمية فى ذلك الوقت فى محاربة الفصحى على أساس أن اللغة الفصحى لا يستطيع قراءتها ولا فهمها كثير من الناس وقد تجاهل أن الأمى لا يستطيع قراءة ما يؤلَّف بالعامية ، فالعامية والفصحى - عنده - على حد سواء ؟!

ثم يقول : « فلماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة (الكتابة باللغة الفصحى) ؟! إلى ما هو أحسن ؟! ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول :

« ببساطة لأن هناك خوفاً من تهمة التعدى على الدين إذا نحن تركنا لغة القرآن تركاً كليّاً » ؟!

ثم يتطوع بحل هذه المشكلة كما تطوع أنيس فريحة فيقول :

« ولكن لغة القرآن لا يُكتب بها الآن فى أى قُطر ؟! فأينما وجدتَ لغة عربية مكتوبة فهى اللغة الوسطى ؟! أى لغة الدواوين ، وحتى ما يُدعى بالوحدة بين الشعوب الإسلامية لا يمكن أن يخيفها تبنى لغة الحديث العامية إذ أن لغة الصلاة والطقوس الدينية ستظل كما هى فى كل مكان » ؟!

اتفق الرجلان (فريحة وولهلم) على عزل اللغة العربية الفصحى داخل المساجد ؟! وهذا هو الهدف الاستراتيجى الذى من أجله شن الاستعمار الحرب الشعواء على اللغة العربية . كما اتفقا على الاستخفاف بعقول المسلمين لتجريعهم السم على أنه ماء الخلود ؟!

* كتب اللورد دوفرين فى تقريره عن عام ١٨٨٢ يقول : « إن أمل التقدم ضعيف فى مصر ما دام العامة يتعلمون اللغة العربية الفصيحة ، كما هى فى الوقت الحاضر » ؟!

هذا ما كتبه اللورد ، ومعروف أن التقارير السنوية التى كانت تُرفع للحكومة الإنجليزية فى عهد الاحتلال كانت بمثابة شرح تضع الحكومة الإنجليزية خططها على أساسه . والمقصود بالتقدم المذكور فى التقرير هو تقدم ما يريده الاستعمار من تحقيق مطامعه فى مصر وليس المراد منه تقدم الشعب المصرى نفسه .

* وممن شغلوا منصب المدير لدار الكتب المصرية المستشرق « كارل فولرس » الألمانى الجنسية ، خلفاً لـ « ولهلم سبيتا » . وقد وضع « كارل » هذا كتاباً لنفس الهدف أسماه : « اللهجة العربية الحديثة » تدور فكرته حول إحلال اللهجة العامية محل اللغة العربية الفصحى . ولكنه كان أشد خطراً من كتاب « ولهلم » . حيث دعا كل شعب عربى مسلم إلى كتابة آدابه وفنونه باللهجة العامية الشائعة فيه . والهدف واضح من هذه الدعوة ، وهو تمزيق وحدة الشعوب الإسلامية

وإنغلاق كل شعب على نفسه ، لا يفهم ما يكتبه غيره ، ولا يفهم غيره ما يكتبه هو ؟!

* ونحا هذا المنحى المستشرق الإنجليزى « سلدن ولمور » وكان قاضياً بإحدى المحاكم المصرية فى عهد الاحتلال كذلك ، فأصدر كتاباً دعاه : « العربية المحكية فى مصر » عام ١٩٠١ ، وضع فيه قواعد اللهجة المصرية العامية . ثم دعا لإحلالها محل اللغة العربية الفصحى .

ومن أقواله فى ذلك : « من الحكمة أن ندع جانباً كل حكم وُجِّه إلى العامية ؟! وأن نقبلها على أنها اللغة الوحيدة للبلاد ، وعلى الأقل فى الأغراض المدنية ، التى ليس لها صبغة دينية . وهناك سبب يدعو إلى الخوف هو أنه إذا لم يحدث ذلك ، وإذا لم نتخذ طريقة مبسطة للكتابة فإن لغة الحديث ولغة الأدب ستنقرضان . وستحل محلها لغة أجنبية نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم الأوروبية » ؟!

لقد تقمص هذا الدَعِىّ شخصية الناصح لنا ، ووضعنا بين خيارين : فإما أن نحل العامية محل الفصحى ؟! وإما أن نقبل إحلال أية لغة أجنبية محل الفصحى والعامية معاً ؟!

* وتابع « باول » ، وكان قاضياً - كذلك - فى إحدى المحاكم المصرية فى عهد الاحتلال الإنجليزى نفس المخطط ، ووضع كتاباً شاركه فى تأليفه أستاذ للغات الشرقية فى جامعة « كمبردج » وجامعة « كلكتا » هو الدكتور « فيلوت » . وسميا الكتاب : « المقتضب فى عربية مصر » ويدور الكتاب حول وضع قواعد للهجة العامية لتكون صالحة للإحلال محل اللغة العربية الفصحى .

* *

● ولكوكس :

وليم ولكوكس كان مهندساً للرى المصرى فى عهد الاحتلال الإنجليزى ، كذلك . ومع أنه « مهندس » فقد زج بأنفه فى محاربة اللغة العربية ، وكان قد

أسندت إليه وظيفة خاصة جداً لا يجوز أن يتولاها إلا مسلم ، وهى رياسة تحرير « مجلة الأزهر » ؟! وكان ذلك عام ١٨٩٣ وهذا من أعاجيب الزمن كما ترى ! ولكن لا عجب حين يملك أمر المسلمين غير المسلمين حتى لو عيَّنوه إماماً فى مسجد ؟!

وقد ألقى « وليم ولكوكس » هذا محاضرة فى نادى الأزبكية فى قلب العاصمة « القاهرة » فى نفس العام الذى تولى فيه رياسة تحرير مجلة الأزهر ، عنوان المحاضرة : « لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع عند المصريين الآن » ؟! وكان ما ورد فى المحاضرة هو الجواب على السؤال الذى جعله عنواناً لها كما تقدم . وانحصرت الإجابة على السؤال فى الآتى :

« إن سبب تخلف المصريين هو تمسكهم باللغة العربية الفصحى ، وأن المصريين إذا أرادوا الخروج من هذا التخلف فعليهم أن يهجروا الفصحى ، وأن يكتبوا ويؤلفوا باللهجة المصرية العامية ، التى يتعاملون بها فى حياتهم اليومية » ؟

يا سبحان اللّه ؟! شعب لم يستطع أن يخترع وهو يقرأ ويكتب باللغة الفصحى ينصحه « وليم ولكوكس » بأن يدوس بأقدامه لغته الفصحى ويقرأ ويكتب بالعامية ليغزو الفضاء بعد أن يملأ فجاج الأرض بالمخترعات ، ويستخرج كنوز البر والبحر ؟! تُرى : هل كان « ولكوكس » مصاباً فى عقله أم أنه قَدَّر أن المصريين كانوا « مخابيل » ؟!

الواقع أن « وليم ولكوكس » لم يكن مصاباً فى عقله ، ولا أن المصريين كانوا « مخابيل » وإنما أوروبا كانت تطرح كل الوسائل - المعقول منها وغير المعقول - من أجل زحزحة الإسلام عن حياة المسلمين ؟!

* *

● وقفة مع كل ما تقدم :

مما تقدم ندرك أن المعركة ضد اللغة العربية الفصحى اشتدت ضراوتها فى كل من مصر ولبنان ؛ لأن مصر ولبنان كانتا وكرين للتبشير ضد الإسلام ، ومحاربة

اللغة العربية الفصحى كانت هدفاً مهماً للغاية لدى التبشير الصليبى الغربى . وقد وُجِدَ فى مصر ولبنان من وسائل الحرب ضد الإسلام ولغته ما لم يوجد فى غيرهما .

ففى كل من القُطرين (مصر - لبنان) كانت الجامعة الأمريكية تقوم بدور فكرى مضاد واسع النطاق . أضف إلى ذلك أن جماعة « اليسوعيين » فى لبنان ونصارى الشام كانوا من أبرز الفصائل العربية التى تشبعت بالحضارة الغربية وتشيعت لها . بل كانت من أظهر المعابر للحضارة الغربية من أوروبا إلى بلاد الشرق الإسلامى . ومن بينها نشأت حركة « القوميون العرب » كاتجاه مضاد لفكرة « الجامعة الإسلامية » التى كان يُنادَى بها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وأن لبنان كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى ، ومصر كانت ترزح تحت أقدام الاستعمار الإنجليزى . وقد وقف القارىء فيما تقدم على أن كل الذين شنوا الحرب ضد اللغة العربية الفصحى فى لبنان كانوا من نصارى الشام . أما الذين بدأوا الحرب ضدها فى مصر فقد كانوا « أجانب » يشغلون مناصب ذوات خطر فى مصر : قضاة ، ومهندسين ، ومندوبين سامين لحكومة صاحبة الجلالة ، ومديرين لدار الكتب المصرية . وبعد رحيل الاستعمار عن مصر قام بهذه المهمة عملاؤه من المسلمين وغير المسلمين . وسيأتى لهذا تفصيل آخر .

* * *

الفصل الخامس عشر

دور العملاء فى محاربة الفصحى

بعد أن باشر « الأجانب » اعتداءاتهم على اللغة العربية الفصحى على النحو الذى تقدمت الإشارة إليه ، حمل الراية من بعدهم عملاء منا نحن العرب ، والمسلمين ، وأخذوا يروِّجون لتلك الدعاوى المسمومة بكل ما أوتوا من وسائل . وهم فيما رددوه من بعد لم يخرجوا قيد أنملة عن الخطة التى وضعها « الأجانب » من قبل ، وإن توسعوا فى الدعوى ، وأطنبوا فى الضجيج ..

وليأذن لنا القارىء أن نوجز الحديث عن صور العداء للغة العربية الفصحى فى أعمال العملاء وتلاميذ المبشِّرين والمستشرقين وعبيد الحضارة الغربية وسماسرة الاستعمار .

بدت صور ذلك العداء فى الآتى :

* التعصب للعامية ضد الفصحى والدعوة لإحلالها محل الفصحى ؟!

* كراهية الخط العربى والدعوة للكتابة بالحروف اللاتينية ؟!

* التآمر على اللغة العربية الفصحى وترويج الإشاعات ضدها بالصعوبة والجمود والقصور عن الوفاء بحاجة التعبير ؟!

* المناداة بإصلاح اللغة العربية الفصحى وتعديل قواعدها وتطوير أساليبها لتساير العصر وتواكب التقدم الحضارى الأوروبى ؟!

هذه هى صور العداء التى لفَّ ودار حولها عملاء الغرب ؛ وتلاميذ المبشِّرين والمستشرقين ، وعبيد الحضارة الغربية فى كل شكل من أشكالها .

ومن الحقائق الجديرة بالانتباه إليها أن هؤلاء العملاء لم يكونوا أكثر من « ببغاوات » يرددون ما قاله أسيادهم من قبل . ولم يأتوا بجديد من « عندياتهم » فكانوا – بحق – صدىً لأصوات مَنْ ذكرناهم من قبل – نصارى لبنان وعملاء الاستعمار الفرنسى فى لبنان ، والإنجليزى فى مصر – مع ملاحظة أن الصورة الأخيرة من العداء ، وهى المناداة بإصلاح اللغة العربية الفصحى ، كانت هى الأداة التى مارسوا بها الهدم ، أو المنفذ الذى تسللوا من خلاله للنَيْل من الفصحى بشعارات زائفة لها ظاهر برَّاق ، وباطن شديد القتامة والإظلام .

ثم سار العملاء فى طريقين :

أحدهما : الدعوة إلى جعل العامية لغة كتابة ، وفن وتأليف وأدب . ومن هؤلاء توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وسلامة موسى وغيرهم .

والآخر : اتجه اتجاهاً علمياً أعمق جذوراً من سطحية الدعوة إلى العامية . ومن هؤلاء الدكتور طه حسين ، وأستاذه أحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى وبعض أساتذة الجامعات .

والاتجاه الأول لم يلق رواجاً إلا فى بعض الأعمال الفنية فى ذلك الوقت . أما الأن فصارت العامية لغة الفن التمثيلى كله على مختلف مسمياته .

أما الاتجاه الثانى (العلمى) فقد راج فى دور التعليم ما قبل الجامعى حيناً من الدهر ، وما تزال آثاره باقية إلى الآن . وإليك بعض النماذج مما اختطته معاول الهدم والتدمير فى هذا المجال . ولنبدأ بالمحاولات الهزيلة « المضحكة » التى ثرثر بها أحمد لطفى السيد الملقب بأستاذ الجيل .

* *

● مضحكات أحمد لطفى السيد :

كان الدور الذى قام به أحمد لطفى السيد ترجمة لما ردده بعض المصريين تحت الشعار الخادع : تيسير اللغة العربية الفصحى ، وهذه الفكرة كانت تعتمد على عدة محاور أبرزها اثنان :

الأول : يتعلق بالكتابة نفسها ، وظهر فى هذا الصدد اقتراحان :

أحدهما : هَجْرُ الرسم العربى والاستعاضة عنه بالحروف اللاتينية كما تقدَّم . وقد وُئِدَ هذا الاقتراح وعورض حتى يئس منه المطالبون به .

والاقتراح الآخر : هو الدعوة إلى كتابة الكلمة العربية حسب النطق بها لا حسب القواعد الإملائية والضبط بالشكل لكل حروف الكلمة ، ما عدا الحرف الأخير الخاضع لعوامل الإعراب .

أما المحور الثانى : فكان يسعى للتخلص من حركات الإعراب التى يخضع لها الحرف الأخير من الكلمة ، القابل لظهور تلك الحركات .

وقد دعا الذين حملوا لواء تيسير اللغة أو إصلاحها إلى « تسكين » أواخر الكلمات مطلقاً أفعالاً وأسماءً سواء أكانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وهذا خاص بالأسماء دون الأفعال .

والذى لهج به أحمد لطفى السيد هو الكتابة حسب النُطق وزعم - كغيره - أن فى هذا إصلاحاً للغة وتيسيراً . مع ملاحظة أن هذه الفكرة كانت تستلزم تحويل الحركات إلى حروف من نوعها تدخل فى جسم الكلمة . فمثلاً كلمة « ولد » مكونة من واو مفتوحة ، ولام مفتوحة كذلك ، ودال خاضعة لعوامل الإعراب ، فإذا قدَّرنا « ولد » مرفوعاً هنا فإن أحمد لطفى السيد يدعوك إلى أن تكتبه هكذا : « والادون » فتصبح الكلمة ، مكوَّنة من سبعة أحرف بدلاً من ثلاثة أحرف ؟! ولك أن تسأل : من أين جاءت الأحرف الأربعة يا تُرى ؟ والجواب : أن الفتحة : التى على الواو صارت ألفاً ، والتى على اللام صارت

ألفاً كذلك . وإن الضمة التى على الدال صارت واواً . أما النون فهو عبارة عن التنوين الذى تقضى قواعد الإملاء الصحيحة أن التنوين يُنطَق ولا يُكتَب . وهذا هو الفرق بين النون والتنوين ، هذا هو الإصلاح أو التيسير الذى نادى به أحمد لطفى السيد مردداً ما ذهب إليه أنيس فريحة ، اليسوعى من قبل ، ولك أن تجرِّب طريقة لطفى فى غير ما تقدَّم من الكلمات لتقف على ما يُضحك ويُبكى فى آن واحد .

* *

● تلميذه البار :

أما تلميذ أحمد لطفى السيد البار – وهو الدكتور طه حسين – فقد كان شديد اللهج بهذا الاقتراح العبقرى . فما دامت الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية لم تجد قبولاً عند أحد . فلا بأس من بقاء الخط العربى ، ولكن شريطة أن يُلغَى الشكل إلغاءً تاماً سواء أكان فى أواخر الكلمات أو فى بنيتها وجسمها . وهم فى ذلك يسعون جاهدين لحمل اللغة العربية على قواعد اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية ؛ فهذه اللغات تضطر فى ضبط كلماتها برسم الحركات حروفاً فى جسم الكلمة : الضمة والفتحة والكسرة ، فتُرسم الضمة عندهم بما يقابل الواو مثل : (U - O) ، والفتحة بما يقابل الألف مثل : (A) والكسرة بما يقابل الياء مثل : (ei - ie) وهكذا .

والعجيب أن الدكتور طه حسين فى حملته على اللغة العربية فى كتابه : « مستقبل الثقافة فى مصر » يقرر أن هذه الطريقة التى دعا إليها أستاذه أحمد لطفى السيد تُوفِّر الوقت والجهد والمال فى الكتابة باللغة العربية ، وتضمن صحة الكلام بدون الاحتياج إلى قواعد النحو والصرف . وهذه دعوى فارغة يدّعيها الدكتور طه حسين ، وفيها – مع ذلك – خطأ علمى فاحش ، أما أنها دعوى فارغة فأمامى الآن صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ١١ رجب ١٤١٠ هـ (الموافق ٧ فبراير ١٩٩٠ م) وسننقل منها كلمات (فقرة) ثم نعيد كتابتها على

الطريقة المقترحة . ثم ننظر هل هى موفرة للوقت والجهد والمال وعاصمة من الخطأ بدون نحو وفيها إصلاح للغة كما يقول الدكتور طه ؟

والعبارة هى : « وأضاف أن الفرصة ما زالت سانحة لبذل الجهود لعقد لقاء فلسطينى - إسرائيلى » من خبر بعنوان : « عصمت عبد المجيد فى جدة » ، الصفحة الأولى .

هذه العبارة شغلت سطراً واحداً على إمتداد عمودين من الصحيفة . كما شغلت هنا سطراً واحداً مكوناً من إحدى عشرة كلمة فتعال نكتبها على الطريقة التى اقترحها لطفى وتحمس لها طه :

« وا أضافا أنْنا لفورصات ما زالات سانيحا تان ليباذلى لجيهودى ليعاقدى ليقائين فيلسطينيين - إيسرائيليين » ، وبمقارنة سريعة بين الطريقتين نجد العبارة موضوع الاختيار زادت أحرفاً فى الطريقة المقترحة تزيد عن ثلاثين حرفاً أى ما يعادل ست كلمات كل كلمة مكوَّنة من خمسة أحرف . يعنى أن كل سطرين بالكتابة المعهودة يزيدان سطراً كاملاً مع أن المعنى واحد . ومعنى هذا أن صحيفة مثل الأهرام تصدر فى عشرين صفحة يومياً بالكتابة المعهودة إذا حُرِّرت بطريقة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فهى مضطرة أن تصدر فى ثلاثين صفحة يومياً والمادة الصحفية هى هى لم تزد شيئاً ؟!

وإذا كانت أجهزة الأهرام على مختلف أنواعها تصدر صحيفتها المكوَّنة من عشرين صفحة يومياً فى ساعات عمل تبلغ عشر ساعات مثلاً فإنها مضطرة إلى إضافة خمس ساعات أخرى فتصبح ساعات العمل خمس عشرة ساعة يومياً .

وإذا جئنا إلى حساب الورق : فإذا كانت الأهرام بوضعها الحالى تستهلك تسمعائة رزمة ورق مثلاً فإنها مضطرة إلى أن تضيف إليها ثلاثمائة رزمة ورق أخرى مقابل العشر الصفحات ، وهو العبء الجديد الذى يُحمِّلها إياه أستاذ

الجيل أحمد لطفى السيد وتلميذه عميد الأدب العربى طه حسين . والأهرام بعد ذلك بالخيار بين أن تبيع النسخة لقرائها بثلاثين قرشاً فيقل عدد القراء ، أو تضحى بالعبء الجديد فتخسر .

ونسأل مرة أخرى : أين توفير المال والوقت والجهد الذى توهمه الدكتور طه وهو يدعو لإصلاح الكتابة على طريقة أستاذ الجيل والمستشرقين والمبشِّرين والقُوَى الاستعمارية المعادية للإسلام وحضارته ؟

أما الخطأ العلمى فإن الدكتور طه يعلم أن الحركة عبارة عن نصف الحرف الذى من نوعها بمقياس الزمن : فالضمة نصف الواو ، والفتحة نصف الألف ، والكسرة نصف الياء . فإذا حوَّلنا الحركة إلى الحرف الذى من نوعها فهذا إسراف وليس إصلاحاً للكتابة أبداً فخذ إليك - مثلاً - كلمة « محمد » فإذا رسمناها على طريقة أستاذ الجيل صارت : « موحاممادون » فى حالة الرفع ، و « موحاممادان » فى حالة النصب ، و « موحاممادين » فى حالة الجر . فبعد أن كانت كلمة « محمد » مكوَّنة من أربعة أحرف فى الرسم أحدها مشدَّد (مدغم) صارت على طريقة أستاذ الجيل مكونة من عشرة أحرف بزيادة ستة أحرف على الأصل . وترتب على ذلك إطالة زمن النطق ثم زادت المساحة الورقية التى تلزم لكتابتها (؟!) أليس هذا إسرافاً لا إصلاحاً ؟ والتعبير بالحرف ، وهو يستغرق ضعفى الزمن اللازم لنطق الحركة خطأ علمى شنيع (؟) فكيف ساغ لعميد الأدب أن يروِّج لهذا الخطأ وهو عميد أدب ؟!

إن الغاية تبرر الوسيلة ، وتُزال من أجلها الموانع . ولما تمكن فى نفوس هؤلاء الحاقدين حب الإضرار بالإسلام وحضارته ، والإساءة إلى لغة التنزيل والنبوة ، تنكروا لكل البدائه ، ومَن يخطب الحسناء لم يغلها المهر كما قال الشاعر . والحسناء المخطوبة هى حضارة الغرب والارتماء فى أحضانها بل مخالبها إن أردنا الدقة فى الوصف .

ولم يقف الأمر عند حد أستاذ الجيل « لطفى » وتلميذه البار « طه » . بل إن

خصوم الإسلام وفى مقدمتهم الإنجليز استطاعوا أن يُجنِّدوا مؤسسات ذات خطر لهدم اللغة العربية إلى جانب الأفراد من أمثال أحمد لطفى ، وطه حسين ، ولويس عوض ، وسلامة موسى ، وعبد العزيز فهمى ، وتوفيق الحكيم ، وجبران خليل جبران - من شعراء المهجر ، فقد جنَّدوا جريدة المؤيد والمقتطف ، ومجلة الهلال ، وكوكب الشرق الوفدية ، كما جنَّدوا مجمع اللغة العربية نفسه الذى أنشئ لحماية العربية جنَّدوه لهدم اللغة العربية واشتركت مجلته الحولية بنشر مقالات لإسكندر المعلوف وابنه عيسى اللذين كانا يمجدان العامية ويدعوان إلى اتخاذها لغة صحافة وفن وأدب ، ويسخران من اللغة العربية الفصحى ، ويقولان إنها سبب تخلف العرب والمسلمين ؟! كما جنَّدوا جامعة الدول العربية لهدم الفصحى بدليل أن هذه الجامعة استدعت أنيس فريحة ليلقى محاضرات حول دراسة الأسلوب واللهجات . وبعد إلقائها جمعتها فى كتاب مطبوع ، وأنيس فريحة تقدَّم الحديث عنه وعن عدائه للإسلام والعروبة .

وإذا أمكن فراجعْ مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الأول : شعبان ١٣٥٣ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٤ م) والجزء الثالث شعبان ١٣٥٥ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٦ م) ، والجزء الرابع شعبان ١٣٥٦ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٧ م) .

والهلال عدد ١٥ مارس ١٩٠٢ . ولا نريد بذكر هذه الإشارات إلا أن نضع بين يدى القارىء بعضاً من الأدلة على أن الاستعمار الإنجليزى نجح أيما نجاح فى تسخير قوى ومؤسسات وطنية لخدمة أغراضه ضد الإسلام ولغته ، وأن مصر لم تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً أمام سيطرته . صحيح أن هذه الدعوات وجدت مَن يتصدى لها من أبناء الأمة مثل مصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وشكيب أرسلان من الأدباء والمفكرين ، وشوقى وحافظ وغيرهما من الشعراء ، كما كان الأزهر وعلماؤه يقومون بواجبهم نحو حماية اللغة والدين .

* *

● خطورة هذه المحاولات :

لو كان قد قدَّر الله لهذه المحاولات نجاحاً كاملاً لترتب عليه محظوران شديدا الخطورة إلى أبعد مدى . وهما :

أولاً : لو طُبِّقت طريقة لطفى وطه فى الكتابة وهى أن الكلمة تُكتب كما تُنطق على نحو ما مرَّ فى « محمدٌ = موحاممادون » على القرآن الكريم لكان ذلك أشنع تحريف ترتكبه الأمة باختيارها نحو كتاب ربها . تحريف فى الرسم يتبعه تحريف فى المعنى فى بعض الأحيان وتحريف فى النطق يُذهب بجلال القرآن وروعته .

ثانياً : وإذا لم تُطبَّق هذه الطريقة على القرآن وقد أصبحت هى السائدة فى كتابة ما عدا القرآن ترتب على ذلك عزل الأمة عن كتاب ربها . وكِلاَ الأمرين مطلوب عزيز المنال لدى خصوم الإسلام .

وليست الخطورة كانت ستقف عند هذا الحد . بل هذا جانب منها . ولك أن تتصور آماداً أخرى للخسران الذى كان ستبوء به الأمة لو أطاعت دعاوى أولئك الموسوسين المخدوعين :

فتراث الأمة كله سواء المخطوط منه والمطبوع من كتب التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه واللغة والأدب والسيرة والتاريخ والعقائد والفلسفة والجغرافيا والرياضيات والطب وسائر العلوم والفنون ، كل هذه المصادر مدوَّنه باللغة العربية الفصحى وبالرسم العربى . فلو كانت الأمة قبلت العمل بتلك الدعوات الهدَّامة فإما أن تعيد كتابة تراثها كله وهى فى حاجة إليه بالعامية أو بطريقة لطفى وطه ، وهذا أمر صعب المنال ولو باعت الأمة كل أملاكها ما تحقق لها ما تريد .

وإذا أهملت تراثها فقدت أصالتها ووعيها وصارت كالمولود الذى لا يعرف له أباً ولا أماً . وكِلاَ الأمرين - كذلك - مطلب عزيز المنال لدى خصوم الإسلام .

إن المسألة كلها تدور حول سحق الحضارة الإسلامية ودفنها وهى حية ، هذا هو الأمل الذى كرَّس الأوربيون كل جهودهم للوصول إليه ، وجنَّدوا ما استطاعوا من قُوَى وطنية لخدمة أغراضهم فيه .

* *

• خطر تعدد اللهجات :

يدرك الغربيون أن من أكبر العوامل فى توحيد الشعوب الإسلامية بَلْه الإسلام نفسه هى اللغة العربية الفصحى ، وفى ذلك يقول « جب » الإنجليزى فى تعديد عوامل الوحدة الإسلامية :

« إن من أهم مظاهرها الحروف العربية التى تُستعمل فى سائر العالَم الإسلامى ، واللغة العربية التى هى لغته الثقافية الوحيدة والاشتراك فى كثير من الكلمات الإصطلاحية العربية الأصل » (انظر كتابه : إلى أين يتجه الإسلام ، ص ٢٠) .

معنى هذا أن خصوم الإسلام يعلمون تماماً أن شيوع اللهجات المحلية كفيل بتصدع الوحدة الإسلامية ، ولذلك أفسدوا اللغة العربية الفصيحة فى كل بلد إسلامى تمت لهم السيطرة عليه : فى مصر ، وفى شمال غرب إفريقيا ، وفى بلاد الشام وفى العراق . ونتج عن ذلك التصدع الخطير فى الوحدة الإسلامية ، وقد استفاد خصوم الإسلام - وبلا شك - من الأوضاع الراهنة التى يمر بها العالَم الإسلامى . وإذا رجعتَ إلى المحاولات الأولى التى قام بها الرواد الاستعماريون من التآمر على اللغة العربية الفصحى ظهر لك فى جلاء أن القوم كانوا يفترضون فينا السذاجة والبله وهم يزينون لنا مهاوى الهلاك التى حفروها بأيديهم . فسموا تدمير اللغة العربية إصلاحاً وتيسيراً ؟ وقالوا لنا بصوت جهورى أن سبب تخلفكم هو تمسككم بلغتكم الفصحى ، وللأسف الشديد تحول ذلك الافتراض بوجود البله والسذاجة فينا إلى حقيقة واقعة . فقد وجدوا

فينا مَنْ يصدقهم ويتحمس لتحقيق مدعياتهم . أو على حد تعبير القرآن العظيم : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ (١) ولا حول ولا قوّة إلا باللّه العلى العظيم .

*

● الإيمان بالقضاء والقَدَر :

من أصول الإيمان باللّه : الإيمان بقضاء اللّه وقدره . وقد جاء فى الحديث الصحيح وهو الحديث الذى دار بين صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم ، وبين جبريل عليه السلام ، حين جاء إلى الرسول ﷺ فى صورة إنسان ، وكان حول النبى ﷺ جمع من أصحابه . ودار الحديث فى صورة أسئلة من جبريل وأجوبة من صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ولم يكن الحاضرون يعرفون أن السائل هو جبريل إلا بعد انصرافه ، حيث قال لهم صلى اللّه عليه وسلم : « فإنه جبريل جاء يعلمكم دينكم » .

فى هذا الحديث سأل جبريل عليه السلام فقال : « فأخْبِرنى عن الإيمان » ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : « أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره » .

فالإيمان بالقَدَر أصل أصيل من حقيقة الإيمان المنجى باللّه كالإيمان بالملائكة والكتب المنزّلة والرسل واليوم الآخر .

وليس الإيمان بالقَدَر شرط كمال فى الإيمان باللّه . بل هو شرط تحقيق للإيمان نفسه فمَنْ لم يؤمن بقضاء اللّه وقَدَره فلا عبرة بإيمانه إذ أن الكفر بالقَدَر كفر باللّه نفسه ، وتكذيب بما أنزل فى كتابه ، وبما جاء به رسله .

وقد بدأنا بـ « الحديث » قبل القرآن الكريم ، لأن فيه تصريحاً بوجوب الإيمان بالقَدَر . وقد أشارت بعض الآيات الحكيمة إلى هذه الحقيقة . منها قوله تعالى :

---

(١) التوبة : ٤٧

﴿ قُل لَّن يُصيبَنَا إلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (١) ، وقوله جَلَّ ذكره : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (٢) .

هذه هى منزلة الإيمان بالقَدَر . ومع هذا فإن أوروبا فى مواجهتها للإسلام ، ومحاولاتها صد المسلمين عنه ، وتنفيرهم منه سلَّطت مستشرقيها ومبشِّريها أن يروِّجوا بين المسلمين لمقولة موغلة فى البطلان . هى أن سبب تخلف المسلمين هو إيمانهم بالقَدَر، لأنه أقعدهم عن العمل والجِد والمثابرة وخلق فيهم روح الاسترخاء وتثبيط الهمم ، اعتماداً على « أن ما قُدِّر سيكون » فلا العمل مفيد إذن ، ولا الخمول والكسل مضر ؟! وإذا كان مصدر المقولة هو الغرب الصليبى . فإن مقولة مماثلة صدرت عن المعسكر الشرقى الشيوعى ، وهى أن الدين مخدِّر أو هو أفيون الشعوب كما كان يقول « ماركس » فى محاربته للدين مطلقاً . ولكن هذه المقولة قفزت إلى العالم الإسلامى عن طريق عملاء الشيوعية مع تبديل فى العبارة زادها شناعة وقبحاً « الدين خرافة » أو « خرافة الميتافيزيقيا » أى الأمور الغيبية كالإيمان بالله والحياة الآخرة (٣) .

يقول المستشرق الفرنسى « كيمون » فى كتابه « باثولوچيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام تفشَّى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ... » .

وكذلك فإن المستشرق « هانونو » المستشرق الفرنسى ، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية روَّج كثيراً أن فكرة الإيمان بالقَدَر هو سبب تخلف المسلمين ؟! وأن الإيمان بالقضاء والقَدَر معناه الاستسلام والخنوع . وقد تصدَّى للرد عليه

(١) التوبة : ٥١ (٢) الأنعام : ٣٨

(٣) انظر جريدة الجمهورية العدد الصادر بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٥٥ تجد فيها مقالاً عن فشو هذه الفكرة بين طلأب جامعتى القاهرة وعين شمس .

الشيخ محمد عبده فى ثلاث مقالات يمكن الاطلاع عليها فى « تاريخ الأستاذ الإمام » لرشيد رضا [1] .

وقد تلقف هذه المقولة بعض الكاتبين . ومن ذلك ما كتبه الأستاذ « محمد حسنين هيكل » فى إحدى مقالاته « بصراحة » التى كان يكتبها بجريدة الأهرام فى أواخر رياسته لتحريرها ومجلس إدارتها قبيل حرب العاشر من رمضان (عام ١٩٧٣ م) فقد قال وهو يرصد المعدات التى يجب استعمالها فى مواجهة حرب مع إسرائيل : إنه لا يعوّل - أساسياً - على العناية الإلهية ؟! بل هى - عنده - رصيد إضافى (؟!) .

ومنها ما كتبه الدكتور « فؤاد زكريا » بعد العاشر من رمضان من أن النصر لم يتحقق بقوى غيبية - يعنى الإيمان - بل بالإعداد الطيب للحرب ، ومهارة التخطيط وحسن تدريب الجنود . وقد نُشِرَ هذا فى مقال قصير بجريدة الأهرام كذلك .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن كثيراً من المحاولات - قبلاً وبعداً - أخذت تُشيع هذه الفكرة عند المؤلفين وكُتّاب القصص وغيرهم . وقد عرضنا فى فصول آتية لبعض النماذج .

وإذا كان الهدف من ذكر هذه الفكرة هو رصد الوسائل التى واجهت أوروبا الإسلام من خلالها فى العصر الحديث ، دون التعرض لمناقشة هذه الوسائل من حيث الصواب والخطأ ، فإننا مضطرون أن نقف وقفة قصيرة ناقدة لهذه الدعوى المخرِّبة لعقائد المسلمين ، ليكون القارىء على بصيرة مما يقال عن عقيدته ودينه .

* *

● لاصلة لها بالتخلف :

إن عقيدة الإيمان بالقضاء والقَدَر من المسائل التى عرض لها الفكر الإنسانى قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، وخاض حولها الفلاسفة والمفكرون فى كل عصر

(١) الجزء الثانى ص : ٤١٥ - ٤٣٢

وبيئة ، واعتبروها مشكلة من مشكلات الوجود لها مساس بعدالة الله سبحانه وتعالى ، والذى نوجز تسجيله - هنا - أن الإيمان بالقضاء والقَدَر كما قرره الإسلام لا علاقة له بتخلف المسلمين لا من قريب ولا من بعيد .

فالمسلمون فى الصدر الأول للإسلام كانوا أعظم من مسلمى العصر إيماناً بقضاء الله وقَدَره . ولم يُقعدهم ذلك الإيمان عن الأخذ بالأسباب والعمل الجاد المثابر . ولم يمض طويل وقت حتى قهروا عروش الجهل والظلم والطغيان ونشروا الحق فى ربوع الأرض كلها .

ثم جاء المسلمون من بعدهم وأكبُّوا على الدرس والبحث فصاروا منارات هدًى فى مختلف العلوم والفنون النظرية والعملية معاً ، ولا تزال حركة البحث العلمى تشيد بجهود العلماء المسلمين فى القرون السبعة الأولى للهجرة المباركة مثل : البيرونى ، والمسعودى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الهيثم ، والرازى ، والغزالى ، والفارابى ، والكندى وغيرهم . وللقارىء أن يعود إلى ما لخصناه عن الدكتور « چورچ سارتون » حيث سجَّل بكل فخر أثر العلماء المسلمين فى البعث الحضارى الإنسانى طوال سبعة قرون من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى . هؤلاء العلماء الأفذاذ كانوا مؤمنين بالقضاء والقَدَر إيمانهم بالله . ولم يُقعدهم إيمانهم عن أن يكونوا أساتذة للعالَم فى مختلف العلوم والفنون .

إن أوروبا تعرف أسباب التخلف الحقيقية عند مسلمى العصر ، ولكنها تعكس الحقائق ما دامت الفرصة مواتية للنَيْل من الإسلام ، إن من أسباب تخلف مسلمى العصر هى أوروبا نفسها ، فقد شغلت العالَم الإسلامى بالحروب والغارات واحتلال بلاده والسطو على ثرواتها ، كما شغلتهم بالآفة اللعينة المسماة « إسرائيل » تلك الجرثومة التى تنخر فى جسم العالَم العربى الإسلامى كل صباح ومساء . أما البلاد الإسلامية غير العربية فلم يسلم بلد واحد منها من الكابوس الاستعمارى اللعين . ولو أن العالَم الإسلامى كان بمنأى عن أوروبا وأخطارها ، وفاق لنفسه خلال المائتى سنة الماضية لكان له وضع آخر غير الذى هو فيه الآن . ولنفض عنه غبار التخلف ونافس أوروبا فى كل مجال ؟! وهذا هو

ما تخشاه أوروبا وتعمل له بليون حساب ! إن أعداء الإسلام يعرفون هذا جيداً ، ولكنهم يتجاهلونه لأن فى هذا التجاهل يمكن ترويج مدعياتهم وأباطيلهم ضد الإسلام .

والمسلم - حسب مبادىء دينه - يعمل ويجِّد غير متكل على القَدَر ويبذل قصارى جهده فى الأخذ بالأسباب . فإن نجح فى مسعاه فلا يأخذه الغرور والبطر ، وإن تخلَّف ما يرجوه مع بذل الجهد فلا يقتله الحزن على خيبة المسعى . وعلى هذا فإن الإيمان بالقَدَر يقى المسلم من آفتين قاتلتين : آفة الغرور والبطر والاستعلاء بغير حق . وآفة التندم والتحسر عند خيبة الرجاء . هذا هو - فى إيجاز - المعنى السامى للإيمان بالقضاء والقَدَر . وفى القرآن الكريم آيات تؤكد هذا المعنى وترسخه فى القلوب المؤمنة بالله ففى سورة آل عمران جاء قوله تعالى : ﴿ لكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وفى سورة الحديد جاء قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢) .

هذه هى حقيقة الإيمان بالقضاء والقَدَر ، حقيقة تبعث فى المسلم روح القوة والشموخ ، وتجنبه مهاوى الضعف والندم فما أبعدها عن الإغراء بالكسل والخمول . وآيات القرآن حافلة بالدعوة إلى العمل الصالح للدين والدنيا وحافلة بالدعوة إلى استثمار الطاقات جواً وبراً وبحراً .

ولو كان الإسلام يُعاب بالدعوة إلى الذل والاستكانة .. وإلى الاسترخاء والخمول لما عملت أوروبا جاهدة على مواجهته والتربص به . وإشاعة الأراجيف حوله .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥٣ (٢) الحديد : ٢٢ - ٢٣

الفصل السادس عشر

إحياء أوضاع ما قبل الإسلام

اعتاد الكاتبون عن أساليب أعداء الإسلام فى محاربة الإسلام أن يعنونوا لهذا الأسلوب بقولهم : بعث الحضارات القديمة . ولكننا عدلنا عن هذه التسمية إلى كلمة « أوضاع » لأنها أدق فى تصوير المراد ، فالبلاد التى دخلها الإسلام لم يكن كل ما فيها حضارة ، فالحضارة لها معنى شريف ينبغى أن يُصان . وكلمة « أوضاع » صالحة لأن تُطلق على ما هو حضارة فعلاً ، وعلى ما هو غير حضارة من عادات الشعوب وبعض سلوكياتها الفجة ، وأخلاقياتها المرذولة .

هذه الأوضاع التى كانت سائدة فى البلاد التى حلَّ بها الإسلام هى فعلاً وسيلة من أفعل الوسائل التى استثمرها أعداء الإسلام فى البلاد التى خضعت لنفوذهم ردحاً من الزمن ، وكان غرضهم من إحياء تلك الأوضاع والترويج لها التشويش على الإسلام من جهة ، بإحياء مزاحم له حتى لا يستأثر الإسلام بالولاء كله ، ومن جهة أخرى إثارة العوامل الطائفية بين أبناء البلد الواحد ليُمزِّقوا وحدتهم ، ويُضعفوا قوتهم . وقد أشرنا من قبل إلى نماذج من هذا القبيل فى الهند والعراق وبلاد شمال غرب إفريقيا . أما هنا فنعرض فى إيجاز لما حدث فى مصر فى ظل الاستعمار الأوروبى فى الربع الأول من القرن العشرين ، وما هو قائم إلى الآن .

ومن البديه أن مصر من هذه الناحية كانت أرضاً خصبة لأعداء الإسلام ، فحضارة ما قبل الإسلام قائم فيها بعض معالمها كالأهرامات ، والآثار الفرعونية منتشرة فى بعض مدنها ، ولا تزال البقية الباقية من قبط مصر ، الذين سمح

لهم الفتح الإسلامى ببقائهم على عقيدتهم النصرانية لا تزال هذه البقية محافظة على عقيدتها تتوالد عليها على مر الأجيال دون أن يصيبهم مكروه من أحد ، كما أن أديرتهم وكنائسهم مقامة فى المدن والقرى يرتادونها فى حرية تامة متى وكيف شاءوا . وليس غريباً فى مصر أن نجد المسجد يلاصق الكنيسة دون أن يحدث شغب أو مضايقات من مسلم لقبطى ، كما انتشرت فيها المعاهد الدينية الخاصة بهم سواء المستقل منها أو الملتحق بدير أو كنيسة ، ولهم صحيفة تصدر بانتظام ، وفى كل مدرسة حكومية يتلقى أبناء القبط دروساً دينية خاصة كأبناء المسلمين تماماً .. هذه الأوضاع تجعل من مصر مسرحاً لألاعيب خصوم الإسلام متى أرادوا أن يعكروا الصفو ، وأتيحت لهم الفرصة . وقد حدث هذا فعلاً فى ظل الاستعمار ، ولولا حكمة الحكماء لحلّت بالبلاد كارثة لا يعلم مداها إلا اللّٰه .

* *

● بداية مبكرة :

لعل القارىء يذكر أن اهتمام أوروبا بإحياء أوضاع ما قبل الإسلام فى مصر ، قد بدأ بداية مبكرة مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ حيث استصحب « نابليون بونابرت » قائد الحملة بعثة علمية للبحث عن الآثار الفرعونية . وقد مرَّ بنا الحديث عنها ، وأن أعضاء تلك الحملة ظلوا بمصر حتى بعد رحيل الفرنسيين عنها ، وأنها أنشأت معهداً للآثار بمصر بحى المنيرة بعابدين .

ولعله – أعنى القارىء – يذكر كذلك أن صك الانتداب على فلسطين كان يتضمن فى المادة (٢١) منه تنفيذ خطة للبحث عن الآثار من السنة الأولى التى يتولى فيها الإنجليز بسط نفوذهم على فلسطين ؟!

وبقيت واقعة أخرى يجب أن نعيها هنا ، وهى أن الثرى الأمريكى اليهودى الأصل « روكفلر » – ابن روكفلر الكبير – قد أعلن سنة ١٩٢٦ عن تبرعه بعشرة ملايين ريال أمريكى ، وهو مبلغ كان يعادل فى ذلك الوقت مليونين من

الجنيهات المصرية ، على أن يُنفق هذا المبلغ فى إنشاء متحف للآثار الفرعونية فى مصر على أن يلحق به معهد لتخريج متخصصين فى فن الآثار المصرية القديمة ، واشترط لمنح هذا المبلغ أن يوضع المتحف والمعهد الملحَق به تحت إشراف ثمانية أعضاء لمدة ثلاث وثلاثين سنة (؟!) لا يكون فيها من المصريين إلا عضوان ، والستة الآخرون من الأجانب . ولكن الحكومة المصرية اعترضت على هذا الشرط فاضطر اليهودى الخبيث لسحب المنحة . وقد فهم المصريون فى ذلك الوقت المقاصد الخبيثة من الفكرة نفسها ، لأن اللجنة بثقلها الأجنبى ستعمل خلال المدة المشروطة على تخريج جيل متشبع بأفكار خصوم الإسلام ، ويقوم بترويج مبادئها بعد انتهاء المدة المحددة لتنفيذ الفكرة . من هذا وذاك يبدو لنا فى وضوح أن اهتمام أوروبا بإحياء أوضاع ما قبل الإسلام فى مصر - وفى غير مصر من البلاد الإسلامية - لم يكن سوى وسيلة من وسائل محاربتها للإسلام ، والتشويش عليه فى عقر دياره وقد أفصح عن هذا المخطط المستشرق « كويلر يونج » إذ يقول فى كتاب « الشرق الأدنى .. مجتمعه وثقافته » :

« إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات » (؟!) .

إذن .. فإن هدف الاستعمار الأوروبى من كل البحوث العلمية التى قام بها خبراؤه فى بلاد الإسلام لم يكن الهدف منها علمياً نزيهاً .. بل كان لخلق تشويشات على الإسلام ، بقصد زعزعة الولاء عنه من قلوب بنيه . وفى هذا الإطار نضع بين يدى القارىء الكريم نموذجين صارخين لما حدث فى مصر قديماً - أعنى أيام عهد الاستعمار . أحدهما يتمثل فى إحداث فتنة بين المسلمين والأقباط ، والآخر يتمثل فى حملة لبعث الحضارة الفرعونية ، وهذه للأسف ما تزال آثارها باقية حتى الآن . وسنذكر صوراً لها بعد قليل :

● إثارة الفتنة :

عمل الاستعمار على بث روح الفُرقة فى مصر بين المسلمين والأقباط ، كما عمل على بعث التعصب الدينى بين الفريقين ، ولا يغيب عن الأفهام ذلك الحَدَث الخطير الذى حدث فى مصر عام ١٩٠٦ وهو أول مؤتمر تبشيرى عالمى يُعقد برياسة القس المتعصب الدكتور « صموئيل » فى بيت زعيم الثورة أحمد عرابى ، وعرابى كان لا يزال حياً ، ويحضره مندوبون عن كثير من الدول المسيحية ، ويناقش المؤتمر بحوثاً ، ويضع خططاً ضد الإسلام وهو دين الأكثرية الكاثرة فى مصر ، ويتحرك « صموئيل زويمر » تحت حماية الإنجليز ليخطب فى أحياء لا يسكنها إلا المسلمون ويحثهم على اعتناق المسيحية . وقد بلغت به الجرأة فدخل الجامع الأزهر وقام بتوزيع بعض المنشورات فيه ضد الإسلام ولصالح المسيحية ؟!

هذا الجو مهَّد ، مع كثير من الأحداث بعده ، إلى أن تنتشر بين الأقباط روح التعصب ، ويرددون أنهم أصحاب مصر وحدهم ؛ لأنهم هم أحفاد الفراعنة ووارثو حضارتهم . ثم يصدرون الصحف الخاصة بهم مثل : صحيفة « الوطن » وصحيفة « مصر » ويعلنون فيها عن أفكار من شأنها أن تؤجج نار الفتنة لولا أن المسلمين لم يقابلوا هذه الحماقات بمثلها خشية أن يُتهموا بالتعصب الدينى .

ولم يكتف الأقباط إذ ذاك بما ينشرونه فى صحفهم بل لجأوا إلى الصحافة الأجنبية - وبخاصة الإنجليزية - التى رحبت بهذه الظاهرة وساعدت على إشعال الفتنة ، بل إن أفكاراً ترددت فى الوَسط القبطى باللجوء إلى دولة أجنبية يتخذون منها حامياً وسنداً فى المطالبة بمصالح تختص بهم ، وظهر ولاؤهم للإنجليز فى صورة واضحة . وكان هذا بالطبع محركاً لروح الشك والريب فى نفوس المسلمين ، فأساءوا الظن بالأقباط ، وصاروا ينظرون إليهم بحذر وتوجس .. وفى هذه الأثناء شاء القَدَر أن يرتكب « بطرس غالى » رئيس الوزراء إذ ذاك فى عهد الخديو عباس عدة مخالفات منها : أنه أصدر قانون النفى الإدارى ضد أحرار المواطنين الذين يناوئون سياسة الإنجليز ، وكان ينفى

كل مَنْ تحوم حوله الشُبهة من المواطنين ويناوىء الإنجليز إلى الواحات الداخلة . ومنها إصداره قراراً بعودة العمل بقانون المطبوعات القديم الذى يتيح لوزارة الداخلية إغلاق الصحف وحبس الصحفيين الذين يحاربون الاستعمار الإنجليزى . فقانون النفى الإدارى وقانون المطبوعات هذا كانا سلاحين ضد المواطنين الذين يدافعون عن مصالح مصر العليا . ولكن بطرس غالى لولائه الشديد للاستعمار الإنجليزى لم يتردد لحظة لما طُلب منه تقييد حرية المواطنين أن يصدر قانون النفى ويعيد العمل بقانون المطبوعات .

ومن أخطائه توقيع اتفاقية السودان مع الإنجليز دون الإعلان عنها وبغير إرداة الأمة . وقد اعتبر الحزب الوطنى - المناوىء فى ذلك الوقت لسياسة الخديو والإنجليز معاً - اعتبر ما صدر من بطرس غالى خيانة للوطن ، وكان على حق فيما وصف به عمل بطرس غالى رئيس الوزراء .

ومن أخطاء بطرس غالى - كذلك - أنه هو الذى أصدر قراراً بتكوين المحكمة الخاصة بحادث دنشواى عام ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل وعيَّن نفسه رئيساً لها . وقد أصدرت هذه المحكمة أحكاماً قاسية للغاية ضد المواطنين الذين ثأروا لأهل دنشواى من الإنجليز .

فقد قضت المحكمة على أربعة فلاحين بالشنق ، وعلى اثنين بالسجن مدى الحياة ، وعلى واحد بالحبس مع الشغل لمدة ١٥ عاماً ، وعلى ستة آخرين بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى ثلاثة بالحبس سنة مع الشُغل وجلد كل منهم خمسين جلدة . ونُفِّذت الأحكام فى اليوم التالى على مرأى من الآباء والأبناء والزوجات وإمام أهالى البلدة .

وقد ندَّد المصريون بهذه الوحشية ، وأصدر شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته التى يقول فيها :

ليت شعرى ؟ أتلك محكمة التفـــ تيش عادت أم عهد « نيرون » عادا ؟
كيف يحلو مـــن القـــوى التشفى مـــن ضعيف ألقـــى إليـــــه القيادا ؟

كما ندّد بها الزعيم مصطفى كامل فى كلمة شديدة التأثر والتأثير .. فأين يكون بطرس غالى من مشاعر المصريين وهو من أقطاب هذه الخيانة النكراء ؟

ومن مساوىء بطرس غالى التى ختم بها حياته أن دخل مع شركة قناة السويس فى مفاوضات لمد امتيازها لمدة أربعين عاماً أخرى تنتهى (سنة ٢٠٠٨) بدلاً من ١٩٦٨ وكتم أمر هذه المفاوضات عن الشعب ، الذى تسربت إليه أنباؤها فاحتج وهاج وتقرر بدافع من الضغط الشعبى عرض الأمر على الجمعية العمومية . فرفضت الجمعية العمومية ما جرى بين بطرس وبين الشركة . وانتصرت إرادة شعب مصر فى واحدة من أشد المحن التى مرّت بها .

تجمعت هذه الأخطاء أو الخيانات ، وعملت عملها فى نفوس المصريين . وفى هذه الأثناء قام شاب مصرى موالٍ للحزب الوطنى عمره أربع وعشرون سنة باغتيال بطرس غالى باعتباره خائناً لمصالح البلد العليا . ذلكم الشاب هو « إبراهيم ناصف الوردانى » – ويوم ٢٠ فبراير عام ١٩١٠ – وكان نبأ الاغتيال مفاجأة للشعب المصرى كله .

* *

● الأقباط يسيئون الظن :

لم يكن لاغتيال بطرس غالى من سبب سوى أخطائه أو خياناته لمصالح الوطن ، وكل الظروف والملابسات كانت تقتضى أن يفهم الناس جميعاً أن ذلك وحده كان السبب فى اغتياله .. ولكن الأقباط تحت تأثير الانحراف الذى أومأنا إليه قبلاً ، ادّعوا أن السبب الذى حمل على قتل بطرس غالى سبب دينى لا غير ، فبطرس قبطى نصرانى ، والقاتل مسلم ؟! وحملهم هذا الفهم المخطىء على أن يزيدوا من تعصبهم وخرجت صحفهم « الوطن » و « مصر » بمقالات تؤجج النار ، وتُشعل الفتن . وعلا الضجيج واتسعت هوّة الخلاف ، ولا شك أن الاستعمار الإنجليزى وإن لم يكن له دور معلن وصريح ، لا شك أنه كان يزكى نار الفتنة من طرف خفى ، وبخاصة أن الصحف القبطية كانت تناصر

الوجود الإنجليزى وشقَّت عصى الوحدة وأخذت تؤيد كل موقف ترى الأمة رفضه والتنديد به . وانتهت حركتهم المناوئة إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر خاص بالأقباط (؟!) .

* *

● مؤتمر أسيوط القبطى :

انعقد مؤتمر أسيوط القبطى بدعوة من مطران أسيوط يوم الأحد ٥ مارس ١٩١ برياسة بشرى حنا بك ، واستمرت جلساته حتى يوم الأربعاء ٨ مارس ١٩١ . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة كانت على علم بالمساعى التى تدعو إلى عقد المؤتمر ، وطلبت - ودياً - أن يُعقد فى العاصمة « القاهرة » حتى يمكن اتخاذ الإجراءات الأمنية نحوه ، ولكن الداعين إليه تمسَّكوا بعقده فى أسيوط ، فأذنت لهم الحكومة فى نهاية الأمر وتحفَّظ المسلمون مرة أخرى ، خشية الاتهام بالتعصب الدينى ، وعلى رغم ما كان لهذا المؤتمر من آثار عنيفة فى نفوس المسلمين فإنهم تحمَّلوه بصدر رحب .

ثم انتهى المؤتمر إلى اتخاذ قرارات من أهمها :

١ - أن يكون يوم الأحد عطلة رسمية عامة مثل يوم الجمعة (؟!) .

٢ - أن تكون قاعدة التوظف فى مصالح الحكومة ووزارتها ودواوينها على أساس الكفاءة الشخصية دون نظر إلى نسبة الأقباط فى السكان (؟!) .

٣ - وضع نظام تعليمى يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم الدينى فلا يكون التعليم الدينى مقصوراً على الإسلام فى المدارس الأوَّلية .

٤ - وضع نظام يكفل تمثيل الأقباط فى المجالس النيابية (؟!) .

٥ - جعل الخزينة المصرية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية [١] .

* *

● المؤتمر المصرى :

ومما يُسجَّل بكل اعتزاز للتسامح الإسلامى وسعة الصدر أن مصطفى رياض باشا دعا إلى عقد مؤتمر فى العاصمة « القاهرة » ينظر فى مصالح المصريين جميعاً مسلمين وأقباطاً ، ولم يسم ذلك المؤتمر بالمؤتمر الإسلامى على غرار مؤتمر أسيوط الطائفى ، بل سمى بـ « المؤتمر المصرى » وفى ذلك من الحكمة ما فيه ، وفعلاً تم انعقاد المؤتمر المصرى برياسة مصطفى رياض يوم السبت ٢٩ إبريل ١٩١١ ، واستمر حتى يوم ٤ مايو ١٩١١ وكان لهذا المؤتمر أثر عظيم فى تهدئة النفوس وتجنيب البلاد كارثة محققة .

* *

● عودة الصفاء :

وبفضل الجهود التى بذلها حكماء الشعب عاد الصفاء يرفرف من جديد على ربوع مصر ، وأحبط الوعى القومى ، والتسامح الإسلامى تلك المؤامرة التى حاكها أعداء الأمة فى الخفاء وأخذوا يحركون « دُمَاها » (جمع : دمية) من وراء ستار ؟!

وتجلت الوحدة الوطنية فى أجلى صورها التى عرفها التاريخ إبَّان ثورة ١٩١٩ حيث وقف الشعب المصرى كله صفاً واحداً أمام العدو ، وكان مشايخ الأزهر يذهبون إلى الكنائس ليحثوا المواطنين على الجهاد ، كما كان القساوسة يخطبون من فوق منبر الأزهر لنفس الغرض ، وأدرك الأقباط أن تفكك الوحدة الداخلية لن يستفيد منه إلا العدو . وقام « مرقص فهمى » بإلقاء خطبة جادة

---

(١) يُقصد بهذا البند أن تنفق الدولة على الكنائس ومدارس الدين المسيحى كما تُنفق على الأزهر والمساجد . ونسوا أوقاف المسلمين للأزهر ووزارة الأوقاف .

بحديقة الأزبكية ركّز فيها على نفى التعصب الدينى عن المسلمين ، وأشاد بمواقفهم الرائعة إبّان الفتنة الطارئة ، التى مرت بالبلاد . كما نفى أن يكون وراء مقتل بطرس غالى تواطؤ وحصر سبب قتله فى تصرفات الوردانى وحده .

* *

● واصف غالى يدعو للصفاء :

من أروع الصفحات التى سجلها تاريخ مصر الحديث أن واصف غالى ابن بطرس غالى بعث برسالة إلى الشاعر إسماعيل صبرى يوسطه للإصلاح بين الأقباط والمسلمين ، ويدعو لإعادة الصفاء الكامل بين عنصرى الشعب المصرى . والرسالة مؤرخة بـ ٨ فبراير ١٩١١ ويجيبه إسماعيل صبرى بقصيدة مطوّلة . وتتابع القرّاء فى رثاء بطرس غالى . فرثاه أمير الشعراء شوقى ، ورثاه ولى الدين يكن ، كما أسهم أحمد محرم فى الدعوة إلى الوئام والوحدة ، وكذلك حافظ إبراهيم شاعر النيل ، وكثير من الصحف فى ذلك الوقت .

خرجت مصر من هذه المحنة - لا نقول بسلام فحسب - بل خرجت منتصرة على عدوها وعلى نفسها وباء الأعداء بالخيبة والخسران .

* * *

● الدعوة إلى الفرعونية :

أعداء الإسلام لا ييأسون إذا فشلت بعض مساعيهم ضد الإسلام فإذا فشلت خطة تحوّلوا إلى بديل يجربونه فى الميدان مرة أخرى بباعث من الحقد الدفين على الإسلام . ولذلك فإن أعداء الأمة نشطوا مرة أخرى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ فأوعزوا إلى بعث فتنة أخرى من قبيل بث الفُرقة بين شعب مصر ، فظهرت الدعوة إلى الفرعونية والإشادة بها ، والتغنى بآثارها الوثنية . وقد نجحوا فى هذه المرة فجنّدوا لها لفيفاً من الأدباء والشعراء والشبان المسلمين ، وبعض الفنانين والنحاتين وانتشرت هذه الآفة فهتفت لها الصحف ، وعُقدت من أجلها

الندوات ، ورُسِم رأس أبى الهول على طوابع البريد ، وعلى أوراق النقد المتداول بين العامة والخاصة ، واتخذه النحات محمود مختار شعاراً لتمثال نهضة مصر الذى وضع نموذجه فى باريس عام ١٩٢٠ ، واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعاراً لها يمثل معبوداً من معبودات الفراعنة الوثنية ، وتم إنشاء ضريح لسعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنين على طراز فرعونى ، وشاع الطابع الفرعونى فى كثير من الدوائر الحكومية وفى أوراقها الرسمية ، كما شاع فى زخرفة المنازل .

وتورط شعراء مشهود لهم بحبهم للإسلام ، وقرضهم الشعر فيه فألفوا قصائد ذات طابع فرعونى . فشاعر النيل حافظ إبراهيم ألف قصيدته المعروفة :

وقف الخلـــق ينظـــرون جميعـــاً كيف أبنـــى قواعد المجد وحدى ؟!

وبنـــاة الأهـــرام فى سالف الدهـــر كفونـى الكلام عند التحدى ؟!

ويمضى حافظ مفاخراً بحضارة الفراعنة كل حضارة قديمة بل إنه يفخر فى موضع آخر بأن الذى بناه هو - يعنى حافظ - هو الذى بنى الهرم الخالد ، فيقول :

أنا مصرى بنانى مَن بنى هرم الدهر الذى أعيا الفـــــنا

وكذلك تورط شوقى صاحب الإسلاميات المشهورة الرائعة وذلك عند إكتشاف مقبرة توت عنخ آمون . فألف قصيدته التى مطلعها :

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الأوليـــــنا

مجَّد شوقى فى هذه القصيدة حضارة الفراعنة أيما تمجيد ، وينادى شوقى « توت عنخ آمون » لينفث من روحه فى الشباب القانع المسترخى ليصعد إلى المجد فيقول :

شباب قُنَّعٌ لا خير فيـــه وبورك فى الشباب الطامحينا

فناجيهم بعرش كان صنوا لعرشك فى شبيبته سنيـــنا

ومَنْ يتتبع آثار شوقي الشعرية في تلك الفترة يجد له أربع قصائد دبجها في هذه المناسبة : أعني إحياء حضارة الفراعنة باعتبارها مشاركاً للإسلام في الولاء .

هذا ما حدث في تلك الفترة .. وإذا كنا نلتمس بعض الأعذار لمن تورطوا فيها من شعراء وأدباء وكُتّاب وغيرهم ، فإننا لا نجد قدر قلامة ظفر من عذر لمن يورطون أنفسهم في تلك الآفة بعد أن رحل الاستعمار ، وتكشفت الأسرار . ولا نكون مجاوزين للحقيقة إذا قلنا إن الاعتزاز بالحضارة الفرعونية لم تخب ناره إلى الآن ، فطالما اعتز مسئولون كبار في مصر بأننا أولاد حضارة ترجع إلى سبعة آلاف سنة ، هذا بجانب التماثيل التي توضع في بعض الميادين ، والمقالات والاهتمامات الصحفية التي تشدو صباح مساء بحضارة الفراعنة وأمجادهم وما تزال رموزها تظهر على طوابع البريد حيناً بعد حين ، وبعض الصحف تتخذ الأهرامات شعاراً لها .

* *

● مكتبة الإسكندرية :

وفي هذا الإطار يجب أن نفهم السر وراء الاهتمام الأوروبي بمكتبة الإسكندرية ، والعناية الفائقة التي حظيت بها والمؤتمرات واللقاءات التي تقام من أجلها ، نحن لا نشك في أن بعضنا ينظر إلى الموضوع نظرة وطنية مخلصة ، ولا يقصد من الجهود التي يبذلها في هذا الميدان مقاصد سيئة . هذا حق يجب أن نعترف به ، وهو في الوقت نفسه الداء العضال ؛ لأن أعداءنا نجحوا في أن يجندونا لأغراضهم دون أن نحس بأننا نحققها لهم . أعني أنهم وصلوا إلى أن يجعلوا منا أدوات تشعر شعوراً ذاتياً بأنها حرة في تصرفاتها وتعمل بوحي ذاتي غير مسخَّرة لأحد . بل إننا نوجه إلى المستفيدين من نشاطنا الشكر ؛ لأنهم مدوا إلينا يد العون في أمور تخصنا ولا تخصهم ، ونحن في الواقع نقدِّم لهم أكبر الخدمات دون أن نشعر .

أيهما أولى بالاهتمام ؟

أضع بين يدى القارىء هذا التساؤل : أيهما أولى بالاهتمام : مكتبة الأزهر التى تحوى نفائس التراث الإسلامى من مخطوطات ومطبوعات لا تكاد توجد فى بلد أخرى غير مصر ، وهى فى أمس الحاجة إلى الرعاية وصيانة كنوزها من التلف . أم مكتبة الإسكندرية الوثنية التى كانت أكبر حصن لتحريف الرسالة التى جاء بها عيسى عبد الله ورسوله ؟! أيهما أولى بالرعاية والعناية يا تُرى ؟

إن مكتبة الأزهر فى حاجة إلى مقر جديد مجهز على الطرز الحديثة لتحفظ نفائسها الإسلامية والعربية ، وتهىء الفرصة لطلاًب العلم والعلماء للانتفاع بها ونشر ما هو مخطوط من كنوز المعرفة بها .

وإذا تجاوزنا مكتبة الأزهر إلى التراث الإسلامى والعربى بعامة ، فى دار الكتب المصرية ، ومعهد المخطوطات العربية فإن الحاجة تصبح ماسة إلى تعديل فى بعض السياسات التى نتبناها الآن بدافع من قصر النظر ، وسوء التقدير وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إغفال شأن الحضارات القديمة . فهى موضع عظة وعبرة ، ولكن الذى ندعو إليه هو أن نكون على بصيرة ووعى وترتيب الأولويات فيما نقول وما نفعل . وأن لا نرتد إلى الوراء رِدَّة يستفيد منها العدو ونحن الخاسرون .

وما فعله خصوم الإسلام فى مصر من بعث أوضاع ما قبل الإسلام فعلوه فى كل بلد إسلامى - فى سوريا ، وفى العراق ، وفى لبنان ، وفى بلاد شمال غرب إفريقيا - نبشوا عن حضارات الأشوريين والكنعانيين والحيثيين والبرابرة ، والهدف من كل هذا واحد : هو ذبذبة الولاء لدى المسلم بين الإسلام وبين الموروث عن الآباء والأجداد .

هذا دأبهم ، وسيظل دأبهم . والمطلوب من الشباب المسلم أن يفطن لهذه الحيل ، ويأخذ حذره ، فللعدو أن يفعل ما يشاء . وفعله لن يضرنا إذا تسلحنا بالإيمان وأحطنا إيماننا بوعى وبصيرة . وحذار حذار من الغفلة ؛ لأنها أقصر طريق للضياع .

* * *

الفصل السابع عشر

إثارة الشُبهات حول الإسلام

إضعاف الإسلام والمسلمين هو المصير المضمون لأوروبا وهو بديل كل الآمال المرصودة فى المواجهة ؛ لأن ردّة المسلم عن دينه كلية ثبت لهم استحالتها ، ولذلك طرقوا كل باب ينفذون منه لإضعاف الإسلام والمسلمين ، فقد رأينا من قبل لما هال أوروبا تجمع المسلمين تحت لواء الخلافة وبسطت تركيا نفوذها شرقاً وغرباً ، وصارت هى القوة الوحيدة فى العالم جمعت أمرها لتقويض هذا الصَرْح العملاق ، وكان من أبرز عوامل انتصار أوروبا هو تفتيت الوحدة الإسلامية عن طريق القوميات ، فقد استعملت هذا الفتيل فى عزل الشعوب الإسلامية عن دولة الخلافة .

فالقومية الفارسية عزلت مسلمى إيران عن الوحدة الإسلامية . والقومية العربية عزلت مسلمى العرب عن الوحدة ، بل جنّدتهم أوروبا لضرب الوحدة على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن الثورة العربية . والقومية التركية نفسها عزلت مسلمى الترك عن الشعوب الإسلامية الأخرى .

وحين سرى سرطان القوميات فى جسم الأمة الإسلامية أفسحت أوروبا المجال لتوجيه الضربة القاضية فى صدر الوحدة الإسلامية وفى صدور المسلمين جميعاً ، وكان الهدف من بعث القومية التركية هو إقصاء الإسلام عنها حتى لا تفكر تركيا مرة أخرى فى تكوين كتلة إسلامية تحت مظلة الإسلام .

وسلاح القوميات سلاح مدمر ، وقد اكتوت أوروبا بناره خلال القرن

التاسع عشر ؛ فقد كانت أوروبا تبحث لها عن رباط جامع يوحِّد بين شعوبها ، فلم تعثر عليه لا فى دين ولا فى لغة ، ثم لجأت إلى ظاهرة القوميات ، ولكنها بدلاً من أن توحِّد القوميات بين شعوب أوروبا كانت سبباً فى حدوث الشقاق والحروب بين دولها . ومن أظهر الأمثلة على ذلك حروب نابليون الشهيرة بطل القومية الفرنسية ، ومحاولاته لفرض السيطرة الفرنسية على الشرق والغرب .

إن أوروبا حين صدَّرت آفة القوميات إلى العالم الإسلامى كانت تتنبأ بيقين بنتائجها الخطيرة على مصير البلاد ، فهو سلاح مجرَّب ، ونجاحه أكيد .

ثم فجَّرت سلاحاً آخر فى جسم القوميات هو سلاح الوطنيات لأن القوميات قد تكون ذات تأثير واسع مثل القومية العربية التى لو تُركت بدون تفتيت لانتظمت الدول العربية كلها . وهذا فى حد ذاته شىء مخيف . ولكن لم تكن أوروبا لتقف أمامه مكتوفة الأيدى ، فشجعت ظاهرة الوطنيات وتحقق لها من خلالها تفتيت العالَم العربى إلى كيانات صغيرة متفككة لا تُسمن و لا تُغنى من جوع ، فتُتت الوطنيات بسلاح الطائفية الدقيق ، ولم يبق أمامها بعد هذا « التوزع » إلا أن تحارب الإسلام ، وتقلل من شأنه فى نظر بنيه ؛ لأن بقاء الإسلام نفسه - سليماً - قد يعيد قوة المسلمين إلى ما كانوا عليه فكان الإسلام - إذن - هو الهدف ، وتشويه حقائقه هو المعركة المستديمة .

وسبق أن أشرنا إلى الأدوات التى استخدمت فى مواجهة الإسلام وهى فى إيجاز :

١ - التبشير والمبشِّرون .

٢ - الاستشراق والمستشرقون .

٣ - ممثلو الاستعمار من رجال أوروبا أنفسهم ممن شغلوا مناصب استعمارية فى بلاد المسلمين مثل « كرومر » ، و « دانلوب » وغيرهما .

٤ - عملاء الاستعمار من سياسيين وكُتّاب ومفكرين وأدباء وفنانين وإعلاميين .. إلخ .. إلخ .

والآن نقوم بعملية رصد سريع للغط الذى أثاروه حول حقائق الإسلام بغية إبطال مفعوله ، وتفريغه من محتواه :

● القرآن الكريم :

كان اهتمام أوروبا بالإساءة إلى القرآن فائق الحد ؛ لأنها تدرك أن قوة المسلمين مستمَدة بالدرجة الأولى من القرآن ، وقد أفصح بعض ساستهم ومفكريهم أن المسلمين لا يمكن أن يتحقق الأمل المنشود لأوروبا منهم ما دام القرآن هو دستورهم ، وما دام الالتفاف حول « الكعبة » هو وجهتهم ، ثم ما دام الأزهر مصدر تعليمهم وموئل علمائهم وطلأبهم . لهذا راحوا يوجهون الطعون إلى القرآن بقصد التهوين من شأنه عند المسلمين ، ومما وجهوه إليه من طعون ما يأتى :

* ادَّعوا أن القرآن من تأليف « محمد » ﷺ ، وأنه ليس وحياً من عند الله ؟! وهذا ما شاع عندهم بـ « بَشرية القرآن » ؟!

* ادَّعوا أن القرآن مقتبَس من التوراة والإنجيل . وهذا يتسق إلى أبعد مدى مع دعواهم أن مصدر القرآن بَشرى أرضى ، لا سماوى إلٰهى ؟!

* ادَّعوا أن القرآن ليس معجزاً ، وأن محاكاته والإتيان بمثله ممكن ، غاية ما فى الأمر أن القرآن مصوغ بأفصح الأساليب العربية ؟!

* ادَّعوا أن القرآن - على فرض أنه وحى من عند الله - فهو ذو طابع محلى قومى لا يتعدى البيئات العربية ولا الجنس العربى إلى غيرها من البيئات أو غيرهم - يعنى العرب - من الأمم والشعوب ، والأجناس البَشرية ؟!

* وادَّعوا أن ما كان فى القرآن صحيحاً فهو ليس بجديد ؟! وأن ما كان فيه جديداً فهو ليس بصحيح ؟!

* وادّعوا أن الجزاء فى القرآن مادى فحسب : فالطائع له الجنة بما فيها من ملذات الطعام والشراب واللباس والحور العين ، وأن العاصى له النار بما فيها من عذاب مؤلم يشوى الوجوه وينضج الجلود ، وينزع الشوى (الأطراف) وطعام كرءوس الشياطين ، وشراب من حميم ؟!

*

● السيرة والحديث :

ولغطوا فى سيرة صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، وفى أحاديثه الشريفة ، وكان مما روّجوا له وزعموه :

* إن « محمد » ﷺ ليس رسولاً من عند الله ، وإنما هو مصلح عبقرى ؟!

* إن أحاديثه لم تُكْتَب إلا بعد ثلاث سنوات من رحيله فهى مكذوبة عليه ؟!

* إنه كان شهوانياً ميالاً للنساء وقد استباح لنفسه من النساء - يقصدون تعدد زوجاته - ما لم يبحه لأتباعه .

* إن حروبه ومغازيه كانت من أجل المال والمُلك ولم تكن من أجل الدعوة إلى دين سماوى ، ولا من أجل هداية الناس إلى دين هو خاتم الرسالات السماوية ؟!

* إنه - صلى الله عليه وسلم - إن صح أنه رسول من عند الله فهو رسول إلى العرب وحدهم لا إلى غيرهم من الأمم والشعوب والأجناس ؟!

* إنه - صلى الله عليه وسلم - ربّى أصحابه على البطش والعنف والغزو والهمجية فعاثوا فى الأرض فساداً ، ودمّروا الممالك من أجل الحصول على المال وقهر الشعوب ؟!

ولكى يكون القارىء على ثقة بما نقول نضع بين يديه هذه النماذج من دجلهم وإفتراءتهم .

فهذا المونيسينور « كولى » يقول فى كتابه « البحث عن الدين الحق » : « الإسلام فى القرن السابع للميلاد : برز فى الشرق عدواً جديداً أسس على القوة ،

وقام على أشد أنواع التعصب (؟!) لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأصحابه بالفجور والسلب (؟!) ووعد الذين يُهلكون فى القتال - الشهداء - بالاستمتاع الدائم بالملذات (؟!) يعنى الجنة - وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا ، وأسبانيا فريسة له - يعنى للإسلام - حتى إيطاليا هددها الخطر ؛ وتناول الاجتياح نصف فرنسا (؟!) لقد أصيبت المدنية ولكن هياج هؤلاء الأشياع - المسلمين - تناول فى الأكثر كلاب النصارى (؟!) ولكن انظر : ها هى النصرانية تضع بسيف « شارل مارتل » سداً فى وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه عام ٧٥٢ م . ثم تعمل الحروب الصليبية على مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) فى سبيل الدين ، فتتدجج أوروبا بالسلاح وتنجى النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب . وانتصر الإنجيل على القرآن ؟! وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة » [١] .

ويقول « چوليمين » فى كتابه « تاريخ فرنسا » : « إن محمداً - ﷺ - مؤسس دين الإسلام قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو . ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين - يعنى المسلمين - وبين النصارى ؟!

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : أسلموا أو تموتوا ؟! بينما أتباع المسيح - ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم » ؟!

هذا هو صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم كما يُصوِّره أعداء الحق فى أوروبا ، وتلك هى سيرته كما يروِّجون عنها . والمسلمون فى نظرهم همج ووثنيون . وليس لنا من تعليق على هذه الافتراءات الموغلة فى البطلان . وإن كان لنا من تعليق قصير فهو ما قيل فى المثل العربى القديم : « رمتنى بدائها وانسلت » ؟!

*

---

(١) يقول الدكتور محمد البهى - رحمه الله - إن هذا الكتاب الذى ألفه « كولى » يدرس فى المدارس المسيحية فى الشرق والغرب إلى اليوم ؟!

● الغزوات والفتوحات :

أما الغزوات والفتوحات ووقائع التاريخ الإسلامى فى عهد الخلفاء فقد وصفوها بأنها غارات همجية من أجل الحصول على المال وحب السيطرة ، وقد ردد هذه الأباطيل فى مصر « سلامة موسى » فى كثير من كتاباته ، وتابعه على نحو من الأنحاء « على عبد الرازق » فى « كتابه الإسلام وأصول الحكم » وتناول تجريح سيرة رجال الإسلام « جورجى زيدان » فى بعض مؤلفاته ، وهو الأمر الذى حمل المرحوم عباس محمود العقاد على كتابة « العبقريات » التى دافع فيها عن سيرة أعلام الصحابة ، كما دافع عن سيرة صاحب الدعوة .

*

● بعض تشريعات الإسلام :

تناول خصوم الإسلام من أوروبا بعض التشريعات الإسلامية واتخذوا منها منافذ للطعن فى الإسلام نفسه ، الذى يصفونه بأنه قد استهلك ولم يعد صالحاً للعمل فى حياة المدنية والرقى لأنه دين بدوى صحراوى ؟! ومما قالوه فى بعض التشريعات :

* إن الإسلام قد استهان بالمرأة وغمطها حقها ، فهو لا يعطيها إلا نصف نصيب الرجل فى الميراث ؟!

* وإنه حقر من شأنها حيث جعل للرجل الاستمتاع بأربع نساء فى زمن واحد . وحرَّم على المرأة الاستمتاع بأكثر من رجل واحد ؟!

* وإنه جعل مصير المرأة فى يد الرجل يشردها - يطلقها - متى يشاء ؟!

* وإن الإسلام لا يثق فى المرأة فأمرها بالحجاب وجعل أفضل أماكنها هو البيت ، وحظر عليها الخروج أو السفر وحدها إلا فى صحبة محرم من محارمها ؟!

* إن الإسلام حرم المرأة من حقوقها فى الحريات العامة والخاصة فلم يبح لها الاضطلاع بالمهام والمناصب القيادية فى الدولة ، وحظر عليها الاختلاط بالرجال ، وجعل إذن الرجل - أباً أو زوجاً - شرطاً فى بعض تصرفاتها الشخصية ؟!

* وفى الزكاة قالوا إنها نظام يشجع على البطالة و « البلطجة » ويبعث على التكاسل وقتل المواهب والميل إلى الدعة والاستكانة ؟!

* وعن العقوبات على جرائم المال والعِرض والنفس والعقل قالوا : إنها وحشية لا تليق بالمجتمعات المتحضرة ووسيلة من وسائل التشويه كقطع يد السارق ، وجلد الزانى ، وأن الرحمة بالمجرم أولى من الانتقام منه ، وأدعى إلى إصلاح شأنه ؟!

* وعن التوجه نحو الكعبة فى الصلوات ، والطواف حولها قالوا إنه من ضروب الوثنية وعبادة الأصنام ؟!

* وعن الإيمان بالقضاء والقَدَر قالوا : إنه يخلق فى النفس التواكل ويُقعد عن العمل والجد المثابرة ، فيضعف أو ينعدم الإنتاج زراعياً كان أو صناعياً أو تجارياً ؟!

* وعن النظام الاقتصادى فى الإسلام وتحريمه للربا والفوائد قالوا : أنه يكبل النشاط الاقتصادى بقيود ثقيلة ويؤدى إلى تعطيل المصالح العامة والخاصة ويجافى روح العصر ومبتكراته ، ويُعرِّض الثروة للضمور والانكماش فى الوقت الذى تؤدى فيه النظم الاقتصادية المعاصرة - يعنى الربوية - دوراً خطيراً فى الحياة ؟!

* وعن مناهج الفقة فى الإسلام قالوا إنها مأخوذة عن مناهج الفقه والقانون الرومانى ، وليست عملاً إسلامياً خالصاً .. ؟!

* وعن التفكير الفلسفى فى الإسلام قالوا : إن الإسلام ليس فيه تفكير فلسفى ، والفلسفة الإسلامية المعروفة الآن إنما هى الفلسفة الإغريقية مكتوبة بحروف عربية وكان أول مَن افترى هذه الفرية هو المستشرق « آرنست رينان » . وإن الفلاسفة العرب لم يزيدوا على جمع الفلسفة اليونانية ثم شرحها وتبويبها ، فهم مقلّدون لا مبتكرون مبدعون ؟!

* حتى العلوم اللغوية والنقدية والبيانية ومناهج البحث فيها سلبوا عنها أصالتها العربية الإسلامية وعزوها إلى منابع التفكير الأوروبى الحديث . وأن النهضة العلمية العربية القديمة لم تكن لتكون لولا الترجمات التى تمت فى القرن الثالث الهجرى وما بعده من اللغات الهندية واليونانية والرومانية والسريانية وغيرها إلى اللغة العربية ؟!

* *

● الفكر الأوروبى الحديث :

وهكذا تتبعوا محاسن الإسلام فعزوا بعضها إلى مصادر غير عربية ولا إسلامية ، أما ما لم يجدوا له مصادر ينسبونه إليها من قِيَم الإسلام ومعالم حضارته فقد لغطوا فيها على النحو الذى مرَّ ، وجعلوا المحاسن مساوىء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق ؟!

والهدف من هذا كله هو تشويه الإسلام فى نظر المسلمين حتى يزهدوا فيه ويُعرضوا عنه ، وحينئذ لا يكون المسلمون على شئ من أسباب القوة والرقى . إن أوروبا تسعى جاهدة لتجريد المسلمين من أقوى سلاح هو الإسلام نفسه . وكيف تتصور حال المسلمين إذا ألقوا أسلحتهم أمام عدو قد تسلّح ضدهم بكل ما أوتى . كيف تتصور حال المسلمين يا ترى إلا أن يكون هو الضياع والهوان . وهذا هو الواقع الآن وإن رغمت أنوف ، وانتفخت أوداج ؟!

وليس فى وسعنا الآن مناقشة تلك الادعاءات ، خشية الإطالة . ولكن بوسع القارىء أن يرجع إلى بعض المؤلفات التى فنَّدت تلك المزاعم ، وبيَّنت زيفها . ومن المؤلفات المفيدة فى هذا المجال ما يأتى :

* حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - ما يقال عن الإسلام - أثر الإسلام فى الحضارة الأوروبية الحديثة - كتب العبقريات . وكلها للمرحوم عباس محمود العقاد .

* معركة المصحف فى العالم - الإسلام المفترى عليه - دفاع عن الإسلام - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام . وكلها للأستاذ الشيخ محمد الغزالى أطال الله فى عمره .

ثم : السُنَّة ومنزلتها من التشريع للمرحوم الدكتور محمد حسنى السباعى .

ثم : دفاع عن السُنَّة للمرحوم الشيخ محمد محمد أبو شهبة .

ثم : مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه - والإسلام فى مواجهة الأيديولوچيات المعاصرة - والإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى - وإفتراءات المستشرقين على الإسلام . عرض ونقض - والمرأة فى عصر الرسالة بين واقعية الإسلام وأوهام المرجفين . وكلها لكاتب هذه الدراسة .

* * *

الفصل الثامن عشر

تصدير الحضارة الأوروبية

الوسائل التى تقدم الحديث عنها ، التى سلكتها أوروبا فى مواجهة الإسلام ، أشبه ما تكون بعمليات التفريغ والتخلية . أو هى وسائل لوسائل أخرى أشد ضراوة فى المواجهة ، وأبعد أثراً فى مزاحمة الإسلام وتحجيم تحركاته . ومن البدائه المعروفة فى الطبائع البشرية أن النفس إذا ألفت شيئاً ، وطالت عشرتها له . فإن من الصعب تحولها عنه ، وإذا أريد تحولها عنه فلا يكفى فى إنجاح المسعى أن تجتهد فى تحويل النفس عما ألفت وعاشرت دون أن يكون لديك بديل تزينه لها ، وتصرفها إليه . وهذا البديل إن كان أحط قدراً عند النفس مما هى به آلفة ، فإن احتمال النجاح يكون ضعيفاً جداً أو منعدماً فى صرفها عما آلفت وإقبالها على ما تدعوها إليه ، وإن كان البديل مساوياً للمألوف عندها قوى احتمال النجاح ولكنه معرَّض - إذا تحقق - للانتكاس والارتداد عنه ، أما إذا كان البديل أسمى قدراً ، وأكثر بروقاً مما ألفته النفس فإن أسهم النجاح ترتفع ، واحتمالاته تقوى وتزيد وبقاءه يكون أكيداً .

وهذا المنهج هو الذى طبقته أوروبا فى صرف الإسلام عن المسلمين ، وصرف المسلمين عن الإسلام . فهى لم تقل : اتركوا إسلامكم وكفى ، ولكنها لوَّحت لنا بالبدائل المغرية ، حتى لا نعيش فى فراغ بعد انصرافنا عن الإسلام ثم يعاودنا الحنين إليه مرة أخرى ، وتلك البدائل هى الحضارة الأوروبية ، هى - أعنى أوروبا - فيما تُقدِّم من وسائل واجهت بها الإسلام كانت تقوم بعمليات التفريغ .

أما فى هذه الوسيلة - أعنى تصدير الحضارة الأوروبية إلى بلاد الإسلام - فإن أوروبا تقوم بعمليات الملء : ملء الفراغ الذى توقعت - وقد وقع فعلاً - حدوثه فى المجتمعات الإسلامية وهى قبل تصدير حضاراتها إلينا قامت بالترويج لها وتزيينها فى نفوسنا بشتَّى الطرق ، ليكون البديل لنا عن الإسلام أسمى قدراً ، وأكثر بروقاً ، وأدنى قطوفاً ، وأحلى مذاقاً ؟! وقد بذلت أوروبا - وما تزال تبذل - جهوداً مضنية ، وأنفقت - وما تزال تنفق - ثروات باهظة ، ودفعت - وما تزال تدفع - أثماناً غالية ، من أجل تصدير حضارتها إلينا ، وترسيخ أقدامها فى حياتنا .

وقد ساعدها على تسهيل هذه المهمة : تقدمها المادى وتفوقها فى التكنولوچيا والعلوم الحديثة . وغزو منتجاتها المادية كل مرافق حياتنا ، وكل صغيرة وكبيرة من ممارساتنا اليومية

● معابر تصدير الحضارة الأوروبية :

استخدمت أوروبا فى تصدير حضارتها للعالم الإسلامى عدة معابر ، أبرزها - فيما نرى - ما يأتى :

* البعثات إلى أوروبا لتلقى العلم فى معاهدها . والبعثات من أوروبا للبلاد الإسلامية بقصد التعاون فى أى فرع من فروع النشاط والشئون العامة فى البلاد الإسلامية .

* دور التربية والتعليم التى أنشأتها أوروبا ممثلة فى بعض دولها فى بلاد العالم الإسلامى وبخاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا ثم إيطاليا .

* القوانين والتشريعات التى صدَّرتها أوروبا للعالم الإسلامى .

* مجالات الثقافة والفنون والآداب والسياحة المتبادلة بين الطرفين .

* المؤتمرات المشتركة ، ذات التخطيط الدقيق والدبلوماسية البارعة ، ومنها الندوات التى تُعقد فى البلاد الإسلامية .

* البث الإعلامى ، وهو أحدث تلك المعابر وأشدها خطراً وآثاره الضارة آخذة فى النمو والازدياد .

* * *

● إيضاحات موجزة :

ونسوق فيما يأتى إيضاحات موجزة تؤكد للقارىء صواب ما أشرنا إليه .

* البعثات :

كان نظام الابتعاث إلى الخارج سلاحاً ذا حدين . فطلب الحكمة أو المعرفة سمة من سمات المؤمن أياً كان مصدر الحكمة أو المعرفة ، والعلم - كما قالوا - لا وطن له بل هو لغة عالَمية مشاعة بين جميع الأمم والشعوب ، ولكن الذى ينبغى أن نعرفه أن العلم الذى هو لغة مشاعة بين جميع الأمم والشعوب شئ ، والثقافة شئ آخر ، ذاك عام وهذه خاصة . وكانت حاجة العالَم الإسلامى - وما تزال - إلى العلم الذى ترقى به الحياة وتتقدم - كانت حاجته وما تزال إلى العلم من أهم الحاجات وأولاها بالطلب والعناية . أما الثقافة فهى ذوق خاص ومذهب فى الحياة محكومة بقيم أخلاقية ، وللعالَم الإسلامى ثقافة مميزة مهذبة ، توجهها قيَم الدين وتوظفها لما يحقق المقاصد الحسنة النبيلة . فهى سلوك عام وخاص للجماعة المسلمة والأفراد المسلمين ، العالَم الإسلامى فى حاجة إلى العلم فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والنظم الإدارية وفى طرائق الإنتاج والتخزين والتسويق ورعاية الصحة الجسمية والنفسية ووضع الخطط ومراقبتها وبناء الجيوش وتدريبها وتنظيمها ، وبعبارة جامعة : نحن فى حاجة إلى كل ما يرقى بنا فى الحياة محكوماً بالقيَم الأخلاقية التى أقرها ديننا الحنيف ، والابتعاث إلى أوروبا وغيرها لهذه الأهداف أمر مشروع لأننا فى حاجة إليه .

ومن الجدير بالذكر أن نشأة نظام الابتعاث إلى الخارج فى عهد محمد على لم يكن المقصود منه استيراد المبادىء والقيم الخُلُقية والسلوكية ؛ بل كان مقصد

محمد على منه تعلم العلم النافع فى شئون الحياة وإدارتها . ومما يُذكر فى هذا الصدد أن محمد على كان يفرِّق تماماً بين الأمرين : العلم الذى هو لغة مشتركة بين جميع الأمم والشعوب ، والثقافة التى تعنى الحياة على نحو ما ، ثم السلوك فيها على هَدى من ذلك الفهم ، لذلك فإن البعثات الطلأبية التى بعث بها إلى فرنسا كانت موضوعة تحت مراقبة دقيقة لتصرفات أعضاء البعثة ، وقد استأذن بعض الطلأب المبعوثين محمد على ليأذن لهم بالتجول فى مدينة باريس فرفض رفضاً قاطعاً هذا الطلب لأنه كان يعرف أنماط الحياة فى باريس ، وهو لم يبعث الطلأب ليتخلقوا بأخلاق الفرنسيين ، وإنما بعثهم لغرض شريف غير ضار هو العلم المفيد فى ترقية البلاد ونهضتها ؟!

ولكن طول معاشرة المبعوثين للفرنسيين ، ومع التحفظ الذى ألمحنا إليه ، ترك فى نفوس المبعوثين آثاراً شديدة الخطر ، ولنضرب لذلك مثلاً هو :

● رفاعة الطهطاوى :

ذهب الطهطاوى إلى فرنسا على رأس فريق من المبعوثين ، وكان رفاعة إماماً لهم فى دار الابتعاث ، وظل بفرنسا خمس سنين طالباً للعلم ، وقد تأثر بالعادات والتقاليد ونظم التفكير والحياة فى فرنسا إلى أبعد مدى . خرج من مصر إماماً تقياً ورعاً ، وعاد إليها بعقل غير الذى خرج به وبفكر غير الذى نشأ عليه ، وبأخلاق غير التى رُبِّى عليها ، ولا نكون مجاوزين الواقع إذا قلنا إن رفاعة الطهطاوى كان مثل موسى الذى رباه جبريل فصار فرعوناً وخابت آمال مربيه فيه ، وفى موسى جبريل وموسى فرعون يقول الشاعر :

إذا المرء لم يخلـق سعيداً تخلفت ظنون مربيه وخاب المؤمـــــــل

فموسى الذى رباه جبريل كافـــر وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كان قصد محمد على من بعث رفاعة هو أن يعود وقد تزوَّد بالعلم ليخدم وطنه . فإذا به جُنِّد ورُبِّى ليخدم خصوم وطنه ويُحل قومه دار البوار . هذا

ما حدث بالضبط من رفاعة الطهطاوى إمام الأمس ، وابن الصعيد المحافظ . وأرى - الآن - سؤالاً يلح :

وما الذى فعله رفاعة ، والمعروف عنه مما تعلمناه فى دور العلم ، ومما يكتبه عنه الكاتبون فى الصحافة وغيرها أنه رائد من رواد النهضة المصرية الحديثة فى مجال العلم ، بل هو - كما يقال - من رواد عصر التنوير المصرى خلال المائة السنة الأخيرة ؟

والجواب : إن المعروف الشائع عن رفاعة شئ ، وحقيقة رفاعة شئ آخر . وإليك البيان :

● مساوىء رفاعة الطهطاوى :

عاد رفاعة الطهطاوى من بعثته عميلاً ذا خطر لأعداء مصر والإسلام ، وسواء - عندنا - إن كان يدرك أنه يعمل لخدمة أعداء الإسلام . أم أجريت له عملية غسيل المخ فقال ما قال بنيِّة حسنة ، وقصد نبيل ؛ لأن حجم الخسارة فيه فادح على أى الاحتمالين اللذين تقدما . فتعال معى لنقرأ سوياً - وفى أناة - المساوىء « الرفاعية » المؤسفة :

عاد الطهطاوى إلى مصر عام ١٨٣١ وكان قد ألَّف كتاباً فى أثناء إقامته بفرنسا ، وقبل نشر الكتاب عرضه على أستاذ له اسمه « چومار » فأقره أستاذه وشجعه على نشره بمصر . واسم الكتاب كما هو معروف : « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » والكتاب يبدو من عنوانه أن فيه إعجاباً بفرنسا وأنماط الفكر والحياة فيها .

ثم ألَّف بعد عودته إلى مصر كتابين تربويين ، أحدهما : « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » وعنوان الكتاب يلخص موضوعه كما ترى ، إذ يبدو فيه افتتان الطهطاوى بمباهج الآداب العصرية ، والآداب المقصودة هنا هى ما اطلع عليه وتعلّمه فى باريس .أما الكتاب الآخر فهو : « المرشد الأمين للبنات والبنين » وهو كتاب تعليمى خاطَبَ فيه النشء وشباب

مصر من الجنسين (النوعين) الذكور والإناث ، وهو لتأثره بالسلوك الأوروبى يقدِّم فى عنوان الكتاب البنات على البنين ، على طريقة : « آنساتى سيداتى سادتى » . وهذا غير معهود فى مفهوم أدب الخطاب عند الشرقيين ، ومنحرف عن أدب الخطاب فى القرآن الكريم [1] ، وكان يمكن ألا نقف أمام هذه الملاحظة لو كانت هى وحدها المأخوذة على « رفاعة » ، وإنما هى صورة لتطبيق منهج عام خضع له الطهطاوى فى حياته الجديدة بعد عودته من باريس .

هذه ملاحظات عامة عابرة . أما بعض محتويات هذه الكتب فقد حفلت بالتأثر بالحضارة الأوروبية ، ومن ذلك :

● الوطن بدل الدين :

فى مقدمة كتابه « مناهج الألباب .. » يدعو رفاعة الطهطاوى إلى حب الوطن ، وهذا لا مأخذ لنا عليه من حيث الجملة ، ولكن المأخذ أن رفاعة الطهطاوى يدعو إلى حب الوطن على طريقة الغرب ، وهى أن الوطن يجب أن يكون هو الرابطة الوحيدة بين بنيه ، وليس للدين فى الربط بين الناس وتنمية الأواصر بينهم أثر . فالمصالح « لأبناء الوطن الواحد » - على حد تعبير رفاعة - هى التى تحل محل الروابط الدينية .

* *

● الحدب على أهل الذمة :

أهل الذمة فى الإسلام هم الأقليات غير الإسلامية الذين يعيشون فى بلد إسلامى . والإسلام يوصى بحسن معاملة أهل الذمة وينهى عن ظلمهم ، بل إن صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم يتوعد مَنْ يظلم ذمياً بأنه هو - أى صاحب الدعوة - سيكون خصمه يوم القيامة . أما رفاعة فإنه لم يكن ما يدعو إليه من

---

(١) منهج القرآن هو أن يكتفى بذكر الرجال فيعم الحديث النساء فى الأمور المشتركة بينهما ، أو يذكر الرجال والنساء معاً مقدِّماً للرجال على النساء مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴾ (التوبة : ٧١) وقوله : ﴿ لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى .. ﴾ (آل عمران : ١٩٥) أما تقديم النساء على الرجال فهى عادة الحضارة الغربية التى نهج عليها رفاعة الطهطاوى فى عنوان كتابه المذكور . ثم اقتدى به الآخرون .

الحدب على أهل الذمة نابعاً من توجيهات الإسلام وإن استشهد بكلام لابن حجر فى شناعة ظلم أهل الذمة . وإنما منبع كلام رفاعة هو التأثر بالحضارة الغربية التى لا تقيم للدين وزناً فى معاملاتها وتقديراتها .

والمقصود بأهل الذمة – فى كلام رفاعة – هم نصارى مصر ، وقد عرفنا من قبل إلى أى مدىً كان الاستعمار فى مصر يحاول كسر ميزان القُوَى ليُعلى مَن شأن غير المسلمين على المسلمين . فدعوة رفاعة وإن لم تكن مجافية لتوجيهات الإسلام فهى تطبيق أمين لتشبعه بالحضارة الغربية .

* *

● الإشادة بالحضارة الفرعونية :

ثم يكشف رفاعة القناع عن مزاجه الحضارى الأوروبى فيشيد بحضارة مصر القديمة ، يعتز بها ويفتخر فى مواضع متفرقة من كتابه ، ويدعو الشباب أن يتخذوا منها قدوة حسنة فيطرحوا الخمول والكسل ويبنوا كما بنى أجدادهم الفراعنة العظام (؟!) .

ويقول للشباب إن مصر فى عهد الفراعنة بلغت أوج مجدها فى العلم والحضارة والمعرفة . وكان مما قال :

« ومنه يُعلم – أى مما قال – أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة ، وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات – يقصد الأمور الشخصية – وهى نتيجة التمدن العام » .

* *

● وصل الحاضر بالماضى :

ويدعو – بعد ذلك – إلى وصل الحاضر بالماضى الفرعونى فيقول :

« فلا يبعد على مصر فى هذا الوقت أن تستجلب السعادة وتكتسب من القوة

« الملِّية » [1] الحسنى وزيادة ، وتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة ؛ لأن بنية أجسام أهل هذا الزمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات ، والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة ... » .

*   *

● الثناء على ملوك أوروبا :

ويثنى الطهطاوى على ملوك أوروبا ، ويدعو المصريين أن يعاملوا أهل أوروبا كأنهم مواطنون مصريون . يقول الطهطاوى :

« إن أعظم وسائل تقدم الوطن فى المنافع العمومية : رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الأجنبية ، واعتبارهم فى الوطن كالأهلية » (؟!) .

وفى هذا الإطار يثنى رفاعة على رمسيس ملك مصر القدم (الفرعونى) أما لماذا استحق رمسيس هذا الثناء ، فإن رفاعة نفسه يجيب فيقول :

« فخر الدولة المصرية فى الأزمان الجاهلية ، ومصباح تاريخها ... الذى اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان ؛ لأنه أول مصرى قربهم إلى بلاده ، واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده ، وخالف عوائد أسلافه » (؟!) .

إذن فالثناء على رمسيس كان من أسبابه عند رفاعة توثيق الصلات بين مصر القديمة وبين اليونانيين ، وتوظيفهم فى شئون البلاد ، أى أن رفاعة من فرط إعجابه بالحضارة الغربية - قائمها وحصيدها - يدعو إلى مزج تلك الحضارة بحضارة مصر ، وأن يكون أهل أوروبا مواطنين فى ظل ذلك المزج ؟!

*   *

(١) الملِّية : نسبة إلى المِلَّة بمعنى الدين (؟!!) .

● ترجمة الدستور الفرنسى :

ومما قام به رفاعة ترجمة الدستور الفرنسى الذى أفرزته الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ وهو دستور يقوم على أن المجتمع الفرنسى : مجتمع إرادة لا مجتمع طاعة . يعنى أن الفرد فيه لا يخضع إلا لإرادته الحرة وتقديره هو للأمور ، دون أن يكون لأى قوة خارجية سلطان عليه فى عقيدة أو سلوك ، فلا طاعة عليه لأحد ولا لدين . وبناء على هذه القاعدة الكلية صيغت مواد الدستور الفرنسى ، ورفاعة نفسه قد أدرك هذا المعنى تماماً وصرَّح بأن الدستور الفرنسى لا يُستمد من وحى ولا دين ، وأن المجتمع هناك لا صلة له بالمسيحية إلا مجرد الاسم . مع إدراك رفاعة لهذه الحقائق فقد ترجم الدستور الفرنسى فى كتابه « الإبريز » وهو لم يترجمه ليكشف عما فيه من مساوىء ، بل إنه أبدى إعجابه به إلى أبعد الحدود ، وأكثر مواد الدستور تأثيراً فى رفاعة هى المادة الأولى التى تقر الحريات الشخصية وتحميها ، وفى ذلك يقول رفاعة الطهطاوى :

« ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية – يعنى قضية الحرية – وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يُطلق عليه عندنا : العدل والإنصاف ؟! وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو التساوى فى الأحكام والقوانين » (!)

وفى نطاق حديثه عن الحرية فى الدستور الفرنسى يقسم الطهطاوى الحرية إلى خمسة أقسام وهى : « حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية » ..

وبعد شرح كل قسم منها يقول :

« فالحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك ، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عادلة كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى ... » [1] ؟!

* *

(١) الطهطاوى واهم كل الوهم هنا ، فليس المراد بالحرية فى الدستور الفرنسى هو العدل =

• الدعوة إلى تطوير عصرى :

إعجاب الطهطاوى بالحضارة الغربية مَلَكَ عليه سويداء قلبه وسيطر على كل مشاعره . لذلك تراه يدعو إلى تطوير عصرى فى كل شئ حتى فى نظم الحكم والقضاء . وفى ذلك يقول : « إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضية والأحكام على وفق معاملات العصر ، بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة (؟!) المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أمم الأنام » (؟!) .

وكلام الطهطاوى بعد هذا يبدو أنه يبعد كثيراً عن الدين ، ولكنه فى دعوته لخضوع المعاملات الشرعية لروح العصر ، والاقتباس من قوانين الأمم . هذه النواة تضخمت فيما بعد وصار لها عنوان عام بُذلت تحته جهود كثيرة لما سمى « تطوير الإسلام » وسوف نخصه بفصل قادم إذا شاء الله .

* *

• المدنية الغربية تضاهى الدين :

وينزلق - رفاعة الطهطاوى - إلى أبعد غور فى الافتتان بالمدنية الغربية إلى درجة أنه يساوى بينها وبين فقه الشريعة الإسلامية ومقاصدها الرفيعة . فاسمع إليه إذن :

« ومَن زاول علم أصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد ، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية ، التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة إليها ، وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم ، قَلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية ، التى عليها مدار المعاملات :

= والإنصاف ، بل المراد هو إباحية التصرفات وعدم خضوعها لأية قوة خارجية سوى الإرادة الشخصية . ومن مفهوم الحرية فيه حرية التدين ، أى مَن شاء فليتدين ومَن شاء فليتحلل من الدين ، والحرية الشخصية بمقتضاها يفعل الإنسان ما شاء ويقول ما شاء غير خاضع لنظام التحليل والتحريم ، والأسس الأخلاقية (؟!) .

* فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية . وهو عبارة عن قواعد عقلية ، تحسيناً وتقبيحاً يؤسسون عليه أحكام المدنَية ؟!

* وما نسميه بالعدل والإحسان يعبِّرون عنه بالحرية والتسوية ؟!

* وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته ... يسمونه محبة الوطن » ؟ (١) .

أعود فأذكِّر القارىء بما كتبناه فى بداية هذا الفصل عن البدائل التى يلوح بها خصوم الإسلام لتحل محل الإسلام . لأن فى كلام رفاعة هنا تطبيقاً دقيقاً لها . فالقوانين الطبيعية أو النواميس الفطرية مُعَدَّة لتحل محل علم أصول الفقه الإسلامى ؟!

والحرية والتسوية مُعَدَّتان لتحلا محل العدل والإحسان فى الشريعة الإسلامية ؟!

ومحبة الوطن والاستشهاد فى سبيله مُعَدَّة لتحل محل الدين كله والموت فى سبيله ؟!

أفتطلب منا دليلاً – عزيزى القارىء – فوق هذا الدليل على صواب ما نقول ؟

ثم لمن يوجه هذا الكلام « الخواجة » رفاعة ؟! ألم يوجهه إلى النشء وإلى شباب مصر خاصة ، والإسلام عامة ؛ لأن الكتاب الذى يحمل هذا الكلام هو : « المرشد الأمين للبنات والبنين » ؟! ولعل القارىء يتساءل معى :

أين الإيثار ، وأين الأمانة فى فما يقول رفاعة الطهطاوى أو « المستغرب » رفاعة الطهطاوى إن أردنا الدقة فى الوصف والتقدير ؟!

* *

---

(١) المرشد الأمين للبنات والبنين ص ١٢٤ - ١٢٥

● لويز الثامن عشر والكتاب والسُّنَّة :

يعود رفاعة فيسجل إعجابه بالتشريع الفرنسى العلمانى ، ويرفعه إلى مستوى التشريعات التى فى كتاب اللّٰه وسُنَّة رسوله ؛ بعد أن ضاهاه من قبل بعلم أصول الفقه ، يقول :

« والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن - يعنى بعد الثورة الفرنسية - ويتخذونه أساساً لسياستهم ، هو القانون الذى وضعه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر (لويس) ولا يزال متبعاً عندهم مرضياً لهم . وفيه أمور لا ينكر ذو العقول أنها من باب العدل . وإن كان غالب ما فيه ليس من كتاب اللّٰه ولا من سُنَّة رسوله ؟! لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » (١) .

إذن فإن رفاعة يرى فى تشريعات لويس الثامن عشر ما ليس فى كتاب اللّٰه وسُنَّة رسوله المعصوم من أحكام هى عين العدل والإنصافَ مع خلو القرآن العظيم والأحاديث المطهرة منها ؟!

وبهذا يكون رفاعة من الرواد الذين مهّدوا للقوانين الوضعية فى مصر ، والعمل بها . ومن الرواد الذى كانوا جسراً عبرت عليه الحضارة الأوروبية الأجواء والبحار لتستقر فى بلاد الإسلام ، ويزيد هذا وضوحاً دعوته علماء المسلمين إلى إعادة النظر فى الأحكام الشرعية لتناسب الزمان والمكان فيقول :

« إن علماء المسلمين مكلّفون بمراعاة أحوال الوقت فى تنزيل الأحكام » (؟!) وقد تبنى هذه الدعوة من بعده كثيرون ممن ينتمون إلى بعض الأيديولوچيات المعادية للإسلام ، وغيرهم من بسطاء الفكر الدينى فى شئون المرأة وغيرها .

وأعجب « الخواجة » أو « المستغرب » رفاعة بسلوك المرأة الفرنسية والحقوق المكفولة لها فى القوانين هناك ، ومنها : تقييد الطلاق بجريمة الزنا وعدم

---

(١) الإبريز ص ١٤٠ .

الاعتداد به إلا إذا صدر به حكم من القضاء ، وفيه يقول : إنه « لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بإقامة دعوى الزنا » [1] .

وينفى رفاعة أن يكون التبرج والسفور والاختلاط بين الرجال والنساء والخلوات ، ينفى أن تكون هذه العادات المنتشرة فى فرنسا سبباً من أسباب الفساد ، فيقول : « إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة » (؟!) [2] .

* *

● المراقصة :

ويدافع « الخواجة » رفاعة عن مراقصة الرجال للنساء فى فرنسا ويصفها بالطُهْر والعفاف فيقول : « إن الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار إليه المسعودى فى تاريخه المسمى « مروج الذهب » فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ... وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء ... ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة [3] لا الفسق ؛ فذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء (؟!) بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء ؛ لأنه لتهييج الشهوات . أما فى باريس فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً ، كل إنسان يعزم امرأة يرقص معها فإذا فرغ عزمها آخر ... » (؟!) [4] .

* *

(1) الإبريز ص ١٢٢
(2) المصدر السابق ص ٢٠٥
(3) الشلبنة : الفتوة .
(4) الإبريز ص ١٦٨

● وصف المسارح :

حتى ما في باريس من مسارح وملاه فهو شئ طريف ظريف عند رفاعة الطهطاوى ، وفى اختصار شديد نقول : إن الطهطاوى مفتون بما تقدمه المسارح الباريسية لدرجة أنه يقول فيها : « وبالجملة فالتياترو عندهم – يعنى المسرح – كالمدرسة العامة : يتعلم فيها العالِم والجاهل » (؟!) .

والخلاصة :

نكتفى بهذا القدر من فكر رفاعة الطهطاوى . ونحن نميل إلى حسن النية فيما قال ، ولا نتحمس للقول بأنه قصد الإساءة قصداً إلى دينه أو وطنه . ولكن الذى نجزم به أن رفاعة الطهطاوى كان من المعابر للحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام ، وأنه وقع تحت تأثيرها ولم يستطع الفكاك منها ، وقد استطاع أساتذته الأوروبيون أن يسخِّروه من حيث لا يدرى لخدمة مخططاتهم ، وهو يحسب أنه يُحسن عملاً ، وقد خابت آمال محمد على فيه كما خابت آمال جبريل عليه السلام حين ربى « موسى السامرى » ليكون عبداً صالحاً ، فما كان منه إلا دعوة بنى إسرائيل لعبادة العجل إلهاً من دون الله . وفوق ذلك فإن سيرة رفاعة الطهطاوى مثل صالح لمساوىء الابتعاث إلى الغرب . تعلم المفيد والضار ، ولكنه غلَّب جانب الأضرار على جانب الإفادة .. درى أو لم يدر .. ؟

* * *

الفصل التاسع عشر

البعثات الأجنبية إلى بلاد الإسلام

أما البعثات الأجنبية إلى مصر ، والتى استُقْدِمت للإفادة من الخبرة الفنية والعلمية التى كان قد برزت فيها أوروبا ، ورأت مصر أنها فى حاجة إليها . هذه البعثات لم تقل خطراً عن البعثات التى تعلمت فى الغرب ، فصاغها الغرب فى أشكال جديدة . ولنقدِّم بين يدى القارىء صورة لأضرار البعثات الأجنبية ، ذلك السلاح ذو الحدين - كما يقال فى الأمثال .

● بعثة سان سيمون :

استقدم محمد على بعثة من الخبراء والأطباء والمهندسين الفرنسيين ، وكانت تُعرف باسم : « بعثة سان سيمون » ؛ لأن أعضاء البعثة كانوا من تلاميذ « سان » ، وهو معروف بآرائه الثورية وفلسفته العلمانية المناهضة للدين . كانت فلسفة « سان سيمون » وتلاميذه الذين عاشوا فى مصر لسنوات ينظمون شئون الدولة فى كافة مرافقها الاقتصادية والحربية والهندسية والطبية ، كانت فلسفة هؤلاء وفلسفة أستاذهم « سان » تعتمد على أن تنظيم المجتمع الحديث ينبغى أن يكون على أساس علمى يحل فيه العقل العالم (أو رهبانية العلم) محل الدين عقيدة وتوجيهات وسلوكاً . هذه الفلسفة كانت قد راجت فى أوروبا وبخاصة فرنسا بعد قيام ثورتها . ومن البديه أن هذه البعثة قد تركت آثاراً فى البيئة المصرية الإسلامية ، ولكنها لم تصل إلى درجة التأثير البارز المباشر لأمرين :

أما الأول .. فلأن حاكم البلاد فى ذلك الوقت لم يرد هذا التحول وإنما أراد الاستفادة الفنية والحصول على الخبرة من البعثة لتطوير النظم الإدارية ليس إلا .

وأما الأمر الآخر .. فإن الوقت كان مبكراً جداً على هذا التحول بشكل ملحوظ . وعلى كلٍ فإن بعثة « سان سيمون » كانت البذور الأولى لغرس الحضارة الغربية - وفى حيز ضيق - من مساحة مصر الفكرية والخلقية والعلمية .

* *

● بعثة على مبارك :

ليس فى تاريخ مصر العلمى الحديث ما يسمى بـ « بعثة على مبارك » ، وإنما هى تسمية من عندنا تقريباً لضبط المسائل ، والواقع لا يجافى هذه التسمية وإن كانت غير معهودة . ففى نظارة على باشا مبارك الثانية للمعارف المصرية بدءاً من عام ١٨٧١ نظمت محاضرات عامة بسراى درب الجماميز لطلأب المدارس العليا وبعض طلأب الأزهر فى مصر ، وكان يلقى تلك المحاضرات أساتذة مختارون من مصر ومن أوروبا ، وكان من بين الأساتذة الأوروبيين :

المسيو « فيدال » لعلوم السكك الحديدية ، والمسيو « جيجون » لفن الآلات ، والمسيو « هنرى بروكسن » للتاريخ العام ، والمسيو « يكتيت » لعلوم الطبيعة ، والمسيو « فرانس » للعمارة ، وكلهم كما ترى فرنسيون ، وفرنسا فى ذلك العهد كانت حريصة على تصدير حضارتها إلى مصر كما ظهر فى حملة نابليون قبل أربع وسبعون سنة على استقدام على مبارك لهؤلاء الخبراء والعلماء . ومن غير نزاع أن لهذه البعثة تأثيرات وانعكاسات فى نفوس الطلأب الذين تتلمذوا عليهم ، وكانت تمهيداً هادئاً لتقبل المصريين روح الحضارة الغربية ، وإرهاصات لقبول تفاعلاتها الصارخة فيما بعد فى الجامعة المصرية .

* *

● فى الجامعة المصرية :

من الحسن الجميل أن تفكر مصر أنها فى حاجة إلى إنشاء جامعة لشبابها بالإضافة إلى جامعة الأزهر التى حفظت أمانة العلوم الإسلامية الشرعية

والعربية ؛ لأن البلاد كانت فى حاجة ماسة إلى فروع العلم الأخرى . فالعلوم الشرعية والعربية لها مجالات فى الحياة مقصورة عليها ، وهى لا تغنى عن فروع العلوم الأخرى كالهندسة والطب والزراعة وغيرها . لهذا كان التفكير الذى أفضى إلى قيام الجامعة المصرية (الأهلية) عام ١٩٠٨ تفكيراً سديداً وخطوة محمودة من الأخذ بأسباب القوة والكمال . ولما فتحت الجامعة أبوابها للطلاّب رأى القائمون عليها - وكان مديرها أحمد لطفى السيد - أن الحاجة ملحة فى استقدام بعض الأساتذة الأجانب لإلقاء محاضرات على الطلاّب . وتم ذلك بالفعل ، وكان ممن استقدمتهم الجامعة :

● كازانوفا وتصدير الإلحاد :

أجل .. استقدمت الجامعة المستشرق « كازانوفا » ، وكان الدكتور طه حسين مدرس الآداب العربية فى الجامعة حينذاك تلميذاً وفياً معجباً بكازانوفا هذا . فيا ترى ما العلم الذى نقله كازانوفا هذا إلى طلاّب الجامعة ؟ للإجابة على هذا السؤال ننقل للقارىء فقرة من كتاب « تحت راية القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعى أمطر الله قبره بشآبيب الرحمة .

يقول الرافعى مخاطباً أحمد لطفى السيد مدير الجامعة وقتذاك :

« وحدثنى عنك يا سيدى المدير : ألم تكن تعرف المسيو « كازانوفا » الذى جئتم به للجامعة ، وما علمتم أن الله سيبطله ، لأن الله أرحم من أن يجمع على أبناء هذه الأمة المسكينة كازانوفا وتلميذه طه حسين فى مدرسة واحدة . ألم تكن تعلم أنه - يعنى كازانوفا - صاحب كتاب « محمد وانتهاء العالَم » الذى يقرر فيه أن النبى ﷺ لم يستخلف أحداً بعده ، إذ كان لا يعتقد أنه سيموت ؟! .. بل يرى أن الساعة قائمة فى عهده ؟! فلما مات كان موته تكذيباً صريحاً لأصل عقيدته ؟! فاضطر أبو بكر الصدِّيق أن يكذب ويزيد فى القرآن آيتين (؟!) إحداهما : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَاتَ

أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... ﴾ (١) ، والأخرى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (٢) (؟؟!) ويقول - يعنى كازانوفا - بعد ذلك : هذه كذبة حلال نحن مدينون بها لقرآن أبى بكر » (٣) .

هذه الفقرة تريك نوع الفكر والعلم الذى كان الأجانب ينفثونه فى عقول الشباب . وخلاصة ما فى هذه الفقرة أن كازانوفا كان يفترى على الله ورسوله ، ويدّعى :

١ - أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - لم يكن رسول صدق من عند الله ، ولا أوحى الله إليه القرآن بل هو من تأليفه (؟!) .

٢ - أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يعتقد أنه سيموت قبل قيام الساعة (؟!) .

٣ - أن موته - صلى الله عليه وسلم - كان تكذيباً لعقيدته (؟!) .

٤ - أن المسلمين وقعوا فى حَرَج حين موته غير المتوقع .

٥ - أن أبا بكر - رضى الله عنه - اضطر ليزيد فى القرآن آيتين لتستقيم أمور العقيدة (؟!) .

٦ - أن ما فعله أبو بكر من الكذب الحلال . وأن المسلمين مضطرون لقبوله ومدينون به لقرآن أبى بكر (؟!) .

أليس هذا هو الإلحاد ياسادة ياكرام ؟ ثم أليست هذه البعثات شراً مستطيراً شديد الخطر على البلاد وعلى شبابها وناشئتها بوجه خاص ؟!

وأنت - عزيزى القارىء - هل فى حاجة إلى مزيد من الأدلة على أن نظام الابتعاث إلى الخارج وإلى الداخل من الخارج معبر سلس ، وطريق ممهد وقصير لتصدير الجوانب المضرة من الحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام ؟!

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الزمر : ٣٠.

(٣) انظر ص ٢٧٥ تحت راية القرآن .

الفصل العشرون

التربية والتعليم

ومن المعابر ذات التأثير الشديد ، التى استخدمها الغرب فى تصدير حضارته ، أو الجانب الضار منها : معبر التربية والتعليم ، إن بلداً إسلامياً واحداً من البلاد التى خضعت لنفوذ الغرب لم يسلم من هذه الآفة المدمرة الخطيرة ، صحيح أن درجات التأثر تختلف قوةً وضعفاً ، ومع هذا فإنه سرطان فكرى مدمر لعقول أبناء المسلمين . ولا أظن القارىء فى حاجة إلى تذكير بالمدارس والمعاهد والكليات المنتشرة الآن فى العالم الإسلامى ، وتتبع دولاً أجنبية كفرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا ، وتهتم هذه الدور ببث الفكر والثقافة الغربية بجانب التعليم الوطنى للبلد الذى تباشر نشاطها فيه .

ومما يزيد فى خطورة هذا النوع من التعليم الأجنبى أنه يبدأ من رياض الأطفال حتى الحصول على الشهادة التى تؤهل الطلاّب والطالبات لدخول الجامعة ، والمرحلة قبل التعليم الجامعى هى مرحلة التأسيس والبناء . ولا يُتصور أن طالباً قضى أربع عشرة سنة من أخصب سنى حياته إذا رُبِّىَ على منهج معيَّن ، أن تفلح الجامعة فى إحداث تغيرات فى فكره أو تصوراته ، وبخاصة أن الجامعة لا تُدخل فى حساباتها إلا الجانب العلمى الذى تتضمنه مناهجها ، أما التوجيه الخُلُقى وما ينبنى هو عليه من أصول العقائد فلا وجود له فى الجامعة . فكليات الطب والهندسة والحقوق والزراعة والتجارة تؤهل خرِّيجها

للتخصص فى هذه الفروع العلمية ولا شأن لها بالثقافة الإسلامية ، وهكذا كل المعاهد والكليات .

ومن الجوانب الخطرة فى هذا النوع من التعليم - كذلك - أنه يفوق فى نظافته وجديته وآثاره التربوية والتعليمية المدارس « الميرى » فكل شئ فيه - أعنى التعليم الأجنبى - رائع ومذهل : الأبنية والحجرات والنظافة تبلغ فى دور هذا التعليم درجة لا تجد لها مثيلاً فى المدارس « الميرى » ، زىّ الطلاَّب والطالبات موحد ونظيف ومنسق ، الواجبات التى يكلّف بها التلاميذ مكثفة ومُعَدَّة إعداداً طيباً ، متابعة المعلمين لأعمال التلاميذ جيدة للغاية . وهذا فى نظرى نوع من الدعاية للتعليم الأجنبى ، وإلى جانب هذا نجد كثيراً من المدارس « الميرى » مناظرها كئيبة ، وأفنيتها تشبه مقالب « القمامة » ، ومستوى التحصيل فيها هابط ، والواجبات المنزلية هزيلة ، ومتابعة المعلمين لأعمال التلاميذ روتينية ؟!

ونتيجة لهذه المفارقات كان التعليم الأجنبى يصل عندنا إلى درجة التقديس ، والتعليم « الميرى » إلى درجة التندر ، فيكفى فخراً أن يقول الأب : ابنى أو ابنتى فى مدرسة أجنبية (؟!) ، ويكفى تواضعاً أن يقول آخر : ابنى فى مدرسة عربى (؟!) .

* *

● تجاوز المهمة :

لو وقف التعليم الأجنبى فى البلاد الإسلامية عند المهمة الشريفة وهى التربية والتعليم على الأسس المقررة مع تعليم التلاميذ بعض اللغات الأجنبية لكان ذلك محمدة ، ولكنه يتجاوز المهمة المعهودة إلى أمور محظورة ، وقد تورطت بعض هذه المدارس فى تنصير فتاة ، وحدثت مشكلة بين المدرسة وبين أسرة الطالبة ، فماذا حدث بعد ذلك يا ترى ؟

امتنعت الطالبة عن الإقامة مع أسرتها ، وألحقتها المدرسة بإحدى دور رعاية المسنين كمشرفة على رعايتهم مساءً ، ومدرِّسة بالمدرسة - إياها - صباحاً .

وتقدمت الأسرة ببلاغات رسمية للمسئولين ، وبعد لأى تقرر مواجهة بين جميع الأطراف : ناظرة المدرسة - وهى أجنبية - وأسرة الطالبة ، والطالبة نفسها ، وتمت المواجهة فى أحد أقسام شُرطة القاهرة ، وأشرف عليها مدير نيابات القسم . ثم أتدرى ما حدث فى هذه المواجهة ؟! إليك الآتى :

* اتهمت الفتاة أباها بالجنون وأمها بالكذب أمام مرأى ومسمع من مدير النيابة ورجال الشُرطة .

* وفى نهاية المواجهة خرجت الفتاة إلى دار رعاية المسنين وتركت أباها وأمها (؟!) .

* طلبت الأسرة من مدير النيابة أن يجبر الفتاة على الذهاب مع أسرتها . وكان جواب السيد مدير النيابة : ابنتكم بلغت سن الرشد فهى حرة فى تصرفاتها ، والقانون لا يسمح لى بإجبارها على الذهاب معكم (؟!!) .

أبعد هذا من عجب عزيزى القارىء .

* أما ناظرة المدرسة فنفت تدخل المدرسة فى عملية التنصير واستندت إلى نفس ما استند إليه مدير النيابة : البنت كبرت وهذا اختيارها ولم يجبرها أحد على التنصير (؟!!!)

هذه واحدة .. أما الثانية :

فقد نشرت الصحف أن وزير التربية والتعليم أصدر أمراً بوقف نشاط مدرسة « أجنبية » بالدقى ، والسبب أن المدرسة استوردت قصة منافية للآداب والتقاليد الإسلامية ، وقررت تدريسها على « الطالبات » كنموذج تطبيقى للغة الأجنبية التى تنتسب المدرسة إلى الدولة المتحدثة بها ، كما أمر بإجراء تحقيق فى الموضوع .

هذان الانحرافان حدثا عام ١٩٨٧ . أما النموذج الثالث للانحراف ، فقد حدث عام ١٩٨٨ فى بداية الدراسة ، حيث اكتشفت الوزارة أن بعضاً من المدارس الأجنبية تدرس مواد باللغات الأجنبية من المواد التى تحتم لوائح الوزارة للتعليم الخاص الأجنبى تدريسها باللغة العربية .

وهذا يمثل اعتداءً خطيراً على قيَم الأمة ، ويستهدف ضعف الخرِّيجين فى لغتهم ولغة دينهم وآبائهم وأجدادهم وتراث أمتهم وهو مصير مؤسف . وخطط التعليم الأجنبى غير المرئية تجعل هذه المهمة من الأوليات .

أضف إلى هذا أن من تقاليد المدارس والمعاهد الأجنبية فى مصر وفى غير مصر الحرص على إستمرار الصلة بينها وبين خرِّيجها من خلال جمعية تسمى : « جمعية الخرِّيجين » وتعمل على عقد اللقاءات والاجتماعات بينهم وبين إدارة المدرسة ، ومن غير شك فإن كثيراً من خرِّيجى هذه المدارس يشغلون مناصب مهمة وحساسة فى الدولة ، واستمرار الصلة بينهم وبين مدارسهم يملأ نفوسهم بالولاء لها .فيعملون على قضاء مصالحها وتسهيل مهماتها فى مؤسسات ودواوين الدولة ، ويكونون شفعاء نافذى الرجاء لها إذا وقعت فى أخطاء وإن كانت متعمدة فإذا وضعنا فى الاعتبار أن دور التعليم الأجنبى لبهاظة تكاليفه لا يستمتع به إلا أبناء ذوى الثروة واليسار فى مصر ، فإن معنى هذا أن التعليم الأجنبى يستأثر بالصفوة من أبناء الوطن ، الذين سيشغلون مناصب القيادة والتوجيه العليا فى البلاد . وهذا يسهل لأوروبا تصدير حضارتها « مجاناً » ويتحقق الأمل الذى أوضح عنه « اللورد كرومر » من قبل .

وهو أن سياسة الإنجليز لن تجد لها متنفساً فى مصر إلا على أيدى جيل يتربون تربية أوروبية ، أو على حد قوله : « سنحكم مصر بعد خروجنا منها برءوس مصرية ، وعقول أوروبية » (؟!) .

* *

● كلية ڤيكتوريا :

والشئ بالشئ يُذكر ، والحديث ذو شجون - كما يقولون - وما دام الحديث قد تطرَّق إلى دهاء « كرومر » فإن المناسب هنا أن نشير إلى كلية ڤيكتوريا بالإسكندرية والمقصود منها .

علت الضجة من المندوبين والمعتمدين الإنجليز فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر من صلابة الأزهر ، الذى كان يهيمن على التعليم الوطنى فى مصر . فقد

حال التعليم الأزهرى دون تحقيق مطامع الاحتلال فى طبع المصريين بطابع الحضارة الغربية ، وفرض المحتلون التعليم باللغة الإنجليزية فى جميع المدارس المنشأة خارج نطاق الأزهر ، ولما تولى سعد زغلول نظارة المعارف أعاد التعليم باللغة العربية تحت ضغط شعبى عارم .

ولكن الدهاة من ممثلى الاحتلال البريطانى ، وفى مقدمتهم « اللورد كرومر » لم تعيهم الحيل فقد اهتدى « كرومر » إلى إنشاء كلية تبدأ بالتعلم من الصغر ، وكانت هذه الكلية هى كلية ڤيكتوريا واختار أن يكون مقرها فى الإسكندرية ، وفتحت الكلية أبوابها أمام أبناء مصر وغيرهم . ورسم سياسة التعليم فيها الإنجليز أنفسهم ، واستقدموا لها المدرسين والمعلمين من إنجلترا ليكونوا أمناء على تنفيذ المخططات المرسومة من قبَل حكومة صاحبة الجلالة .

قضى « كرومر » فى مصر ما يقرب من ربع قرن ، يوطد أقدام الإنجليز فيها حضارة فكراً ، ويعمل جاهداً على إزالة الكراهية من نفوس المصريين تجاه الغرب وحضارته بصفة عامة ، ثم تجاه الإنجليز بصفة خاصة ، فكانت كلية ڤيكتوريا من أسس هذا التحول المرتقب . إنها كلية لتخريج القادة المتفرنجين أصحاب الأسماء والرءوس المصرية ، التى تحمل عقولاً أوروبية . وقد نجح « كرومر » فى هذا المجال أيما نجاح ، وسجل هذه الحقائق فى كتاب ألَّفه عن نشاطه فى مصر بعد عودته إلى بلاده .

ثم جاء « اللورد لويد » ، وهو من الدهاة الذين مثلوا الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، وألقى خطبة عام ١٩٣٦ فى كلية ڤيكتوريا (إياها) وتحدَّث عن أمل بلاده فى طلبتها بعد التخرج ، فكان مما قال : « كل هؤلاء لا يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية ، بفضل العشرة الطويلة بين المعلمين - يعنى الإنجليز - وبين التلاميذ ، فيصيروا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ؟! ويعطفوا عليها .. » ؟!

وكان « اللورد كرومر » قد استقدم قبل عودته إلى بلاده القسيس الماكر

« دانلوب » ، وعيَّنه مستشاراً للمعارف المصرية ، وكان علية القوم من المصريين ينادونه بـ « يا سيادة المستشار » ؟! وقد فهم الرجل – دانلوب – المهمة التى استُقدم من أجلها فهما جيداً ، وأخلص لها كل الإخلاص : إنها تغريب التعليم ، ومحاربة الأزهر وما يمثله من قيَم ، وما يبثه من معارف وعلوم . ومن دهائه الخبيث : أنه ترك الأزهر فلم يمدحه ولم يذمه ، ومع هذا فقد حاربه حرباً شعواء صامتة .

فقد أنشأ هذا الداهية الحاقد المدارس المدنية المناوئة للأزهر ومناهجه ، ووضع المناهج الحديثة ، وأحل اللغة الإنجليزية محل العربية فى التعليم ، وصنف المعلمين أصنافاً كان أنزلهم درجة هو معلم اللغة العربية والدين الإسلامى(؟!)راتبه أقل مَن بعض فرّاشى المدرسة (؟!) ومنزلته الأدبية أحط المنازل وجدوله مؤخر إلى نهاية اليوم الدراسى حين يبلغ السأم بالتلاميذ مداه (؟!)

والمادة العلمية التى عُهدَ إليه بتدريسها هزيلة ، ولا رأى له فى شئون المدرسة . إنها عمليات انتحار بطىء كما ترى . والسبب أنه مدرس الدين الإسلامى واللغة العربية ، وأنه من أبناء الأزهر . والدين الإسلامى واللغة العربية والأزهر ، كلمات لها دوى القنابل وآثارها فى آذان الإنجليز ونفوسهم ، وهى القلاع التى تحصَّن بها الوطن ، والصخور التى تحطمت عليها آمال الأعداء ، لذلك كانت مهمة « دانلوب » القضاء على الأزهر والعلوم التى ينشرها تمهيداً للقضاء على العملاق نفسه (الإسلام) .

وكما يقول الشيخ محمد قطب : إن خطة « دانلوب » بعثت الكراهية والاحتقار فى نفوس التلاميذ نحو مدرس اللغة العربية والدين . ثم انتقلت تلك الكراهية وذلك الاحتقار إلى اللغة العربية نفسها . ثم انتقلت أخيراً إلى المكتوب باللغة العربية ، وفى مقدمته القرآن والسُنَّة ، ثم تراث الأمة كله من يوم نزل القرآن إلى العصر الحديث .

خطة ماكرة كما ترى وضعها ونفذها القس الحاقد « دانلوب » وكانت الضربة القاضية على منزلة الأزهر ومستقبله سياسة الرواتب والأجور التى وضعها

الاحتلال البريطانى ، إذ جعلت راتب خرِّيج المدارس المدنية (الدانلوبية) أربعة جنيهات فى الشهر . أما راتب خرِّيج الأزهر بعد مضى أكثر من عشرين عاماً يقضيها فيه طالباً ، فقد حُدِّد بمبلغ ۱۲۰ (مائة وعشرين) قرشاً ، وهذا بدوره جعل الناس يوجهون أبناءهم للتعلم فى المدارس المدنية ، ويُعرِضون عن الأزهر . الذى أصبح ملجأ لأبناء الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون (؟) وهذه السياسة هى التى نهجها الإنجليز فى الهند من قبل .

* *

● استمرار هذه المساوىء :

منزلة تعليم اللغة العربية والدين الإسلامى لم تتحسن كثيراً حتى بعد رحيل الاستعمار .. الاستعمار رحل ؟ نعم أما السياسات فما تزال موجودة إلى الآن . فتشويه سمعة اللغة العربية وتزهيد الطلاّب فيها ما يزال قائماً على أشده . وهذا حيف وسخف وحماقة . أما الدين فإن الحيف الواقع عليه أشد وأمر . وإن شئت فزر أية مدرسة تر حصص الدين فيها مهملة كل الإهمال من عدة نواحٍ ..

فأكثر الذين و « اللذينات » - إن جاز هذا التعبير - يدرسون الدين غير مؤهلين لتدريسه بالمرة .

ثم انظر إلى اختيار الزمن الذى تُوزَع فيه الجداول الدراسية لحصص الدين ، تجده الزمن الأخير فى اليوم الدراسى ، نفس المنهج المتبع قديماً فى عهد الاحتلال ، ومن خلال تجارب شخصية فإن التلاميذ فى هذه الفترة لا يفكرون إلا فى « توضيب » حقائبهم وانتظار صوت « الجرس » للانصراف إلى المنازل ونصيب الدين حصة واحدة يتيمة فى الأسبوع موزعة على فروع المادة ، ودرجات الدين لا ينتفع بها التلميذ فى مجموعه العام ؟!

ولعلك تسأل . وما صلة هذا بتصدير الحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام ؟ والجواب :

إنك تذكر ما تقدَّم من خطتى : التفريغ والملء . وإهمال الدين ، والكراهية للغة العربية من عوامل تفريغ العقول من قِيَم الأمة ، وهذا مهم لخطة

الملء حين لا تجد لها مزاحماً فى العقول . فتتوطد أقدامها ، وتستقر . وما جعل الله لرجل - ولا لامرأة - من قلبين فى جوفه .

وما سلكه الاستعمار فى مصر ، سلكه فى غيرها من بلاد المسلمين ودول شمال غرب إفريقيا ، من أظهر النماذج على ذلك : لقد أمات الاستعمار الفرنسى اللغة العربية تماماً فى تلك البلاد . وأحلَّ محلها اللغة الفرنسية ، وقد سمعتُ كثيراً من أبنائها إذا تحدث باللغة العربية تحدثها بلغة الخواجات تماماً .

ولم يقتصر دور الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد على قتل اللغة العربية وحدها . بل أضر بالكثير من الجوانب الخُلُقية والتشريعية والعادات والتقاليد . وقد نجح فى تكوين عملاء مخلصين له ، مثل الطاهر بن جلون الذى كتب قصة يسخر فيها من الإسلام والمسلمين ، ويصوِّر بعض الزناة وشاربى الخمور من المسلمين وهم يقرأون القرآن ويشكرون الله لأنه متعهم بالملذات الحرام ؟!

ومنهم مَنْ يسمى : « كاتب ياسين » الذى هلك فى هذا الشتاء (٨٩ - ١٩٩٠) فقد وجِّهت إليه هيئة الإذاعة البريطانية أسئلة مريبة ، وكانت الإجابة كفراً بواحاً .. قالت له الهيئة فيما أذكر : هل صحيح أن عودة الإسلام هى الحل ؟! فأجاب : الحل ألا يعود الإسلام ؟!

وقالت له الهيئة : هل ترى الآن للإسلام عدواً ؟!

فأجاب : عدو الإسلام هو الإسلام نفسه ؟!

هذه نماذج حية لصور الحضارة الغربية التى صدَّرها الاستعمار ، وما يزال يُصدِّرها - إلى بلاد المسلمين ، والمسلمون فى غفلة عما يُراد بهم ، بل إنهم ليسوا فى غفلة وإنما هم متغافلون عما فيه تدميرهم وهلاكهم ، وهم بين مخالب الصقور وبراثن الأسود . وواقع قادة المسلمين وأمرائهم الآن هو ما عناه الشاعر :

مَن يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرحٍ بميت إيلام ؟!

* *

● فى التشريعات والتقنينات :

الجانب التشريعى والتقنينى من أنجح الجوانب التى استطاعت أوروبا السيطرة عليها ، لا نقول بتصدير حضارتها إليها فحسب لأن التصدير وحده لا يفى بتصوير حقيقة الواقع فى هذا المجال . فالتصدير مع المناعة من الاستهلاك أمر محدود الخطر والضرر ، ولكن أوروبا تجاوزت - هنا - مرحلة مجرد التصدير إلى مرحلة التوظيف لما صدَّرت فى شئون المسلمين التشريعية ، حيث تغلغلت قيمها ومبادئها فى هذا الشأن ، واشتد خطرها وتفاعلها فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون الحياة . وانحسرت أمام هذا التفاعل أصول الشريعة الإسلامية وقواعدها وتوجيهاتها إلا فى أضيق الحدود ، ولم ينج من هذا الخطر إلا القليل النادر من البلاد الإسلامية . أما الكثرة الكاثرة فقد ارتمت فى مخالب التشريعات والقوانين الأوروبية ، وانغمست من أخمص القدم إلى فروة الرأس .

صدَّرت إلينا أوروبا نظمها التشريعية فى شكل المبادىء الدستورية العامة ، وفى أشكال جزءياته ودقائقه . وتقبلناها نحن بصدر رحب تحت تأثير عوامل كثيرة مهَّدت لهذا التقبل ، ومع كثرة تلك العوامل فإنها ترجع إلى ضابط واحد قد أشرنا إليه مراراً من قبل . وهو أن أوروبا طبعت عقولنا الحديثة بطابع عقولها ، وهيأت كثيراً منا للترحيب بحضارتها واعتبارها المنبع الأمثل لإدارة شئون الحياة . والمبادىء الدستورية التى صدَّرتها إلينا هى فى الواقع بمثابة « بوابة واسعة » زحف من خلالها جيش عرمرم من القواعد والمواد القانونية ، أو أنشأنا نحن ذلك الجيش العرمرم بمحض إرادتنا بعد أن تم صهر عقولنا وفكرنا وأعيد تشكيلها فى قوالب أجنبية خالصة .

* *

● الديمقراطية :

هذه هى البوابة الواسعة التى تقدَّمت الإشارة إليها . إنها الآن هى « الإله » المعبود الذى يسبح بحمده كثير من قادة المسلمين ، ويعتبرون أنفسهم ، وهم يتغنون بالديمقراطية هذه ، أنهم رسل العدل ، وملائكة الرحمة ، وأحباء الملايين ؟!

● ما هى الديمقراطية ؟

يقولون : إن الديمقراطية هى « حكم الشعب » وهذه هى الترجمة الحرفية لمعنى « الديمقراطية » وقد لحظ بعض فقهاء القانون أن فى هذا التعبير قصوراً . إذ ما المراد من « حكم الشعب » ؟! هل الإضافة فيه للفاعل ، فيكون المراد : الشعب يحكم نفسه ، وإذا كان هو المراد فإن هذا المعنى « فضفاض » وغير واقعى لأنه لم يُعهد أن شعباً حكم نفسه ، أى كل الشعب حكم كل الشعب !! أما إذا كانت الإضافة فيه للمفعول ، فيكون المعنى : الحكم الواقع على الشعب ، ولو كان الحاكم له فرداً مستبداً .

أشار أستاذنا المرحوم عباس محمود العقاد إلى هذه الاحتمالات فى إجمال ، فصَّلناه - نحن - نوعاً من التفصيل .

وبعيداً عن فلسفة التعريفات فإن المراد من الديمقراطية هى حرية الأمة أو الشعب فى :

* بِمَ تُحكم وتُساس ؟

* وبمن تُحكم وتُساس ؟

يعنى أن الناس أحرار فى وضع الأصول والقواعد التى يصبح الحكم فى المنازعات والتخطيط فى السياسات وإدارة شئون الحياة وفقاً لتلك الأصول والقواعد . ولا تستمد تلك الأصول من جهة أو مصدر للإلزام خارجاً عن إرادة الشعب نفسه . هذا بالنسبة للعنصر الأول : بِمَ تُحكم الأمة أو الشعب وتُساس ؟

أما العنصر الثانى : بمن تُحكم وتُساس . فالأمة أو الشعب هى صاحبة الاختيار للإدارة العليا الحاكمة .

هذا هو المراد - فى إيجاز - من « الديمقراطية » كما شاع بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨

فالديمقراطية - كما ترى - لُحمتها وسُداها التشريع الوضعى الذى ينشؤه البَشر . فالحكم يكون باسم الشعب لا باسم مصدر آخر سواه . والسيادة للشعب لا لمصدر آخر سواه ، والشعب هو الذى يختار الإدارة العليا الحاكمة شريطة أن تكون مقيَّدة بالتشريع الذى أنشأه الشعب وارتضاه بمحض إرادته الحرة .

والشعب له كامل الحرية فى التشريع . وإذا لم تلتزم الإدارة العليا الحاكمة بالقانون الذى أقره الشعب فإنها تكون قد انتهكت حُرمة الإرادة الشعبية ، وللشعب حينئذ عزلها لانحرافها وخيانتها لإرادة الأمة .. ؟!

وفى ظل هذا المفهوم (المبدأ الدستورى العام) شاعت مصطلحات أو شعارات أخرى مثل : السيادة للقانون ، أو سيادة القانون . الأمة مصدر السُلطات ... إلخ .

وتسأل : أين الله وشريعته فى الديمقراطية ؟!

والجواب فى إيجاز : لا سلطان له ولا لشريعته ؟! وإلاَّ فلا ديمقراطية إذن ، ولا إرادة حُرَّة للأمة ؟!

* *

● تسرب المبدأ إلى بلاد الإسلام :

نشأت الديمقراطية والأفكار المنبثقة عنها فى العصر الحديث على أيدى الثوار فى فرنسا . إذ كان من مقررات الثورة فور بسط نفوذها فى الغرب المبادىء الديمقراطية الآتية :

* إن الحكم يكون باسم الشعب لا باسم الله (؟!)

* إقرار الحريات الشخصية ، فليس فوق إرادة الإنسان قوة تتحكم فى تصرفاته أو تملى عليه وجهة معيَّنة (؟؟)

* إن الدين مسألة شخصية متروكة للفرد إن شاء أن يتدين فليتدين (؟!) وإن شاء ألا يتدين فلا يتدين (؟!)

* العلاقة الدينية تكون بين العبد وربه ولا سلطان لها فوق ذلك (؟!)

* إحلال القانون الوضعى محل التشريع السماوى (؟!)

* فصل الدين عن السياسة (؟!)

* وما لبثت هذه الأفكار حتى صدُرِّت - مبنى للمجهول - إلى العالم الإسلامى إلا ما عصم الله .

وقد مرَّ بنا من قبل أن البلاد التى خضعت للاحتلال الأجنبى كالهند ومصر وغيرهما بادر الاحتلال بإلغاء العمل بأحكام الشريعة فيها ، وأحلَّ محلها التشريع الوضعى .

وفى مصر مهَّدت الحملة الفرنسية لجعل مصر مناخاً مناسباً للتأثر بالتشريعات الغربية ، ثم جاء الاحتلال البريطانى فخطا خطوات واسعة فى هذا الميدان ، ووجد عملاء مخلصين له فى تحقيق أغراضه ، وفى مقدمتهم أحمد لطفى السيد الملقب بأستاذ الجيل الذى نادى بفصل الدين عن السياسة بدعوى معسولة . وماكرة خبيثة ، فكثيراً ما كان يقول : « إن الدين شئ نبيل وجميل ، ولكن محله « القلب » أما السياسة فدنسة فلا يجوز أن يختلط بها الدين حتى لا تدنسه » (١) . وهذه هى نفس السياسة التى أقرتها الثورة الفرنسية كما أشرنا من قبل .

وكان الشيخ محمد عبده يلعن السياسة ومشتقاتها ، وهذا يوحى للعامة بصدق ما ردده أستاذ الجيل .

وقد أشرنا من قبل أن رفاعة الطهطاوى ترجم القانون الفرنسى للعربية وأبدى

---

(١) ولِمَ لَمْ يسمح « لطفى » للدين بأن يطهر السياسة من دنسها .. ؟!!

إعجابه البالغ به ، كانت هذه العوامل مما سهَّل على أعداء الإسلام إزاحته عن الساحة .

وبقى شخص آخر سهَّل تسهيلاً مباشراً لإحلال القانون الفرنسى محل أحكام الشريعة ، ذلك الشخص هو الخديو إسماعيل ومعه رئيس وزرائه نوبار باشا الأرمنى الجنسية ، النصرانى العقيدة . فقد عملا رويداً رويداً على تنحية أحكام الشريعة وإحلال القانون الوضعى محلها ، وبخاصة فى مجال العقوبات والاقتصاد . فأول مَنْ أقر التعامل بالفوائد الربوية هو الخديو إسماعيل ؟!

والآن يعلم جميع الناس أن قانون العقوبات المعمول به فى مصر هو قانون وضعى ، وقد ترتب على هذا وقف العمل بالحدود الشرعية تماماً . وما تزال الدولة تُسوِّف الوعود بتطبيق الشريعة ؟!

وبعد إقرار العمل بالقوانين الوضعية وتعطيل أحكام الشريعة هَبَّ فريق من المسلمين يدافعون عن هذه الردَّة ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده . فله فتوى مدوَّنة ومشهورة تحايل فيها كثيراً على إقرار العمل بالقانون الوضعى ، كما حاول فيها تحريف معانى الآيات الثلاث الواردة فى سورة المائدة ، والتى تقضى أولاها بـ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ (١) وتقضى الثانية بـ : ﴿ وَمَن لَّم يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) وتقضى الثالثة بـ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

ثم ينتهى الشيخ رشيد رضا بأن إبطال العمل بأحكام الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها ضرورة لجأ إليها الحاكم (؟؟) (٤) وهكذا وجد أعداء الإسلام

(١) المائدة : ٤٤ — (٢) المائدة : ٤٥ — (٣) المائدة : ٤٧

(٤) انظر الفتوى بطولها رقم (٧٧) من فتاوى المجلد السابع من المنار ، وانظر تعقيبات مفيدة عليها للشيخ محمد قطب فى هوامش الصفحات (٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠) من « واقعنا المعاصر » .

عملاء يمهدون له الطريق لضرب الإسلام وعملاء آخرين يبررون له - بعد الضرب - ما اقترفه ضد الإسلام من جرائم وآثام ؟!

* *

● النظرية الديمقراطية :

كانت النظرية الديمقراطية - كما قلنا آنفاً - هي « البوابة الواسعة » التي زحف عن طريقها التحول التشريعي ، واستقر في أذهاننا أننا أحرار فيما نمنع وما نبيح ، وأننا مقيّدون بشريعة أحكمها الله الذي يعلم المصلح من المفسد، وصارت المبادىء الديمقراطية هي « الإله المعبود والمطاع » ؟!

وضربنا عرض الحائط بما أنزل الله في كتابه ، واعتدينا اعتداءً صارخاً على حقوق الله علينا وما اختص به نفسه وهو « الحكم » .

﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ، يَقُصُّ الحَقَّ ، وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ ﴾ (١) فجعلنا الحكم للديمقراطية ، وجعلناها « خير الفاصلين » ؟! وقد غاب عنا أمر في غاية الأهمية والخطورة ، وهو التفرقة بين الدستور الذي يجب أن تخضع له الأمة بلا نزاع . وبين الجهاز البَشرى الذي يتولى تطبيق ذلك الدستور بلا نزاع كذلك .

فالدستور الواجب على الأمة تطبيقه هو شريعة الله فهي ملزمة باتباع هذه الشريعة قولاً واحداً . والسيادة في هذا الجانب لله لا للأمة ، ولا للشعب . ولا يصح أن يقال فيه إن الأمة هي مصدر السُلطات . فهذا القول لم يأذن الله به .

أما الجانب الثاني ، وهو الجهاز البَشرى الذي يتولى تطبيق ذلك الدستور ، ويسوس الرعية على هداه . فهذا فعلاً من اختصاص الأمة ، فهي تختار لهذا الأمر أصلح أبنائها للقيام به . ولها الحق في عزلهم إذا لم يلتزموا به وتولية

---

(١) الأنعام : ٥٧

غيرهم من أهل العلم والصلاح المؤهلين للقيادة والتوجيه . وهنا يصح أن يقال : إن الأمة مصدر السُلطات . وبهذا يفارق نظام الحكم فى الإسلام الأسس والمبادىء الديمقرطية الوضعية ؟!

ولكننا تنكبنا الصراط وخلطنا بين الأمرين وزعمنا أن الأمر كله لنا ، فاستبحنا لأنفسنا حق التشريع المخالف لشريعة اللّه . وهذه هى كارثة الكوارث التى حلّت بالمسلمين من جرَّاء التقليد الأعمى لحضارة الغرب .

* *

● غفلة خاصة :

ويلوح لنا الآن أن الناس وقعوا فى غفلتين إحداهما خاصة بالمسلمين ، والأخرى عامة .

أما الغفلة الخاصة بالمسلمين فهى عدم إدراكهم لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة تُلزم المسلمين بطاعة اللّه وطاعة رسوله طاعة مطلقة من كل قيد . ثم تُلزمهم بطاعة أولى الأمر إذا التزموا بما أنزل اللّه وبما بيَّن رسوله . وهذا يُفهم من أن القرآن أظهر طاعة الرسول عقيب طاعة اللّه . أما أولوا الأمر فلم يُفْرِد طاعتهم إفراداً وإنما طوى ذكرها لتندرج فى طاعة اللّه وطاعة رسوله . هذا قيد أول فى طاعة أولى الأمر .

أما القيد الثانى فهى طاعة مقيَّدة بقوله تعالى : ﴿ مِنكُمْ ﴾ أى منكم أنتم أيها المؤمنون المُنادَوْن بقوله تعالى فى صدر الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ... ﴾ .

---

(١) النساء : ٥٩

ومعنى هذا أن أولى الأمر تجب طاعتهم بالشروط الآتية :

١ - أن يتحقق فيهم وصف الإيمان بالله وبما أنزل .

٢ - أن يكونوا طائعين لله ولرسوله لا مجرد مؤمنين .

٣ - أن يكونوا فعلاً من جماعة المؤمنين لا من غيرهم ، فولاية غير المؤمن على المؤمن باطلة ، وإذا حدثت فعلاً فلا تجوز طاعتهم فضلاً عن وجوبها .

أقول : غفل المسلمون عن هذه الحقائق حين خضعوا لولاية الأجنبى عنهم . ثم حين احتكموا إلى قوانين فرنسا وبريطانيا ، وظل العمل بها سارياً حتى بعد رحيل الاستعمار عن بلادهم . ثم عطّلوا كتاب الله وسُنَّة رسوله فمحوا شطر الرسالة ، وقَصَّرُوا أيَّما تقصير فى شطرها الآخر .

هذه هى الغفلة التى وقع فيها المسلمون . ثم استمرأوها واستعذبوا مذاقها وهى السم الزعاف . فكان جزاؤهم جزاءً وفاقاً . هواناً على أنفسهم وعلى الناس . وضياعاً فى أوطانهم وخارجها .

﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (١) فالهوان الذى يمرح فيه المسلمون الآن ، ويسبحون إنما هو إصابة من الله لهم ببعض ذنوبهم . هذا جزاؤهم فى الدنيا . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) المائدة : ٤٩ — (٢) طه : ١٢٧

● الغفلة العامة :

من المعروف أن مصطلح الديمقراطية الذائع الصيت الآن مصدره الأصيل هو الفكر اليونانى القديم ، ولا يكاد كاتب الآن يتعرض لنشأة الديمقراطية فى العصور الحديثة إلا ويرجعها إلى ذلك الأصل .

ومعلوم - كذلك - أن الفلسفة اليونانية القديمة التى أُخذ عنها هذا المصطلح كانت فلسفة وثنية مشوهة ، تقوم على مبدأ تعدد الآلهة ، بل بَشريتهم ؟! كل إله ينتمى إلى أسرة من الآلهة وتتوالد منه هو آلهة أخرى . والآلهة عندهم درجات . فيهم الإله الكامل ، وفيهم أنصاف الآلهة وهم - أعنى آلهة اليونان القدماء - يتصارعون ويبغض بعضهم بعضاً ، ويخدع الإله منهم مَن يريد خداعه ، ولهم عشيقات يرتكبون معهن المنكر .

فسيد الآلهة عندهم - چوبيتر - إذا أراد أن يستمتع بواحدة من عشيقاته ، فإنه يخدع زوجته « هيرة » ويرسل عليها الغمام حتى لا تفاجئه مع تلك « الحظية » وهما فى وضع مشين ؟!

كما كان « چوبيتر » - هذا - يكره إله الطب « استولاب » لأنه يداوى المرضى فيحرم « چوبيتر » من تحصيل الضرائب على الموتى ؟! [1] .

ولما اهتدت تلك الفلسفة فى أحد أطوارها إلى عقيدة التوحيد ، وآمن بعض فلاسفتها بعقيدة الإله الواحد جاءت بعض تصوراتهم الفلسفية حول عقيدة التوحيد مثيرة للضحك ، فهذا « أرسطو » المسمى بـ « المعلم الأول » فى تاريخ الفلسفة والمعرفة ينفى عن « الله » صفتى العلم والإرادة ، فالله عنده لا يعلم الجزئيات ولا الكليات ؟! بل لا يعلم نفسه ؟! وليست له إرادة ؟؟ وكان هدف « أرسطو » من هذا أن ينزِّه الله من النقائص فرماه بأشنع النقائص ؟!

وإذا أردتَ نموذجاً آخر من تلك الفلسفة فاقرأ جمهورية « أفلاطون » أحد

---

(١) انظر الأديان القديمة فى الشرق ، للأستاذ الدكتور رءوف شلبى طبع دار الشرق - ص٣٣ .

فلاسفة اليونان الكبار ، فسترى فيها العجب العاجب من الفكر والتصورات : مثل شيوعية « الفروج » والتناسل بين الطبقة الحاكمة أو التى ستؤهل للحكم . وتصور هذا « الأفلاطون » أن حكام الشعوب حين لا يعرفون لهم آباء معينين ، ولا أمهات معينات ، يعدلون فى الحكم ويسوون بين الرعية ، لفراغ أنفسهم من التعصب لقوم أو عشيرة أو أقرباء ، هذه الملامح الموجزة عن الفلسفة اليونانية القديمة تريك إلى أى مدى كانت تلك الفلسفة تهيم فى الضلال والتضليل من حيث أرادت الإصلاح أو لم ترد .

ومعنى هذا أن اليونان فى ذلك الوقت لم يكن بين أيديهم كتاب منزّل ، ولا رسالة هادية . بل كانوا فى جاهلية جهلاء . فإذا وضعنا الديمقراطية المأخوذة عنهم تحت هذه المقاييس أدركنا أن القوم اجتهدوا ما وسعهم الجهد لوضع نظام يقربهم إلى العدل ويجنبهم الظلم والاستبداد . ولم يكن لديهم – بل لم يعرفوا قط – كتاباً معصوماً يهديهم سواء السبيل .

ولنا أن نتساءل – بناء على ما تقدم – : هل للناس وقد بعث الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس بالحق ، هل لهم أن ينتكسوا إلى الوراء ، وتسيطر عليهم قِيَم ومبادىء أرضية كان مبتدعوها فى حاجة إليها ، ثم زالت تلك الحاجة بعد رسالات الهدى والنور ؟! ألستَ معى أن هذه غفلة لم يسلم منها شرق ولا غرب .

وإذا كانت أوروبا لم تكن تمتلك كتاباً سماوياً مصوناً من الخلط والتحريف يبيِّن لها حدود ما أنزل الله فاستلهمت فكر اليونان وحضارتهم فى الفقه الدستورى كما استلهمته فى مجالات أخرى لا حصر لها فى نهضتها المعاصرة . فما بال المسلمين وقد كفاهم الله بالإسلام ، وهداهم إلى طرق السعادتين فى الدنيا والآخرة ، ما بالهم يشعلون أعواد الثقاب ليستضيئوا بها وشمس الهدى ساطعة فى سمائهم ، لم يحل بينهم وبينها ضباب ، ولم تحجبها غيوم ؟! أجل إن فى كتاب الله وسُنَّة رسوله غنىً وأى غنى . هو كما قال الشاعر الحكيم :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله   جاء الصباح : فأطفأ القنديلا

* *

● كليات الحقوق :

ومن التعتيم المتعمد ضد شريعة الله ، ومن الآثار الواضحة لاعتناق الفكر الديمقراطى بشقيه :

* بشرية التشريع والتقنين . وهذا باطل شرعاً وإيماناً .

* وبشرية الإدارة الحاكمة . وهذا جائز شرعاً وإيماناً ، بل هو واجب بشروطه .

من التعتيم والآثار المشار إليها قيام كليات الحقوق فى العالم الإسلامى .

فهى من جهة أقيمت لتزاحم شريعة الله ، وقد كان ذلك فعلاً . ومن جهة قامت كليات الحقوق بمثابة أنهار يتدفق فيها الفكر البَشرى ، من كل مِلّة ، فى مجال التشريعات والتقنينات الوضعية بدوافع ذاتية من النظم الحاكمة فى العالم الإسلامى ؟!

الشغل الشاغل فى كليات الحقوق لمنسوبيها - أساتذة وطلاباً - هو درس القوانين الوضعية البشرية ، عامها وخاصها ، قديمها وحديثها ، جنائيها ومدنيها . إنها أوكار أو قلاع لتشريعات البَشر . أما التشريع الإسلامى فيحتل منها زاوية ضيقة لدراسة فقه الأسرة المسمى الآن بـ « الأحوال الشخصية » تزويجاً وتطليقاً ونفقة وحضانة وإرثاً . أما أقسام التشريع الجنائى والمدنى بفروعه المختلفة فلا وجود له فيها . وإن شئت فاعمد إلى أى كتاب يدرسه طلاب الحقوق ، فإنك ستراه مشحوناً بالنظريات والآراء والشروح لرجال القانون من شتَّى أنحاء العالم . دراسة القوانين العالَمية نوع من الثقافة العالمية . فلو كان غرضنا من تدريسها ودراستها هو مجرد الإلمام بها ، والاستفادة منها فيما لم يصطدم بنظمنا الإسلامية لما كان فى ذلك غضاضة ، ولكننا نعكف عليها لأنها النظام المعمول به على امتداد البلاد خارج نطاق أروقة الجامعة ومدرجاتها .

ومنها يتخرج رجال القضاء والنيابة والمحاماة ، الذين يتولون الفصل فى الخصومات والإعداد لذلك الفصل ثم الترافع والدفاع والوكالة عن المتنازعين أو المتهمين ، ورحم الله الإمام عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق ، فهو الرجل الوحيد من رجال الأزهر الذى كان يدعو إلى إلغاء كليات الحقوق ، على أن تقوم مقامها كليات للشريعة . وقد اتخذ بعضنا من دعوة الشيخ - رحمه الله - وسيلة للتندر بالفكر العقيم الرجعى ؟!

وليس هذا بغريب على مجتمع عمل فيه الاستعمار على محاربة الإسلام وخطَّط فيه لتعليم يُحَوِّل عقول المصريين إلى عقول أوروبية تحملها رءوس مصرية ؟!

* *

● أكاديمية الشرطة :

وإلى جانب كليات الحقوق أنشئت قلعة أخرى لرعاية التشريع الوضعى وحمل الناس عليه ، وهى أكاديمية الشرطة التى يتخرج منها ضباط الشرطة ، جنود وزراء الداخلية فى أقسامها ونقطها . إن لُحمة وسُدى هذه القلاع هو التشريع الوضعى . أما شريعة الله فلها الفتات نظرياً وعملياً .

* *

● شريعة واحدة ، وحقوق ثلاث :

وقبل تطوير الأزهر الأخير كان فى البلاد كلية واحدة للشريعة ، وفى نفس الوقت كان فيها ثلاث كليات للحقوق هى كليات جامعة القاهرة ، وعين شمس ، والإسكندرية ، مع تزايد تعداد الطلاَّب فى أية كلية للحقوق على طلاَّب كلية الشريعة . وهذا طبعاً ناشىء عن حاجة البلاد . فما قَلَّت حاجة البلاد إليه ،

وهى الشريعة الإسلامية : قلَّت الأرصدة المدخرة له . وما كثُرت حاجات البلاد إليه ، وهى التشريعات الوضعية الوافدة ، كَثُرت الروافد التى تفى بحاجات البلاد فيه .

ولما طُوِّر الأزهر كان من خطط التطوير أن يغزو القانون الوضعى كلية الشريعة ، ولم يؤذن للشريعة أن تنير كليات القانون الوضعى ؟!

تُرى : هل تم ذلك بحسن نيَّة - نرجو - أم هو أمر دُبِّر بليل كما يقول المثل .. ؟!

* * *

الفصل الحادى والعشرون

فى الثقافة والأدب والفن

من أول ما عرفناه من حضارة أوروبا ، وأوليناه اهتماماً بالغاً من جانبنا هو هذه الثلاثة : الثقافة بوجه عام ، ثم الآداب ، والفنون .

وسبق أن قلنا إن العلم عام لا وطن له . أما الثقافة والأدب والفن فأمور خاصة تختلف باختلاف البيئات ، ومقوِّمات البيئة - كما نعلم - هى : مكان محدد ، وزمن ، وجنس ، وقِيَم تشيع بين أفراد ذلك الجنس والبيئة بهذا التحديد هى التى تكوِّن الثقافة والأدب والفن وتلوِّن كُلاً منها بلون خاص أو محلى محدود .

وقد أريد لنا أن تكون صلتنا بأوروبا محصورة فى هذه الأمور ، وثقافة أوروبا وأدبها وفنها هى مصادر الضرر والفساد أو الإفساد ، أما علمها فيما يتصل بضروريات الحياة فقد ضنَّت به علينا كل الضن ، ففتحت أبواب جامعاتها وكلياتها النظرية أمام المبعوثين من طلأبنا ، أما كلياتها العملية التى هى أساس النهضة الحقيقية ، وسر تقدمها الصناعى الهائل ، فقد ظلت ، ولعلها لا تزال ، حصوناً منيعة أمام الطلأب العرب والمسلمين ، وإن تساهلت معنا فى قدر منها - فهو تساهل الحذر الحريص ، وفى كلا المعسكرين الأوروبيين - الشرقى الشيوعى ، والغربى الصليبى الرأسمالى - أسرار علمية يخفيها كل عن الآخر ، ثم يخفيانها معاً أمام العالم الإسلامى ، ليظل قابعاً فى تلك التبعية ، كما يظل

سوقاً لما ينتجه ذلك المعسكر أو ذاك ، متخلفاً أشل اليدين والعالم من حوله يتنافس فى علوم البر والبحر والفضاء ؟!

أما الثقافة حلوها ومرها ، والأدب سمينه وهزيله ، والفن جَادُّه ومسُفَّه ، فهى أنهار تجرى فى الساحات الإسلامية نكرع منها كرعاً حتى الثمالة .

حجزوا عنا ما نحن فى حاجة إليه ؟! وهذه محنة .

وأغدقوا علينا ما نحن أشد الناس غنىً عنه ؟! وهذه كارثة خطة محكمة . وأمر مدبَّر ، وتنفيذ منظَّم ، وإصرار من جانب الخصوم عنيد ؟!

إنك لا تجد فى العالم الإسلامى الآن علماء نبغوا فى علوم الغرب فى شتَّى فروعها الحديثة . ثم عادوا فاستثمروا ذلك العلم وأغنوا قومهم من ذل السؤال ، وفكوا أعناقهم من ربق الأسر ، وفى نفس الوقت تجد المئات ، بل الآلاف ممن درسوا الحقوق أو الأدب أو الفلسفة ومقارنة الأديان أو حتى اللغة وفقهها وأصولها وعلم الاجتماع و « علم الافتراق » ؟! وهَلُمَ جراً .

ثم انظر إلى ما غمر المكتبات العامة والخاصة من الكتب المترجمة فى الفروع المتقدمة ، وإذا فتحتَ كتاباً منها فإنك لا تجد صفحة واحد تخلو من عدة أسماء من الأجانب ، ولا تكاد تعثر على اسم واحد لعالِم عربى مسلم فى حركة الفكر المعاصر والكتب التى وُضعت فيه . لقد وقف دورنا عند الترجمة والنقل ، والتعريب والتعليق ، وكادت العقول تجمد ، والقرائح تجف ، والفاقة تزداد .

نستورد الأفكار والقيَم والمبادىء ، كما نستورد الأجهزة والطعام والسلاح ، وأمة هذا شأنها من التبعية والتقليد لا يحترمها صديق ، ولا يخشى بأسها عدو .

* *

● نموذجان لتسرب الثقافة الغربية :

تتبع المنافذ التى تسربت منها الثقافة الغربية إلى مصر - باعتبارها بلداً إسلامياً ذا خطر - لا يمكن إحصاؤها ، فما علينا - إذن - إلا التمثيل .

وأمامنا الآن نموذجان ترجما إلى اللغة العربية بمعرفة الإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية فيما بين عامى (١٩٤٦ - ١٩٥٦) حين كان رئيسها الدكتور طه حسين (ابن السوربون الفرنسية) . وقد تم ترجمة وطبع أحد هذين النموذجين بتوجيه من السفارة الأمريكية بالقاهرة ، بناء على استشارة مقدّمة إليها من الإدارة المذكورة تطلب فيها من السفارة (إياها) هدايتها إلى الكتب التى ينبغى تعريبها لما فيه مصلحة الجامعة العربية والدول التى تمثلها ؟!

وتم طبع الكتاب الثانى بعد تعريبه بتوجيه من هيئة اليونسكو رداً على استشارة مماثلة من إدارة الثقافة بجامعة الدول العربية كذلك ؟!

*

● قصة الحضارة :

هذا هو الكتاب الذى أشارت به هيئة اليونسكو على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية أن تترجمه وتطبعه ، ومؤلفه « ول ديورانت » الأمريكى من أصل يهودى . والكتاب ليس عادياً مكوناً من مجلد أو مجلدين أو خمسة مجلدات ، بل هو كتاب ضخم جداً بلغ الذى ترجم وطبع منه حتى الآن - فبراير ١٩٩٠ - اثنين وثلاثين جزءاً موزعة على ستة عشر مجلداً ، والجزء الواحد لا يقل عن أربعمائة صفحة ، ولا شك أن تكاليف التعريب والطبع كانت باهظة ، أما موضوعات الكتاب إلماماً فنشير إلى بعضها فى الآتى :

* الحديث عن تاريخ الحضارة القديمة (الهندية - اليونانية - الرومانية) .
* الحديث عن اليهودية وتاريخها القديم والحديث .
* الحديث عن المسيحية وتاريخها القديم والحديث .
* الحديث عن الإسلام وتاريخه القديم والحديث .

وفى حديثه عن اليهود - تاريخاً وحضارة وديناً - يتحدث عنهم فى أسلوب يثير الشفقة عليهم وأنهم مظلومون مضطهدون ؟! وفى حديثه عن المسيحية يغمز ويهمز . ويسىء إلى نبى الله عيسى عليه السلام . بل يتشكك فى وجوده

التاريخى ويلوِّح بأنه شخصية خرافية لم يكن لها وجود فى التاريخ ، وفى هذا إساءة بالغة للمسيحية والإسلام معاً . فقد ورد ذكر السيد المسيح عليه السلام فى القرآن مرات ، كما ورد فى الأحاديث النبوية .. فإذا كان « خرافة » ؟! فإن حديث القرآن عنه خرافة كذلك ومثله الأحاديث ؟

ويعرض « ول ديورانت » تاريخ الإسلام القديم والوسيط بروح حاقدة ويصوِّر المسلمين بأنهم وحوش متبربرون ، وأنهم أعداء الحضارات ، ويتخذ من فتح المسلمين للهند منفذاً للتجريح والطعن ، أما رسول الإسلام محمد ﷺ فقد صوَّره هذا الملعون فى صورة كريهة منفرة تطبعه بطابع الحقد وتتنافى مع جلال الرسالة ووقائع سيرته العطرة ؟!

كما تعرَّض لتاريخ دولة الخلافة وصراعاتها مع الغرب بروح تكشف عن أحقاده الصهيونية وتتفق مع المبادىء المعلنة فى « بروتوكولات حكماء صهيون » وكتاب « قصة الحضارة » لو لم يكن فيه إلا ضياع المال والوقت والجهد لكفى به ضرراً ، فكيف يكون الحال إذا كان هذا الكتاب يهدم الدين والخُلُق ، ويشوِّه تاريخ الأمة وأعلامها . وفى مقدمتهم خاتم المرسلين ؟!

*

● مقالات أمرسون :

والكتاب الثانى الذى ترجمته وطبعته إدارة الثقافة بالجامعة العربية أيام كان رئيسها الدكتور طه حسين هو كتاب يشمل عدة مقالات للكاتب الأمريكى « أمرسون » ، وهو يهودى الأصل كذلك ؟ ترجمته الإدارة وطبعته بتوجيه من السفارة الأمريكية بالقاهرة ، و « أمرسون » هذا قد حرص مثل « ول ديورانت » على الثناء على اليهود وتاريخهم . أما المسيحية والإسلام فلم يُقم لهما وزناً . وأراك الآن تسأل سؤالاً ، وأرى أن تقديم الإجابة أولى من الحديث عن مقالات « أمرسون » . والسؤال : إذا كان كل من « ول ديورانت » و « أمرسون »

لا يقيمان وزناً للمسيحية فكيف أذنت هيئة اليونسكو والسفارة الأمريكية بترجمتهما ونشرهما ؟!

والجواب : من المعلومات البدهية أن اليهود فى أمريكا ، وفى جميع المؤسسات العلمية والإعلامية والثقافية فى أوروبا تسيطر عليها رءوس وعقول يهودية . بل إن رياسة الولايات المتحدة الأمريكية قد تولاها العديد من الأمريكيين من أصل يهودى . واليهود فى الغرب - بوجه عام - يمتلكون بيوت المال منذ عهد بعيد . وهذا يمكنهم من تأدية أهداف الصهيونية العالمية بكل فعالية وهدوء . ولا ننسى - إن نسينا شيئاً - أن عدد الناخبين اليهود فى عواصم الغرب - وبخاصة أمريكا - له تأثير كبير فى نجاح المرشحين للمناصب العليا وفى سقوطهم ، أضف إلى هذا عنصراً مهماً جداً . وهو أن هذه الكتب قرئت فى الغرب بلغاتها الأصلية وأفسدت ما أفسدت . فما الذى تخشاه أمريكا على المسيحية من ترجمتها إلى اللغة العربية . بل إن الترجمة إلى العربية بعد أن ثبت ضرر تلك الكتب من أحب الأمور إلى أمريكا وغيرها لتفسد المسلمين كما أفسدت غيرهم ، وكأن أمريكا وهيئة اليونسكو كانتا تردان المثل المعروف عالمياً : « علىَّ وعلى أعدائى » ؟!

*　*

● عودة لأمرسون :

أما مقالات « أمرسون » فهى شديدة الخطر . فهو يزعم أن ظاهرة الوحى لم تزل قائمة ، وأن الرسالات السماوية لم تقف عند عيسى عليه السلام ، ولا عند خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم . يقول ذلك الرجل الخبيث : « ومن واجبى أن أقول لكم : إن الحاجة إلى إلهام جديد (يعنى الوحى) لم تكن فى أى وقت أشد مما هى عليه الآن »(١) .

ويقول : « إن جمود الدين ، والزعم بأن عصر الإلهام قد ولّى ، وأن الإنجيل قد استغلق ، والخوف من الحط من شخصية المسيح بتمثيله فى صورة رجل ،

(١) صفحة ٧٥

كل ذلك يدل فى وضوح كاف على خطأ علمنا بالدين [1] . وواجب على العالم الصادق أن يرينا أن الله كائن اليوم ، لا كان فى ما مضى ، وأنه يتكلم لا تكلم وانتهى » [2] (؟!) .

ويقول : « إنى أنصحكم أن تسيروا وحدكم ، وأن ترفضوا النماذج الطيبة » (؟!) .

ومعنى هذا أن « أمرسون » يدعو إلى الحرية المطلقة . فيدعو قرّاء مقالاته أن يفكوا رقابهم من أى توجيه يأتى من خارج أنفسهم ، والمقصود - هنا - القِيَم الدينية ، والأخلاق الحميدة ، إذ هى التى قصدها بـ « النماذج الطيبة » ؟! ويدلك على هذا قوله : « حتى تلك التى يقدسها الناس فى خيالهم » وكلمة : « فى خيالهم » لها معنى ماكر . أى أن قِيَم الدين ، والأسس التى تقوم عليها النماذج الطيبة (الأخلاق الفاضلة) إنما هى مجرد خيال لا حقيقة لها ؟!

ويقول : « كل منكم منشد من منشدى الروح القدس ، ولد حديثاً ، فلينبذ وراءه كل تقليد ، وليعرِّف الناس مباشرة بالله » [3] (؟!) .

أى أن كل إنسان رسول يُشرِّع لنفسه شرعاً حديثاً . فلا يكون عبداً للتقاليد مهما كان مصدرها ، وكانت قيمتها ؟!

* *

● تزيين التمرد على المألوف :

ويتطاول هذا « الشيطان الأمرسونى » فيزين للشباب التمرد على المألوف والضوابط أياً كانت ، فاسمع إليه : « إن الثبات على رأى واحد هو غول العقول الصغيرة (؟!) الذى يقدسه صغار السياسيين والفلاسفة ورجال الدين (؟!) أما الروح العظيمة ، فليس لها البتة شأن بهذا الثبات ، وإلا فإنها تأبه لظلها فوق الحائط (؟!) .

---

(١) المسيحيون لا يتحرجون من تمثيل أو تصوير المسيح رجلاً . وهذا معناه أن « أمرسون » يقصد المسلمين الذين يصونون جميع الأنبياء من العبث .

(٢) صفحة ٨٣ (٣) صفحة ٨٥

انطلق بما تفكر فيه الآن بألفاظ قوية ، وانطلق بما تفكر فيه غداً بألفاظ قوية كذلك حتى إن ناقض ما قلته اليوم (؟!) .

.. وثق أنك سيساء فهمك . وهل من شر الأمور أن يساء فهمك ؟! لقد أسيء فهم فيثاغورس ، وكذلك سقراط ويسوع وكوبرنيكس وجاليليلو ونيوتن ، وكل روح طاهرة تجسدت ، لكى تكون عظيماً لا بد أن يُساء فهمك » (؟!) (١) .

لا أراك - عزيزى القارىء - فى حاجة إلى شرح هذه السموم ، والدعوة إلى الإباحية والتمرد على كل نظام . ولكن الذى أراك فى حاجة إليه هو أن تتساءل معى : ماذا قدَّم الدكتور طه حسين فى ترجمة هذا الكتاب ونشره بالعربية ؟ ماذا قدَّم للأمة إلا الضلال والتضليل ؟! وإلا الفساد والإفساد ؟!

* * *

● المفسدون آلهة ؟!

ويمضى ذلكم اللعين فى التحريض على التمرد ، ويقول للقراء ، أو الشباب :

« إن مَن ينبذ الدوافع العامة للإنسانية ، ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لا بد أن يتميز ببعض صفات الآلهة » (؟!) (٢) .

يعنى أن الذى يهدم النظام الإنسانى مطلقاً ، ويثق كل الثقة بهواجس نفسه ليس إنساناً عادياً ، وإنما هو إنسان قد حلَّت فيه بعض صفات الآلهة ؟!

وتأمل كلمة « الآلهة » تجد المؤلف (الملعون) يرى أن الكون فيه جيش من الآلهة وليس إله واحد ؟!

والكتاب مشحون بالسخرية من العقائد والقِيَم الدينية ؛ فالصلاة عند المؤلف

---

(١) صفحة ١٣٩ (٢) صفحة ١٥٤

وَهْمٌ (١) ، والتوبة والندم نقص فى الاعتماد على النفس ، وعجز فى قوة الإرادة (٢) ، والعقائد الدينية تفوّقت على الخرافات (٣) .

أجل .. لقد أجرم الدكتور طه حسين فى حق الدين والوطن والأمة . وأحبَّ أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، ولم يقف ضرره عند ترجمة الكتابين المذكورين ، بل كان سبباً - وبإيعاز من السفارة الأمريكية كذلك - فى ترجمة كتابين آخرين هما : « الثقافة والحرية » لجون ديوى الذى أفسد الأمريكيين وغيرهم . و« انتصار الحضارة » لبرستد . وكلاهما يدعوان إلى التمرد ويحرضان على الفساد والإفساد ؟!

ألم يكن الأزهر على حق حين تنبأ بخطر فكر طه حسين فضنَّ عليه بشهادة « العالمية » حتى لا تكون سلاحاً فى يده يحارب به الإسلام ؟ ولا أجد ما أصف به آثار طه حسين فى فكره ، وفى ما نقله لنا من سموم الغرب ، لا أجد وصفاً يليق به إلا أن أقول : إن طه حسين كان من الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، وأحلّوا قومهم دار البوار (؟!) .

* *

● الأدب :

أما فى الأدب ، فحدِّث ولا حَرَج . فقد خطونا فيه كل خطوة خطتها أوروبا : فيما يصلح وما لا يصلح . ثم تفوقنا عليها فيما لا يصلح . وما الذى يمنع والدكتور طه حسين نادى فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » عام ١٩٣٨ بالإقبال الأعمى على حضارة الغرب ، والأدب من أعظم روافد الثقافة وأخطرها ؟ نادى « عميد الأدب » نداء « عديم الأدب » بنقل الحضارة الغربية : حلوها ومرها ، جادها وهازلها ، ما يباح منها وما لا يباح . ونضع بين يدى القارىء نص كلام عميد الأدب الدكتور طه حسين حتى لا يظن ظان أننا نتجنى على

---

(١) صفحة ١٣٩ (٢) صفحة ١٥٧ (٣) صفحة ١٧٣

الرجل ، أو نبالغ فى قوله . يقول العميد وهو يرسم خطة النهوض لمصر ، ولشباب مصر الذين قد كتب من أجلهم كتابه المذكور كما قال هو فى المقدمة . ورسم خطة النهوض والإصلاح فى واحدة فذة - كما يقول - ليس لها تعدد ، فما هى تلك الواحدة الفذة يا تُرى ؟ إليك قول العميد :

« هى أن نسير سيرة الأوروبيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة : « خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحَب منها وما يُكرَه ، وما يُحمَد منها وما يُذَم » [1] (؟!) .

كلام العميد هذا دليل قاطع على تعمده إفساد الشباب ، وتخريب العقيدة ، وتدمير الخُلُق بما سبق الحديث عنه من كتابى « ول ديورانت » و« أمرسون » ، أنه لم يكن فى غفلة عما فيهما ، ولكن مذهب الذى سلّطه الله على شأن من أخطر شئون مصر ، أن مذهبه هو التمرد والعصيان ، والإساءة إلى عقيدتها ودينها وتدمير الخُلُق الطيب فيها . وسيأتى لهذا تفصيل آخر . أما الآن فنعود إلى حديث عن الأدب وتأثره بمذاهب الأدب فى الغرب بل التقليد الأعمى له :

كان الأدب الغربى - وما يزال - أدباً علمانياً صرفاً . يعنى أنه لا يخضع لعقيدة ، ولا يقيم وزناً لما هو حق أو صواب ولا يراعى نظماً ولا أخلاقاً ولا تقاليد . أدب متحرر من كل القِيَم والضوابط ، وقد مَرَّ ذلك الأدب الأوروبى بثلاث مراحل متميزة ، كما مَرَّ تاريخ أوروبا نفسه بثلاث مراحل متميزة : « الدين » الذى انتقل منه إلى « العقل » أو عصر التنوير كما يسمونه ، وهو عصر كان العقل فيه هو « الإله » ثم انتقل من العقل إلى « العلمانية » التى فرضت سلطانها على أوروبا بقيام الثورة الفرنسية ، ومعنى العلمانية هى إحلال العلم التجريبى المادى محل « الإيمان بالله » وهى التى تسيطر على الغرب والشرق الأوروبى الآن .

---

(١) صفحة ٥٤

والمراحل التى مَرَّ بها الأدب الغربى شبيهة بما مَرَّ به تاريخها العام ..

المرحلة الأولى : هى الكلاسيكية ، وكان الأدب فيها مرتبطاً بالحياة وذا قيمة نفعية ، وبعيداً عن الإسراف فى الأحلام والرؤى الخادعة ، فهو أدب واقعى ملتزم .

المرحلة الثانية : النيوكلاسيكية ، وقد تخفف الأدب فيها من بعض ضوابط « الكلاسيكية الحازمة » ، وحلّت محله الكلاسيكية الجديدة .

أما المرحلة الثالثة : فهى الرومانتيكية . وهى مذهب فى الأدب يقوم على الثورة والتمرد ، وتحطيم قواعد العقل فيما يقال من نماذج أدبية . وإذا كانت الكلاسيكية ترى أن الأدب - أو الفن - للحياة ، فإن الرومانتيكية تذهب إلى أن الفن للفن ، يعنى للمتعة وليس له قيمة نفعية ، وقد أحلّت الرومانتيكية الخيال محل العقل فى المذهب الكلاسيكى ، ودعت إلى الحرية الفردية والانطلاق فى التصور والتصوير بلا قيود ولا حدود ولا ضوابط . ومن الدعاة الرواد لهذا المذهب « چان چاك روسو » و « ڤولتير » وكانا ملحدين وكثيراً ما كانا يسخران من عقيدة الإيمان بالله خلال القرن الثامن عشر . وهما اللذان مهّدا لتحول الأدب من الكلاسيكية أو الالتزام والواقعية إلى الرومانتيكية أو تحطيم قواعد العقل ، والنظام والاعتداد بالحرية الفردية ، وإحلال الخيال الجامح محل العقل وواقعيته ، والمذهب الرومانتيكى فى الأدب شبيه بالمذهب الذى ذهبته الثورة الفرنسية فى الحكم والسياسة . يقول « ڤيكتور هيجو » رائد الرومانسية فى تعريفه لها : « الرومانتيكية هى مبادىء الثورة الفرنسية سارية فى الأدب » .

وبقيام الرومانسية ومواراة الكلاسيكية انفرط عقد الالتزام فى الآداب الغربية ، وتشققت مذاهبه واتجاهاته ، وتعددت طرائقه وأذواقه .

* *

● ما الذى أفدناه نحن ؟

إذا كانت الرومانسية تقوم على مبدأين كبيرين أحدهما خارجى - إن صح هذا التعبير - وهو تحطيم قواعد الواقع .. ثم الإبداع فى صنع النماذج الأدبية ، وهو المبدأ الداخلى قياساً على ما تقدَّم . فإن الذى أفدناه نحن من الآداب الغربية هو التمرد والتملص من الواقع . أما مبدأ الإبداع فقد خلا منه نتاجنا الأدبى إلا النادر ، أى أننا أخذنا عن الحضارة الغربية مرهاً وصابها وعلقمها ، وأدرنا ظهورنا للجانب الجاد منها . ونادى الكثيرون منا ، وما يزالون ينادون ، بتحرير الأدب من كل القواعد والأصول ، حتى الدين نفسه قلنا إنه لا سلطان له على الأدب ولا على الأديب .

والمتمردون من النقاد والأدباء العرب المعاصرين ، الذين فَتِنوا بالرومانسية فى جانبها الخارجى (عدم الالتزام) مقرُّون بأن النتاج الأدبى المعاصر خال من الإبداع ، ولهم فى تحليل هذه الظاهرة عجائب ومضحكات ؛ إذ يُرجعون السبب فيها إلى أن الدين - ويقصدون به الإسلام - هو الذى قتل المواهب والملكات المبدعة فى الأديب بقواعده وقيوده الصارمة ؟!

ويتطاول بعضهم - أدونيس - فيقول إن القرآن نفسه إبداع ، وكذلك السُنَّة ؟ والإبداع القرآنى والنبوى أوصدا الطريق أمام الإبداع الأدبى ، وأوقعا - أى القرآن والحديث - الخوف فى روع الأدباء ، ثم ينتهى « أدونيس » فى مقالات نشرتها له صفحة الحوار القومى بجريدة الأهرام فى أوائل عام ١٩٨٩ انتهى إلى أن الأدباء العرب لن يبدعوا إلا إذا حرروا أفكارهم من التقيد بالدين والنظم السائدة فى المجتمع سواء أكانت اجتماعية أو وطنية أو قومية . أى أن الأدب يكون للأدب لا للحياة ، وهى النزعة الرومانسية - كما تقدم - أو الأدب « اللامعقول » أو « اللاواقع » أو « اللاحياتى » إن صحَّ هذا التعبير .

والواقع أن « أدونيس » ليس أوحدى العصر الذى قال هذا الكلام ولا هو قد سبق غيره فيه .بل كان الدكتور طه حسين هو رائد هذا « الانحراف » فى الربع

الأول من القرن العشرين حين كان مدرساً للآداب فى الجامعة المصرية وهى فى طور النشأة . فقد كان يدعو طلاّب الجامعة إلى التبرؤ من الدين ، ومن كل النظم وهم يبحثون فى تاريخ الأدب ونقده . وأن يصرّحوا بالحقائق سواء أكانت انتصاراً للدين (الإسلام) أو نَعْياً عليه ، ويزعم أن السَلَف من العلماء والنقاد والأدباء قد أفسدوا العلم والنقد والأدب لما امتلأت قلوبهم احتراماً للإسلام وتقديراً له ؟! ثم دعا الطلاّب إلى استخدام مذهب الشك « الديكارتى » فى كل شئ فلا يعتقدون وجود شئ أياً كان إلا إذا قادهم البحث والدرس إلى وجوده ؟ ولذلك ذهب عميد الأدب (؟!) إلى إنكار الشعر الجاهلى وقال : إن السَلَف هم الذين زوّروه ليثبتوا أن القرآن كان عربياً ؟!

بل إن طه حسين نفسه استخدم مذهب الشك الديكارتى خارج نطاق الأدب وتاريخه ونقده . استخدم ذلك المذهب فى القرآن نفسه فقال : « إن ورود الحديث فى القرآن عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لا يكفى لوجودهما التاريخى (؟!) .

وإن هجرة إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة التى ذكرها القرآن ليست واقعة صحيحة ، وإنما هى خرافة كانت شائعة قبل الإسلام أشاعها اليهود . فلما نزل القرآن واحتاج إليها فى خدمة الدعوة سجلها على أنها حقيقة من حقائق التاريخ (؟!!) وصدّقها العرب لأنهم رأوا فيها مصلحة لهم حيث كانوا لا يعلمون لهم جداً ينتسبون إليه ، أو أصلاً سلالياً يُعرفون به (؟!) وهذه القصة المفتراة لصقت نسبهم بإسماعيل بن إبراهيم فرحبوا بها لهذا الاعتبار (؟!) .

هذه الأباطيل « الطاهوية » سجلها صاحبها فى كتاب « فى الشعر الجاهلى » الذى سخطت الأمة عليه وعلى صاحبه عام ١٩٢٦ ثم صدر القرار بمصادرته إلى الأبد .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

المعاصرة .. أو الحداثة

إن الذى أصاب الأدب من جراء المحاكاة والتقليد لحضارة الغرب وآدابه خطر جسيم ، وتتبعه غير مستطاع ، لذلك فإنَّا نكتفى بذكر آفة واحدة قاتلة مُنِيَ بها الأدب العربى المعاصر وهى ما كانت تسمى قبلاً بالمعاصرة ، ثم سميت أخيراً بالحداثة ، وكلتا التسميتين تعنيان دفن التراث وهو حى . وتدعوان إلى تجديد الفكر والأدب والفن ، بل والعقائد والأخلاق والسلوك بما يتفق - على حد زعمهم - مع روح العصر وقيمه . وهم يريدون بقيم العصر ما تعلموه أو « عُلِّمُوه » - بالبناء للمجهول - من فكر الغرب الحديث وحضارته المادية المعادية للدين أياً كان ذلك الدين الذى تعاديه ، وتتمرد عليه بل وتحطمه ؟!

وقد نتج عن هذه الدعوة عدة مخاطر هى الآن آخذة فى التجرؤ والوقاحة السافرة :

١ - من تلك المخاطر أنهم تمردوا أولاً فى مجال الشعر على الشعر الموزون المقفى ، وأحلوا محله ما يسمى الآن : بـ « الشعر الحر » ، وهو عبارة عن صف أسطر تطول وتقصر فى فوضى تدعو للاشمئزاز . وهذا مثال وجيز من شعر صلاح عبد الصبور : ينعى فيه « الحب » وقد رمز إليه بـ « الطفل » على عادة الرمزيين :

« قولى ... أمات ؟
جسِّيه ، جسِّى وجنتيه

هذا البريق .

ما زال ومض منه يفرش مقلتيه ..

ومضى الشعاع بعينه الهدباء ومضته الأخيرة

ثم احترق »

ويمضى صلاح الدين عبد الصبور على هذا المنوال حتى نهاية المقطوعة .

كلام صلاح هذا شبيه بمقطع من قصيدة لڤيكتور هيجو فى وصف مصر ، تجد التشابه كبيراً بين النَظْم الشعرى عندهما ، يقول هيجو :

« مصر الشقراء بسنابلها تنبسط

حقولها الفاتنة كأنها الأردية الفاخرة

يتجاذبها من شمالها جو بارد ، ومن جنوبها رمال حارة

وهى لا تفتأ تبتسم

لهذا النزاع الذى ينشب بينها وبين البحر والصحراء » .

ثم قارن شعرى كل منهما بأبيات لجليلة بنت مر الشيبانى من العصر الجاهلى أخت جساس وزوجة كليب الذى قتله أخوها :

فعل جساس ، على وجدى به قاطع ظهرى ومدنٍ أجلـــى

يا نسائى دونكن اليوم ، قد خصنى الدهر برزء معضـــلِ

خصـــنى قتل كليب بلظـــــى من ورائي ، ولظى مستقبلى

والفرق بين شعرها وشعرهما :

أن شعرها موزون مقفى ذو موسيقى شاجية ناتجة عن الوزن الداخلى للأبيات ، ثم الرنين المكانى للقافية .

أما شعرهما فخال من الوزن والتقفية ، وهو عبارة عن أسطر شبه منثورة .

وترى صلاح عبد الصبور قد تأسى بمناهج الشعر الغربى فخلا شعره من أخص خصائص الشعر العربى الأصيل . ونحا هذا المنحى كثيرون غير صلاح عبد الصبور ، ومن الحق أن يقال : مع خلوه من الوزن والقافية تبدو فيه ملامح الفكرة ظاهرة .

٢ - ومن تلك المخاطر : الغموض الذى يكتنف الفكرة سواء أكانت جزئية أو كلية . فإنك تقرأ ما يسمى بالقصيدة عندهم فلا تفهم معانى جملها ولا معانى هيكلها . بل هى عبارة عن كلمات عربية - رصفت رصفاً غريباً متنافراً - حتى صارت رطانات وطنطنات عابثة . وإليك التمثيل ..

فهذه مقطوعة من قصيدة لحداثية اسمها « هدى الدغنق » تقول فيها :

« لأنى نفيت من الحلم بالأمس
سامرت قيظاً ؟!
وجعاً منح الوقت وقتاً ؟!
واجترى أن به الوسم ؟!
لأنى عاصرتُ حالة دفنى
تجزرتُ بالرمل ؟!
مارستُ توق الخروج عن الخارطة
ولأن الخريف طوى قامتى . ولأن » ؟!

فقل لى بربك : هل فهمتَ شيئاً من هذه الرطانة أو هذه الطنطنة الجوفاء الفارغة ؟!

أنا أشك أن صاحبة هذا الكلام - إن جاز تسمية غير المفيد كلاماً - أشك أنها تفهم شيئاً مما تقول ، فضلاً أن يفهم حداثى آخر غيرها شيئاً مما هرفت به .

٣ - ومن المخاطر أن هؤلاء الحداثيين يسمون هذه الثرثرة أو الإغراب والغموض المتعمد إبداعاً وابتكاراً فى دنيا الأدب . وسمة الإبداع عندهم أن

تخلو « القصيدة » إياها من أى غرض أو معنى ، ويفلسفون هذا « المسخ » بأن القصيدة التى لا يضمنها صاحبها أى غرض أو معنى تظل تنمو وتكبر وتتعدد معانيها « التائهة » بتعدد قرائها ، ولنضرب لذلك مثلاً كلمة «شجرة » إذا وردت فى قصيدة حداثية . فقارىء يفهم منها : بحر ، وآخر يفهم منها : نار ، وثالث يفهم منها : حمار ، ورابع يفهم منها : ثور ؟؟!

وبهذا تفقد اللغة وظيفتها العاقلة وتكتسب وظيفة أخرى هى الجنون والخبل ؟!

يقول أحد الحداثيين العرب فى كتاب له حداثى دعاه : « الكتابة خارج الأقواس » [1] :

« إن ظاهرة الغموض التى من شأنها أن تعد السمة الأولى للقصيدة الجديدة - يعنى الحداثية - نتيجة حتمية أفضت إليها سلسلة من التطورات التى طرأت على العلاقة المتوترة بين الشاعر المبدع ، والقارىء المتلقى ... ومن هنا أصبح من الصعب علينا أن نفهم القصيدة الجديدة بعد أن تخلت من أن يكون لها غرض ما . وأصبحت اللغة فيها لا تشير أو تحيل إلى معنى محدد ، وإنما هى توحى بالمعنى إيحاءً بحيث لا تنتهى القصيدة عند انتهاء الشاعر منها ، وإنما تظل تنمو فى نفس كل قارىء من قرائها ، حتى يوشك أن يصبح لها من المعانى بعدد ما لها من قراء » ؟؟ [2] .

إلى هذا الحد يستخف الحداثيون عقولهم وعقول الناس . وارجع إن شئت لمعانى كلمة « شُجرة » التى ضربنا بها مثلاً للتطور اللغوى عند هؤلاء الحداثيين لتقف على مقدار البله الذى يمسى فيه الحداثيون ويصبحون ؟!

---

(١) يعنى الكتابة الحرة التى لا تخضع لأية قيمة من القيم مهما كان مصدرها . أى التمرد على كل مألوف .

(٢) انظر : الحداثة فى ميزان الإسلام ، ص ٣٩

٤ - ومن أشد المخاطر ضرراً أن هؤلاء الحداثيين بعد تمردهم على الأصول الفنية للأدب ، وعلى الدلالات المحددة للغة فإنهم اتخذوا من الإسلام وقيمه صيداً يوجهون إليه سهامهم الطائشة سافرة حيناً ، ومقنَّعة حيناً آخر ، ولا نكون مجاوزين للحقيقة إذا قلنا: إن الكيد للإسلام هو الغاية عندهم ، وما تقدَّم من مساوئهم وسائل خسيسة للوصول إلى هذه الغاية ؟! وإليك مقتطفات من كلامهم الذى لم يعد يتشح بالرموز ، بل هو ناطق صريح بكل وقاحاتهم .

يقول أحدهم :

« يجب أن نخلع جبة الأصول ، وقلنسوة الوعظ ، لنترك للشاعر حرية مساءلة النص ، ونقض الماضى وتجاربه ، ولنترك لأنفسنا فسحة لنصغى لتجربته الجديدة ، وما تقترحه من أسئلة . وليس هذا من حق الشاعر فحسب ، ولكنه حق حياتنا المعاصرة علينا » [1] .

هذا الكلام يحمل شحنة من التمرد يزعمون أنها وظيفة الأديب والأدب الآن . بل إنهم يزعمون أن هذا التمرد لا ينبغى أن يُحصر فى مجال الأدب . ولكنه رسالة العصر سواء أكان المتمرد أديباً أو غير أديب .

وكلمات « الماضى والتراث ، وسلطان التاريخ والقداسة » -وما أشبه هذه الكلمات - لا يقصد منها الحداثيون إلا الإسلام وما يتصل به من فكر وأدب ، وقيَم وسلوك وتراث .

ولذلك نرى الحداثيين الآن يثنون على كل فكر منحرف فى الجيل الذى مضى وبخاصة أولئك الذين كان لهم مساس مباشر بالتجرؤ على الإسلام . فخذ إليك - مثلاً - ما كتبته خالدة سعيدة فى مجلة فصول [2] :

« عند ما كان طه حسين وعلى عبد الرازق يخوضان معركة زعزعة النموذج (يعنى الإسلام) بإسقاط صفة الأصالة فيه ، ورده إلى الموروث التاريخى ، فيؤكدان أن الإنسان يملك موروثه ، ولا يملكه هذا الموروث ، ويملك

---

(١) مجلة اليمامة العدد ٩٠١ .

(٢) المجلد الرابع جـ ٣ ، ص ٢٦

أن يحيله إلى موضوع للبحث العلمى والنظر ، كما يملك حق إعادة النظر فى ما اكتسب صفة القداسة (القرآن والحديث) وحق نزع الأسطورة عن المقدس ، وحق طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة » (؟!) .

* *

● لماذا طه وعبد الرازق :

الكاتبة نفسها أجابت عن هذا السؤال . فثناؤها على طه حسين وعلى عبد الرازق لأنهما تجرءآ فقالا :

* إن الإسلام والماضى الذى قام حوله موروث للإنسان ، والإنسان يملك موروثه ، وليس الموروث هو الذى يملك الوارث (؟!)

* وما دام الإنسان موروثاً فعلى الإنسان أن يتصرف فيه كيف يشاء كما يتصرف الوارث فى إرثه : يبيعه ، يجامل به ، يرعاه ، يهمله ، يستهلكه ، يلقى به فى لُجَة البحر ؟ أو حتى فى مقالب القمامة (؟!)

* وأنهما - طه والآخر - نزعا صفة القداسة عن المقدس (الإسلام) ومارسا حق تصرف الوارث فى إرثه فأخضعا الإسلام للنقض والأخذ والرد ، وأعطيا أنفسهما حق مناقشة مَن يدافع عن الإسلام (؟!)

والكاتبة صادقة فيما نسبته إلى الرجلين ، وقد أشرنا كثيراً فيما مضى إلى دور طه حسين فى التمرد والتخريب . أما على عبد الرازق فيكفى أن نشير الآن إلى أنه دعا إلى عزل الإسلام عن الحكم والسياسة وعن تدبير شئون الحياة ، وأن يكون صلة بين العبد وخالقه فحسب ، مكانه المسجد أو خلوة العبادة ، ومحظور عليه أن يظهر أو يخرج إلى الشارع . ثم انقض على عبد الرازق على السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين فغضَّ من شأنها وحرَّف تفسيرها وأساء إلى صاحب الدعوة وخلفائه وصحابته . وذلك فى كتاب صدر باسمه عام ١٩٢٦ .. وسيأتى حديث مفصَّل عنه بإذن الله فى المبحث الأخير من هذه الدراسة .

* *

● أدونيس والنصوص المقدسة :

ونختم الحديث عن تأثر الأدب بالحضارة الغربية بما قاله المدعو « أدونيس » الذى تستر بالإسلام ليكيد له من الداخل ، وهو فى الواقع صليبى وقح طول عمره . كتب « أدونيس » هذا أربع مقالات فى صفحة الحوار القومى بجريدة الأهرام التى يحررها الماركسيون (فى ١٩٨٩/٢/٤ ، ثم ١١ ، ثم ١٨، ثم ١٩٨٩/٢/٢٥) . وقد تحدَّث فى تلك المقالات عن أزمة الإبداع الأدبى ، ثم القراءة الثانية لنصوص التاريخ (يعنى التراث) وحاول أن يستخدم الذكاء فى عرض فكره ، فأظهر إيمانه بالنصوص المقدسة : القرآن والسُنَّة ، واحترامه للنصوص التاريخية : الشعر الجاهلى وما تلاه من عصور الأدب الإسلامى . وإلى هنا فلا غرابة ولا مؤاخذة ، أما الخطر كل الخطر ، فإن هذا « العابث » يدعو إلى رفض كل تفاسير القرآن ، وكل شروح السُنَّة ؛ ويفرِّق بين الأمرين بأن نصوص القرآن والسُنَّة ثوابت ، أما التفاسير والشروح فإنها متغيرات ، ويزِّين هذا التمرد بقوله : إن اعتمادنا للتفاسير والشروح الموروثة معناه أن النصوص المقدسة قد استنفدت واستغلقت (؟!)

وهذا الدعوى الماكرة تدخل ضمن خطة استشراقية تبشيرية استعمارية سوف نزيح عنها اللثام فى المبحث الأخير بإذن الله ، والذى نريد قوله هنا فى إيجاز : أن المعاصرة والحداثة جوازا سفر لنقل حضارة أوروبا إلى ديار الإسلام ، باعتبارها خطة من خطط مواجهة أوروبا للإسلام كما تقدَّم .

* *

● الفن :

مضى الحديث عن الثقافة والأدب ، وكيف كانا معبرين خطيرين للجوانب المضرة من الحضارة الغربية ، ونحن الآن بصدد الحديث عن الفن ، ولكن من المستحسن أن نفرِّق بين الفن وبين كل من الثقافة العامة والأدب من حيث الأهداف التخريبية المرادة من كل معبر من هذه المعابر الثلاثة ؛ فكل من الثقافة

والأدب مرصود للتأثير على الخاصة من أبناء المجتمعات الإسلامية ، وهم المثقفون وأنصاف المثقفين . وما كان أعداء الأمة ليكتفوا بهذا القَدْر من التأثير فأمامهم - بعد الطبقات الخاصة المثقفة - الجمهور العريض من المسلمين : ربات البيوت - وإن كن غير مثقفات ولا قارئات ولا كاتبات - العمال ، الحرفيون ، الصغار من البنين والبنات الذين لا صلة لهم بالكلمة المكتوبة . أيُترك هؤلاء بعيداً عن المصيدة ؟ كلا . إن لهم فى خطط أعداء الإسلام مناهج لا عمق فيها ولا صعوبة ، مناهج تُبَث فى كل مكان ويسهل التأثر بها فى كل الظروف . لغة سهلة يفهمها جميع مَن رأى ومَن سمع ؟! إنه : الفن ، ذلك الوباء الذى يدخل كل بيت فيفترس كل مَن فيه بلا تفرقة بين أفراد الأسرة ، فالجميع مستهدَفون ليكونوا صرعى الفن مهما تحفظوا .

والفن سلاح ذو حدين : سلاح بناء وتوجيه وإصلاح ، إذا أريد منه البناء والتوجيه والإصلاح .

وسلاح هدم وتضليل وإفساد ، إذا أريد منه الهدم والتضليل والإفساد .

وقد أريد لنا أن نريد منه الهدم والتضليل والإفساد ، فكان ما أردناه وزيادة. أو كان ما أرادوه لنا .

خطر الفن منذ ثلاثين عاماً كان محدوداً ؛ لأنه كان يُسعَى إليه . أما بعد زيوع التليفزيون فى البيوت فأصبح الفن نفسه هو الذى يسعى لافتراس ضحاياه . بالإضافة إلى موابق الفن التقليدية : المسرح والسينما ، والملاهى الراقصة ، العارية ، المخمورة ؟!

أوبئة فتّاكة ، تعددت مصادرها . وتفاقمت شرورها ، والكاسب الوحيد هو عدو الأمة ، والخاسر الوحيد هو الأمة . تقتل نفسها بمالها وجهدها وطاقاتها . وتدير الحبل حول عنقها بيدها ، وهى تحسب أنه قلادة يزدان بها جيدها ؟!

* *

● سوء الاختيار :

لا أريد أن اشغل القارىء بأمور هو بها عليم . وإنما أشير إلى سوء الاختيار الذى يتخبط فيه الفن عندنا . فأوروبا ورثت حضارة اليونان فيما ورثت ، ومنها فن المسرح الذى وضعه بعض فلاسفة اليونان القدماء ، وأدب المسرح كان عندهم نوعين : مأساة وملهاة ، أو تراچيدى وكوميدى ، أو جَدِّى وفكاهى هزلى . ولكل نوع عندهم قواعد وأصول وغايات . فالنوع الأول محاكاة لأفعال النبلاء وعِلْية الناس . والنوع الثانى : الملهاة - محاكاة لأفعال أراذل الناس لإثارة الضَحك . ونحن مع علمنا بموضوعات هذين النوعين ، لم نختر الجانب الجاد منها بل اخترنا الجانب الهزلى . ثم قصرنا وظيفته على إثارة الضحك من أجل أنه ضحك وكفى . وهذا هو ما يحرص عليه الفن عندنا .. فأخذ مؤلفو المواد الفنية يبحثون عن كل ما يثير الضحك مهما كان الثمن ، ولو كان على حساب الخُلُق والدين والقيَم ، ولما أفلسوا فى هذا المجال ، واستقصوا أسباب الضحك « المعقولة » لم يكن أمامهم إلا التهريج والسفاسف ومحقرات الأمور : فتاة أو عروس تطبخ الملوخية بالساڤو ؟! وعريسها يرتدى بلوزتها وينزل بها إلى الشارع ، وتلاميذ مدرسة المشاغبين يدخنون « الشيشة » أو « السبارص » فى غرفة الدرس ، وتلميذ نجيب يفرح لأن أباه احترق ؟! والأمثلة المسفة فى الفن لا تكاد تُحصَى ، وبعض الأعمال الفنية كل موادها من « الممنوع » ، وخذ مثالاً لذلك : الولاد كبرت . أو مدرسة الأخلاق الحميدة . فأين الفن فيما يقدمونه باسم الفن . ثم العرى الفاضح . والعلاقات المشينة ، واحتساء الخمور باسم الفن وإزهاق الأرواح . والألفاظ الساقطة ، والحركات المريبة ، والسخرية من القيَم والأخلاق . كل هذا صار عندنا فناً رفيعاً عالياً مهذباً ؟ أليس هذا سوء اختيار منا لما نقدمه باسم الفن . وننفق عليه الملايين .

ومن سوء الاختيار - كذلك - الحلقات الأجنبية التى يعرضها التليفزيون ، وفيها من جرائم العِرض والمال والعنف ما فيها ، فتترك أثراً سيئاً وبخاصة عند

الشباب ؟! ولم تنتشر جرائم السطو المسلح والعصابات عندنا إلا بعد بث التليفزيون هذه المنوٌعات فى كل بيت .

وهل ينسى القارىء تلك الجريمة التى ارتكبها طفل ضد أخته فى غياب الأم والأب حيث قتلها بالسكين ؛ لأنه شاهد عملاً فنياً فى التليفزيون وقعت فيه هذه الجريمة . فما كان من الطفل إلا محاكاتها فوقعت الكارثة كما اعترف الطفل نفسه ؟!

ومن المعلوم أن معظم المسلسلات التى يقدمها التليفزيون - إن لم تكن كلها - لم تخل من جريمة ، وشُرطة ، ونيابة . ليعد القارىء ويستعرض شريط الذكريات عما شاهده من تلك المسلسلات . فإنه من الصعب أن يعثر على مسلسل لم تدر وقائعه حول جريمة أو عدة جرائم . فلماذا هذا إذن ؟! السبب معروف . وهو أن مؤلفى المواد الفنية يسعون لتحقيق واحد من أمرين :

إما جذب المشاهد عن طريق الهزليات والبهلوانيات ، وإما التأثير عليه بجعله يفكر فى كشف غموض معروض فى النموذج الفنى المشاهَد .

ولذلك بات لزاماً على المؤلف والمخرج أن تقف الحلقة عند نقطة مثيرة تشد انتباه المشاهد لما بعدها ؟!

ومن سوء الاختيار أن التليفزيون يتعمد إفساد أذواق الناس بالأساليب المسفة ، والألفاظ السوقية وخلو النماذج من كل مضمون هادف . إنه التهريج فى أجلى صوره . وليت الأمر وقف عند حد عرض هذه النماذج الساقطة لفترات قصيرة . ولكنها تستبد بوقت التليفزيون كله ، وتطغى على المواد الأخرى المفيدة أو المحايدة ، وقد أعدت دراسات جامعية (ماچستير ودكتوراة) عن المواد التى يقدمها التليفزيون . دراسات واقعية منهجية استخدمت فيها مناهج رصد وتحليل دقيقة ، وأثبتت تلك الدراسات أن المواد التى يقدمها التليفزيون تحت مسمى « الترفيه » تستبد بطاقات هائلة من حيث الوقت والجهد والمال . وأن المواد المفيدة على اختلاف مسمياتها نصيبها فيه هزيل للغاية .

ومما يدعو للتساؤل تلك الأعمال التى يقدمها التليفزيون فى ليالى الجُمَع والمواسم والأعياد ، وفى شهر رمضان المعظم حيث تستمر إلى الفجر فى ليالى الجُمَع أو قبيل الفجر بقليل ومعظمها تهريج مضحك ، ولا شئ آخر ؟!

ولو أن القائمين على شئون هذا الجهاز الخطر وجّهوه وجهة مثمرة مع قليل من المواد الترفيهية لكان له أثر عظيم فى التربية والتوجيه . وفى محاربة العادات والتقاليد السيئة ولأفلح أيما فلاح فى تنقية المجتمع منها . ولكنهم أبوا إلا أن يقدِّموا للشعب السموم القاتلة فى أكواب من العسل ؟!

* *

● وزارة لرعاية الإسفاف :

وعندنا وزارة أسميناها وزارة الثقافة ، هذه الوزارة انحرفت عن رسالتها وصارت وزارة لرعاية الإسفاف ؟! وبخاصة فى عهدها الحالى - ١٩٩٠ - وقد بدأت فى هذا الانحراف منذ زمن . ووقفت نشاطها على رعاية المسرح والسينما وما يسمى بقصور الثقافة ، تلك القصور التى تشجع العامية ، وتطلق على بعض الزجالين أنهم شعراء العامية ، والقارىء يعلم أن تشجيع العامية خطة مرسومة لأعداء الأمة .

ومن محاسن القَدَر أن بين يدىّ تحقيقاً صحفياً قامت به جريدة « النور » حول قصور الثقافة هذه ، وهى دراسة ميدانية قامت فيها الصحيفة بزيارة عدة قصور فى الريف ، وتحدثت مع مديريها . وقد لوحظ أن النشاط الإسلامى فى تلك القصور معدوم قطعاً . وأن نشاطها مقصور على تعليم الرقص والغناء والموسيقى . وأن جوائزها تدور حول : أحسن راقصة ؟! كما تُقدِّم تلك القصور مسرحيات عن الفن الشعبى وتنفق على المسرحية الواحدة ألف جنيه ؟!

ولما سأل محررو النور مديرى تلك القصور عن اختفاء النشاط الإسلامى فيها ، أجمعوا على أن الميزانيات ليس فيها بند واحد عن النشاط الإسلامى ؟!

أليست هذه حماقة وسفهاً ؟! وزارة اسمها وزارة الثقافة تُقصر نشاطها على السفاسف : رقص - غناء - تمثيل - اختياراً ملكة جمال أو قُبح . أهذه هى الثقافة فى مفهوم الوزارة والقائمين عليها . إنه - ورب السموات والأرض - إجرام يُرتَكب علناً فى حق الأمة ... ؟!

وتبديد لثرواتها فى حفر قبورها ، والقضاء على البقية الباقية من الفضائل .

وزارة كان المفروض فيها تثقيف العقول بالمعارف الرفيعة . إذا بها تنحدر عن رسالتها السامية ، وتتحول إلى أوكار للانحطاط الخُلُقى والذوقى ، وتدرب النشء على المجون والسخافة . أغاب وعى الأمة إلى هذا الحد أم أن بعض القوم مجندون لتحقيق مطامع الأعداء وتدمير الأجيال . إنها خيانة للأمانة ، ومؤامرة تحاك فى الخفاء ، وتنفذ فى العلن ؟!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

الإعلام والسياحة

وهذان معبران آخران لتصدير الحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام : الإعلام والسياحة . ومضار الإعلام أخطر من مضار السياحة ، فالسيَّاح يحملوننا على عاداتهم وتقاليدهم من العرى الفاضح ، واحتساء الخمور ، والإعلام باختصار شديد ينحاز دائماً للانتصار لكل ما هو غربى . وقد يستهين بعض القراء بتأثير السياح فى البلاد التى يزورونها ، ولذلك فإنى أذكرهم بأن من أسباب انتشار الإسلام - قديماً - فى شبه القارة الهندية ، وبعض بلدان آسيا . من أسباب ذلك الانتشار : التجار المسلمون الذين كانوا يُسوِّقون بضاعتهم فى تلك البلاد ، أو يشترون منها ما تروج تجارته فى أوطانهم . أولئك التجار لم يكونوا دعاة ولا خطباء ولا وعاظاً . وإنما كانوا تجاراً يُصلُّون ويصومون ويُحلِّلون ما حلله الله ، ويُحرِّمون ما حرَّمه الله ويتخلقون بالأخلاق الإسلامية فى معاملاتهم مع أهل البلاد التى يتجرون فيها . من هذه الدعوة (الصامتة الناطقة) تسرَّب الإسلام إلى تلك البلاد وسرى بين أرجائها . والسياح الأجانب لهم نفس الدور فى التأثير ، صحيح أنهم لن يصلوا إلى ما وصل إليه التجار المسلمون قديماً فنأخذ عنهم عقائدهم .. هذا مستبعَد . أما تأثيرهم خارج نطاق العقيدة فهذا أمر مسلَّم . وآثاره ملموسة بكل وضوح .

ومما يزيد الشر تفاقماً أن البلاد الإسلامية ذات الاقتصاد المتدهور -كمصر -

ترى فى السياحة مورداً غنياً فى تنمية مواردها المالية ، ولذلك فإنها تترخص كثيراً مع السياح ، وتبيح لهم المحظورات لترغبهم فى التردد عليها ، وتغمض أعينها عن الكثير من السلبيات التى تصدر عنهم ، مما يصيب الأخلاق ، ويهز مقوِّمات السلوك . بل وتوفر لهم جواً من الحماية الرسمية حتى لا يعكر صفوهم شئ ؟! وكان المفروض على السياح أن يحترموا آداب البلد الإسلامى الذى يزورونه ، لو أننا عودناهم هذا الاحترام . ولكننا نحن الذين شجعناهم على إهدار قيمنا ومنحناهم من الحريات ما لم يملكه مخلوق لمخلوق . كل ذلك من أجل المال ؟ والمال وحده ؟!

* * *

الفصل الرابع والعشرون

تطوير الإسلام

ما قدمناه من وسائل أوروبا فى مواجهة الإسلام من أول الدراسة حتى الآن أمور محفوفة بقدر من الحذر من قِبَل أوروبا نفسها ؛ لأن كل وسيلة من الوسائل التى سبق ذكرها قد تتعرض لسوء الظن والافتضاح أمام الوعى الفردى أو الجَماعى . فمثلاً عندما تبرع « روكفلر » بعشرة ملايين دولار أمريكى لإنشاء معهد للآثار فى مصر وشرط لتنفيذ المشروع شروطاً معيَّنة ، فطن المصريون إلى الهدف الذى يريده ذلك الصهيونى . ورفضوا شرطه القاضى باستمرار الإدارة الأجنبية للمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة . وترتب على هذا - رجوع المليونير « روكفلر » الأمريكى الصهيونى - عن فكرته تلك وسحب العرض الذى تقدَّم به .

وما يقال عن مشروع « روكفلر » يقال عن كل وسيلة تقدَّم ذكرها من وسائل مواجهة أوروبا للإسلام ، لذلك فإن أوروبا من عهد الاحتلال البريطانى لمصر فطنت إلى وسيلة أخرى جامعة معسولة ، قد يُخفى عسلها ما فيها من سموم قاتلة . تلك الوسيلة الجامعة المعسولة هى التى أشرنا إليها فى العنوان « تطوير الإسلام » وقد نجحت هذه الوسيلة فى بعض الأقطار الإسلامية من قبل - كالهند وتركيا - وهذا النجاح شجع أوروبا على المضى فى ترويج هذه الوسيلة « تطوير الإسلام » وبذلت فى سبيلها جهوداً مكثفة حتى اجتاحت كل البلاد الإسلامية - الآن - إلا النادر منها .

ومن فضول القول أن نشير إلى أن أوروبا استخدمت هذه الوسيلة فى جانب

شديد الخطر من جوانب الإسلام ، ألا وهو الجانب التشريعى دون الجانب الذى يتصل بالعقيدة ، أو الجانب الذى يتصل بالعبادة ، وإن كان هذان الجانبان لم يسلما من مكائدها ودسائسها على ألسنة المبشِّرين والمستشرقين ، وما خطته أقلامهم ، وأعود فأذكِّر القارىء الكريم بأن أعمال المبشِّرين والمستشرقين بلغت فى مائة وخمسين سنة : ستين ألف مجلد ، كلها تتحدث عن الشرق الإسلامى . وأن هذه الإحصائية مضى عليها حتى الآن أكثر من نصف قرن من الزمان ، فيا تُرى ما العدد الذى أضيف إلى تلك الإحصائية حتى الآن ؟ العلم لله وحده .

أجل .. إن تطوير الإسلام وإعادة تفسيره بما يناسب الحياة المعاصرة هى الوسيلة الجامعة التى اهتدت إليها أوروبا ، ودعا إليها ممثلوها فى البلاد الإسلامية من رجال أوروبا أنفسهم ، مثل : اللورد كرومر ، واللورد لويد ، وجب ، وسميث ، ولهج بها ممثلو أوروبا فى المؤتمرات العالمية المشتركة ، ثم تبناها عملاؤهم من العرب مثل ناصيف البازجى ونصارى الشام ، ومن المسلمين ، مثل جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، وقاسم أمين ، وعلى عبد الرازق ، ثم انساق فى أعقاب هؤلاء جميعاً - وما يزالون ينساقون - جماعة آخرون ملأوا السهل والوعر ، متحدثين فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وكاتبين فى الصحف والمجلات ، ومحاضرين فى النوادى والتجمعات ومؤلفين كتباً ودوريات .

إن هذه البدعة - « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » - قامت مقام الجيوش فى غزو بلاد الإسلام . وانتهى دور أوروبا الآن فى الترويج لها ، بعد أن صنعت لها عملاء فى كل بلد إسلامى يحملون لواءها وينصرونها فى كل محفل وناد . ولم يكن هذا هو النجاح الوحيد لأوروبا فى هذا المجال - وأعنى نجاحها فى صنع العملاء - وإنما هى قد حققت نجاحاً أبعد مدى ، وأبقى أثراً من صنع العملاء ، ألا وهو صعود الفكرة نفسها إلى مجال التطبيق العملى فى نظم الحكم فى البلاد الإسلامية - إلا ما عصم الله - فتلك النظم قد طبقت الفكر العلمانى بدل شريعة الله . والذى يهم أوروبا الآن بعد هذه « النجاحات » هو

المحافظة عليها وضمان استمرارها أمام الصحوة الإسلامية المعاصرة ، التى تهدد أوروبا شرقاً وغرباً على حد سواء .

* *

● كيف روَّجت أوروبا لهذه الفكرة :

كان أول مَن اهتدى إلى فكرة « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » هو اللورد كرومر ، ذلك الرجل الداهية الذى عاش فى مصر أكثر من ربع قرن ، ولمس عن قُرب الأسباب التى جعلت المسلم لا يثق فى أوروبا ولا فى فكرها . وكان الشغل الشاغل لكرومر هو الاهتداء إلى وسيلة يمد من خلالها جسوراً من الثقة ، والتفاهم المتبادل بين المسلمين والأوروبيين ، وبخاصة بريطانيا التى ينتمى كرومر إليها ويمثل سياستها فى مصر . وقد جرَّب كرومر العديد من وسائل التقريب ، وظهر له ضآلة جدواها . ومن ثَمَّ هداه طول تفكيره إلى أن الذى يقف عقبة فى طريق ذلك التفاهم هو الإسلام ، فما دام المسلمون يتمسكون بالإسلام كما تناقلته الأجيال عبر التاريخ ، ويحترمون ماضيهم القديم ، ويحيطون الإسلام بهالة من القداسة تحول دون أى مساس به ، ويربطون حاضرهم ومستقبلهم بما كان عليه الإسلام فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، هذه العوامل لا يُرجَى معها أي تقدم فى العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب الصليبى . إذن لا بد من تحطيم الإسلام ، ولن يُحطم الإسلام إلا بتهيئة العقول لهذا التحطيم . وهذا لا يتأتى إلا بفكرة تطوير الإسلام وإعادة تفسيره .. ووضع « جب » وآخرون كتاباً ضمنوه تمهيدات لهذه الفكرة ، ذلك الكتاب هو : « إلى أين يتجه الإسلام » ؟!

تم خطا أوروبى آخر خطوة أخرى على نفس النهج ، وزعم أن الإسلام فى العصر الحديث يعيش فى ورطة . وسمى هذا الزعم بـ « أزمة الإسلام » وادعى أن هذه الأزمة ناشئة عن جمود الإسلام من جهة ، وتطور أساليب الحياة من جهة أخرى . وأن المسلمين أمام هذه الأزمة بين اختيارين :

أحدهما : أن يظلوا محتفظين بالإسلام على ما هو عليه من أشكال قديمة موروثة . وفى هذه الحالة يظل الإسلام - على حد زعمه - معزولاً عن الحياة ؟!

والاتجاه الآخر : أن يسمح المسلمون بتعديل إسلامهم القديم ويخلعوا ثوب القداسة عنه ، ويوائموا بينه وبين تطورات الحياة . فيُقبلوا على تطوير الإسلام والنظر فيه من جديد ، ويعيدوا تفسيره . وفى هذه الحالة ينسجم الإسلام مع الحياة ، ويزول التنافر الحاد بين الإسلام والحياة ؟!

جاءت هذه المزاعم فى كتاب : « الإسلام فى العصر الحديث » لمؤلفه : « ولفرد كانتويل سميث » . مدير معهد الدراسات الإسلامية ، وأستاذ الدين المقارن فى جامعة ماكجيل بكندا . وهو تلميذ لـ « جب » الذى أشرف على رسالته للدكتوراة وهى الكتاب المذكور آنفاً . وقد منحته الدكتوراة جامعة « برنستون » الأمريكية عام ١٩٤٨ وموضوع الرسالة هو « مجلة الأزهر .. عرض ونقد » .

● نماذج من الكتاب :

* يدّعى المؤلف أن الإسلام شئ . وتطبيق المسلمين له شئ آخر ؟!

فالإسلام هو الحقيقة الإلهية المثلى . وتطبيق المسلمين له ليس هو الإسلام بل هو تاريخ الإسلام ؟!

وأن الإسلام شئ ثابت . أما تاريخه ، وهو التطبيق العملى ، فشئ متغير يخضع للظروف الطارئة والزمان والمكان (؟!) فأهل كل زمان يعملون به وفق زمانهم ، وكذلك أهل كل مكان .

وعلى هذه الاعتبارات قسّم المؤلف الإسلام ثلاثة أقسام باعتبار الزمان ، وأقساماً عدة باعتبار المكان فى العصر الحالى .

*

● أقسامه باعتبار الزمان :

قسَّم المؤلف الإسلام حسب التأثير الزمانى على الوجه الآتى :

* إسلام قديم ويبدأ من عصر النبوة وينتهى بسقوط بغداد على أيدى التتار عام ٦٥٦هـ (؟!) .

* إسلام وسيط ، ويمثله العصر التركى إبَّان قيام دولة الخلافة وينتهى بانتصار الكماليين وسقوط الخلافة العثمانية (؟!) .

* إسلام حديث ، ويبدأ منذ اتصال الشرق الإسلامى بأوروبا وتصدير أوروبا حضارتها إليه (؟!) .

*

● أقسامه باعتبار المكان :

أما باعتبار المكان فيكاد المؤلف أن يجعل من كل بلد إسلامى مناخاً لإسلام خاص به . فهو فى (صفحات : ٥١ - ١٩٣ - ١٩٤ - ٢٨٦) يتحدث عن إسلام تركى ، وإسلام هندى ، وإسلام باكستانى . ويشيد بعبارة قالها أحد الأتراك الكماليين ، وهى :

« نريد أن نبنى إسلاماً تركياً ملكاً لنا ، وجزءاً من مجتمعنا الجديد على نحو الكنيسة الانجليكانية التى هى مسيحية على نمط إنجليزى(؟!) .

فالانجليكانية ليست إيطالية ولا روسية ، ولكن أحداً لا يستطيع اتهامها بأنها ليست مسيحية . فلماذا لا يكون لنا إسلامنا الخاص بنا » (ص ١٩٣) (؟!) .

ويقول المؤلف عن مسلمى الهند : « إن مسلمى الهند يكتبون الآن فصلاً ذا أهمية أساسية فى تاريخ الإسلام الحالى ؛ لأنهم يقومون بمحاولة يتولون فيها دور القيادة والإنشاء لحياة جديدة (؟) فالإسلام الذى سيبقى فى الهند سوف

يكون إسلامهم الخاص (؟) وسوف يكون شكله مختلفاً عن شكل الدين الذى يطوِّره مسلمو باكستان اليوم » (ص ٢٥٨) .

* *

● العمل بالإسلام شخصى لا جَماعى :

بعد أن قرر المؤلف أن الإسلام نموذج ثابت محدد ، زعم أن العمل به أمر شخصى قد يتعدد بتعدد الأفراد ، وليس منهجاً ثابتاً كالإسلام نفسه تلزم به الجماعات فى كل زمان ومكان . ومن الخطأ - عنده - أن يسمى العمل بالإسلام إسلاماً . بل هو تاريخ للإسلام . ومن أخص خصائص التاريخ - كما نعلم - التجدد والاختلاف .. يقول المؤلف :

« إن الإسلام كما بدا فى التاريخ : هو من صنع المسلمين (؟!) أما الإسلام المنزَّل من عند الله فليس هو ممارسة تلك الأعمال والعقائد والأشكال التى يسميها الناس إسلاماً ؟! ولكنه نداء شخصى حى موجه إلى الأفراد يدعوهم إلى أن يعيشوا الحياة التى تهيؤها لهم ظروفهم (؟!) مراقبين الله ، وأن يعاملوا رفاقهم من البَشر فى ظل عدالته » (ص ٣٠٨) (؟!) .

لم ينس المؤلف ، وهو بصدد تفتيت الإسلام وتحطيمه أن يضمِّن تطوير الإسلام المرتقب مبدءاً يفتح المجال واسعاً لأعداء الإسلام وهو وجوب معاملة البَشر جميعاً - والمقصود أعداء الإسلام - معاملة حسنة فى ظل عدالة الإسلام - المطوَّر - نفسه ؟!

* *

● الثناء على التصوف :

من الأمور الدخيلة على التصوف الإسلامى : تلك النزعة التى تُفرِّغ الإسلام من كل محتوى . وتحصر الإسلام فى الزهد والعبادة فحسب ، ولا تجعل له أى دور فى تنظيم شئون الحياة سلمياً وحربياً واقتصادياً وسياسياً وجهادياً . كما

تدعو تلك النزعة إلى اعتبار الدين واحداً فلا إسلام ولا يهودية ولا نصرانية ، بل ولا بوذية ولا مزدكية . لذلك ترى المؤلف يثنى على التصوف ؛ لأنه قام – أى التصوف – بالتطوير المطلوب للإسلام قبل أن تدعو أوروبا إلى ذلك التطوير . (انظر الصفحات : ٩- ٣٤ – ٣٥ – ٣٧ – ١٩٩ من الكتاب المذكور) .

* *

● العلمانية والإسلام :

ويعدِّد المؤلف المذاهب المعاصرة التى ابتكرتها الصهيونية لتفتيت وحدة العالم ، ولوَّح بها الاستعمار للنَّيْل من قداسة الإسلام عند المسلمين ، وبخاصة العلمانية التى يوليها المؤلف عناية خاصة ، ويُظهر سعادته لأن العلمانية تسربت إلى بلاد الإسلام وأنها تشق طريقها فيه فى تقدم مستمر ، وأنه يجب فرضها على الواقع الإسلامى بقوة السلاح أو بضغط سياسى (من أوروبا طبعاً) إذا اقتضى الأمر ، ولكن المؤلف يعوِّل على إقناع المسلمين بها أكثر من تعويله على قوة السلاح أو الضغط السياسى . وإليك كلامه بالحرف :

« إن العلمانية تشق طريقها إلى العالَم الإسلامى فى تقدم مستمر ، وإن من الممكن تطبيقها بقوة السلاح (؟!) أو تحت ضغط سياسى ، ولكن من المهم أن تستند فى تقدمها على سماحة الدين بها وإباحته لها ؟! وإلا انعدم السلام (؟!) والانسجام فى داخل كل من الفرد والجماعة ، وأصبح من الممكن أن تنتهى العلمانية بكارثة » (ص ٣٠١) .

ويؤكد فى (ص ٣٠٣) أن تطوير الإسلام على أساس داخلى أبقى أثراً من أن يُطوَّر تطويراً مباشراً من أوروبا .

وحاول المؤلف أن يشوِّه ماضى الإسلام فى نظر المسلمين مرات ويصف احترامهم لسُنَّة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين بأنه وَهْمٌ يجب التخلص منه ، ويدَّعى أن الحروب الأهلية التى نشبت في القرن الأول بين الإمام على ومعاوية قد قضت على نظام النبى ونظام خليفتيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ويشيد بالتجربة التركية فى عهد الرجل الصنم « أتاتورك » ويرشحها لتكون نموذجاً يحتذى به جميع المسلمين ، كما يلوم كل اللوم الذين ينتقدون ما فعله الكماليون بالإسلام فى تركيا ؟!

* *

● إجاعة المسلمين :

ويتحدث المؤلف عن عامل مهم من العوامل التى تجعل المسلمين يقبلون ما تريده أوروبا بالإسلام ، وهو إجاعة المسلمين وجعلهم دائماً في حاجة إلى عطف الغرب وإحساناته ، ويضرب مثلاً بالباكستان فيقول :

« إن أساليب الحياة العصرية الغربية ماضية فى الانتشار فى إطراد ثابت لا يتغير ولا يتوقف ، متخللة كل مناطق العالَم ، ومن بينها المناطق الإسلامية ، وذلك بسبب اختلاط أهله بالعالَم الغربى فى شتَّى نواحى حياتهم . ولم يعد هناك وجود لاستقلال كامل طالما أن حصول الفلاح الباكستانى على طعامه مثلاً يتوقف على قرار من واشنطون » (ص ٢٩٨) (؟!) .

ووسائل الضغط التى تمارسها أوروبا الآن لم تقف عند حد الإجاعة التى أشار إليها « ويلفرد سميث » . بل هناك وسائل أخرى منها حماية النظم الحاكمة ، والإمداد بالسلاح وتمويل المشروعات ، وهى تستغل كل تلك الوسائل فى تنفيذ مآربها ، وبخاصة فرض البدائل عن الإسلام .

* وكان للبعثات العلمية إلى أوروبا دور فعَّال فى تطوير الإسلام ، وقد مرَّ بنا - قريباً - أثر « رفاعة الطهطاوى » فى التمهيد لتطوير الإسلام ، وفى نفس الوقت الذى كان يؤدى فيه رفاعة الطهطاوى دوره المرسوم له فى التمهيد لتطوير الإسلام كان « خير الدين التونسى » يؤدى نفس الدور فى شمال غرب إفريقيا بعد عودته من الابتعاث إلى الخارج . روَّج « خير الدين » للحضارة الغربية وطالب بما يدخل تحت فكرة « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » ، وافتتن إلى أبعد مدى بما شاع فى فرنسا من حريات لا حدود لها .

وكذلك كان للمؤتمرات المشتركة ، دور فى هذا التمهيد ، وقد ضربنا من قبل مثلاً بالمؤتمرين اللذين عُقدا فى جامعة برنستون الأمريكية (عامى ١٩٤٨ - ١٩٥٣) . وما دار فيهما من وقائع ، فليرجع إليهما مَن شاء من القراء .

ونضيف إليهما - هنا - مؤتمراً ثالثاً هو مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامى الذى عُقد بباريس عام ١٩٥١ . وكان الموضوع المهم فيه هو التعامل بالربا . وقدَّم « معروف الدواليبى » بحثاً ابتدع فيه تقسيم القروض قسمين :

١ - القروض الاستهلاكية التى يضطر إليها الشخص للإنفاق على شئون حياته ، ويرى أن تعاطى فوائد على هذه القروض يُعَد رباً .

٢ - القروض الإنتاجية ، وهى التى يقترضها الشخص لتمويل مشروع اقتصادى كتأسيس شركة ، أو مصنع . ويرى أن هذا النوع من القروض لا يُعَد ما يؤخذ عليه من الفوائد رباً محرَّماً . وقد مهد الدواليبى - هنا - لمشروعية الفوائد التى تتقاضاها البنوك من عملائها . وهذا كما ترى خطوة جريئة فى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ؟!

* *

● مدرسة القضاء الشرعى :

ويدخل فى إطار التمهيد الأوروبى لتطوير الإسلام وإعادة تفسيره مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها « اللورد كرومر » لتخريج قضاة مسلمين عن غير طريق الأزهر ، فقد يئس « كرومر » والإنجليز من إحداث ردَّة فى الأزهر تجعله يتجاوب مع أهداف الاستعمار ويسمح بإدخال تعديلات على مبادئ الإسلام وقيمه ، وطالما شكا الإنجليز وممثلوهم فى مصر من صلابة الأزهر ، ووقوفه عقبة كأداء فى طريق الزحف الحضارى الغربى على مصر أولاً وعلى بلاد الشرق ثانياً ، وذلك فى جبهتين قويتين :

إحداهما : التعليم الذى أراد الإنجليز إخضاعه لسياستهم داخل أروقة الأزهر فتأبّى عليهم الأزهر فى عزة وشموخ .

والآخر : التشريع الإسلامى ، وهو المقصود بالتطوير الذى نتحدث عنه .

ومدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها اللورد كرومر شبيهة فى بواعثها وأهدافها بكلية ڤيكتوريا التى أنشأها كرومر لتخريج جيل رؤوسه مصرية ، وعقوله بريطانية أوروبية يتولى قيادة البلاد ، وينفذ خطط حكومة صاحبة الجلالة ، ولم يكن إنشاء كلية ڤيكتوريا كافياً لتحقيق مطامع الإنجليز فى مصر ، فخريجوها أشبه ما يكونون بالملاعق والشوك التى تتناول بها بريطانيا الطعام ، ولكن أين هو الطعام الذى تُستعمل فيه هذه الأدوات ما دام الأزهر لا يقدِّم إلا العلقم والصاب فى نظر الإنجليز ؟ من هنا كان الاتجاه إلى إنشاء « فرن » أو « مخبز » يطهو الطعام المطلوب بعيداً عن الأزهر . ذلك « الفرن » هو « مدرسة القضاء الشرعى » التى مهمتها إفراز قوانين مطوَّرة معدَّلة تكتمل بها عملية المسخ والتخريب . وكان كرومر سعيداً جداً بإنجازاته هذه فى مصر . فقد كتب فى تقريره لعام ١٩٠٥ يقول :

« إنه حصل من البارون كاليه حاكم البوسنة العام على برامج الدراسة فى المملكة التى أنشأتها حكومة النمسا فى سراجيفو لتخريج قضاة لطائفة المسلمين ، ووضعها بين يدى لجنة يرأسها الشيخ محمد عبده بقصد وضع خطة مشابهة تلائم وضع مصر وظروفها .. ومات الشيخ محمد عبده ولم يتم إنشاء المدرسة إلى أن جاء سعد زغلول - تلميذ الشيخ محمد عبده - فوضع الخطة موضع التنفيذ عام ١٩٠٦ حين صار - وبسعى من الإنجليز - وزيراً للمعارف المصرية » .

* *

● أوروبا طرف فى التطوير :

تطوير الإسلام الذى نتحدث عنه ، ليس معناه - فى نظر أوروبا - أن يقوم المسلمون أنفسهم بهذا التطوير ، بل هى حريصة كل الحرص على أن تراقبه وتوجهه الوجهة التى تحقق الغرض منها لأوروبا نفسها . وقد أفصح عن هذه الخطة كثير من رجالهم . فهذا « ولفرد سميث » يقول فى مقدمة كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » الذى نشر عام ١٩٥٧ :

« إن الإسلام يجتاز الآن تحولاً وتغيراً خطيراً ، وإن دراسة هذا التطور تعنى المسلمين ؛ لكى يشتركوا فى تطور حياتهم مشاركة واعية ، وتعنى الأجانب (أوروبا) لكى يراقبوا هذا التطوير ، ويعرفوا مكانهم فيه .. » .

ويمضى سميث فيفصح عن معان جد خطيرة إذ يقول :

« إن الإسلام كان عاملاً أساسياً وسبباً مهماً من أسباب وجود الهوة التى تفصل بين الغرب وبين العرب .. ولقد أصبح من الحقائق الجديدة فى مدنيتنا العصرية أن من الواجب سد هذه الثغرات ، ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة .. » .

فأنت ترى من هذا الكلام أن تطوير الإسلام أو « تليينه » كان الشغل الشاغل لمفكرى الغرب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين .

فى هذه الفترة اتجهت أوروبا إلى الوسائل العلمية والمعرفية فى تحقيق مآربها ، وأعرضت عن العمل العسكرى المسلح الذى يوغر صدور المسلمين نحوها . ومن البديه أن أوروبا لم ترد بتطوير الإسلام مصلحة المسلمين كما كانوا يعلنون أحياناً ، ولكنها أرادت أن تنزع أسباب القوة منهم ليسهل عليها التهام العالم الإسلام ، لضمان القضاء على كل المخاوف التى تساورها من جراء الإسلام . وما ننقله لك بعد قليل من كلام « جب » يضع أمامك الحقيقة سافرة مجلوة . يقول « جب » فى كتابه « إلى أين يتجه الإسلام » :

« يجب أن نلاحظ أن موضع البحث ليس هو : هل تبقى الروابط القديمة التى كوّنت هذه الوحدة - يعنى وحدة المسلمين - ثابتة دون أن تتغير أو تتطور ؟ فقد تتطور مظاهر هذه الروابط ، وقد يصبح مفهوم هذه الوحدة مغايراً لمفهومها فى العصور الوسطى . فكل ذلك ثانوى ليس بذى خطر . ولكن المهم هو : هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية ؟ وهل سيقوم إحساس بوحدة الهدف والعمل ؟ أم أن الآراء الحديثة ، وحاجات الحياة الجديدة ستنجح فى آخر الأمر فى تشتيت المجتمع الإسلامى ، وتحطيم وجوده » (؟!) .

أجل : إن الهدف من تطوير الإسلام هو تشتيت المسلمين وتحطيم المجتمع القوى الذى أقامه الإسلام ، لا فى مصر وحدها ، ولكن فى جميع بلاد الإسلام .

* *

● الرأى العام والصحافة :

وقد فطن دعاة الغرب إلى أن تأثير التعليم وحده غير كاف فى تحقيق مقاصد أوروبا ، فلتكن مدرسة القضاء أو لا تكون ، ولتكن كلية ڤيكتوريا أو لا تكون . وإنما تكمل الخطة بخلق رأى عام يتقبل البدائل التى تطرحها أوروبا مكان الإسلام . إذ لا جدوى من كل الوسائل مع وجود رأى عام واع مستنير . قد تزول مع وجوده كل الجهود المبذولة لتطوير الإسلام . ومن هنا اهتدوا إلى الصحافة باعتبارها المكوِّن الأول للرأى العام ، والعامل المستمر على تغذيته وحمايته ، ولأن تأثير الصحافة فى الاتجاهات السياسية والأجهزة الإدارية لا يخفى ، وإليك ما قال « جب » فى هذا الصدد :

« والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى ، فليست هى فى حقيقة الأمر إلا الخطوة الأولى فى الطريق ؛ لا تغنى شيئاً فى قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية . وللوصول إلى هذا التطور الأبعد - الذى بدونه تظل

الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية - يجب أن لا ينحصر الأمر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية [1] . بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأى عام . والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة » (؟!) .

ويقارن « جب » بين الصحافة التركية والصحافة المصرية فى ذلك العهد فيقول عن الصحافة التركية :

« إن الصحافة التركية وطنية لا دينية (؟) وهى لا تجرؤ أن تكون دينية لأنها مراقَبة من الحكومة مراقبة شديدة » (؟!)

ويقول عن الصحافة المصرية : « أما الصحافة المصرية .. فهى تتطور فى بطء ، وتعرض طائفة منوعة من الآراء الجديدة ، وهى على كل حال لا دينية فى اتجاهها » (؟!) .

ثم يشيد « جب » بأن مديرى الصحف المصرية من التقدميين ولذلك وجدت الآراء والمذاهب الغربية ، والحضارة الغربية متنفساً لها فى الصحف المصرية .

* * *

● نص جامع قبل الانتقال :

وقبل أن ننتقل إلى « ممارسة التطوير بعد رحيل الاستعمار » نضع بين يدى القارىء نصاً جامعاً لـ « جب » يصف فيه الآثار التى أسفرت عنها جهود أوروبا فى مصر من خلال مواجهتها للإسلام ، وكيف كان الرجل بالغ السعادة وهو يقول ما قال ، وكيف كان ظاهر الشماتة للإسلام الذى زحزحوه عن حياة المسلمين فى مصر . اسمع إليه وتدبر ما قال فى وعى :

---

(١) كتب جب هذا الكلام وليس فى مصر جامعة غير جامعة الأزهر ، التى يئس الاستعمار من السيطرة عليها .

بعد أن أشاد « جب » بالجهود التى بذلوها فى مجال التعليم والثقافة والصحافة والرأى العام . وأن تلك الجهود تركت لدى المسلمين - من غير وعى منهم - آثاراً جعلتهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حدٍ بعيد . قال :

« وذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالَم الإسلامى على حضارته من آثار .. الواقع أن الإسلام بوصفه عقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد كل مكانته (؟!) فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه ، وهى فى كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم .

فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللفلاح اتجاه سياسى ، ولم يكن له أدب إلا الأدب الدينى ، ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين ، ولم يكن ينظر إلى العالَم الخارجى إلا بمنظار الدين ، كان الدين هو كل شئ بالنسبة له (؟!) .

أما الآن ، فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود (؟!) وتعددت ألوان نشاطه الذى لم يعد مرتبطاً بالدين (؟!) فقد أصبحت له ميوله السياسية ، وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين . بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقَش على الإطلاق (؟!)

وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل (؟!) ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية لا يعرف مصادرها ولا أصولها [1] (؟!) ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة عن القرآن ؟!

---

(١) يريد « جب » من « القوانين المدنية » التشريعات الوضعية التى جئ بها بديلاً عن الإسلام .

وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده فى حاجاته الروحية ، فضلاً عن حاجاته الاجتماعية والأساسية ، بينما أصبحت مصالحة المدنية ، وحاجاته الدنيوية هى أكثر ما يسترعى انتباهه . وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دوائر نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت فى طقوس محدودة ، وقد تم معظم ذلك التطور تدريجياً عن غير وعى ولا انتباه .

.. وقد مضى هذا التطور الآن - ١٩٣٢ - إلى أبعد مدى ؟! ولم يعد من الممكن الرجوع فيه .. أو يُصد هذا التيار ؟! أو يُعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التى لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية » .

* *

● تقويم ما حدث فى العالَم الإسلامى :

يطرح « جب » سؤالاً ثم يجيب عليه مقوِّماً ما حدث فى العالَم الإسلامى أمام فكرة تطوير الإسلام . أما السؤال فهو : إلى أى مدى أصبح العالَم الإسلامى غربياً ؟ أجاب « جب » على هذا السؤال فقال :

« إن تركيا قد انقلبت إلى بلد غربى كأعنف ما يكون الانقلاب . وأما شبه جزيرة العرب فإن النفوذ الغربى لم يستطع أن يضع قدمه فيها (عام ١٩٣٢) وفى شمال إفريقيا بدأت حركة التغريب ، وأثرها فى تونس أبرز من غيرها .

أما مصر فهى تتطور فى هدوء بعيداً عن العنف ، ولكنها تتقدم تقدماً واضحاً نحو التطوير . وأما العراق وسوريا فهما يتبعان خطوات مصر ، بينما تتبع إيران خطوات تركيا » .

وبعد أن تحدَّث عن البلاد الإسلامية بلداً بلداً : الهند ، ومسلمى روسيا وأندونيسيا وإفريقيا ، وأن كل تطور حدث فى البلاد الإسلامية كان يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالَم الإسلامى ، وعلى الشباب منهم خاصة ، قال بالحرف الواحد :

« ومن ثَمَّ نستطيع أن نقول - حسب سير الأمور الآن - : إن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً فى كل مظاهر حياته ؟! ما لم يحدث فى الأمور عوامل ليست فى الحسبان فتغير اتجاه التيار » (؟!) .

أرأيت عزيزى القارىء إلى أى مدى تآمرت أوروبا على الإسلام ، وكيف أحكمت خطط مواجهتها له فى كل مكان ؟! وإلى أى مدى بلغ الحقد عندها على الإسلام ؟!

هذه حقائق يجب أن تأخذ مكانها فى اهتمامات الشباب الغيور على دينه . وأن يبطل مفعول كل وسيلة وضعها الأعداء فى مواجهة الإسلام . وهذا - مع وجود القيادات الحالية ، ونشاط الوسائل الهدامة - لن يتم بين يوم وليلة . وإنما يحتاج إلى صبر وعزم وحكمة . وكل آت قريب .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ممارسات التطوير من الداخل

نجحت أوروبا نجاحاً عظيماً فى تكوين « الكوادر » العميلة التى تقوم بنفس الدور الذى قام به ممثلو الاستعمار فى مصر وفى خارج مصر . فقد بذلت القُوَى المعادية للإسلام جهوداً مضنية فى تحويل إرادة التطوير إلى إرادة داخلية يقوم بها مواطنون من أبناء البلاد الإسلامية نفسها .

فقام هؤلاء « المواطنون » بمهام المبشِّرين والمستشرقين ورموز الاستعمار حتى بعد أن تقلص ظل الاستعمار المادى ، وتوارى نوعاً ما نشاط المبشِّرين والمستشرقين داخل البلاد الإسلامية . وهذا ما أسميناه قبلاً بممارسات التطوير من الداخل . فحديثنا القادم سيكون حول الأعمال والإنجازات التى أسهمت فى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وكان مصدرها قُوَى وطنية جَماعية أو فردية . وسيرى القارىء أن هذه الأعمال والإنجازات لم تكن إلا ترديداً لما قاله أعداء الإسلام من قبل ، أو صوراً كربونية للأصول التى وضعها خصوم الإسلام ، وقد ألبست عباءات وأثواباً داخلية وأحيطت بفلسفات خادعة تزين الباطل ، وتزعم أن مصالح البلاد تتوقف على هذا التطوير الذى يلغطون به . ومما يؤسف له أشد الأسف أن الدعوة إلى التطوير (إياه) لم تعد مقصورة على السياسيين أو الإعلاميين أو الأدباء أو الفنانين .. إلخ . بل إن التيار جرف بعض الدعاة من العلماء والمفكرين ، وظهرت آثار هذا التطوير فى مسميات وقضايا شتَّى

تطرحها الصحافة وغيرها وتستفتى بعض العلماء من خريجى الأزهر فيها . تلك القلعة التى تحصّن بها الإسلام قرابة أربعة عشر قرناً . والصخرة التى قد تحطمت عليها قرون الوعول من إنجليز وفرنسيين وغيرهم ، أصبح الأن بعض علمائها يسيرون مع الركب الداعى لتطوير الإسلام وإعادة تفسيره . وقد يكونون حسنى النيّة ، ولكن حُسن النيات قد يكون ورطة فى كثير من الأحيان ، فالوعى بما يراد هو السلاح الذى يجب أن يتسلح به السادة العلماء ، فلا يصاب الإسلام من جهتهم ومن جهة حُسن نيّاتهم ، ولو كان حُسن النيّة مغنياً عن صاحبه شيئاً لأغنى الدبة التى قتلت صاحبها بإلقاء الحجر على صدره لتقتل الذبابة التى جثمت عليه ، فقتلتهما معاً . ونسى الناس قتل الذبابة وتندروا على الدبة بقتلها صاحبها ؟! ومعذرة إلى القارىء إن كان فى كلامنا هذا ما يشبه الهروب من وضع النقط على الحروف ، وأعده بأن لهذا الإجمال تفصيلاً وتوضيحاً سيأتى فى آخر هذه الدراسة إذا شاء الله .

* *

● تعدد الاتجاهات أمام التطوير :

حين زحفت الحضارة الأوروبية بعامة ، لتجتاح العالم الإسلامى - وبخاصة مصر - وراجت الدعوة إلى تطوير حياة المسلمين ، فى ظل الحضارة الغربية الوافدة ، فى ذلك الحين تعددت الاتجاهات أمام ذلك الزحف على أساس قبول الدعوة إلى التطوير أو رفضها . وقد دأب الكاتبون عن هذه الظاهرة على رصد ثلاثة إتجاهات أسفر عنها رد الفعل . والواقع أن إتجاهاً رابعاً لم يلتفت إليه إلا القليل ممن كتبوا عن أحداث تلك الفترة .

وها نحن نرصد الإتجاهات الثلاثة التى شاع ذكرها ، ثم نضيف إليها الاتجاه الرابع مع الحديث عن كل إتجاه منها بما يناسب المقام ، طولاً وقصراً . وإليك البيان :

كان رد الفعل لزحف الحضارة الغربية على مصر ، المصحوب بالدعوة إلى تطوير الحياة فيها على أسس تلك الحضارة محصوراً فى الاتجاهات الآتية :

الاتجاه الأول : قبول فكرة التطوير بلا شرط قبولاً مطلقاً .. ؟!

الاتجاه الثانى : رفض فكرة التطوير رفضاً قاطعاً ..

الاتجاه الثالث : النظر فى أسس الحضارة الغربية لقبول الصالح منها ورفض غير الصالح .

الاتجاه الرابع : فصل الدين عن الدولة ، وقصره على العلاقة بين الخالق والمخلوق .. ؟!

وهذا هو الاتجاه الذى أهمله كثير من الكاتبين ، وربما كان سبب إهمالهم أن بعض الاتجاهات الثلاثة الأولى - الاتجاه الأول - كان من ضمن أفكاره فصل الدين عن الدولة . ولنقدم الآن كلمة قصيرة عنه لكى نتفرغ لما عداه .

* *

● مصدر فصل الدين :

كان مصدر هذا الاتجاه هم نصارى الشام سواء منهم مَن كان مقيماً به أو نزح إلى القاهرة . فقد كان النصارى فى البلاد الإسلامية عموماً لا يدينون بأى ولاء لدولة الخلافة إبَّان قيامها . ولما كثر الأخذ والرد حول الخلافة فى آخر عهدها ، وبعد سقوطها ، وظهرت دعوات لإحيائها من جديد ، تقدَّم نصارى الشام بهذا الاقتراح لأنهم رأوا فيه مواءمة لأوضاعهم ، وقضاء على كثير من أسباب القلق والحساسيات التى كانوا يشعرون بها فى المجتمعات الإسلامية . وقد سبق لنا القول بأن نصارى الشام كانوا أسبق العرب تلقياً للحضارة الغربية ، وإعجاباً بها ، وأنهم أسهموا إلى حد بعيد فى مناصرة تلك الحضارة ومعاداة الإسلام ؛ لأنهم - فى الغالب - تلاميذ المبشِّرين والمستشرقين وعملاء للاستعمار الفرنسى ، فصدور هذه الدعوة عنهم ليس بغريب ولا بمستنكر ، وقد اشترك كثير منهم فى الحملة التى شُنَّت على الإسلام فى مصر بعد رحيلهم إليها ، وإصدارهم صحفاً ومجلات فيها ، فبشارة الخورى وإميل زيدان ويعقوب صروف كان لهم

نشاط صحفى معادٍ للإسلام أسهم إلى مدى بعيد فى الترويج لفكرة تطوير الإسلام وإعادة تفسيره . كما كان لبعض أقباط مصر جهود مبذولة فى هذا المجال مثل سلامة موسى ولويس عوض وإسكندر المعلوف وابنه عيسى إسكندر المعلوف . وبعضهم تجاوز الدعوة الهادئة لفصل الدين - الإسلام - عن الدولة ، إلى مهاجمة الإسلام نفسه فى أساليب مَقنَّعة حيناً ، وسافرة حيناً آخر . ومعروف أن فصل الدين عن الدولة مبدأ نادى به الثوار فى فرنسا وطبقوه ضد المسيحية فعلاً لما رصدوه من مساوىء رجال الدين هناك . وأساليبهم العقيمة فى التوجيه ومعاداتهم للعلم والعلماء ، وسلبهم لحريات الشعوب ، ومساوىء سيرتهم الشخصية . فالدعوة إلى فصل الدين - الإسلام - عن الدولة فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية واحدة من أبرز سمات الحضارة الغربية الحديثة ، ونوع من أنواع التطوير الذى أريد إدخاله على الإسلام ، أما قصر الدين على أنه علاقة بين العبد وخالقه فهذا ما انتهى إليه الفكر الغربى العلمانى ، مع جعل الدين خاضعاً لمبدأ الحرية : مَن شاء أن يتدين فليتدين . ومَن شاء أن لا يتدين فذلك من حقوقه التى يكفلها له الدستور العلمانى بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩

*   *

● مصدر الاتجاه الرافض قطعاً :

والكلام على هذا الاتجاه قصير ، لذلك قدَّمناه على الاتجاهين الآخرين اللذين هما :

* القبول المطلق لحضارة الغرب بلا شرط ولا تحفظ .

* النظر فى الحضارة الغربية الوافدة لقبول الصالح ورفض ما عداه .

أما مصدر الاتجاه الرافض مطلقاً فلن نكون حائدين عن الحقيقة إذا قلنا إن مصدر هذا الاتجاه هو الأزهر . فقد مَرَّ بنا مرات عديدة أن الأزهر وقف وقفات صامدة أمام مطامع الإنجليز فى مصر ، وأمام مطامع فرنسا من قبل . وكم حاول

اللورد كرومر أن يتمكن من مَدِّ يده إلى الأزهر ليطوِّر مناهج التعليم فيه بما يناسب السياسة البريطانية ، وكان الأزهر له بالمرصاد فلم يتمكن من ذلك فاتجه كما تقدم إلى خلق أنماط من التعليم تناوىء طبيعة التعليم الدينى الوطنى فى الأزهر . وكانت كلية ڤيكتوريا التى أنشأها كرومر فى الإسكندرية ، واستقدم لها مدرسين من الإنجليز ، ووُضِعَت مناهجها بعيداً عن أية رقابة محلية ، كانت تلك الكلية إحدى منافذ التغلب على صلابة الأزهر ، ورفضه لكل مظاهر الحضارة الغربية الرامية إلى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ؟

وكانت مدرسة القضاء الشرعى هى المنفذ الثانى للتغلب على صلابة الأزهر فى الجوانب التشريعية ، بعد التغلب عليه فى الجوانب التعليمية .

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد للأزهر ضد مطامع الاستعمار ، بل كان هو الذى شهر السلاح فى وجه الحملة الفرنسية وقاومها عسكرياً فى كل مكان ، وكان طلأبه يُشعلون النيران فى « عممهم » ويستعملونها قذائف يلقونها على تجمعات العدو ، وهو الذى جمع شمل الأمة فى مصر مسلمين وأقباطاً ، وكوَّن جبهة موحدة ضد الخطر الأوروبى ، وكان علماؤه يقودون الحملات ويوقعون البيانات ضد العدو الوافد .

لقد رفض الأزهر كل البدائل التى طرحتها أوروبا عوضاً عن الإسلام ، ووقف فى شموخ يرد على الأعداء طعناتهم فى نحورهم ، كما وقف أمام أباطيل دعاة التطوير من أمثال الدكتور طه حسين ، وعلى عبد الرازق ، وقاسم أمين وغيرهم . ومواقف الأزهر المجيدة هى التى حملت أمير الشعراء أحمد شوقى على وضع قصيدة رائعة فى مدح علماء الأزهر وطلأبه يقول فى بعض أبياتها :

قم فى فم الدنيا وَحَيِّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واخشع مليا واقض حق أئمـة ... طلعوا به زهراً وماجـوا أبحـرا

كانوا أجلَّ من الملوك جلالــة وأعزَّ سلطاناً وأعظم مظهرا

يا فتية المعمور سار حديثكم نداً بأفواه الركاب وعنبــرا

ومَن أراد المزيد فليرجع إلى مصادر تاريخ مصر الحديث ، وبخاصة : تاريخ الجبرتى ، والرافعى ، والأزهر فى ألف عام : للأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، فإن فيها حديثاً خالداً عن الأزهر ودوره فى الحفاظ على مقدسات الدين ، وحقوق الوطن .

* *

● القبول غير المشروط لحضارة الغرب :

هذا الاتجاه من أخطر ردود الأفعال لزحف الحضارة الغربية على مصر ، وما صاحبها من الدعوة إلى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وكان من أبرز دعاته فى مصر : سلامة موسى ، إميل زيدان ، طه حسين ، أحمد لطفى السيد - أستاذ طه حسين - ولهؤلاء أعوان كثيرون لغطوا لغطاً واسعاً حول الحضارة الغربية ، والاهتمام بها ، والترويج لها فى الأوساط المصرية ، وكانوا يتحركون فى حرية ، ويكتبون فى جرأة ؛ لأن رموز الاستعمار الإنجليزى فى مصر كانت تحميهم وتشجعهم . وقد تقدمت الإشارة أن مصر فى ذلك العهد كانت ولاية إنجليزية بكل معانى الولاية .

* *

● شواهد من أعمالهم :

ومن المستحسن أن نضع بين يدى القارىء نماذج من أعمال مَن أشرنا إليهم ، وهى بمثابة شواهد وأدلة قاطعة على انحراف أولئك النفر وعبادتهم لحضارة أوروبا عامة ، ومصالح سادتهم الإنجليز خاصة .

● إميل زيدان وحرية الفكر :

كان من الأبواق المرددة لمبادىء الغرب « إميل زيدان » رئيس تحرير مجلة الهلال وفتذاك . وكان مما كتب مقال نشره بالهلال عام ١٩٢٤ وهو افتتاحية عدد نوفمبر .. ومما جاء فيه :

« فكل الأنبياء والمصلحين كانوا أحرار الذهن معتقى الفكر ، كل الأنبياء كانوا من أعداء القديم البالى ، كل الأنبياء والمصلحين تمردوا على النظم السارية والأراء الشائعة .. » .

ويدعو إميل زيدان إلى أن « ينظروا إلى الأشياء كما هى لا كما رآها أسلافهم » ؟! .

ثم يقول فى نهاية مقاله : « حرر فكرك ، واتبعه حيثما يذهب بك » (؟!) .

وخطورة هذا الكلام على قِصَره هو الدعوة كما ترى إلى التمرد على القديم البالى ، وما القديم البالى عندهم إلا الإسلام (؟!) ثم الدعوة إلى التمرد على ما رآه السَلَف ، وما السلف عندهم إلا خلفاء صاحب الدعوة وصحابته وعلماء الأمة الأعلام (؟!) ثم انظر كيف روَّج الكاتب لهذا الباطل الذى يدعو إليه (؟) وكيف زيّنه أمام القراء .. فزعم أن الأنبياء قاموا بهذا الدور من قبل ، فحاربوا القديم ، وتمردوا على ما رآه السَلَف (؟!) وهل القديم الذى حاربه الأنبياء .. وهل السَلَف الذين تمردوا هم على عقائدهم ، مثل القديم ومثل السَلَف الذين يحرص إميل زيدان على التمرد عليهم ، ومحاربة قديمهم (؟!) .

إن الأنبياء حاربوا قديماً هو الكفر والوثنية والظلم والفسق والفجور ، وإن السَلَف الذين سفَّه الأنبياء عقولهم وآراءهم ومعتقداتهم هم الذين ملأوا الأرض فجوراً وفساداً وكفروا بالله وعبدوا النار والكواكب والحيوانات من دون الله . إن إميل زيدان يعرف هذا تماماً ، ولكنه يكتم الحق من أجل تمرير مبادىء الحضارة الغربية ، وترسيخ أقدامها فى بلاد الإسلام . ولم تكن مشاركة إميل زيدان مقصورة على ما يقوله هو ، ولكن الرجل جعل من المجلة التى كان يرأس تحريرها منبراً للغض من شأن الإسلام . ومناصرة الحضارة الغربية عليه . وإذا

شاء القارىء فليعد إلى أعداد المجلة الصادرة إبَّان احتدام المعركة بين خصوم الحضارة الغربية وأنصارها ، فإنه سيجد مئات المقالات التى تدعو فى وضوح - ووقاحة أحياناً - إلى هجر الإسلام واحتضان الحضارة الغربية فى أى شكل من أشكالها . وقد رصدنا من قبل بعض جهود « الهلال » فى هذا المجال ورجونا القارىء أن يستكمل التجربة بنفسه . ولم تكن الهلال أوحدية فى هذه الدعوة ، بل إن صحفاً كثيرة من صحف تلك الفترة تبنت هذه الدعوة ، وأخلصت لها . وهذا يريك إلى أى مدى كان « جب » صادقاً حين امتدح الصحافة المصرية لإسهاماتها فى قبول الحضارة الأوروبية ، وتأثيرها على تكوين رأى عام موال للغرب ، وأن مديرى تحريرها كانوا - كلهم - من التقدميين الذين باعوا وطنهم لأعداء الأمة .

*

● نموذج من منشورات الهلال :

وإليك نموذجاً آخر من منشورات الهلال . وهى فقرات من مقالات نشرتها الهلال لسامى الجريدينى - من عدد نوفمبر إلى عدد مايو ١٩٢٤ - يقول سامى الجريدينى :

« ميزة المدنية الغربية : النظام والحرية ، النظام المستمَد من القانون أو من الشريعة . والخضوع لهذا النظام ، أو لهذه الشريعة ، باعتبار أنها تمثل الهيئة الاجتماعية .. وباعتبار أن الخضوع لها مصلحة للفرد وللجمعية ، ويفقد النظام مزيته ، وتفقد الشريعة قيمتها إذا كان الخضوع لها على اعتبار أنها إرادة قوة لا تُرَد ، أرضية كانت هذه القوة أو سماوية . فالشريعة ، وهى ما يعبِّرون عنه بكلمة (Law) أو (Loi) ليست مشيئة القوى ، بل محاولة الوصول إلى العدل ، ولذا كان من أركانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير ، حتى تبلغ أسمى مطامح الإنسان الأدبية » (؟!) .

واضح جداً من هذا الكلام أن الكاتب يدعو إلى خضوع الشريعة للتطوير « تنمو وتتغير » وأنه ينفى عن الشريعة صفة القداسة بقوله : « وتفقد الشريعة

قيمتها إذا كان الخضوع لها على اعتبار أنها إرادة قوة لا تُرَد » والقارىء يعلم أن هذا الوصف الذى ينفيه الكاتب هو من أخص خصائص شريعة الإسلام :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾ (١)

ويقول كذلك : « إن الحضارة الغربية كانت فى أول أمرها مثل الحضارات الشرقية تقدِّس الشريعة على أنها إرادة واحد قهَّار - يعنى اللّه سبحانه وتعالى - لا على أنها عدل (؟) وعلى أنها لا تتغير إلا بمشيئة السيد ، وما مشيئته إلا حاجة فى نفسه (؟!) إن كان أرضياً ، أو أحجية لا تُفسَّر إن كان سماوياً » (؟!) .

ليتأمل القارىء الكريم هذا الكلام . وكيف يسخر الكاتب - ضمناً - من عقيدة المسلمين فى أن شريعة اللّه هى إرادة الواحد القهَّار ؟! ثم كيف وصفها بعد ذلك بأنها ألغاز لا يفهم لها معنى ؟! وهدف الكاتب جد ظاهر . وهو تهيئة عقول المسلمين لما يُراد بإسلامهم .

هذه نماذج مما كانت تنشره « الهلال » لتهيئ الجو لقبول تطوير الإسلام وإعادة تفسيره على أسس عصرية مستمَدة من حضارة الغرب ، تلك الحضارة التى وضعت « الدين » فى « لفافة » ثم ألقت به فى مقالب « قمامات » التاريخ ؟!

* *

● سلامة موسى :

عاش سلامة موسى حياته كلها حاقداً على الشرق والعروبة والإسلام ، تشهد بذلك كتبه ومقالاته كلها . فقد كان واحداً من الذين أمرنا اللّه أن نقول لهم : ﴿ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ (٢) ، وقد سبق لى أن قرأت كتب سلامة موسى

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) آل عمران : ١١٩

كلها ، كما كنت أتابع مقالاته التى كان يكتبها فى « الأخبار » فى آخر حياته . وكتبت عن فكره سلسلة مقالات فى مجلة « الدعوة » قبل توقفها عن الصدور - عام ١٩٨١ - بقرار من الرئيس محمد أنور السادات .

كان سلامة موسى مجنوناً بالحضارة الغربية حتى هلك ، ولكى لا نطيل فى عرض سمومه فإننا نقدمه للقارىء - الشاب - هنا من خلال كتابه « اليوم والغد » الصادر فى عام ١٩٢٧ وهى الفترة التى احتدم فيها الصراع بين أنصار القديم ، وببغاوات الجديد .

يقول سلامة موسى فى مقدمة الكتاب :

« كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى فى الأدب فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوروبا ، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى . وكلما زادت معرفتى بأوروبا ، زاد حبى لها وتعلقى بها ، هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سراً وجهراً . فأنا كافر بالشرق (؟!) مؤمن بالغرب » .

سلامة موسى حر فيما يحب وما يكره . ولكنه ليس من حقه أن يجعل الناس مثله يكرهون ما يكره ، ويحبون ما يحب ، ويكفرون كفره ، أو يؤمنون إيمانه .. ثم انظر إلى قوله : « أن نخرج من آسيا » هو يتحدث عن مصر والمصريين ، ومصر بلد إفريقى وليس آسيوياً ، فما الذى يقصده ذلك اللعين بالخروج من آسيا ؟ إنه يقصد الخروج من الإسلام ؛ لأن الإسلام هو الذى يربطنا بمهبط الوحى الأمين ، وبالقِبْلة الشريفة وهما فى آسيا ، وسلامة موسى خارج بطبيعة الحال من آسيا . إذن فهو يطالب المسلمين - وحدهم - بالخروج من آسيا وهى عبارة أراد بها : أن يرتد المسلمون عن إسلامهم ؟! فليست المسألة - إذن - مسألة تطوير الإسلام وإعادة تفسيره . بل هى عند هذا الشيطان هدم الإسلام كله (؟!) .

ويقول عن التعليم : « أن يكون تعليماً أوروبياً لا سلطان للدين عليه ، ولا دخول له فيه » (؟!) .

ويقول عن نظام الحكم : « أريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية ، كما فى أوروبا ، وأن يعاقَب كل مَن يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد ، أو المأمون ، أو توقراطية دينية » (؟!) .

ويزج بأنفه فى أمور لا تخص إلا المسلمين فيدعو إلى منع تعدد الزوجات وإلى تقييد الطلاق فيقول : « يعاقَب بالسجن كل مَن يتزوج بأكثر من امرأة ، ويَمنع الطلاق إلا بحكم محكمة » (؟!) .

ويقول عن الثقافة العامة : « نحن فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان » (؟!) .

ويسخر من الإسلام وشيوخه ومن كل مظهر إسلامى فيقول : « ... ولكن فى وسط الحكومة أجساماً شرقية ، مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد . ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة - يعنى المعارف والعلوم الإسلامية - ولنا أفندية قد تفرنجوا ، لهم بيوت نظيفة ، ويقرأون كتباً سليمة ، ولكن إلى جانبهم شيوخاً لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قارعة الطريق فى الأرياف ، ولا يزالوان يسمون الأقباط واليهود : « كفاراً » كما كان يسميهم عمر بن الخطاب من قبل ١٣٠٠ سنة » .

ويقول فى وصف الجامعة الإسلامية التى كانت الدعوة قد تكررت إليها فى أثناء ما كان سلامة موسى يكتب هذا الكتاب : « إن الرابطة الدينية وقاحة (؟!) فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا » (؟!) .

هذه فقرات وجيزة من كلام سلامة موسى . أما كتبه الأخرى فمملوءة بالإباحية والدعوة إلى الفسق والفجور . فهو يطالب - مثلاً - بإلغاء شُرطة الآداب ، وإرخاء العنان للفتى والفتاة حتى ولو قَبَّلا بعضهما فى الطريق العام ؟! ويؤيد فجوره هذا بأن فى أوروبا حدائق اسمها حدائق العشاق ، يجتمع فيها الفتيان

والفتيات فى لقاءات رومانسية حرة دون أية رقابة من الحكومة أو الأهالى . وإذا حدث أن شُرطياً نظر إلى فتى وفتاة يُقَبِّل أحدهما الآخر فإن الشرطى يُعاقَب ، لأنه أزعجهما وعكر عليهما صفو اللقاء ؟!

هذا هو سلامة موسى ، عاش حياته فاسقاً ماجناً ، داعياً إلى الفسق والفجور ، يزج بنفسه فيما لا يعنيه ، ويشرِّع للمسلمين قانوناً مخالفاً لشريعة ربهم . يكتب فى جرأة ووقاحة ، ويتطاول على قِيَم الأمة كلها ، ولم يكن يرضيه إلا أن تتحول مصر إلى دولة أوروبية علمانية لا تؤمن بدين ولا خُلُق . وإلا أن تصبح شوارع القاهرة كأحياء باريس : حب وغرام ، وكؤوس وعربدة وفُحش ؟!

* * *

الفصل السادس والعشرون

طه حسين

مهما كانت الدعوة إلى تصدير الحضارة الغربية وتطوير الإسلام وإعادة تفسيره . ومهما كان الداعون إليها فإن إبليسهم الأكبر هو الدكتور طه حسين ، لقد حمل هذا الرجل أوزاراً إلى أوزاره وبذل جهوداً مضنية لتحقيق غرضين عاش لهما كل حياته بعد عودته من جامعة السربون بباريس ..

* أحد الغرضين هو العداء المستحكم للإسلام والعروبة ، والمحاولات الدائبة للقضاء عليهما ، وتحويل مصر إلى دولة علمانية كافرة ؟!

* والغرض الأخر : هو إحلال الحضارة الغربية محل الإسلام فى مصر وفى غير مصر من بلاد المسلمين .

صال طه حسين وجال فى تهيئة المناخ لفرض الحضارة الغربية سلطانها على البلاد ، وكان الدكتور طه حسين يعلم علم اليقين أن فى مصر ثلاث عقبات ضخمة تقف أمام الزحف الحضارى الأوروبى ، وهى :

* الإسلام نفسه وسيطرته على عقول الناس ومشاعرهم .

* الأزهر والهيئات التى يشملها : ذلك المانع المحكم والحصن الحصين والعملاق المهيب . والثقافة التى يبثها بين الناس .

* ثم العروبة واللغة العربية .

هذه هى العقبات الثلاث التى أدرك طه حسين وغيره أهميتها فى هذا المجال . ولذلك كان المنادون بالإقبال على الحضارة الغربية يحاولون المساس بهذه القيم ،

ويُجهدون أنفسهم للنَيْل منها ليمهدوا الطريق أمام الحضارة الغربية بوجه خاص وتقليص ظل الإسلام فى البلاد ، أو إبطال مفعوله تماماً إذا استطاعوا ، والدكتور طه حسين قام بالعبء الأكبر فى هذه المجالات الثلاثة ، لا فى كتبه المتداولة فحسب ، بل فى مقالاته التى كان يكتبها للصحف والمجلات ، وفى أحاديثه العامة والخاصة كذلك . ومَن يقرأ أعمال طه حسين الكاملة يلمس صدق ما قلناه بكل وضوح ويُسر . ولذلك كان من غير المستطاع تتبع كل ما قاله الدكتور طه فى التغلب على العقبات الثلاث التى أشرنا إليها . فما علينا إلا ذكر بعض النماذج من أقواله ومواقفه لتكون الرؤيا واضحة .

* *

● مواقفه من الإسلام :

أكاد أجزم بأن الدكتور طه حسين لم يخلص الولاء للإسلام لحظة واحدة من حياته المعروفة . وإذا بدا لنا هذا الإحساس - أى ولاء طه حسين للإسلام - فى بعض مواقف نادرة . فذلك لدفع قالة السوء عنه ، ولاستمالة الرأى العام ، أو - على أقل تقدير - لمد جسر وهمى بين فكره وبين المجتمع الإسلامى الذى كان يعيش فيه . أو قُلْ هو نفاق وتملق للتمويه على العقول . أما أن يكون ولاءً صادقاً للإسلام ، فهذا ما لم يقم دليل واحد على صدقه من حياة طه حسين بطولها وعرضها .

ويتلخص الموقف الجامع لطه حسين من الإسلام فى ما تضمنه كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى سبقت الإشارة إليه مرات . فى هذا الكتاب بدت السخرية من الإسلام فى مواضع متعددة . وخشية الإطالة تدفعنا إلى الاكتفاء بالأمور الآتية :

* وضع الدكتور طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » على أساس علمانى بحت . والمحور الذى يقوم عليه كتاب « فى الشعر الجاهلى » هو الشك فى كل شئ مهما كان يقينياً أو غير يقينى . وهذا ما عُرِف بمذهب الشك الديكارتى .

* طبّق الدكتور طه حسين مذهب الشك هذا على « الشعر الجاهلى » وهو الذى كان قبل ظهور الإسلام ، وأحد عصور الأدب العربى .

* وطه حسين يعلم علم اليقين أن العصر الجاهلى له ارتباط وثيق العرى ببعض العلوم والقضايا الإسلامية ، مثل : تفسير القرآن الكريم - شرح الأحاديث النبوية - إعجاز القرآن الكريم - مسائل الفقه وأصول الفقه - اللغة العربية : أصولها وقواعدها ونحوها وصرفها وبيانها - ثم تاريخ العرب قبل الإسلام .

* ومع هذه « المسلّمات » أو « البدهيات » فقد بنى الدكتور طه حسين كتابه المذكور من ألفه إلى يائه على الشك فى وجود الشعر الجاهلى ، وزعم أنه مكذوب مختلق على عرب الجاهلية ، وأنهم لم يقولوه ولا علم لهم به . كما تشكك فى وجود بعض الشعراء الجاهليين ممن لهم دواوين شعر معروفة . وزعم أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهلية فى شئ (!) .

* وزعم أن الذين اختلقوا الشعر الجاهلى وافتروه ثم نسبوه إلى عرب الجاهلية هم السلَف من المسلمين الأوائل (؟!) .

* كما زعم أن السبب الذى دعا السلَف إلى افتراء الشعر الجاهلى هو أن يثبتوا « عربية القرآن » وأن يستعينوا به على شرح وتأويل الأحاديث النبوية (؟!)

*　　*

● مقلّد لا مبتدع ؟

وقبل أن نضع بين يدى القراء نماذج من أقوال طه حسين نحب أن نشير إشارة موجزة إلى أنه كان مقلّداً للمستشرقين ، ولم يكن مبتدعاً هذا القول .

فقد ادّعى هذه الدعوة المستشرق الدكتور « مرجليوث » . وسجّل دعواه هذه فى ثلاثة مصادر :

١ - مجلة الجامعة الآسيوية الملكية عام ١٩١٦ ثم سنة ١٩٢٥

٢ - دائرة معارف الأديان والعقائد فى مادة « محمد » .

٣ - فى كتابه « محمد » المطبوع سنة ١٩٠٥ [١] .

أما دعواه : أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة عرب الجاهلية فى شئ وإنما يمثلها القرآن . وأما الشعر الجاهلى فهو يمثل حياة المسلمين ، هذه الدعوى الماكرة الخبيثة أخذها الدكتور طه حسين عن المستشرق الإنجليزى « جب » أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد الأمريكية [٢] .

والآن نستأنف ما كنا فيه :

● تمهيد :

كان الدكتور طه حسين وهو يخط كتابه « فى الشعر الجاهلى » يدرك أن هذا الكتاب سيُسخط معظم الناس . وصرَّح بأنه لن يكترث لهذا السخط ، وأنه يكفيه رضا المستنيرين عما يقول . ويقصد من المستنيرين أولئك الداعين لفرض الحضارة الغربية على مصر ، ومنهم طلبة الجامعة فى كلية الآداب الذين تلقوا عنه مادة الكتاب فى صورة محاضرات قبل طبعه . هذا التمهيد مفيد لنا فى فهم ما سننقله عن الدكتور طه حسين فيما يأتى :

قال المؤلف فى إثبات أصل الدعوى وهى أن الشعر الجاهلى مكذوب :

١ - « فهى - أى الأشعار الجاهلية - منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهلية » (ص ٧) .

٢ - وقال : « وإنى أقدِّر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكنى مع ذلك لا أتردد فى إثباتها وإذاعتها » (ص ٧) .

*

---

(١) انظر : نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » ص ١٧ ، للإمام محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٦٦ وما بعدها .

● تعقيب :

النتائج الخطرة التى أشار إليها طه حسين يمكن توضيحها فيما يأتى :

إذا كان الشعر الجاهلى مكذوباً منتحلاً بعد ظهور الإسلام ، فإن الذين قد ارتكبوا هذه الجريمة هم رجال صدر الإسلام والروّاد من العلماء والمفسرين والفقهاء وعلماء الحديث واللغة . هؤلاء العلماء هم الذين تلقينا عنهم القرآن رواية ودراية ، وتلقينا عنهم أحاديث صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، كما تلقينا عنهم السيرة والتاريخ واللغة . لأنهم رواة ثقات أتقياء ورعة . فإذا ثبت - جدلاً - ما وصفهم به الدكتور طه حسين من تزوير الشعر الجاهلى أفلا يقدح هذا فى عدالتهم وينزع الثقة عنهم ويتسرب الشك إلى أصول الإسلام التى تلقيناها عنهم .. هذه هى النتائج الخطرة التى أشار إليها طه حسين ، ومع هذا يقول : إنه لن يتردد فى إثبات نظريته (تزوير الشعر الجاهلى) وإذاعتها .. ؟! أى أنه يتعمد الإساءة إلى الإسلام ويقصدها قصداً ؟!

* *

٣ - ويقول المؤلف : « وينتهى بنا البحث إلى نتيجة غريبة ، وهى أنه لا ينبغى أن يُستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن ، وتأويل الحديث .. أريد أن أقول : إن هذه الأشعار لا تُثبت شيئاً ، ولا تدل على شئ ولا ينبغى أن تُتخذ وسيلة إلى ما اتخذت إليه من علم بالقرآن والحديث ، فهى إنما تُكُلِّفَت واخْتُرِعَت اختراعاً ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا (به) عليه » (ص ٩) .

٤ - ويقول : « يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى قوميتنا - يعنى العروبة - وكل مشخصاتنا ، وننسى ديننا وكل ما يتصل به (؟!) ننسى : ما يضاد هذه القومية ، وما يضاد هذا الدين .. ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا ، وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة ، وإرضاء هذه العواطف » (؟!) (ص ١٢) .

*

• تعقيب :

إذا جاز للإنسان أن ينسى شيئاً فلا يجوز له أن ينسى دينه مهما كانت المبررات ؛ لأن نسيان الدين (وهو هنا الإسلام) معناه أن الإنسان انسلخ عن أسباب الهداية ، وصار شيطاناً أو كالشيطان وما الذى يدعو طه حسين لينسى دينه - إن كان له دين يحترمه حقاً ؟!

الغاية هى أن يثبت أن الرعيل الأول من المسلمين كذّابون دجالون ، وهل إذا أثبت طه حسين هذه المزاعم عن طريق نسيان الدين . هل سيبقى له دين يعود إليه فيتذكره ؟!

* *

وينعى طه حسين على الرعيل الأول من المسلمين شدة حبهم للإسلام وأن حبهم للإسلام هو الذى أفسد العلم وحملهم على التزوير ؟!

يقول : « كان القدماء مخلصين فى حب الإسلام فأخضعوا كل شئ لهذا الإسلام وحبهم إياه . ولم يعرضوا لمبحث علمى ، ولا لفصل من فصول الأدب ، أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام ويعزه ، ويعلى كلمته (؟!) فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه . وما نافره انصرفوا عنه انصرافاً » (؟!) (ص١٢) .

ثم يقول : « ولنجتهد فى ألاّ نتأثر كما تأثر القدماء . وألاّ نفسد العلم كما أفسدوه (؟!) لنجتهد فى أن ندرس الأدب غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه » (؟!) (ص ١٣) .

* *

• تعقيب :

كراهية الدكتور طه حسين للإسلام بدت بكل وضوح فى هذا الكلام ، فبعد أن عاب السَلَف على حبهم الشديد للإسلام ، جعل حبهم للإسلام هو الذى أفسد العلم . وليس فى علوم الإسلام علم فاسد إلا فى أوهام تلميذ المستشرقين والمبشِّرين طه حسين . ثم تراه بعد ذلك يدعو القراء كما دعا طلبة الجامعة من

قبل إلى تجنب الخطأ الذى وقع فيه السَلَف ، وهو - عنده - حبهم للإسلام الذى أفسد العلم (؟!) ثم حدد لهم منهج البحث فى أن لا يهتموا بنُصرة الإسلام أو النعى عليه أو تمجيد العرب أو الحط من قدرهم ، وكراهية الإسلام والعروبة هى المنهج العلمى السليم عند طه حسين الذى يذيعه بين الناس ويروِّج له .. تُرى ما حظ رجل من الإسلام يستهين به إلى هذا الحد ؟!

* *

● لولا مجادلة القرآن العرب ما كانت له قيمة (؟!) :

بلغ الاستخفاف بالإسلام عند الدكتور طه حسين أقصى مدى يتصوره الإنسان . ومظاهر هذا الاستخفاف متعددة ، وقد ذكرنا بعضاً منذ قليل ، وتعال معى الآن إلى مظهر آخر قبيح كل القبح من مظاهر استخفاف طه حسين بالإسلام . فهو ينظر إلى القرآن العظيم - أساس الإسلام الأول - على أنه كتاب عادى من كتب الفكر والجدل ، أو العلم والأدب من صنع البَشر ، يجيدون فى موضع ويسيئون فى آخر فيكتسب فكرهم قيمة من حيث أجادوا لا من حيث أسَئُوا . تطبيق هذا أن الدكتور طه حسين نظر إلى القرآن ، وقلَّب فصوله فلم يجد فيه إلا فصلاً واحداً جعل له قيمة عند الذين عارضوه ، والذين أيَّدوه على حد سواء ؟! ذلك الفصل هو مجادلة القرآن لطوائف من عرب الجزيرة سفَّه القرآن أحلامهم وعاب عقائدهم . يذهب طه حسين عميل الاستشراق والتبشير أن القرآن لو كان قد خلا من مجادلة العرب لما كانت له قيمة عند أحد من خصومه أو مؤيديه . وإليك كلام الدكتور طه حسين بالحرف الواحد :

يقول الدكتور فى (ص١٧) : « ولولا ذلك لما كانت له - أى القرآن - قيمة ولا خطر ؟! ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه أو أيَّدوه . وضحوا فى سبيل تأييده بالأموال والحياة » (؟!) .

ويترتب على هذا اللغو الباطل أن القرآن العظيم لا يحمل الآن أية قيمة

لذهاب الذين كان يجادلهم من العرب ، ولذهاب الذين وقفوا لهم بالمرصاد ليدفعوا عن القرآن كيد المعاندين ؟!

كما يترتب على هذا اللغو والعبث الشيطانى أن ما بقى من القرآن بعد الفصول التى جادل فيها عرب الجاهلية لم يكن يحمل أية قيمة لا فى عصر النزول ولا بعد عصر النزول إلى الآن ؟!

ومن حقنا أن نتساءل : ألم يقرأ الدكتور طه قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ ؟ (١) .

أوَ لم يقرأ كذلك قول الحق : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٢) ؟

إن قيمة القرآن فى كل كلمة فيه ، وهو كلمة الله الأخيرة إلى عباده وليس بعده كتاب . فرّق بين الحق والباطل ليهلك مَن هلك عن بيِّنة ويحيى من حىٌّ عن بيِّنة . فكيف حصر طه حسين قيمة القرآن فى جدله لعرب الجاهلية خاصة ؟ أهذا كلام يصدر عن مسلم « أمِّى » فضلاً عن رجل يحمل درجة الدكتوراة لولا أن فى القلوب زيغاً ، وفى الآذان وقراً . وعلى الأبصار غشاوة ؟!

* *

● **المستنيرون هم الكفار (؟!) :**

كلنا نعرف أن الناس وقفوا من الدعوة فى عصر الرسالة مواقف مختلفة : منهم مَن آمن بها وأطاع الله ورسوله ، وهم أصحاب النبى ﷺ . ومنهم مَن كفر وعاند وحارب الدعوة وصاحبها والمؤمنين بها ، وهم كفار العرب . ومنهم مَن ترقب وانتظر . فإذا وضعنا أمام القارىء سؤالاً حاصله :

مَن هم المستنيرون المهتدون ذوو الفطر السليمة ؟! هل هم الذين سارعوا إلى

---

(١) الإسراء : ٩ (٢) المائدة : ١٥ - ١٦

الإيمان وفيهم نزل قول الحق : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (١) أم هم الذين كفروا بالله ورسوله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؟!

إن الإجابة التى تتبادر إلى ذهن القارىء ويلهج بها لسانه معبراً عما فى قلبه : إن المستنيرين المهتدين هم الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله . وقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (٢) هذا هو الحق .

أما الدكتور طه حسين فيقول : إن المستنيرين المهتدين هم الذين كفروا بالله ورسوله وجادلوا صاحب الدعوة فيما جاء به من عند الله ، وإليك قول الدكتور « الموتور » من الإسلام بالحرف الواحد .. قال فى (ص٢١) : « فالقرآن إذاً يمثل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة (؟!) فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبى يجادلهم ويجاهدهم (؟!) وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة أو امتياز ، والذين كانوا موضوع النزاع بين النبى وخصومه . والذين كان النبى يتألفهم بالمال أحياناً » (؟!) .

*

● همز ولمز :

النبى عليه السلام كان يجادل أبا جهل وأبا لهب وغيرهما من رءوس الكفر وهم عند طه حسين الممتازون المستنيرون (؟) أما كبار الصحابة ومَن أسرع إلى إجابة الدعوة كأبى بكر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وعمر بن الخطاب فهؤلاء لم يكن لهم حظ من استنارة ولا امتياز (؟!) أهذا كلام يصدر عن مؤمن صادق الإيمان ؟!

ثم انظر إلى عبارات الهمز واللمز . فالعرب فى عصر النبوة كانوا فريقين عند الدكتور العميد : مستنيرين وهم الكفار ، وغير مستنيرين وهم الذين أسلموا . وهنا يهمز طه ويلمز ويقول إن النبى ﷺ كان يستميلهم بالمال أحياناً . ومعنى

---

(١) التوبة : ١٠٠ (٢) آل عمران : ٨

هذا الكلام أن يوهم طه قرآء كتابه أن مَنْ أسلم مبكراً من العرب لم يُسْلِم لأن الإسلام جذبه إلى الإيمان بل كانوا مرتشين أسلموا طمعاً فى المال (١) ؟!

* *

● بعض ما ورد فى القرآن مردود ما لم يؤيده دليل آخر :

القرآن كله حق وصدق . هذه عقيدة المسلم الخالص الإيمان . والقرآن نفسه يقرر هذه العقيدة : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .. ﴾ (٢) ثم : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (٣) .. أما الدكتور طه حسين فلا يرى ما يقصه القرآن من الأخبار صادقاً إلا إذا أيّده دليل آخر من خارج القرآن ؟! هكذا ورب السموات والأرض . فاسمع إلى دكتور الغرائب والأراجيف وهو يقول :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل . وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً . ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ... » (؟!) (ص ٢٦) .

*

● خطورة هذه المزاعم :

إذا كان القرآن عند طه حسين حين يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فإن حديثه لا يكون دليلاً قاطعاً على وجود إبراهيم وإسماعيل فى الزمن الذى أشار القرآن إلى وجودهما فيه : التاريخ القديم - فإنه لا يكون صادقاً - حاش اللّه - حين يتحدث عن نوح وموسى وهارون وإسحق ويعقوب وهود ، ويونس ، ويوسف وصالح وزكريا ويحيى وعيسى وإدريس وداود وسليمان ،

---

(١) يستغل طه حسين هنا واقعة « المؤلفة قلوبهم » وهذه مغالطة منه ، لأن المؤلفة قلوبهم نفر محدودون ، وليست ظاهرة عامة .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ (٣) النساء : ١٢٢

واليسع ؟! بل وحين يتحدث عن آدم أبى البَشر نفسه ؟! هذا هو العلم الصحيح الذى يثبته طه الأراجيف ليحل محمل العلم الفاسد الذى أفسده (القدماء) أو السَلَف الصالح لأنهم أحبوا الإسلام وأخلصوا له الولاء ؟!

أليس فى هذه المزاعم - عزيزى القارىء - هدم للتاريخ النبوى كله ؟!

ثم يدّعى - بعد ذلك - أن القرآن تأثر ببعض شعراء الجاهلية كأمية بن أبى الصلت ، وامرىء القيس ؟! وأن القرآن كان يتصيد الأساطير والخرافات ويسجلها فى آياته إذا رأى فيها مصلحة للدعوة ؟!

* *

• الهدف الذى كان يسعى إليه :

نكتفى بهذا القَدْر - الآن - من الاستشهاد بنصوص الدكتور طه حسين التى وردت فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » على مواقفه من الإسلام الذى كانت أوروبا - وما تزال - تعمل جاهدة على إزالته من حياة المسلم ، ثم جنّدت طه ورفاقه ليقوموا بهذه المهمة من الداخل .. نكتفى بهذا القَدْر لندلف مباشرة إلى بيان الهدف الذى كان يسعى إليه طه حسين :

• بَشرية القرآن :

إنه كان يسعى للقول ببَشرية القرآن ؟! أى أنه من تأليف محمد ﷺ وليس وحياً من عند الله ؟! صحيح أن طه حسين لم يصرِّح بهذا - لحاجة فى نفس يعقوب - ولكنه وضع بدل الإفصاح الصريح فقرات وجملاً مَن تأملها أدرك أن نتيجتها الحتمية هى أن مصدر القرآن بَشرى أرضى ، وليس سماوياً إلهياً . وهذا الباطل مطلب مهم عند خصوم الإسلام قال به كثير من المستشرقين والمبشِّرين ومنهم مَن كان أستاذاً لطه حسين حتى بعد حصوله على الدكتوراة من باريس كعبة الدكتور طه ومثله الأعلى فى الحياة .

* *

● موقف طه حسين من العروبة ولغتها :

عرفنا موقف طه حسين من الإسلام واستخفافه به وسخريته منه ، وكراهيته إياه وكيده له . ونوجز الحديث فيما يأتى عن موقفه من العروبة ولغتها وتراثها ، مع الإشارة إلى سبب خاص قد حمله على هذا الموقف ، فضلاً عن السبب العام الذى أشرنا إليه من قبل وهو التمهيد للحضارة الغربية لتفرض سلطانها على مصر باعتبارها تمثل مركزاً إسلامياً فريداً بتاريخها الإسلامى العريق ، وكثافتها البَشرية ، وما فيها من منابع العلوم والمعارف الإسلامية .

وموقف طه حسين من العروبة ولغتها لايقل خطورة وشناعة عن موقفه من الإسلام الذى سجلناه فيما تقدم .

● عروبة زائفة :

وأول ما يفجؤك من أراجيف طه حسين عن العروبة ادعاؤه أنها عروبة زائفة مزوَّرة لا أصل لها فى الواقع ، ولا سند لها من التاريخ . وأن مَنْ يُسمَّوْن عرباً - قديماً وحديثاً - جموع من الناس لم يكونوا يعرفون لهم أصلاً سلالياً إلى أن كذب اليهود عليهم كذبة لحاجة فى أنفس اليهود ، فصدَّقوها وقالوا : نحن عرب ؟!

والموضوع فى إيجاز : تحدث القرآن أكثر من مرة عن هجرة إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وأبيه إبراهيم إلى مكة . وأن أباه تركه وأمه عند البيت الحرام ، ودعا لهما بالخير والنماء . وقد جاء ذلك فى سورة إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتى بِوَادٍ غَيْرِ ذى زَرْعٍ عندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) ابراهيم : ٣٧

واضح من السياق أن إبراهيم دعا لولده إسماعيل وأمه بأمرين :

الأول : أن يسوق الله إليهم عشيرة من البَشر تؤنسهم ؛ لأنهما كانا وحيدين بمكة .

والآخر : أن يرزقهما الله من الثمرات .

ثم جاء فى سورة البقرة ما يؤكد أن إسماعيل ظل بمكة فى رعاية الله حتى بلغ أشده وساعد أباه فى بناء الكعبة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (1) .

هذا .. وقد تقبل الله دعاء إبراهيم عليه السلام حين ترك ابنه وأمه بوادٍ غير ذى زرع :

* فرزقهم من الطيبات وفجَّر بئر زمزم يتدفق ماؤها عذباً زلالاً سلسبيلاً .

* ثم ساق إليهم قبيلة « جرهم » اليمنية فأقامت بنفس المكان الذى أقام فيه إسماعيل لما رأوا أسباب الحياة التى نشطت فى هذا الوادى . وتزوج إسماعيل من قبيلة جرهم ، وتعلَّم اللغة العربية بطول المعاشرة لهم ، ونسى اللغة العبرانية لغة أبيه الخليل عليه السلام .

هذه الحقائق كلها ، وبعضها ثابت بالقرآن القطعى الدلالة والثبوت ، ينكرها طه حسين ، ويقول : إنها كذبة يهودية أو أسطورة من أساطير التاريخ القريب من الإسلام ؟!

وإليك قوله بالحرف معلقاً على هذه القصة - قصة الهجرة إلى مكة :

« ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين : اليهود والعرب من جهة . وبين : الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى .. » ؟! (ص ٢٦) .

---

(١) البقرة : ١٢٧

والذى نريد تسجيله الآن أمام القارىء أن المؤلف (طه) يرمى القرآن بالكذب ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (١) يرميه بالكذب – هنا – فالهجرة لم تحدث ؟!

ورماه بالكذب من قبل حين ادّعى أن ورود ذكر اسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى القرآن لا يكفى فى إثبات وجودهما التاريخى ؟!

● القصة من اختراع اليهود (؟!) :

يجزم طه حسين أن قصة الهجرة بشقيها :

* هجرة إسماعيل وأمه إلى مكة .

* وهجرة قبيلة جرهم اليمنية إلى مكة كذلك .

يرى طه أنها قصة مكذوبة مخترعة ، ثم يمضى فى باطله وهذيانه فيقول : إن اليهود الذين فى شمال شبه الجزيرة العربية (يثرب – المدينة) هم الذين اخترعوها دهاءً ومكراً ، لأنهم نزلوا أرضاً ليست لهم ، فدارت الحروب بينهم وبين أصحاب الأرض . فاهتدى اليهود لاختراع هذه القصة ليوهموا أصحاب الأرض أن بينهم وبين اليهود صلة . فاليهود أبناء إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . وأصحاب البلاد هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم ، فهما – إذن – أبناء أعمام ؟! يقول طه فى (ص٢٦) :

« فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبَّت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد . وانتهت إلى شئ من المسالمة والملاينة ، ونوع من المحالفة والمهادنة .فليس يبعد أن يكون هذا الصلح ، الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد (هو) منشأ هذه القصة ، التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام » (؟!) .

*

(١) الكهف : ٥

والحقيقة التى يجب تسجيلها هنا هى : أن هذه القصة المكذوبة سجلت فى القرآن لأهداف دينية وسياسية ، فالأهداف الدينية هى إثبات الصلة المادية بين الإسلام والقرآن من جهة ، واليهودية والتوراة والنصرانية والإنجيل من جهة أخرى ؟!

أما الأهداف السياسية فهى تقوية شوكة الإسلام بأهل الديانتين القديمتين - اليهودية والنصرانية - فى مواجهة الحروب التى كان يشنها العرب الوثنيون ضد الإسلام ؟! يقول المؤلف فى (ص ٢٧) :

« لكن هذه الصلة الدينية - يعنى بين الأديان السماوية - معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب - يعنى المسلمين منهم - وبين أهل الكتاب . فما الذى يمنع أن تُستغل هذه القصة : قصة القرابة المادية بين العرب العدنانيين وبين اليهود » (؟!) .

وقبل هذا بقليل قال : « ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام ، وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد ، وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود » (؟!) .

فالإسلام عند طه حسين تصيَّد هذه الأكذوبة أو الأسطورة وسجَّلها على أنها حقيقة واقعة ؛ لأنه محتاج إليها لتحقيق الأهداف التى أشرنا إليها .

* *

● الصوت والصدى :

وما قاله طه حسين هنا صدىً لصوت أحد أساتذته صاحب « ذيل مقالة فى الإسلام » .. وإليك قوله الذى يردده طه مع شئ من التصرف : « ولما ظهر

الإسلام رأى محمد - ﷺ - المصلحة فى إقرارها فأقرها . وقال للعرب : إنه إنما يدعوهم إلى مِلّة جدهم هذا الذى يعظمونه من غير أن يعرفوه » (؟!) .

قارن بين كلام طه وكلام صاحب « الذيل » تجد المعنى واحداً ، سوى أن صاحب الذيل جاهر صراحة بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ . أما طه فعدل عن هذه المجاهرة خوفاً من سوء العواقب ولضمان رواج فكره ؛ لأنه كان يكتب فى بلد إسلامى للإسلام فيه عزة وقوة وله فيه أوس وخزرج .

* *

● أكذوبة روِّج لها ثلاثة أطراف (؟!) :

وينتهى طه الأراجيف إلى أن هذه الأكذوبة - حسب زعمه وزعم أساتذته - وجدت رواجاً لها عند ثلاثة أطراف فاكتسبت صفة الحقائق المسلّمة . وتلك الأطراف هى :

١ - اليهود ليُمكّنوا وجودهم فى البلاد التى استعمروها بادعاء قرابة نَسَبيّه بينهم وبين أهل البلاد (؟!) .

٢ - الإسلام - نفسه - لأنه رأى فى إثبات الأكذوبة مصلحة للدعوة الجديدة على النحو الذى شرحناه من قبل (؟!) .

٣ - قريش - نفسها - لأنها كانت قد حظيت بمدنية رائعة فى القرن السابع الميلادى ، وكانت تبحث لها عن أصل تاريخى أسطورى تستند عليه لدعم سلطانها فوجدته فى هذه الأكذوبة فقبلتها تواً وبلا مناقشة ؟!

لم نرد أن نطيل بذكر كلام الدكتور طه فى مزاعمه الأخيرة التى لخصناها وكلامه موجود فى (صفحات : ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠.) من كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

* *

● هدفان عام وخاص :

اجتهد طه أن يخدع الناس بأن العروبة وصف زائف مزوَّر . ولهذه الادعاءات الماكرة سبب عام حاصله : تحطيم العروبة لأنها بماضيها وحاضرها كانت تقف عقبة كؤوداً أمام الحضارة الغربية ، وإذا كانت العروبة زيفاً وزوراً فكذلك اللغة المنسوبة إليها . وقد عرفنا من قبل جهود طه هذا فى تدمير اللغة العربية وتشويه جمالها .

أما السبب الخاص فهو ارتباط العروبة ولغتها بالإسلام . وقد عرفنا من قبل موقف طه من الإسلام وكراهيته له . والحقيقة أن طه إذا هاجم الإسلام فإنه يهاجم فى الوقت نفسه العروبة ولغتها ، وإذا هاجم العروبة ولغتها فإنه فى الوقت نفسه يهاجم الإسلام . وإذا هاجم الأزهر فإنه يهاجم - ضمناً - الإسلام من حيث أنه إسلام ، والعروبة ولغتها لارتباطها بالإسلام .

* *

● سلخ مصر عن العروبة والإسلام :

ومن مظاهر العداء المزدوج للعروبة والإسلام عند طه حسين محاولاته مرات أن يسلخ مصر عن العروبة والإسلام ، ويقطع صلتهما بها ، وقد تضمن هذه المحاولات كتاب طه حسين « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى ظهر لأول مرة عام ١٩٣٨ . وادَّعى فيه أن مصر ليست عربية ولا شرقية . وأن الإسلام لم يؤثر فى عقول المصريين فظلت غربية وإن عاش الإسلام بين ظهرانيها أحقاباً طويلة ويقول : إن مصر ظلت كارهة للفتح العربى - يعنى الإسلامى - كما كانت كارهة لكل فتح أو غزو أجنبى قبل الإسلام ، وأنها عملت على صهر المغيرين عليها ولم تهدأ إلا باسترداد هويتها الأصلية فى عهد أحمد ابن طولون (؟!) .

ويقول : إن حضارة مصر الحديثة لا تزدهر إلا بعودتها إلى تاريخها القديم قبل الإسلام - يعنى الحضارة الفرعونية - واستلهام أصالتها منها (؟!) وأن

مصر لا تنتمى لا إلى الشرق القريب (بلاد العرب) ولا إلى الشرق البعيد . لا جغرافياً ولا حضارياً ، وإنما هى تنتمى إلى دول حوض البحر الأبيض (أوروبا الجنوبية الغربية) انتماءً جغرافياً وسلالياً وثقافياً وحضارياً (؟!) وأن أى تفكير لقيام نهضة مصرية معاصرة يجب أن يضع فى الاعتبار هذه الحقائق .

ويقول : إن بواكير هذه النهضة الحديثة قامت على حضارة أوروبا فى نظام الحكم والإدارة وطرق المعيشة ، وأنها لم تُستَمد من تعاليم الإسلام ولا نظمه (؟!) .

ويقول : إن الدين واللغة لا يصلحان لقيام وحدة بين الشعوب وإنما الذى يصلح هو تبادل المنافع بين الشعوب ، ويسخر من أحد شيوخ الأزهر الذى أدلى بحديث إذاعى قال فيه : إن أى وحده للمسلمين يجب أن تكون وجهتها « القبْلة » - يعنى الكعبة - هذا الحديث كان موضع استنكار من طه حسين ، لأن الإمام الأكبر ربط بين الوحدة الإسلامية وبين الكعبة التى هى رمز لوحدة العقيدة ، وعند الدكتور طه أن الدين شئ ، وأن السياسة شئ آخر . وأن الفصل بين الدين والدولة هو المبدأ الحديث الذى رقى إليه الفكر المعاصر ، وأن بعض ساسة المسلمين القدماء قد فطنوا إلى هذا المبدأ وطبقوه عملياً ... (؟!) .

هذا تلخيص سريع وأمين لبعض ما ورد فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » للدكتور طه حسين ، وأرانى الآن مديناً أو مطالباً أمام القرّاء بذكر نماذج من كلام طه لتكون خير شاهد وأصدق برهان على أننا لم نختلق على الرجل شيئاً مما لخصناه وليطمئن قلبه إلى صدق ما نقول ، وتوخياً لعدم الإطالة سنسوق النماذج دون تعليق مكتفين بما تقدم فى التلخيص :

١ - يقول الدكتور طه فى كتابه المتقدم ذكره (ص ١٦) :

« وأنا من أجل هذا مؤمن بأن مصر الجديدة لن تُبتكر ابتكاراً ، ولن تُخترع اختراعاً ، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة - يقصد الفرعونية - .... ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر فى مستقبل الثقافة فى مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد » ؟!

٢ - ويقول ملخصاً لفقرة وصف فيها العقل المصرى بأنه عقل أوروبى غربى : « إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشئ فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط . وإن تبادل المنافع - على اختلافها - فإنه يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط (ص ٢١) ؟!.

ويقول فى (ص ٢٥) : « ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول .. فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للمُلْك ، وقواماً للدولة » .

ويقول فى (ص ٢٧) : « والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها - مصر - عن السلطان العربى بعد الفتح - يعنى الفتح الإسلامى لمصر - لم يبرأ من السخط ، ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها - مصر - لم تهدأ ، ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده » [١] .

ويقول فى نفس الصفحة : « فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو : أن السياسة شئ . والدين شئ آخر » [٢] ؟!

ويقول فى نفس الموضع : « فنلاحظ مرة أخرى أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد قليلاً ولا كثيراً ... » ؟!

*

(١) يقصد انتهاء حكم العرب الفاتحين .

(٢) يقصد فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ علمانى ابتدعته الثورة الفرنسية .

● سؤال وجواب :

ويسأل الدكتور طه حسين سؤالاً فيقول : « وجاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض ، وتلقته مصر لقاءً حسناً ، ... فاتخذته لها ديناً ، واتخذت لغته العربية لها لغة . فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى - يعنى الفرعونية - وهل جعلها ذلك أمة شرقية بالمعنى الذى يُفهم من هذه الكلمة الآن » (ص٣١).

ثم يجيب عليه فى حزم وبكلمة واحدة فيقول : « كلا » ؟!

* *

● إصراره على فرض الحضارة الأوروبية :

وفى هذا المعنى يقول (ص ٤١) : « وليس فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع بها عليه الأوروبيون » ؟!

ويقول فى نفس الموضع : « نظام الحكم عندنا أوروبى خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلاً فى غير تحرج ولا تردد . وإذا عبنا أنفسنا بشئ من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية » .

ويمتدح الدكتور طه حسين فريقاً من حكام مصر ؛ لأنهم عدلوا بها عن النظام الإسلامى إلى النظام الأوروبى فيقول :

« فالذين أرادوا أن يحكموا مصر حكماً مقيَّداً بالعدل ... كانوا يتخذون لحكمهم قيوداً أوروبية لا شرقية ، فهم قد أنشأوا المحاكم الأهلية وشرَّعوا القوانين المدنية ، واستقوا ذلك من النظم الأوروبية لا من النظم الإسلامية ، وهم قد وضعوا النظم الإدارية والاقتصادية وذهبوا فى ذلك مذهب الأوروبيين ، بل

نقلوا ذلك نقلاً عن الأوروبيين ولم يستمدوه مما كان مألوفاً عند ملوك المسلمين وخلفائهم » (ص٤٢) .

* *

● طه حسين والالتزام بالحضارة الأوروبية :

في النص الذي سننقله عن طه حسين بعد هذا ما يشبه الإخبار باتفاقية عُقدت بين مصر وبين أوروبا التزمت فيها مصر بأن تحذو حذو أوروبا في كل شئ . وترى مصر في كلام طه حسين جاثية على ركبها كالعبد الذليل يركع أمام سيده المهيب المطاع .فاسمع إلى كلام الدكتور ثم تأمل ما فيه من أمعية ذليلة :

يقول في (ص ٤٥) : « ولم يقف أمرنا عند هذا الحد ، بل نحن قد خطونا خطوات أبعد جداً مما ذكرت . فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلك طريقها في التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوروبا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ، ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلاَّ التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالَم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع » ؟!

يا تُرى .. أليست هذه عبودية لأوروبا يمجدها الدكتور طه حسين . إن ديدن هذا الرجل أن يدعو إلى الحرية ما استطاع إذا ووجه بالنظم الإسلامية والفكر الإسلامي والتشريع الإسلامي ؟! وأن يدعو إلى التبعية والعبودية إذا واجه الناس بالنظم الغربية والثقافة الغربية ، بل والإباحية الغربية ، أفلا تراه يدخل تحت الوصف الذي ذكره الله في كتابه العزيز ناعياً به فريقاً من خلقه : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] .

* *

---

(١) الزمر : ٤٥

● موقف طه حسين من الأزهر :

كان الأزهر هو العقبة الثالثة أمام الزحف الحضارى الغربى على مصر . وفى إطار الدور الذى قام به طه حسين فى التمهيد لتدفق الحضارة الغربية على بلاد الإسلام ، حارب الأزهر كما حارب الإسلام والعروبة ولغتها من قبل . فاتحاً بذلك أوسع الأبواب أمام الحضارة الغربية ، وقد أشرنا من قبل مرات لموقف الاستعمار وعملائه من السياسيين ، والأدباء والمفكرين والزعماء من الأزهر ، ومحاولة النَيْل منه وإنشاء دور للعلم تناوئه وتعزله عن الحياة .

وطه حسين حارب الأزهر باعتبارين كلاهما يساند الآخر ويقويه ، فهو من جهة موتور شخصياً من الأزهر ؛ لأن الأزهر كشف مبكراً منذ كان طه حسين طالباً فيه عن خبايا هذا « الرجل » وشرود فكره ، وأن الأزهر وقف من « كفريات » طه فى كتابه « فى الشعِر الجاهلى » موقفاً أملاه عليه واجبه نحو الإسلام .

ومن جهة أخرى حارب الدكتور طه حسين الأزهر إرضاءً لسادته من المستعمرين والمستشرقين والمبشِّرين ، وليمهد الطريق للحضارة التى تعادى الإسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة ، والأزهر وما يبثه من علوم فلا عجب - إذن - أن يجند طه حسين كل طاقاته الفكرية لتحطيم الأزهر وعلومه ومعارفه وثقافاته . وكانت حرب طه حسين للأزهر تتخذ عدة منافذ :

* منها كتبه التى ألَّفها مثل الأيام ، ومستقبل الثقافة فى مصر ، الذى قدمنا منه نماذج فيما سبق .

* ومنها مقالاته التى كان ينشرها فى الصحف والمجلات ، ومن أبرزها مجموعة المقالات التى نشرها فى الخمسينات ودعا فيها إلى تطوير الأزهر وحققت الثورة عام ١٩٦١ ما كان يدعو إليه الدكتور طه فأصدرت قانون تطوير الأزهر الذى أثبتت التجربة أن مساوئه تفوق محاسنه عشرات المرات . والدعوة إلى تطوير الأزهر نشأت فى أروقة الاستعمار الإنجليزى منذ بداية القرن العشرين ، وقد تقدم كلام اللورد « كرومر » فى هذا الشأن مرات فى هذه الدراسة .

* ومنها أحاديثه الخاصة التى كان يُدلى بها فى مجالسه وبين مريديه ، ونحن – هنا – لا نريد أن نطيل بل سنكتفى بسرد تلخيص موجز لمواقف طه حسين من الأزهر ، ثم نحاول أن نذكر من كلامه – بعد التلخيص – أدلة سريعة من أقواله تؤكد صدق ما نقول ..

يمثل الأزهر عند الدكتور طه حسين جسماً غريباً فى تكوين الدولة ، وعلامة بارزة من علامات التخلف ، فعلومه يجب أن توضع فى متاحف التاريخ سواء أكانت تفسيراً أو حديثاً أو فقهاً أو أصول فقه أو لغة وأدباً ، ومناهجه عقيمة وبخاصة علم مصطلح الحديث وما فيه من عنعنة وحدثنه (حدَّثنا فلان عن فلان) ومتون وشروح وحواش وتقريرات وتجريدات [1] ، وعلماء الأزهر – عنده – غير أمناء على تعليم اللغة العربية وآدابها وغير صالحين لتولى المناصب العامة فى المجتمع ، والأزهر نفسه بمثابة دولة داخل الدولة يتخذ القرار فيمضى ولا سُلطة لأحد عليه . لذلك فإن طه حسين يدعو الدولة لتقليص ظل الأزهر فتقف مهمته عند تخريج الوعاظ . أما تعليم اللغة العربية فيجب أن يُنتزع من الأزهر ليقوم بتعليمها الأفنديات ، كما يجب أن يُعزل الأزهر عن الدوائر القضائية ، وأن يُسند القضاء إلى خريجى كليات الحقوق ، وعلى وزارة المعارف– فى عهده – أن تشرف إشرافاً كاملاً على مناهج التعليم فى الأزهر وإدارته ، وبخاصة المعاهد الأزهرية ، فيجب أن تخضع لإدارة وزارة المعارف . وخريجو الكليات الأزهرية يجب حصر عملهم فى الوعظ فحسب . ومن عيوب الأزهر عند طه حسين أنه يُخرِّج شباباً كارهاً للتطور على سنن الحضارة الغربية مؤمناً كل الإيمان بثقافة العصور المظلمة والقديم البالى ، ومن كلام طه حسين عن شباب الأزهر : « شبابنا الأزهريون لا يتعلمون كما يتعلم الناس ، ولا كما ينبغى أن يتعلم الناس » ؟!

*

(١) المتون نصوص علمية أشبه ما تكون بالقوانين الكلية . أما الشروح وما عُطِفَ عليها فهى تفسيرات للمتون .

● شواهد من كلام طه :

والآن : نضع بين يدى القراء شواهد من كلام الدكتور طه حسين على ما لخصناه من مواقفه تجاه الأزهر ؛ والنصوص الآتية منقولة من كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » :

١ - « وألا يكون الأزهر دولة فى داخل الدولة ، وسلطاناً خاصاً يستطيع أن يطاول السلطان ويناوئه ، كما هى الحال الآن إذا بقيت هيئة كبار العلماء » (ص ٩٥) [١] .

٢ - وقال : « فلا بد أن يكون للدولة ، أو بعبارة أدق وأوضح ، لا بد أن يكون لوزارة المعارف إشراف دقيق على التعليم الأوْلى والثانوى فى الأزهر ؛ لأن وزارة المعارف هى عَيْن الدولة على هذين النوعين من التعليم » (ص٩٦) .

٣ - وقال مؤكداً ما سبق : « وهناك شىء آخر يجعل حاجة الأزهر إلى إشراف الدولة على تعليمه الأوْلى والثانوى ضرورة ماسة فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية ، وهو أن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة : تمثل العهد القديم والتفكير القديم » (ص ٩٨) .

ويقول مستطرداً : « شىء آخر لا بد من التفكير فيه ، والطب له ، وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم ، قد يجعل من العسير على الجيل الأزهرى الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناهما الأوروبى الحديث » (ص ٩٩) .

*

(١) استجابت الثورة فألغت هيئة كبار العلماء مع صدور قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١

● تعقيب :

ينبغى أن يتذكر القارىء ما مَرَّ به مرات من أن الوطنية والقومية سلاحان استعملهما الاستعمار لتفتيت الوحدة الإسلامية . ولذلك كان الأزهر يرفض هاتين الفكرتين بالمعنى الذى تريده أوروبا من كل من القومية – وهى التعصب للأجناس ، والوطنية – وهى التعصب للأماكن بحدودها الجغرافية ، وقد أشار طه حسين نفسه فى (ص ٩٩) من كتابه « مستقبل الثقافة » أن أحد شيوخ الأزهر أذاع حديثاً بالراديو فى أحد المواسم الدينية قال فيه للأمة : « إن محور القومية يجب أن يكون القِبْلة المطهَّرة » وعلَّق الدكتور طه حسين على هذا القول فقال : « ولكن الشباب الأزهريين يجب أن يتعلموا فى طفولتهم وشبابهم أن هناك محوراً آخر للقومية ... وهو محور الوطنية التى تحصرها الحدود الجغرافية الضيقة لأرض الوطن » ؟! (ص ٩٩) .

فالدكتور طه جعل القومية القائمة على اعتبار الجنس هى الوطنية القائمة على اعتبار المكان مثل : مصر – سوريا – العراق ، وهو بهذا يدعو إلى تفتيت القومية الإسلامية التى نادى بها شيخ الأزهر فى ذلك الوقت ، وقوامها الاتفاق فى الدين ، وتحويلها إلى وحدات صغيرة (أوطان) مفصولة العرى . وهذا هو هدف أوروبا الذى مهَّد له الدكتور طه حسين . ودعا الدولة للتدخل فى شئون التعليم فى الأزهر لإزالة هذه العقبات أمام التدفق الحضارى الغربى على مصر ، وتهيئة عقول أجيال الأزهر لقبول مبادىء الاستعمار التى أريد بها الإضرار بالإسلام والمسلمين ؟!

* *

● إبعاد الأزهر عن اللغة العربية :

وفى هذا المعنى يقول الدكتور طه حسين :

« إن اللغة العربية ليست مِلْكاً لرجال الدين (الأزهريون) يُؤْمَنون وحدهم عليها ... ويتصرفون وحدهم فيها ، ولكنها مِلْك للذين يتكلمونها جميعاً ...

وكل فرد من هؤلاء الناس حر فى أن يتصرف فى هذه اللغة تصرف المالك .. وإذن فمن السخف أن يُظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين » ؟! (ص .٢٩) ؟! .

ثم يقول : « .. لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً ، وفيهم المسلم وغير المسلم » ؟! (ص ٢٩١) (١) .

ويقول : « فالذين يزعمون أن الأزهر وحده هو الأمين أو هو الذى يجب أن يكون أميناً على اللغة العربية إنما يرون سخفاً من الرأى ، ويقولون سخفاً من القول » ؟! (ص٢٩١) .

ثم يقول : « وإذن فليس على الدولة بأس أن تتولى هى تعليم اللغة العربية والإعداد لهذا التعليم ، وليس عليها جُناح أن تجدد هذا التعليم وتجعله ملائماً لحاجات الحياة ... فى العصر الحديث » ؟! (ص ٢٩٢) .

* * *

● استعداء الحكام على الأزهر :

كان الدكتور طه وهو يكتب ما كتب يتوقع أن الدولة لن تحقق مطالبه فراح يوغر صدور الحكّام على الأزهر ، ويضطرهم اضطراراً لتحقيق مطالبه . وفى ذلك يقول :

« .... ولكن الغريب أن هذه الحقائق اليسيرة الأوَّلية لم تتضح بعد للمشرفين على الأمور فى مصر ، أو هى قد اتضحت فى قلوبهم وعقولهم ، ولكنهم لا يجدون الشجاعة على مواجهتها والإقبال عليها فى جد وحزم ، فهم يخافون من الأزهر كلما ذُكِر تعليم اللغة العربية (؟!) وهم يخافون من الأزهر كلما

(١) السر فى دعوة د . طه حسين لإبعاد اللغة العربية عن الأزهر هو ما تقدم من إخضاعها لأوهام الذين طالبوا بإصلاحها وتحطيم قواعدها ودلالاتها .

ذِكر إصلاح اللغة العربية ، بل هم يخافون من الأزهر كلما ذُكِرت اللغة العربية (؟!) كأن الأزهر سبع من هذه السباع الضارية قد قام دون اللغة العربية فاغراً فاه ، مهيئاً أظافره ، لا يسمح لأحد أن يدنو منها ، أو يمسها بالإصلاح .. » ؟!(ص ٢٩٣) .

*

● كلام لا يصدر إلا عن موتور أو عميل :

هذا الكلام الذى قاله الدكتور طه حسين فى الفقرة السابقة لا يصدر إلا عن أحد رجلين :

إما رجل موتور من الأزهر يريد أن يثأر لنفسه بالوشاية ضده والتحريض عليه . وإما عميل لأعداء الأمة . ومن المؤسف حقاً أن الوصفين اجتمعا فى طه حسين ، فهو موتور وعميل فى آن واحد لذلك لم يخط قلمه إلا سماً زعافاً .. ؟!

والدكتور طه حسين - بعد ما تقدم - يريد حصر مهمة الأزهر فى التعليم الدينى فحسب ، ويلوم الدولة لأنها سمحت للأزهر بأن يُخرِّج معلمين للغة العربية فى معاهده ثم يجعلهم معلمين للغة العربية فى مدارس الدولة . ويرى الدكتور أن فى هذا خطراً على مدارس الدولة وعلى سُلطان الدولة معاً . وبعد كلام طويل فى هذا الشأن يقول :

« وقد أشرتُ من قبل إلى أن نظام هيئة كبار العلماء يمحو أو يقيِّد على أقل تقدير سُلطان الدولة تقييداً خطراً إذا تخرَّج المعلمون (يعنى معلمى اللغة العربية) من الأزهر ، فيكفى أن تُخْرِج الهيئة أحد هؤلاء المعلمين من زمرة العلماء الدينية ليكون وزير المعارف ملزماً بفصله من منصبه . وفى هذا محو لهذه الحرية العقلية التى هى أول ما يجب للمعلم من الحق ، وفيه كما يظهر إلحاق لمدارس الدولة ولوزير المعارف معها بسلطان الأزهر الشريف ... وأن

مدارس الدولة ستكون تابعة تبعية عقلية للأزهر ، والأزهر كما نعلم مضطر إلى المحافظة ورعاية التقاليد .. » ؟! (ص ٣٦٧) .

*

● **الهدف من هذا الكلام :**

لا يخفى على القارىء الفطن هدف طه حسين من هذا الكلام فهو لا يهمه سُلطان الدولة الذى تحطمه قرارات هيئة كبار العلماء فيما يختص بالمنحرفين من خريجى الأزهر . ومع هذا فقد بدا حريصاً فى كلامه على سلطان الدولة ، والغرض من هذا حمل الدولة على تنفيذ مطالبه الحقيقية ، ومنها :

* إن رفع يد هيئة كبار العلماء عن معلمى اللغة العربية فى مدارس الدولة يتيح الفرصة للمنحرفين بالاستمرار فى هيئة التدريس ولو كتب النصوص القرآنية لتلاميذه بالحروف اللاتينية أو كتبها بالحروف العربية كما تُنطق ، وهى الطريقة التى كان يُروِّج لها طه حسين نفسه ، فيكتب : محمد رسول اللّه – مثلاً : « موحا مما دون راسولو اللاهى » وفى هذا تحريف للقرآن ، وإلحاد فى أسماء اللّه الحسنى . وطه هنا يطالب بحماية الانحراف والمنحرفين (؟!) ومنها أن طه حسين يخشى على تلاميذ المدارس المدنية أن يتأثروا بعقائد الأزهر ، مثل الأصالة ، والمحافظة على القيم الإسلامية ومن أجل هذا علا صياحه ، ودوَّى نعيقه ؟!

وقبل أن نترك كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » أدعو القارىء إلى أن يقرأ الفقرة رقم (٥٠) منه ، والتى تبدأ من (ص ٤٣٦ وتنتهى عند ص ٤٤٥) فإنه سيرى الدكتور طه حسين يعترف ببعض الفضل للأزهر ويثنى عليه بعض الثناء ، ثم يعود إلى طبيعته العدائية له فيطالب الدولة مرة أخرى بالإشراف الدقيق على الأزهر ، يلح فى هذه المطالبة ، كما يدعو إلى أن يتولى تعليم اللغة العربية خريجو كلية الآداب أو دار العلوم لا كلية اللغة العربية بالأزهر (؟!) وعلى طلاب الأزهر إذا أرادوا أن يكونوا معلمين للغة العربية فعليهم أن

يلتحقوا بكلية الآداب أو دار العلوم أو معهد التربية ، وكذلك إذا أرادوا أن يعلّموا التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء . وإذا أرادوا أن ينهضوا بأعباء القضاء أو الطب أو الهندسة فعليهم أن يلتحقوا بكليات الحقوق والطب والهندسة .

ثم يحذِّر الدكتور طه حسين الدولة من أن ينشئ الأزهر فى المستقبل كليات الطب والهندسة وغيرها من العلوم العملية فيقول :

« فأما أن تُنشأ فى الأزهر كليات ، وأن تمنح هذه الكليات درجات لا علم للدولة بها ، ولا سلطان للدولة عليها . ثم يُفرض الخرِّيجون فى هذه الكليات على الحياة العامة فرضاً ، فهذا هو الذى لا يُفهم ولا يمكن أن يُستساغ فى بلد متحضر » (ص ٤٤٢) .

ويحق لنا الأن أن نتساءل :

لماذا يفرِّق طه حسين بين الدولة وبين الأزهر ؟ أليس الأزهر مصرياً ؟ أليس الأزهر مؤسسة من مؤسسات الدولة فى مصر ؟ أليس القائمون على الأزهر من أبناء مصر ؟ فلماذا هذه التفرقة يا تُرى ؟!

والأزهر أليس هو صاحب الفضل على طه حسين ، ولولا العلم الذى تلقاه فيه لما استطاع أن يحصل على أية درجة علمية سواء داخل البلاد أم خارجها ؟ . وطه حسين إذا كان حريصاً على سلطان الدولة ويطالب بإبعاد الأزهر عن سلطانها فلماذا سخَّر قلمه وحياته لتكون الدولة وشعب مصر دُمىً فى أيدى أوروبا سياسياً وعلمياً وثقافياً ؟ إنه يطالب بتحرير العقل المصرى من الخضوع والتبعية للأزهر وفى الوقت نفسه يقدِّم العقل المصرى هدية للحضارة الغربية تصوغه وتشكِّله كيف تشاء ؟ أهذه هى الوطنية ؟! أو هذه هى القومية ؟! أو هذه هى الحرية ؟!

لقد عاش طه حسين عميلاً للغرب ، وجاسوساً علنياً لحساب الغرب ! ومات ولم تبد منه توبة يُكَفِّر بها عن سيئاته ؟!

إن فكر طه حسين مسئول - الآن - إلى أبعد مدى عن الانحرافات الفكرية والتشريعية ، بل و « العقائدية » التى يموج بها المجتمع المصرى الحديث تحت وطأة التفكير العلمانى المدمر ، وما سطره الدكتور طه من كتب ومقالات موجودة ، فنحن لم نفتر عليه ، وإنما الرجل هو الذى جنى على نفسه ، وما باح به فى كتبه ليس هو كل شئ من فكر طه حسين ، بل كان فى صدره أمور لم يستطع الإفصاح عنها ولكنه رمز إليها فى أبيات لأبى العلاء المعرى وضعها فى واجهة كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » . وتلك الأبيات هى :

خذى رأيى وحسبك ذاك منى   على ما فىَّ من عوج وأمت ؟
وماذا يبتغى الجلساء عندى   أرادوا منطقى وأردتُ صمتى
ويوجد بيننا أمد قصى ؟!   فأموُّا سمتهم وأممت سمتى ؟

أما نحن فنقول : وداعاً يا طه .. والموعد ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (١) وكل آت قريب .

* * *

---

(١) الطارق : ٩

الفصل السابع والعشرون

المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية

سبق أن حصرنا الاتجاهات المحلية فى مصر أمام الزحف الحضارى الغربى فى ثلاثة اتجاهات :

الأول : الرفض المطلق ، وكان يمثله الأزهر الشريف .

الثانى : القبول المطلق ، وحمل لواءه الدكتور طه حسين ، وكان له رفاق آخرون ، إلا أن الدكتور طه كان رائد ذلك الاتجاه .

وقد تحدثنا عن هذين الاتجاهين بما فيه الكفاية .

أما الاتجاه الثالث فقد عبَّرنا عنه فيما تقدَّم بأنه : القبول المشروط . وعبَّرنا عنه هنا بـ « المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية » . وهذه التسمية هى الأولى بالاعتبار . لذلك آثرناها هنا . وهى قريبة الشبه جداً من معناها باتجاه القبول المطلق ؛ وإن كان هذا الاتجاه الثالث قد أحدث فى الإسلام شرخاً ما يزال يتسع ويدمى ، وهو مسئول تاريخياً عما أصاب الإسلام فى مصر من تراجع وانزواء ، وبخاصة فى الجوانب التشريعية والأخلاقية ، وهذا ما كان يسعى من أجله الاستعمار وعملاؤه من المستشرقين والمبشرين ، وعملاؤه من الداخل أو الوطنيون .

وكان لهذا الاتجاه دعاة يدعون إليه ، كما كان طه حسين ورفاقه يحملون لواء الدعوة إلى القبول المطلق لأنماط الحضارة الغربية ، ودعاة المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية كانوا - فيما نرى - أشد خطراً على الإسلام من الاتجاه الذى

كان يقوده طه حسين ؛ لأن اتجاه المواءمة مارس عمله بحرية من داخل الإسلام نفسه ، وكان أقدر على التمويه وإلباس الباطل ثوب الحق ؟!

فقد مارس أعضاؤه - فعلاً - تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وقدّموا بين يدى عملهم كثيراً من المبررات ، وخلطوا عملاً صالحاً بآخر باطل ... وكان يساندهم الاستعمار إما جهرة أو من وراء ستار ؟!

ومن أبرز دعاة هذا الاتجاه - وهو أسبق وجوداً من الاتجاه الذى قاده الدكتور طه حسين - ما يمكن أن نسميه :

« مدرسة جمال الدين الأفغانى »

هذه المدرسة كان رائدها جمال الدين نفسه ، وقد تلقف مبادئه وأخلص لها اثنان آخران ، هما : الشيخ محمد عبده ، ثم الشيخ رشيد رضا .

والشيخان « جمال الدين » و « محمد عبده » لكل منهما سيرتان : ظاهرة شائع ذكرها بين الناس ، والأخرى يكتنفها كثير من الغموض ، فالظاهرة الشائع ذكرها أنهما مصلحان مجددان غيوران على الإسلام . والأخرى التى أحاط بها الغموض أنهما - وبخاصة الشيخ محمد عبده - قدّما خدمات جليلة فى تحقيق أهداف الاستعمار ضد الإسلام ؟ سواء أكان الباعث على هذا حُسن النيّة وسلامة القصد ، أم تعمد الإساءة والضرر ، وكنتُ قبلاً من المعجبين بهذه المدرسة وأعضائها ، وما كنت أصدّق ما يقال عنها من سوء النيّة أو حتى مجرد الخطأ فى بعض تصوراتها . ولكن الفرصة أتيحت لى فقرأت عنهما كثيراً من المراجع ، وما كتبه عنهما بعض العلماء من معاصريهما ، كما اطلعت على بعض التقريرات السنوية التى كان يكتبها المندوبون السامون للإنجليز فى مصر ، وكانت تلك التقريرات تثنى على مبادىء الشيخ جمال الدين الأفغانى ، وتُعلّق عليها أمالاً عظيمة لمناصرة الحضارة الغربية ، كما أن الشيخ محمد عبده كان موضع حدب وتأييد من اللورد كرومر ، وبفضله اعتلى الشيخ محمد عبده مناصب دينية مؤثرة كتوليه الإفتاء فى مصر ثم القضاء ، ثم عضوية إدارة

المعاهد الأزهرية . ومن البديه أن الاستعمار لا يؤيد ولا يساعد إلا عملاؤه وأنصاره ، وكذلك فإن رأى المستشرقين فى أقطاب هذه المدرسة يتسم بالثناء والإعجاب والتقدير . فإن تكن لهم - أى للمستشرقين - مآخذ عليهم فهى محصورة فى تسجيل وقوفهم عند الحد الذى وقفوا عنده (؟!) يعنى أنهم كانوا يريدون منهم أكثر مما أعطوا الحضارة الغربية من نصر وتأييد على حساب قيم الإسلام وأصوله ومقاصده .

ومما زعزع الثقة فى هذه المدرسة أن بعض المصادر التى أتيح لى الاطلاع عليها - وهى تحت يدى الآن - فيها أسرار دقيقة ورسائل متبادلة بين الشيخ جمال الدين وبعض مريديه ، ثم رصد لبعض مواقف الشيخ محمد عبده ، وهى كلها تدل على أن الشيخين كان لهما ظاهر محمود وباطن مريب . أما الشيخ رشيد رضا فآثاره فى التجرؤ على الإسلام مسجَّلة فى تصانيفه ، ومنها فتواه التى تقدَّم ذكرها ، والتى قد احتال فيها على تأويل النصوص القرآنية القاطعة الدلالة بما يحيل النص المؤول إلى مجرد كلام معطل ، وكان الهدف من ذلك التأويل هو إباحة الحكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى ؟!

* *

● الاجتهاد المطلق :

إن الخطر والخطأ اللذين نجما عن هذه المدرسة - مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغانى - يعودان إلى أمرين :

أحدهما : أنها ادَّعت لنفسها حق الاجتهاد المطلق ، ومعنى هذا أن أقطاب تلك المدرسة افترضوا انقراض المذاهب الفقهية الأربعة وغير الأربعة ، فلم يتقيدوا بأصولها فى البحث والاستدلال ، وراحوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسُنَّة مباشرة . هذا الاتجاه كان سيكون محموداً لها لو أنها استخدمته فى الوقائع والحوادث الطارئة التى لم يرد فى مثلها نص قطعى الدلالة والثبوت . ولم يتقدم فيها اجتهاد مجمع عليه . أما توسيع الدائرة لاستخدامه فيما ورد فيه

نص ، أو سبق فيه إجماع . فهذا هو مكمن الخطورة ، ومصدر كل بلية أصيب بها المسلمون فى العصر الحديث . وما تزال الأخطار تتزايد فيه وتتفاقم .

والأمر الآخر : أن لأقطاب تلك المدرسة أعمالاً أخرى قدّموها فى الدفاع عن الإسلام لا ينكرها إلا جاهل أو معاند ، فكل من الشيخ جمال الدين والشيخ محمد عبده وقفا من الفكر الاستشراقى مواقف نبيلة ، والشيخ جمال الدين كان له دور فى مقاومة الفكر الإلحادى من الدهريين والطبيعيين ، كذلك موقفه من القاديانية وكشفه لزيفها أمر معروف ومشكور ، والشيخ محمد عبده قام بنفس الدور فى الرد على التهم التى كان المستشرقون يوجهونها ضد الإسلام .

والشيخ رشيد رضا له مجلة « المنار » فى الشئون الإسلامية ، وله كذلك تفسير المنار . إذن فَصلة هذه المدرسة بالإسلام على هذا النحو جعلهم مسموعى الكلمة ، لا يرتاب فيهم أحد . وهذه هى السيرة الظاهرة التى سوّغت لجرأتهم على الإسلام قبولاً عند العامة ، ورضاً بما يصدر عنهم بلا مناقشة .

ومن المراجع التى تحدّثت عن السيرة الغامضة لأقطاب هذه المدرسة كتابان يمكن الرجوع إليهما ، أحدهما كتاب « بلا يابوزا » لعالِم تقى ورع من علماء الأزهر ، كان رفيقاً للشيخ محمد عبده فى طلب العلم ، وهو من إقليم « البحيرة » التى ينتمى إليها الشيخ محمد عبده . ظهر هذا الكتاب عام ١٩٢٦ ، أما المؤلف فهو الشيخ محمد الجنبيهى .

والكتاب الثانى هو « شواهد الحق » للشيخ يوسف النبهانى من علماء الأزهر أيضاً ، وله صحبة بالشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، وقد ذكر فى كتابه هذا كثيراً من الأمور غير المعروفة عن مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغانى ، كما رصد أحوالها وسرد أسرارها فى قصيدة له اسمها « الرائية الصغرى » مطبوعة ضمن ديوانه « العقود اللؤلؤية » [1] .

---

(١) انظر : الإسلام والحضارة الغربية للمرحوم محمد محمد حسين .

وها نحن أولاء نكتفى بما خف ذكره مما ورد عن الشيخ يوسف النبهانى فى وصف مدرسة الشيخ جمال الدين ومريديه ليتبين القارئ خطر هذا الاتجاه الذى تبنته تلك المدرسة ، ومدى صلته بالهدف الاستعمارى الذى تقدَّم ذكره مرات ، وهو : تطوير الإسلام ، وإعادة تفسيره .

يقول الشيخ يوسف النبهانى فى كتابه « العقود اللؤلؤية » (ص . ٤٠) ما يأتى : « واعلم أن هؤلاء ... يدَّعون الاجتهاد المطلق ، واستنباط الأحكام من الكتاب والسُنّة ويرفضون المذاهب الأربعة ..... وصارت أحكام الدين عندهم كل ما خطر ببالهم ، ووافق أغراضهم ، وجرى على ألسنتهم من الألفاظ المنمقة ، والمعانى الملفقة التى تلقفوها من مقالات الفلاسفة وكتاب الإفرنج مما لا يوافق دين الإسلام » .

ويقول : « إن هؤلاء ... قد مشوا ببدعتهم على أثر البروتستانت من النصارى الذين يدَّعون إصلاح دين النصرانية ، بتركهم العمل بأقوال أئمتهم السابقين ، والاقتصار على ما فى التوراة والإنجيل من أحكام الدين ، وقد أخطأ هؤلاء ... بتقليد أولئك الأقوام ، لأن ما زاده أئمتهم على التوراة والإنجيل ليس له أصل فيهما .. أما أئمة الإسلام فلم يزيدوا على الكتاب والسُنّة شيئاً من عند أنفسهم ، بل جميع أحكام المذاهب الأربعة مأخوذة من صريح الكتاب والسُنّة ، وهو أكثر الأحكام ، أو مستندة إلى الإجماع الذى هو مستند إليهما ، أو إلى أحدهما - أى الكتاب والسُنّة - أو مستندة إلى القياس الصحيح عليهما أو على أحدهما ، فليس هناك حكم فى المذاهب الأربعة خارج عن الكتاب والسُنّة من كل الوجوه ، ولا يمكن أن يستعملوا القياس إلا إذا لم توجد آية أو حديث يصلح للاستدلال » .

هذا .. وقت أخذ الشيخ يوسف النبهانى على زعماء مَدرسة الأفغانى مأخذين كبيرين فيما يتعلق بتطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وهما :

الأول : دعوى الاجتهاد المطلق مع إنعدام الكفاية العلمية فيهم وعدم حفظهم للقرآن الكريم وسُنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

والآخر : حطهم من أقدار الأئمة الأعلام من فقهاء المسلمين ، وإعلاء أقدار أئمة النصارى البروتستانت [1] ، والاقتداء بهم فى ما ادعوه من إصلاح دينى لملّتهم ، وبالمجامع الدينية الكَنَسية التى أفسدت رسالة عيسى عليه السلام .

وفكرة إحياء الاجتهاد المطلق كان أول مَن ابتدعها الشيخ جمال الدين ولقنها لتلاميذه ومريديه ، وكان من قبل يُسِرّها فى نفسه ، ولما التقى به الشيخ محمد عبده ورفاقه أذاع فيهم هذا السر ، ورغّبهم فيه مدّعياً أن الاجتهاد الحر أو المطلق سيعيد الإسلام بكراً غضاً . وفى ذلك يقول الشيخ يوسف النبهانى فى قصيدته « الرائية الكبرى » التى يبلغ عدد أبياتها ٥٥٣ بيتاً . يقول الشيخ النبهانى فيها مسجلاً هذا الحَدَث :

وحين أتاه ذلك الحين عبده وأمثاله أفشى لهم ذلك السرا
أسرَّ لهم محو المذاهب كلها ليرجع هذا الدين فى زعمه بكرا

* *

● الثنائية :

مَن يقف على سيرة زعماء المدرسة الأفغانية (جمال الدين الأفغانى ومريديه) تبدو أمامه ظاهرة مؤكدة ، وهى الثنائية فى الاتجاهات والأعمال ثنائية تذبذب بين خدمة الإسلام والتجرؤ عليه . وهذه الثنائية ظاهرة بوضوح فى مواقف الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا . وهذا ما يدعو الناظر فى سيرتهما إلى تلمس تفسير مقبول لفهم هذه الثنائية ذات الطرفين المتنافرين :

---

(١) البروتستانت : كلمة يونانية معناها المعارضة والاحتجاج ، وهى حركة قامت فى مواجهة المذهب الكاثوليكى فى الغرب . انظر : الأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد وافى .

● ما قبل النفى وبعده :

وقد يُعين على فهم الثنائية فى سلوك الشيخ محمد عبده ، أن أعماله التى كان فيها دفاع مخلص عن الإسلام كانت قبل عودته من منفاه الأخير ، أما بعد عودته من المنفى ، وتوطيد العلاقة بينه وبين الإنجليز فى مصر حيث كان يمثلهم اللورد كرومر ، فقد اتجه الشيخ محمد عبده اتجاهاً جديداً هو : العمل على تطوير الإسلام والمواءمة بينه وبين الحضارة الغربية . هذه الملاحظة جديرة بكشف الغموض فى حياة الشيخ محمد عبده . وسوف نذكر بعض مظاهر توطيد العلاقة بينه وبين « اللورد كرومر » و « المستر بلنت » الوسيط بينهما فى أول الأمر .

أما الشيخ رشيد رضا فقد تأثر بالشيخ محمد عبده فى هذه الفترة التى تَبَنَّى فيها تطوير الإسلام والمواءمة بينه وبين الحضارة الغربية فجعل همه مثل همه . فتفسير الثنائية فى سلوك الشيخ محمد عبده هو فى نفس الوقت كشف وإيضاح لثنائية الشيخ رشيد رضا .

*　*

● علاقة الشيخ محمد عبده بالإنجليز :

توطدت علاقة الشيخ محمد عبده بالإنجليز فى مصر بعد عودته من المنفى واستقرار المقام به فى مصر . هذه حقيقة لا يرتاب فيها أحد . وقد قامت عليها عشرات الأدلة من الواقع ، ومن التقريرات التى كان يقدمها المندوبون السامون الإنجليز ، عن مصر إلى حكومة إنجلترا ، وقد أشرنا من قبل إلى أن « مستر بلنت » ، وهو رجل إنجليزى ذو دهاء شديد ، كان الواسطة بين الشيخ محمد عبده ، وبين « اللورد كرومر » ، وقد منح محمد عبده قطعة أرض بضاحية عين شمس بنى عليها الشيخ محمد عبده منزلاً له قريباً من منزل « مستر بلنت » . ثم اتخذه « اللورد كرومر » مستشاراً له فيما يتصل بسياسة الإنجليز فى مصر ، وكان يدعوه : شيخه (؟!) وفى إطار هذه العلاقة الوطيدة سعى « كرومر » لتعيين الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية فى ٣ يونيه عام ١٨٩٩ .

وكان هدف « كرومر » أن يُمكِّن محمد عبده من التدخل فى شئون الأزهر وهو فى هذا المنصب الرفيع ، وقد أنجز الشيخ محمد عبده هذه المهمة ، وإذا كان ما سمى بإصلاح التعليم فى الأزهر الذى كان وراءه الشيخ محمد عبده بعض الصواب ، فإنه صواب اتُخذَ مطية وتكأة إلى كثير من المآخذ والسلبيات ، حيث أحدث فتنة برَّاقة لعلماء الأزهر الذين نشأوا فى ظل ذلك الإصلاح ؟!

فقد سلك تلاميذه ومريدوه مسلكاً ذكياً فى تحقيق مطالب الشيخ محمد عبده فى الأزهر ، متبعين فى ذلك خطة تقوم على : التفريغ والملء . فى جانب التفريغ قاموا بحملة تشويه للأزهر شملت علماءه وطلاّبه ، ويكفى أن يعود القارىء إلى كتاب الشيخ رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام » (1) ، ليرى بعينه مقالة مطوَّلة كلها وصف مزر للأزهر يُكَرِّه الناس فيه وفى علمائه وطلاّبه والعلوم التى يقوم عليها ، كما ذكر رشيد أن الشيخ محمد عبده كان يحتقر كل مَنْ فى الأزهر الا نفراً قليلاً ، وكان يسب الأزهر فى مجالسه الخاصة بثلاث كلمات ، فيصفه مرة بأنه : المخروب ؟ ومرة بأنه الاصطبل ؟ وثالثة بأنه المارستان ؟!

وبعد هذا نالوا من الأزهر ما نالوا . وعملوا جاهدين على إحلال « العقلانية » محل اتباع سَلَف الأمة ، والعبث بالنصوص وتأويلها على مخارج غير صحيحة . والمقام يضيق عن ذكر المساوىء التى قذف بها الأزهر الشيخ محمد عبده وتلاميذه من بعده ، لذلك فإننا نذكر ما يؤيد ما نقوله عن هذه المدرسة وحقيقة منهجها فى الفترة الأخيرة من حياة الشيخ محمد عبده (بعد العودة من المنفى) ثم سلوك تلاميذه من بعده .

يقول المستشرق « جب » الذى مَرَّ ذكره مرات فى هذه الدراسة ، وهو يصف منهج تلاميذ الشيخ محمد عبده :

« وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون حتى فى حياته يظهرون بمظهر

---

(١) الجزء الأول ، ص ٤٩٥ - ٤٩٧

واضح صريح ، وقد كان هو نفسه فى مادة العقيدة يعارض قبول كل شئ دون مناقشة - أى يعارض التقليد كما يقال فى الإسلام ؟! وهذا الرأى يعتبر لبنة - يعنى دعامة - فى بناء الحركة المتمدنة ، أو خشية الخلاص فى الحركة العلمانية » .

ويقول كذلك : « إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التى أنشئت إنشاءً أوروبياً ، وينضمون للحلقات العلمانية (!) .. ومن ناحية أخرى نجد الشيخ محمد عبده قد صنع جسراً فوق الهوة التى تفصل التعليم التقليدى من التعليم العصرى الخاضع لمذهب العقليين الذى غزا الشرق من الغرب » ؟

ومعروف من تاريخ أوروبا الحديث أن المذهب العقلى كان يقوم على : إما فصل الدين عن الدولة فى أخف نظرياته ، وإما على الإلحاد وإنكار الدين كما كان يروِّج له « ڤولتير » و « چان چاك روسو » قبل قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وقد تأثر بمنهج الشيخ محمد عبده كثير من شغلة المناصب فى مصر ، ومن حملة الأقلام ، وقادة الفكر ، والأدباء مثل : الشيخ أحمد إبراهيم ، وحافظ إبراهيم ، ومحمد كرد على ، وأحمد فتحى زغلول ، ورفيق العظم ، وقاسم أمين ، وعبد العزيز جاويش [١] .

ويعترف الشيخ رشيد رضا بأن شيخه - محمد عبده - كان فعلاً يتولى المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية ، فيقول :

« وكانت جرأته فى الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ومعارضته علماء الأزهر فى عصره سبباً فى كثير من الحملات التى خاضت فيها الصحف ، متهمة إياه بتسخير الدين لخدمة العدو الغاصب » [٢] .

فالشيخ محمد عبده ذو فكر متمرد على كل شئ . وفتاواه تشهد بذلك . ومَنْ

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ١/٧٦٩ - ٧٧٢ (٢) المصدر السابق : ١/٥٧١ - ٥٨٩

شاء فليراجعها فى الكتاب الجامع الذى وضعه عنه تلميذه رشيد رضا .. ونستعيض من ذكر فتاويه وسقطاته بعبارة تريك أن الرجل هوى فيها إلى الحضيض وكشف عما فى نفسه درى أو لم يدر . قال العبارة التى سنذكرها وهو يدعو الناس إلى كتب المستشرقين والمبشِّرين من أعداء الإسلام . فزيَّنها لهم ورغَّبهم فى مطالعتها قائلاً بالحرف الواحد :

« هى بحوث متحررة لا تصدر عن تقديس للإسلام ، أو توقير للسابقين المقدَّمين من رجاله » ؟! [1] .

إن هذه العبارة - وهى صحيحة السند إلى الشيخ محمد عبده ، لأن راويها أخلص تلاميذه الشيخ رشيد - هذه العبارة هى الكلمة المفتاح التى تطلعك على خبايا محمد عبده وخفياته ، وهى تريك إلى أى مدى وقع الرجل فى قبضة أعداء الإسلام وسخَّر أخريات حياته للتشفى منه والإزراء عليه ؟!

لا جَرَم أن يحدب عليه « كرومر » ، ويُنعم عليه بالمناصب من الإفتاء ، وتولى القضاء ، واتخاذه مستشاراً خاصاً له ، وعضواً بإدارة الأزهر ، ورئيساً للجنة التى خططت لإنشاء مدرسة القضاء الشرعى على خلاف الأحكام الشرعية ليكون مسموع الكلمة ، مقبول الرأى ، له تأثير على جمهور الشعب وعامة المسلمين ، وليحمل تلاميذه من بعده نفس الرسالة فيوزعوا أنفسهم على أدوار مختلفة كلها تنتهى إلى غاية واحدة هى : تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وإفساح المجال للحضارة الغربية فى مصر .

توفى الشيخ محمد عبده فى ١١ يوليو عام ١٩٠٥ ولكن فكره وفكر شيخه جمال الدين لم يمت كما مات الأستاذ والتلميذ . بل ظل محمولاً على كواهل مريديهما وتلاميذهما . وقد وزَّع هؤلاء التلاميذ أنفسهم على أدوار كان كل دور منها مقصوراً على مساحة معُينة من النشاطات ، التى تهدف فى النهاية إلى المحور

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ٩٢٧/١

الأساسي الذى رسمه الاستعمار الإنجليزى تجاه الإسلام والمسلمين ، وهو : تطوير الإسلام وإعادة تفسيره بما يجعل الأبواب مفتوحة على مصاريعها لزحف الحضارة الغربية على مصر ، وفرض سيطرتها على واقع الحياة فيها .

منهم مَن اتجه إلى تفسير القرآن ، ومنهم مَن اتجه إلى فصل الدين عن السياسة ، ومنهم مَن اتجه إلى نظام الحكم فى الإسلام وإبطال الخلافة والجهاد (؟!) ومنهم مَن اتجه إلى الفتاوى المطورة (؟!) ومنهم مَن اتجه إلى شئون المرأة ، ومنهم مَن اتجه إلى تطوير التعليم وهكذا . وقد مكَّنهم من تحقيق مآربهم التحاقهم بالوظائف المهمة والمراكز القيادية فى كل مكان . وقد واكب هذه الظاهرة ظاهرة أخرى مساعدة لها ، وهى إقصاء رجال الأزهر وعلماء الدين عن المواقع المؤثرة فى الرأى والتوجيه والحكم والإدارة . فكانت الطامة الكبرى .

ونعرض فى السطور الآتية الآثار السيئة لتلاميذ هذه المدرسة والبلايا التى نجمت عنها حتى الآن :

● أعمال غير مشهورة :

وأعمال تلاميذ مدرسة التطوير للإسلام وإعادة تفسيره يمكن تصنيفها فى مجموعتين :

إحداهما غير مشهورة ؛ لأنها كانت تأخذ شكل المقالات فى الصحف والمجلات .

والأخرى مشهورة ؛ لأنها سُجِّلت فى كتب ومؤلفات ؛ ولأنها قد صاحبتها موجة من الاحتجاجات والإجراءات ضمنت لها الشهرة ، وأن كتابات أخرى دارت حولها وتدور إلى الآن إما معجبة بها - وهو الغالب ، وإما مفندة لها كاشفة عما فيها من زيف . ونوجز الحديث عن الأعمال غير المشهورة قبل الأعمال المشهورة ؛ لأنها - أعنى المشهورة - فى حاجة إلى تبصر أكبر واهتمام أبين .

* *

● مجلة الهداية :

أنشأ هذه المجلة الشيخ محمد عبد العزيز جاويش أحد تلاميذ محمد عبده عام ١٩١٠ ، وجعلها لسان مقال مدرسة التطوير وإعادة تفسير الإسلام ، يكتب فيها هو وآخرون من تلاميذ الشيخ محمد عبده . وكذلك قد أفسحت المجلة صدرها لنماذج مترجمة من فكر الغرب وثقافته ، وحرص عبد العزيز جاويش أن يجعل فى كل عدد من المجلة مقالاً له فى تفسير القرآن الكريم على منهج محمد عبده نفسه ، أما الآخرون فكانوا يكتبون مقالات إسلامية الهدف منها التقريب بين الإسلام وحضارة الغرب على حساب الإسلام طبعاً .

ومما روّج له عبد العزيز جاويش فى مقالاته المشار إليها الذهاب إلى صدق نظرية « داروين » فى التطور ، وهى نظرية إلحادية تزعم أن الطبيعة هى الخالقة لما بين السموات والأرض (؟!) ويزعم الكاتب أن السَلَف الصالح من المسلمين (الرعيل الأول) كان يؤمن بهذه النظرية ، ولكنهم كانوا يخفونها عن العوام من الناس (؟!) وأن فريقاً من السَلَف كان يسميها « دائرة الوجود » ، وأهل السُنّة والمعتزلة كانوا يسمونها « القضاء والقدر » (؟!) وفى القرآن يسمى : بـ « الميزان » (؟!) ثم انتهى إلى أن نظرية « داروين » لا تنافى الإيمان بالله ؟! وهذا افتراء على الله ورسوله قد افتراه الكاتب . ومعلوم يقيناً أن نظرية « داروين » كانت إحدى الدعامات التى قامت عليها « العلمانية » التى تُنكر وجود الله وتُنكر الرسالات السماوية كلها (١) ؟!

* *

● التقريب بين الأديان :

ومما دعا إليه فى تفسيره للقرآن الكريم ما يسمى الآن بالتقريب بين الأديان ، بُغية تطوير الإسلام والذهاب بعقائده أدراج الرياح فعند تفسيره لقوله تعالى :

---

(١) الهداية عدد أكتوبر ١٩١٠ .

وراجع إن شئت : الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة : نشر مكتبة وهبة . للمؤلف .

﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُواْ وَالَّذينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابئينَ مَنْ آمَنَ باللَّه وَاليَوْمِ الآخرِ وَعَملَ صَالحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) يقول الكاتب :

« وما كان الله ليظلم هؤلاء ليهوديتهم ، ولا أولئك لنصرانيتهم إلا إذا أشركوا به غيره ، أو أنكروا اليوم الآخر ، أو هجروا صالحات الأعمال » ؟! (٢) .

ويمضى الكاتب فيوقع فى روع الناس أن الإيمان المنجى هو ما اشتمل على توحيد الله ، والإيمان بالآخرة ، ثم العمل الصالح ، أما الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ فلا أثر له فى هذا الإيمان الجديد (؟!) وهو يتعمد قصداً مخالفة المفسِّرين ليوسع من دائرة الإيمان ، ويُعْفى اليهود والنصارى وغيرهم من التصديق بالإسلام الذى يقول الله فيه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ ديناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخرَةِ مِنَ الخَاسرينَ ﴾ (٣) فيقول :

« ولقد خالفنا المفسِّرين فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُواْ .. ﴾ ويحتال بعد ذلك على دعم رأيه مجترئاً على كل القواعد والأصول . والهدف إقرار اليهود والنصارى على ما هم عليه من تكذيب بالإسلام ، وإنكار لرسالة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، ولا نزاع أن هذا تطوير وإعادة تفسير للإسلام على النحو الذى خطط له المستعمرون ؟!

* *

● إهدار قيمة النصوص :

كما دعا عبد العزيز جاويش إلى إهدار قيمة النصوص مطلقاً ، حتى لو كانت تلك النصوص قطعية الدلالة والثبوت ، فضلاً عن دعوته لإلغاء الأحكام

---

(١) البقرة : ٦٢ (٢) الهداية عدد فبراير ومارس ١٩١٢ (٣) آل عمران : ٨٥

الاجتهادية واتهامه لها بالقصور عن مراعاة المصالح العامة . وفيها يقول بالحرف الواحد : « إن من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية ، التى قررها نفر من أهل العلم دون رعاية للمصلحة العامة ، التى هى أصل من أصول الشرع الشريف » (١) .

أما فى إهدار النصوص فيقول : « وقد سَنَّت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة ؛ حتى لا يكون على الناس حَرَج ولا ضرار . بل رخَّصت أن يُعْدَل عن النص إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول ، وكانت المصلحة التى تنتج عن هذا النص أقل مما ينتجه هذا العدول » (٢) .

هذا الذى يدعو إليه الكاتب هو بعينه التطوير الذى دعا إليه الاستعمار للإسلام ، وإعادة تفسيره حتى يذوب الإسلام ، ويصير ألعوبة فى أيدى ذوى الأهواء من عملائه .

هذه شذرات من الأعمال غير المشهورة لتلاميذ محمد عبده ، وبقى منها الكثير والكثير مما نُشر إما فى الهداية ، أو المقطم ، أو مجلة الهلال ، أو سجَّله رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام . وبعضهم كان يسخر من علماء الدين أو من الدين نفسه ، مثل ولى الدين يكن الذى كان يفطر عياناً فى نهار رمضان ، ويسخر من سُنَّة الأضحية التى يتقرب بها المسلمون إلى ربهم فى عيد الأضحى ، ويتساءل قائلاً :

« ما هذا الإسراف ؟ ألنا ثأر عند الغنم .. ؟! ما روى لنا أحد المؤرخين أن جد الغنم نطح أبانا آدم فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب » ؟! (٣) .

إنه كان يقوم بنفس الدور الذى كان يقوم به « ڤولتير » من السخرية بالدين فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وڤولتير كما تقدم كان من دعاة الفكر الإلحادى

---

(١) الهداية عدد مايو ١٩١١ (٢) نفس المصدر السابق .
(٣) الصحائف السود ص ٨٢ - ٨٣

العلمانى . واقرأ إن شئت فصلاً مسهباً عنه وعن فكره فى كتاب « قصة الفلسفة » لـ « ول ديورانت » .

* *

● تقديم العقل على النقل :

واضح مما تقدَّم أن تلاميذ الشيخ محمد عبده - كما أشار « جب » من قبل - كانوا يرون للعقل أولوية على النقل ، والنقل هو النصوص الشرعية وفى مقدمتها القرآن الكريم وأحاديث خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم . وهذا هو مكمن الخطر . وهم فى هذا يسيرون سيرة أستاذهم تماماً . وليس فى هذا افتراء على أحدٍ منهم ، ولا على شيخهم . فإن كتاب رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام » وهو يروى وقائع حياة محمد عبده خير دليل على ما نقول من أن محمد عبده نفسه هو صاحب هذا المذهب « العقلى » المقدَّم على النصوص الشرعية .

وإذا كان فى الرجوع إلى « تاريخ الأستاذ الإمام » صعوبة فأمام القارىء مراجع ميَّسرة يمكنه الرجوع إليها كتبها معجبون بالشيخ محمد عبده لا خصوم معارضون . ومنها :

« محمد عبده » للمرحوم عباس محمود العقاد من سلسلة أعلام العرب .

و « الإمام محمد عبده » للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى . نشر دار المعارف بمصر .

و« الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للمرحوم الدكتور محمد البهى . نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

« تفسير المنار » لرشيد رضا .

* *

● نصوص من كلام محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل :

وإسهاماً منا فى مساعدة القارىء على استجلاء الحقائق نضع بين ناظريه نصوصاً من كلام محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل . وله أن يكتفى بها أو يطلب المزيد من المراجع التى أشرنا إليها من قبل . والسبب فى اختيارنا نصوصاً له فى صلة الوحى بالعقل ؛ لأن تلك الصلة – كما يرى محمد عبده – هى مفتاح السر فى فكره كله . فهى الأصل ، وما عداها تطبيقات لها كيفما كانت . وفى إيجاز شديد نقول : إن مذهب محمد عبده كان يقوم على إخضاع الوحى للعقل (؟!) وإليك الأدلة من كلامه :

« فقد أمر الكتاب – يعنى القرآن – بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ إليه من دقائق تحصيلاً لليقين فيما هدانا إليه . ونهانا عن التقليد بما حكى من أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم . فالتقليد مضلة يُعذر فيها الحيوان ، ولا يجمل بحال الإنسان » [1] .

هذا الكلام قد يبدو بريئاً . ولكن النظر الدقيق فيه يكشف عن مخاطره وخفاياه ، فقد قاس محمد عبده اتباع المسلمين لسَلَف الأمة على أمر مُجْمَع على بطلانه ، وهو ما حكاه القرآن من تقليد الأمم الغابرة لآبائهم فى الإشراك بالله ، والإقامة على المعاصى . فخذ إليك مثلاً قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [4] ؟!

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٥
(٢) الأعراف : ٢٨
(٣) المائدة : ١٠٤
(٤) البقرة : ١٧٠

هذا هو بعض ما حكاه القرآن الأمين من تقليد الأمم لآبائهم . إنهم جعلوا الإشراك بالله الموروث عن آبائهم ، وفعل الفواحش بديلاً عما كانت الرسل تدعوهم إليه . هذا هو التقليد الذى نهى عنه القرآن . أما التقليد فى كلام محمد عبده ، وفى دعوات تلاميذه من بعده فهو : اتباع الأمة لكتاب الله وسُنَّة رسوله ، والفقه الذى استنبطه الأئمة الأعلام من كتاب الله وسُنَّة رسوله ، وسيرة خلفائه الراشدين . ولذلك دعت هذه المدرسة - شيوخها وتلاميذهم - إلى الاجتهاد المطلق ، وإلغاء المذاهب الفقهية التى تلقتها الأمة بالقبول والرضا ، واطمأنت إليها قلوبهم ، وأجمعت الأمة على العمل بها فكان ذلك من علامات رضا الله عنها .

وقد عبَّر المرحوم الدكتور محمد البهى عن رأى الشيخ محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل بأن محمد عبده يرى أن « طبيعة الوحى يجب أن توافق طبيعة العقل الإنسانى » ؟! (١) .

وفى موضع آخر يقول : « وفى توضيحه صلة العقل بالوحى ، أو صلة رجال العقل برجال النص فى الجماعة الإسلامية ، يرى الشيخ محمد عبده ما رآه ابن رشد فى القرن السادس الهجرى ، وما رآه ابن تيمية فى القرن الثامن من قرون الهجرة من أن الوحى يجب أن يتفق مع العقل » (٢) .

*

● ملاحظتان :

ولنا على كلام الدكتور البهى ملاحظتان مهمتان :

إحداهما : أنه فى الموضعين اللذين حكى فيهما رأى محمد عبده فى صلة العقل بالوحى قال : « إن الوحى يجب أن يتفق مع العقل » . ومعنى هذا أنه يرى خضوع الوحى للعقل . وهذا هو الخطر والخطأ الجسيم فى فكر محمد عبده

---

(١) الفكر الإسلامى ص ١٥٩ (٢) نفس المصدر ص ١٥٦

وتلاميذه ؛ لأن الأصل هو خضوع العقل للوحى ، سواء أريد بالوحى المعنى الاصطلاحى (القرآن) أم أريد به ما هو أعم من المعنى الاصطلاحى (القرآن ثم الحديث الشريف القطعى الثبوت) .

وإذا كان رأى محمد عبده ومدرسته هو ما حكاه الدكتور البهى . فإنه لا يصح تشبيه رأى محمد عبده بما ذهب إليه كل من ابن رشد وابن تيمية . وهذا هو المدخل إلى :

الملاحظة الثانية : إن ابن رشد ، وابن تيمية لم يريدا ما أراده محمد عبده . لأن ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والعقل من الاتصال » ، وابن تيمية فى كتابه « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » كان عملهما أن يبيِّنا أن لا خلاف بين نصوص الشريعة الصحيحة وبين أحكام العقل الصريحة . والبون شاسع كما ترى بين رأى محمد عبده ، وبين مذهب الإمامين الجليلين : ابن رشد وابن تيمية ؟!

* * *

الفصل الثامن والعشرون

الأعمال المشهورة لتلاميذ محمد عبده

أوجزنا الحديث فيما تقدَّم عن الأعمال غير المشهورة لتلاميذ محمد عبده . وبيَّنا مدى ارتباطها بفكره . وها نحن نفى بما وعدنا به من قبل من الحديث عن الأعمال المشهورة لبعض تلاميذه ، أو الذين ساروا على نهجه فى التفكير والرأى . ونُقصر كلامنا - هنا - على عملين كان لهما آثار خطيرة فى العمل والتطبيق فى مصر ، وفى غير مصر من البلاد الإسلامية . وندير الحديث عنهما حسب الترتيب الزمنى لظهورهما . أما أولهما فهو :

« تحرير المرأة »

إفساد المرأة ، ودعوتها إلى التمرد على الإسلام والأخلاق والسلوك هدف أصيل فى المخطط الذى وضعته أوروبا فى مواجهة الإسلام ، وربما كان القارىء على ذِكْر من أن « نابليون بونابرت » استصحب معه فى حملته على مصر عام ١٧٩٨ شرذمة من الفتيات المتبرجات ، جاء بهن من فرنسا ليسرن فى شوارع القاهرة وهن عاريات كاسيات مائلات مميلات . وكان الهدف هو إغراء المرأة المسلمة بهن ، ليسرن سيرتهن ؟!

وتتابعت المحاولات بعد ذلك أيام الاحتلال البريطانى ، ومع هذا فقد ظلت حاجة الاستعمار قائمة إلى دعوة تصدر من الداخل لتكون أكثر تأثيراً فى تحقيق المراد .

وقد وجدوا ضالتهم فى قاسم أمين بك القاضى المصرى . فأصدر قاسم أمين هذا كتابين يحرضان المرأة على الاقتداء بالمرأة الأوروبية وهما كتابا : « المرأة الجديدة » و « تحرير المرأة » وقد ظهر الكتاب الثانى عام ١٨٩٩ وظهر الأول بعده بعام واحد .١٨٩ وقد أحدث الكتابان ضجة عارمة فى مصر ، لها طرفان مؤيد ومعارض . ويمثل الكتابان الاتجاه الذى يتبنى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره تمثيلاً واضحاً .

ففى كتابه « تحرير المرأة » يزعم قاسم أمين أن أحكام الشريعة - مهما كان مصدرها - خاضعة للتبديل والتغيير حسب الظروف المكانية والزمانية والاجتماعية (ص ١٦٩) ويرى أن الإسلام ليس فيه نص يُلزم المرأة بالحجاب بل الحجاب عادة أخذها المسلمون عن طريق اختلاطهم بالأمم (ص ٥٩) [١] .

ووقف قاسم أمين أمام آية النور المشار إليها ، وأوّلها تأويلاً شاذاً خاضعاً للأهواء . ويسخر من الحجاب وحكمة تشريعه فيقول : « ولماذا لم يؤمر الرجال بالتبرقع خوفاً على النساء من الفتنة (؟!) هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر (منه) على ضبط النفس » ؟!

والآيات التى توجب تحريم اختلاط النساء بالرجال يؤوِّلها قاسم أمين بأنها خاصة بزوجات النبى ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ .. ﴾ [٢] ، و ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. ﴾ [٣] .

ويذهب قاسم أمين إلى منع تعدد الزوجات - تبعاً لأستاذه محمد عبده - ويقول أن تعدد الزوجات مشروط بالعدل بينهن . وأن هذا العدل غير مستطاع لقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [٤] .

---

(١) يكفى فى تكذيب هذه الدعوة أن يقرأ المسلم سورة « النور » ليرى أن الأمر بالحجاب من صميم شريعة الإسلام . (٢) الأحزاب : ٣٣ (٣) الأحزاب : ٥٣

(٤) العدل المطلوب هو ما كان فى الرزق والكسوة والمبيت ، أما العدل المنفى فهو الميل القلبى - والآية من سورة النساء : ١٢٩

كما دعا قاسم أمين مترسماً خطى أستاذه إلى تقييد الطلاق بحكم القاضى ، مهما كانت الأسباب . وهذا بدوره روّج له أستاذه من قبل ، ويسخر المؤلف بين الفينة والفينة من علماء الدين ، ومن علمهم وفقههم ؛ لأنهم كانوا يتصدون لمثل دعاوى قاسم ورفاقه من المارقين وأنصار الحضارة الغربية (ص ١٠٨) .

وفى كتابه « المرأة الجديدة » يواصل قاسم أمين نفس العمل الذى قدّمه فى كتابه « تحرير المرأة » بَيْدَ أنه كان - هنا - أعنف وأكثر تجرؤاً ؟! وينفى أن تكون عفة المرأة عن طريق الحجاب ، ويزعم أن المرأة تكتسب عفتها إذا نالت حريتها كاملة (؟!) وقد ردد هذه الأكذوبة عن كاتب إيطالى حيث يقول : « إن العفة تُكتسب بمنح الحرية للمرأة » ؟!

ويهاجم الدين والتأدب بآدابه ، فيرى أن المسلمين فى أول أمرهم - يعنى فى عصر النبوة وما تلاه من عصور - احتكموا إلى الدين ، وقدّموه على العلم لأن العلم كان فى عهدهم ضعيفاً ، فغلب الفقهاء على أمر العلم والعلماء ، أما الآن فقد قوى العلم وضعف الدين . فتغلّب رجال العلم على رجال الدين . ويدّعى بأن الحضارة الإسلامية قامت وانتهت قبل أن ينكشف الغطاء عن أصول العلم ، فكيف نعتقد أن الحضارة الإسلامية - التى نشأت فى غيبة العلم - هى النموذج البَشرى الكامل ؟!

* *

● **الارتماء فى أحضان الغرب :**

ويدعو قاسم أمين دعوة صريحة إلى الارتماء فى أحضان الغرب وحضارته ؛ يقول قاسم بعد أن ذكر خطر الاعتماد على الماضى الإسلامى ، وأنه سبب التخلف :

« هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أن نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين - ونرجو ألا يكون بعيداً » .

انجلت الحقيقة أمام أعيننا .. وعرفنا قيمة التمدن الغربى ؟! ثم يثنى كل الثناء على حضارة الغرب ، ويستلفت أنظار المسلمين رجالاً ونساءً ، شباباً وشابات إلى المرأة الأوروبية (ص ١٨٥ - ١٨٦) .

بل إن المؤلف يذهب إلى أن فهم علماء الغرب للمرأة ، ونظمهم التى قد وضعوها لحياة المرأة وشئونها لهى أقرب إلى فهم الإسلام وروحه من فهم علماء المسلمين له ؟!

وينتهى إلى أن الحجاب عادة لا يليق استعماله فى عصرنا (ص١٨٣) ؟!

وقد وجد قاسم أمين بتمرده هذا ، وتجرئه على الدين والأخلاق عطفاً وحدباً من دعاة التحضر ، وبخاصة أحمد لطفى السيد الذى فتح أمامه صفحات الجريدة التى كان يرأس تحريرها ليكتب فيها قاسم أمين ما يشاء . ثم منحوه لقباً براقاً « محرر المرأة » ؟! وأخذت النساء يتساقطن حول دعوته ، وينشئن التنظيمات والجمعيات ، ويقمن المؤتمرات فى الداخل والخارج . وما تزال وسائل الإعلام تُسبِّح بأعمال قاسم أمين وتُمَجِّدها إلى الآن . وكثرت الألقاب بعد ذلك للتشجيع على التبرج والاختلاط وحرية المرأة الشخصية : العصرية - المتحررة . وبلغ السفور عند بعضهن حداً يشعر بالخجل عند مَن يراهن . فالثياب التى تلبسها المرأة مراعىً فيها ثلاثة أوصاف : أن تكون قصيرة . ضيقة . شفافة . وأحياناً كثيرة : ذات لون لافت للأنظار مع كشف الرأس والذراعين والنحر ، والركبتين ، وبعضهن يترك فتحة ، من الخلف الأعلى لتبدو أجزاء من الظهر ، هذا مع إرخاء الشعور وطلاء الشفاه والخدود والأظافر ؟! وعمَّ الاختلاط فى كل مكان : فى المعاهد والكليات ، فى دور السينما واللهو ، فى وسائل الموصلات ومقار العمل ، والمحال العامة للبيع والشراء أو العلاج ، وانتصر دعاة السوء فعلاً فى هذا المجال ، وأصبحتَ لا تُفرِّق بين فتاة باريس وفتاة القاهرة أو الإسكندرية ، وبقية المدن ، حتى الأرياف تسرب هذا الفساد إليها ، وبخاصة بعد دخول الكهرباء فيها وانتشار أجهزة التليفزيون والڤيديو . وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ؟!

تُرى : ما الذى جناه محمد عبده وتلاميذه لوطنهم ولدينهم سوى الخزى والعار . لقد بدّلوا نعمة اللّه كفراً ، وأحلّوا قومهم دار البوار ؟!

* *

● أصلان لحركة قاسم أمين :

حركة قاسم أمين أحد مظاهر الحضارة الغربية الحديثة بلا ريب ، وقد قامت هذه الحركة « القاسمية » على أصلين من أصول الثورة الفرنسية .

أحدهما : إقرار الحريات الخاصة للرجال والنساء ، ومساواة المرأة بالرجل فى جميع الحقوق ، ومنها العمل خارج المنزل .

والأصل الآخر : إقصاء الدين عن مجالات الحكم والسياسة والتوجيه ، وحصر وظيفته فى العلاقة الحرة بين المخلوق والخالق إن شاء رعاها - أى المخلوق ، وإن شاء أهملها ؟! أما شئون الحياة الأخرى فإدارتها مِلْك للشعب على أى نظام شاء ؟!

* * *

● الإسلام وأصول الحكم :

هذا هو العمل الثانى المشهور للذين تأثروا بأفكار محمد عبده وشيخه جمال الدين . وهو عبارة عن « كتيب صغير » صدر عام ١٩٢٥ باسم الشيخ على عبد الرازق أحد خريجى الأزهر الشريف وقاض بمحاكم مصر الشرعية . وكان صدوره مواكباً لصدور كتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » الذى تقدّم الحديث عنه ، ويعتبر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » بمثابة تطبيق لفكرة مدرسة محمد عبده وشيخه ، وهى : الاجتهاد المطلق ، كما يُعتبر تطبيقاً من جانب آخر للفكر المتمرد الذى روّج له الدكتور طه حسين فى كتابه المذكور . ثم هو - بعد ذلك - عمل مباشر لتطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وهو الهدف الاستعمارى (الأم) الذى التف حوله كل مَن أشرنا إليهم من قبل من دعاة

الحضارة الغربية ، وفرض سيطرتها على كل صغيرة وكبيرة من مظاهر الحياة فى مصر وفى العالَم الإسلامى أجمع إن أمكن ؟!

وقد تناول على عبد الرازق فى كتابه هذا الإسلام فجرده من كل خصائصه وحصر رسالته فى المسجد والمحراب والصلاة والصيام ، أى هو مجرد علاقة باهتة بين العبد وخالقه . وهذا هو ما انتهى إليه الدين فى الغرب بعد قيام الثورة الفرنسية وسيطرة مبادئها العلمانية على الحياة فى أوروبا .

فالإسلام فى كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لا يعرف الخلافة ولا الإمامة ، ولا شأن له بالحكم ، ولا جهاد فيه ولا قضاء ، ولا شأن له بأى إدارة أو توجيه للحكّام . إنه علاقة روحية صامتة محلها القلب . ومجالها دُور العبادة أو الخلوات ، ومحظور على الإسلام أن يخرج عن عتبة المسجد ، أو يكون له أى سلطان خارجاً عن قلوب المسلمين . فالدين لله ، والحكم والسُلطان لرجال الإدارة ملوكاً ورؤساء ، ولما كانت هذه المزاعم مردودة بالواقع الإسلامى فى عهد صاحب الدعوة والخلفاء الراشدين ، لجأ على عبد الرازق إلى تفسير جديد طبعاً وتأويل متعسف لذلك الواقع ، وتطاول – أحياناً – على سيرة صاحب الدعوة وخلفائه الراشدين . والهدف هو إفساح الطريق للإسلام الجديد الذى يدعو إليه هو ورفاقه على الخطة التى وضعتها أوروبا فى مواجهتها للإسلام .

*

● نماذج من محتويات الكتاب :

أهم ما يُلفت النظر فى أوائل الكتاب موقف المؤلف من الخلافة أو الإمامة العظمى فى الإسلام . فقد تحدَّث عنها فى صدر الكتاب من خلال ثلاثة أبواب من الكتاب الأول [١] ، وصوَّر فيها الخلافة تصويراً تاريخياً وواقعياً منفراً للغاية . فزعم أنها لم تنل ولم تقم – دائماً – إلا بقوة السلاح وشهر السيوف ،

---

(١) منهج المؤلف هو تقسيم كتابه إلى كتب . وتقسيم الكتب إلى أبواب .

وأنها تقوم على تقديس الخليفة ، وأنها كانت نكبة ومصدر شرور على المسلمين فى جميع أدوارها . وأن المسلمين فى الواقع ليسوا فى حاجة إلى الخلافة لا فى أمور دينهم ، ولا فى أمور دنياهم . وأن القرآن يخلو من الحديث عن الخلافة أو الإمامة مع أنه خصَّ كل شأن بحديث مفصَّل إلا تلك الخلافة فلم يرد لها ذِكْر فيه ، وأنها لما كانت (دخيلة على الإسلام) لم تخل فى عصر من عصورها من المعارضة والخروج عليها منذ الصدر الأول للإسلام يقول :

« إن مقام الخلافة الإسلامية كان منذ الخليفة الأول أبى بكر (رضى اللّه عنه) إلى يومنا هذا عُرضة للخارجين عليه المنكرين له ، ولا يكاد التاريخ الإسلامى يعرف خليفة إلا عليه خارج ، ولا جيلاً من الأجيال مضى دون أن يشاهد مصرعاً من مصارع الخلفاء » ؟!

ويقول : « إذا رجعنا إلى الواقع ونفس الأمر وجدنا أن الخلافة فى الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة . وأن تلك القوة كانت - إلا فى النادر - قوة مادية مسلَّحة .. وأن علياً ومعاوية (رضى اللّه عنهما) لم يتبوآ عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيف » ؟!

ويقول : « فليس بنا حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ، ولا لأمور دنيانا . ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك . فإنما كانت الخلافة - ولم تزل - نكبة على الإسلام وعلى المسلمين ، وينبوع شر وفساد .. » .

* *

● الهدف من هذا الكلام :

يهدف المؤلف من هذا الكلام تصوير الخلافة تصويراً كريهاً ، مدَّعياً أن كل خليفة كان له مناوئون وخارجون عليه حتى أبا بكر وعمر ، وهذا محض افتراء فأبو بكر وعمر رضى اللّه عنهما كان رضا المسلمين بهما يفوق كل حدٍ . أما عثمان رضى اللّه عنه فاستتب له الأمر شطر خلافته ، ولم تحدث القلاقل إلا فى شطر خلافته الثانى بتدبير من أعداء الإسلام ، أولئك الأعداء الذين يشبههم أعداء الإسلام فى العصر الحديث ، وكان على عبد الرازق واحداً من

عملائهم ودُماهم ، أما موضوع مصارع الخلفاء فأسبابها معروفة تاريخياً فالحامل عليها إما عدالة الخليفة كمصرع عمر بن الخطاب ، وإما لإحداث فتنة بين المسلمين كمصرع عثمان رضى الله عنه ، وإما استشفاء الخصوم من عثمان رضى الله عنه ، وإما منافسة بين طالبى السلطان كما حدث فى عصر العباسيين . أو لجورٍ من الخلفاء وطغيان ملحوظ ، وأياً كان الأمر فلم يكن مصرع أى خليفة ناشئاً عن أن الخلافة منكر تجب إزالته كما هو ظاهر كلام على عبد الرازق .

والمهم من الموضوع كله أن المؤلف استغل بعض السلبيات التاريخية بروح مغرضة ، وهدفه الأول والأخير هو أن يذيع بين المسلمين أن الخلافة بدعة وشر ، وليست من الإسلام ، ولهذا القول بواعث سوف نوضحها فى نهاية العرض .

أما ادعاؤه أن الإسلام فى دستوره الخالد « القرآن » لم يذكر الخلافة فيكفى أن تتبين جهل الرجل أو تجاهله إذا رجعت إلى القرآن فى مثل قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴾ (١) فمَن هم أولوا الأمر إن لم يكونوا أئمة المسلمين وخلفاءهم ؟!

* *

● نكران القضاء (؟!) :

القضاء فى الخصومات هو المبدأ العام للإسلام فى تطبيق أحكامه وشريعته . وصاحب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لا يرى للإسلام صلة بالحكم والسياسة . لذلك فإنه ينكر فى كتابه أن يكون لصاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - قضاة مفرّقون فى الأمصار يفصلون بين الخصوم على أساس الوحى ، والسُنَّة المطهرة . وفى ذلك يقول :

« الخلافة ليست فى شئ من الخطط الدينية ، كلا ، ولا القضاء ، ولا غيرها من وظائف الحكم ولا مراكز الدولة ، وإنما تلك خطط سياسية صرفة لا شأن

(١) النساء : ٥٩

للدين بها . فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعد السياسة ، كما أن تدبير الجيوش الإسلامية ، وعمارة المدن والثغور ونظام الدواوين لا شأن للدين بها » ؟!

المؤلف ينكر أن تكون الخلافة من الإسلام ، كما ينكر نظم القضاء وكل ما يتصل بعمارة الكون . فهذه خصائص السياسة عنده لا الدين ؛ بل الدين - عنده وعند سادته - علاقة روحية خاصة محلها القلب ؟

* *

● وينكر الجهاد (؟!) :

وليس في الإسلام - كذلك - جهاد لا لرد عدوان ، ولا لتأمين حدود ولا لدفع ظلم . وصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم لا يأذن له مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » في أن يحمل سلاحاً ، ويجاهد في سبيل الله ؟! أتدرى لماذا ؟ يجيبك على عبد الرازق فيقول ؛ لأنه رسول ، والرسل لا شأن لهم في الجهاد ، يقول :

« وما عرفنا في تاريخ الرسل رجلاً حمل الناس على الإيمان بالله بحد السيف ، ولا غزا قوماً في سبيل الاقتناع بدينه ... وإذا كان النبي ﷺ قد لجأ إلى القوة والرهبة فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين .. وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك ولتكوين الحكومة الإسلامية ، ولا تقوم حكومة إلا على السيف ، وبحكم القهر والغلبة ، فذلك عندهم [1] هو سر الجهاد النبوى ومعناه » ؟!

المؤلف - هنا - يقول إن غزوات النبي ﷺ كانت خروجاً عن مبادىء الدعوة ، وما حمله عليها إلا تكوين الحكومة الإسلامية عن طريق القهر والغلبة ؟!

* *

---

(١) عندهم : يقصد المسلمين . ولهذا دلالة فاضحة ستعرفها بعد قليل .

● أساس الحكم :

ويمضى المؤلف فى أباطيله ، ويمهد لقيام النظام العلمانى الفوضوى فى الحكم فى بلاد الإسلام ، فيزعم أن البَشرية لا يمكن أن تخضع لحكومة واحدة أو لنظام حكم واحد هو الإسلام . وإن كان من الممكن أن تلتقى البَشرية على دين واحد لا شأن له بالحكم . والبديل عن الحكم المستند على شريعة اللّه هو الحكم المستند إلى العقل والأهواء والنزعات ؟!

وفى ذلك يقول : « معقول أن يؤخذ العالَم كله بدين واحد ، وأن تنظم البَشرية كلها وحدة دينية . فأما أخذ العالَم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة فذلك مما يوشك أن يكون خارجاً عن الطبيعة البَشرية ، ولا تتعلق به إرادة اللّه (؟!) على أن ذلك إنما هو غرض من الأغراض الدنيوية ، التى خلىٌ اللّه سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا ، وترك الناس أحراراً فى تدبيرها على ما تهديهم إليه عقولهم ، وعلومهم ، ومصالحهم وأهواؤهم ونزعاتهم » ؟!

فأسس الحكم - إذاً - هى العقول والعلوم والمصالح بل هى الأهواء والنزعات ؟!

* *

● القرآن حل مؤقت (؟!) :

أما القرآن عند مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » فهو حل مؤقت لأزمات العصر والمكان اللذين نزل فيهما : فالعصر هو القرن السابع الميلادى (؟!) والمكان هو شبه الجزيرة العربية (؟) وليس من المعقول عند المؤلف أن حلاً كان له وجاهة فى القرن السابع الميلادى صالح لقيادة الملايين فى غير ذلك العصر وفى غير ذلك المكان ؟!

يقول المؤلف : « كل مسلم يعرف أن كثيراً من القرآن جاء للوجود لكى يلتقى مع بعض أزمات معيَّنة ، ولأحوال مؤقتة فى حياة محمد (؟!) ولكن مَن هو

الذى يعلم أن الواجبات والمحرَّمات والمكروهات التى جاءت فى الإسلام مقصود أن تساس بها حياة الملايين كى تظل تعيش فى أوضاع لا تُتصور ، وهى أوضاع القرن السابع الميلادى » ؟!

القرآن عند هذا الرجل أشبه ما يكون بنشرة أخبار تُلقَى مرة واحدة . فإذا رُدِّدت فى غير يومها كانت عديمة الجدوى ؟! فعلى مسلمى العصور التالية - إذاً - أن يديروا ظهورهم للقرآن وأن يستأنفوا حياة تقوم على أحكام متطورة مصدرها العقل والأهواء والنزعات ؟!

* *

● وزعامة النبى مؤقتة (؟!) :

وكما حكم المؤلف على القرآن بالتوقيت ، وأنه لا يتجاوز عصره الذى نزل فيه ، حكم على زعامة النبى ﷺ بالتوقيت . ولا يجوز لأحد بعده أن يمثله فى إدارة شئون المسلمين . يقول المؤلف :

« تلك زعامة كانت لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى . ليست لشخصه ، ولا لنسبه ، ولكن لأنه رسول الله (؟!) فإذا ما لحق عليه السلام بالملأ الأعلى ، لم يكن لأحد أن يقوم من بعد ذلك المقام الدينى » ؟!

يهدف المؤلف فى هذا الكلام لأمرين : أحدهما : إلغاء أحكام الإسلام . والآخر : إبطال الخلافة من عهد الراشدين إلى الآن ؟!

تلك لمحات موجزة عن كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ، وهو فى جملته هدم الدين من أساسه ، ومحاولة لفصل الدين عن الدولة كما حدث فى أوروبا عقيب الثورة الفرنسية . وقد أحدث الكتاب ضجة ليس لها مثيل فى مصر سوى كتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين ، الذى كان ظهوره مواكباً - تقريباً - لكتاب على عبد الرازق ، وقد حوكم على عبد الرازق باعتباره أحد خرِّيجى الأزهر باللوائح التأديبية الموضوعة للنظر فى مخالفات خرِّيجيه ، ووجِّه إليه

الأزهر عدة تهم قد اقترف هو الأفعال الموجبة لها ، وكانت التهم التى وجُهها إليه الأزهر ولم يستطع على عبد الرازق تبرئة نفسه منها هى :

١ - جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا (؟!) .

٢ - أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى ﷺ كان فى سبيل الملك ، لا فى سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين (؟!) .

٣ - أن نظام الحكم فى عهد النبى ﷺ كان موضع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص ، وموجباً للحيرة (؟!) .

٤ - أن مهمة النبى ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ .

٥ - إنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها فى الدنيا والدين .

٦ - إنكار أن يكون القضاء وظيفة شرعية .

٧ - أن حكومة أبى بكر والخلفاء من بعده كانت لا دينية .

والواقع أن الأزهر اقتصر على بعض التهم . .إلا فالكتاب حافل - على صغره - بكثير من الأفعال غير ما أشارت إليه قائمة الاتهام هذه .

* *

● الحكم :

بعد إتاحة الفرصة لعلى عبد الرازق للدفاع عن نفسه ، وعجزه هو ومحاميه عن ذلك الدفاع أصدر المجلس التأديبى المكوَّن من هيئة كبار العلماء برياسة شيخ الأزهر ، وموافقة أربعة وعشرين عضواً من أعضاء الهيئة الحكم التأديبى ، ويقضى : بـ « تجريد على عبد الرازق من الدرجة العلمية التى كان قد حصل عليها من الأزهر ، وإخراجه من زُمرة العلماء » .

وكان هذا الحكم تطبيقاً للمادة رقم (١٠١) من قانون الأزهر رقم (١٠) لسنة ١٩١١ .

ولا نريد أن نخوض فى آثار ما أحدثه الحكم فى الدوائر السياسية والإعلامية خشية الإطالة ، وإنما نريد مناقشة بعض المسائل المهمة قبل أن نترك الحديث عن هذا الكتاب ، ومنها :

تقدير ما يقال فى تقدير هذا الكتاب عملياً أنه مجموعة مغالطات وأخطاء لم تقم على سند علمى صحيح فى جميع النقاط التى تعرَّض لها ، وهدف إلى تجريد الإسلام منها .

إن هدفه كله منصَب على أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الإنسان فى ظل الإسلام - حسب مزاعمه - خاضع لثنائية لا محيد عنها . فهو من حيث روحه وقلبه خاضع لسلطان الدين ، ومن حيث جسده وولائه الظاهرى خاضع للسلطة السياسية ، والمؤلف - بهذا - ينقل صورة ما آل إليه الدين فى الغرب ، ويحاول تطبيقها على الإسلام ، فهذه الثنائية عُرفت فى الغرب قبل الثورة الفرنسية ، حيث تقاسمت الكنيسة السيطرة على الإنسان مع رجال الحكم من الملوك والأمراء .. للكنيسة منه الولاء الروحى ، وللسلطات السياسية الولاء الجسدى . ولما جاءت الثورة الفرنسية أقرَّت هذه الثنائية بعد أن أحدثت ميلاً ملحوظاً نحو الولاء الجسدى السياسى على حساب الولاء الروحى الدينى .

هذا ما أراده المؤلف من الكتاب ، مع المحاولات التى بذلها من جانبه لإنكار الخلافة باعتبارها سُلطة تحكم بما أنزل الله .. ثم أنكر القضاء والجهاد وصلة الإسلام بأى نشاط من أمور الدنيا ، وحصر رسالته فى القلوب والمساجد ، مردداً القول بأن ما لله لله - يعنى الدين - وما لقيصر لقيصر - يعنى الحكم والسياسة ؟! وهذا كذب محض ، وافتراء صريح ، ليس للمؤلف فيه أدنى سند لا من تاريخ الإسلام ، ولا من نصوصه المقدسة قرآناً وسُنَّة ، ولا من إجماع الأمة فى أى عصر من عصورها .

* *

● الإسلام دين ودولة :

الإسلام - رغم محاولات المبطلين - دين ودولة . هذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها . تشهد بها النصوص ، ويؤيدها التاريخ والقرآن العظيم ، والسُنَّة المطهرة ، هما أساس الحكم فى كل عصر وفى كل مصر ، والأحكام الفقهية التى أسفرت عنها جهود العلماء الأعلام وتلاميذهم ، بعد الدرس الطويل ، والنظر الثاقب فى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ جزء من نظام الحكم فى الإسلام . هذا هو الجانب النظرى فى الموضوع . تشرحه النصوص ، ويدعمه التاريخ . وما ورد فى القرآن قاطع لكل خلاف ، وحاسم لكل نزاع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١)

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

*

● جميع الرسالات :

والحكم بما أنزل الله ليس مقصوراً على رسالة الإسلام . بل هو أمر الله إلى كل رسول .

* فالتوراة المنزَّلة على موسى عليه السلام كان الحكم بما فيها واجباً على بنى إسرائيل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ ... ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٤٤ — (٢) المائدة : ٤٥

(٣) المائدة : ٤٧ — (٤) المائدة : ٤٤

* وما أنزل الله على داود كان حكماً واجباً التنفيذ : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (١) .

* والإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ، كان حكماً لله واجب الاتباع : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

* بل ذلك أمر الله فى شأن كل الرسالات بلا استثناء : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ .. ﴾ (٣) .

* ومن مخاطبة الله لخاتم الرسل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ .. ﴾ (٥) .

وقوله عزّ ذكره : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ﴾ (٦) .

* ومن التكاليف العامة التى خاطب الله بها الأمة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴾ (٧) .

---

(١) سورة ص : ٢٦ — (٢) المائدة : ٤٧ — (٣) البقرة : ٢١٣
(٤) النساء : ١٠٥ — (٥) المائدة : ٤٨ — (٦) المائدة : ٤٩
(٧) النساء : ٥٩

وفى حالة الخلاف حول حكم واقعة إذا لم ينزل بها نص قرآنى أو يفصل فيها حديث قطعى الدلالة والثبوت يجب على جماعة المسلمين رد الخلاف إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله لاستنباط الحكم المطلوب وهذا ما ينبىء عنه عَجُز الآية المذكورة آنفاً : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ (١) .

فشريعة الله هى المنفذة ، لا شرائع العقول والأهواء ..

* وما ثبت من سُنَّة رسول الله ﷺ هو المصدر الثانى من مصادر التشريع والحكم فى الإسلام : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٢) .

فالأمة مأمورة بطاعة الرسول كما أُمرت من قبل بطاعة الله فى قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴾ ، وكذلك أولى الأمر إذا التزموا بكتاب الله وسُنَّة رسوله : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

* وإذا أراد الله ورسوله للأمة أمراً وجب الالتزام به : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾ (٣) .

والإسلام هو قضاء الله وقضاء رسوله ، فالمسلمون - حكّاماً ومحكومين - مُلزَمون باتباع كتاب الله وسُنَّة رسوله ، وولاة الأمور مطالَبون جزماً بسياسة أمور الدنيا والدين على ما قضى الله وقضى رسوله . وإن خالفوا كان الله لهم بالمرصاد ، ونفذ فيهم وعيده وسُنَّته التى نصَّت عليها آية الأحزاب المذكورة ، وغيرها .. .. ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) الحشر : ٧
(٣) الأحزاب : ٣٦ (٤) الأحزاب : ٣٦

فأين - يا تُرى - دعاوى على عبد الرازق من هذه النصوص المقدسة القطعية الدلالة والثبوت ؟!

لقد افترى المؤلف إثماً وبهتاناً مبيناً وأتى منكراً من القول وزوراً .

* *

● التأييد التاريخى :

اقتصرنا فى الجانب النظرى على النصوص المقدسة التى سقناها من القرآن العظيم ، ولم نشأ أن نطيل بذكر غيرها من القرآن أو الحديث لأن هدفنا نقض ما ذهب إليه المؤلف بأيسر سبيل .

أما الجانب التاريخى فلا يشك عاقل أو منصف فى أن الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة كان - وما يزال - عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة .. والنظام الذى أسسه صاحب الدعوة فى حياته ، وتابعه الخلفاء الراشدون كان دولة قامت على أسس الشريعة الإسلامية ، وهى أول دولة راشدة فى التاريخ البَشرى كله ، كانت عاصمتها المدينة المنوَّرة . دولة حديثة فتية توفرت لها أسباب قيام الدول الراشدة فى كل مظهر من مظاهرها :

* المقر : هو المدينة المنوَّرة وما ألحق بها من أقاليم الدولة داخل شبه الجزيرة وخارجها .

* الشعب : وهم المسلمون من المهاجرين والأنصار ، ومَن دخل فى الإسلام من غيرهم .

* نظام الحكم : وكان أصلاه الأولان : القرآن العظيم وسُنَّة خاتم المرسلين قولية وعملية وإقرارية . ولُحْمَته وسُداه هما : الشورى والعدل .

* رئيس الدولة : وهو صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم فى حياته الطاهرة ثم مَن بعده : أبو بكر ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، وهكذا طوال عصرى الأمويين والعباسيين .

دولة لها نظمها ومقوّماتها من القضاة ، وعملاء الأمصار ، والجند ، والدواوين ، ولم يحد رؤساء تلك الدولة فى الصدر الأول ولا فى ما بعده عن الحكم بما أنزل الله وسُنَّة رسوله ، وما أجمع عليه العلماء حتى فى عصور الظلم كان الأساس المحكوم به هو شريعة الله .. حتى عبث الاستعمار بمصائر المسلمين فعطل العمل بشريعة الله فى كل بلد تمكن من السيطرة عليها : فى الهند ومصر وباكستان وفارس ، وشمال غرب إفريقيا وغيرها من البلاد الإسلامية ؟!

فأين دعاوى على عبد الرازق من هذه الحقائق الناصعة يا تُرى ؟

لقد ضلَّ الرجل وأضلَّ ، واشترى بآيات الله ثمناً قليلاً . فالله حسبنا فيه ونِعْمَ الوكيل .

* *

● من هو المؤلف ؟

الكتاب الذى تحدثنا عنه « الإسلام وأصول الحكم » صدر باسم الشيخ على عبد الرازق .. على أنه هو المؤلف ، وحوكم وطُرِد من زمرة العلماء بسبب الأفكار التى تضمنها الكتاب ، على أساس أنه هو المؤلف .. بَيْدَ أن حقيقة أخرى بدأت تظهر بعد فترة من صدور الكتاب وما ترتب عليه من ضجيج وإجراءات ، تلك الحقيقة كان الكتاب نفسه قد تضمن بعض أدلتها . وهى : أن الشيخ على عبد الرازق لم يكن هو مؤلف الكتاب ، وإنما هو من تأليف مستشرق مجهول ، وليس لعلى عبد الرازق فيه إلا وضع اسمه على غلاف الكتاب ، وهو عالِم أزهرى مسلم وقاض شرعى ليكتسب الكتاب بذلك قيمة ، ويروج بين المسلمين ؟!

* *

● الأدلة :

والأدلة على احتمال هذه الفكرة نوعان ؛ أحدهما : مبثوث فى نصوص الكتاب نفسه . والثانى : شهادة من رجل موثوق به وبصدقه .

● أدلة الكتاب نفسه :

فى الباب الأول من الكتاب الأول الذى عنوانه : « الخلافة والإسلام » تستوقفك عبارات تدل فى قطع أن مؤلف الكتاب رجل غير مسلم وأنه جاهل باللغة العربية . من ذلك قوله : « الخلافة لغة : مصدر تخلف فلان فلاناً » وهذا خطأ لا يقع فيه حامل الشهادة الابتدائية الأزهرية ، فضلاً أن يقع فيه حامل شهادة « العالمية » وقاض تمرس بعد تخرجه بأساليب اللغة نطقاً وكتابة . فالخلافة مصدر : خلف فلان فلاناً ، لا مصدر تخلف فلان فلاناً ؟! هذا فيما يتصل باللغة . أما فى ما يتصل بالغرابة عن المسلمين ، فمنها قوله : « والخلافة فى لسان المسلمين » .

وهذا القول جهل باللغة كذلك فضلاً عما فيه من غُربة عن المسلمين . فاللسان - بمعنى اللغة - قد تم هجره منذ القرن الثامن وحلّ محله مصطلح : « لغة » بدل لسان من عصر صفى الدين الحلى (القرن الثامن الهجرى) فقد كان أول مَن استعمل : اللغة بدل اللسان . وشاع هذا الاستعمال من بعده . وحتى إذا عدلنا عن هذه « القفشة » فإن « اللسان » يضاف إلى « العرب » لا إلى المسلمين ، فيقال : « فى لسان العرب » .

أما الأمثلة الخاصة بالغُربة عن المسلمين فكثيرة ، نضع أمام نظر القارىء هذه النماذج منها :

« وبيان ذلك أن الخليفة عندهم - وعندهم أن اللّه جل شأنه - فالخليفة عندهم - وله حق القيام على دينهم - فيقيم فيهم حدوده - وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم - وعليهم أن يحبوه - وليس عند المسلمين مقام - عليهم أن يحترموه - والدين عند المسلمين - عليهم أن يسمعوا له - فى دينهم - من تعريفهم للخلافة - ومن مباحثهم - هم يعتبرون الخليفة مقيَّداً - وقد فرَّقوا من أجل ذلك - لهم وليس للخليفة - لكنهم أهملوا - أن للمسلمين فى ذلك - الخليفة بمنزلة الرسول عندهم - مثل هذا الخلاف بين المسلمين - معنى الخلافة عند

علماء المسلمين - نصب الخليفة عندهم واجب - ثم زعموا أن يحملوا عليها لغة الإسلام [1] - حركتهم العلمية » .

هذه العبارات توحى إليك أن مؤلف هذا الكتاب - الإسلام وأصول الحكم - لم يكن رجلاً مسلماً ، بل هو غريب عن المسلمين ، لذلك فإنه يتحدث عنهم غير منتم إليهم . وإليك هذا المقطع الواضح الدلالة على هذا الفهم ، وفيه يتحدث المؤلف عن المسلمين لإهمالهم - على حد زعمه - الفكر السياسى العالمى :

« فما لهم قد وقفوا حيارى أمام ذلك العلم (؟!) فارتدُّوا دون مباحثه حاسرين ، ما لهم أهملوا النظر فى كتاب الجمهورية لأفلاطون ؟ وهم الذين بلغ من إعجابهم بأرسطوأن لقَّبوه المعلم الأول ، وما لهم رضوا أن يتركوا المسلمين فى جهالة مطبقة بمبادىء السياسة وأنواع الحكومات عند اليونان ، وهم الذين ارتضوا أن ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان فى علم النحو » ؟!

وبعد هذا بقليل يذكر هذه العبارة : « الأصل فى الخلافة عند المسلمين أن تكون راجعة إلى أهل الحل والعقد » .

فهذه قرائن تشى من طرف خفى إلى أن يداً غير يد على عبد الرازق هى التى خطت هذا الكتاب أو كتبت بعض أبوابه ، أو أن على عبد الرازق لما ارتضى أن يُنشر هذا الكتاب باسمه نظر فيه فطوَّع بعضه للوضع الجديد ، وشذَّ عنه بعض فبقى على ما هو عليه ؟!

* *

● الأدلة الخارجية :

كان علماء الأزهر فى الماضى القريب يؤدون واجبهم نحو الإسلام والعلم فى صبر وأناة ، ويتصدون للأفكار الباطلة ويبينون ما فيها من زيف . وفى هذا

(١) لغة الإسلام : هذا القول من شواهد الجهل باللغة ومن شواهد الغربة عن المسلمين .

الإطار تصدى اثنان منهم لكتاب « الإسلام وأصول الحكم » هما الشيخان الجليلان : محمد الخضر حسين جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء . فقد كشف عن أباطيل على عبد الرازق فى كتاب أسماه : « نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم » ، والثانى هو محمد بخيت مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت ، فقد أصدر كتاباً لذات المهمة دعاه : « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » وفى هذا الكتاب يذكر الشيخ محمد بخيت المفتى التقى الورع ، يذكر عبارة ذات أهمية بالغة ، إذ يقول فى (ص ٢٣٧) :

« لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط ، فهو منسوب إليه فقط ، ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار ، وألبسوه ثوب الخزى والعار إلى يوم القيامة » ؟!

ويقول المرحوم ضياء الدين الريس - أجزل الله ثوابه - تعليقاً على عبارة الأستاذ المفتى هذه : « فهذا خبر مهم يمثل مفاجأة ، ويرويه فضيلة المفتى ، وهو عالم فاضل لا يُتوقع منه الكذب » [١] .

فهذه هى الأدلة تتضافر ويقوِّى بعضها بعضاً . فالشيخ على عبد الرازق ليس هو مؤلف الكتاب إذاً . وهذا احتمال قوى . ولكن ما هو السر فى هذا يا تُرى ؟! ولِمَ ومتى وُضِعَ هذا الكتاب ؟ وما الذى جعل عالماً أزهرياً يقبل أن يُنشر هذا الكتاب منسوباً إليه إن لم يكن هو المؤلف الحقيقى له ؟ وما الذى دعاه إلى تأليفه إن كان هو المؤلف فعلاً ؟! تساؤلات حارة تبحث عن إجابات ، وهذه هى :

● **الإجابات :**

يرجع الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس - رحمه الله رحمة واسعة - أن الكتاب فى أصله كان نشره دعائية وضعها مستشرق لحساب السياسة الإنجليزية فى أثناء الحرب العالمية الأولى حيث كانت بريطانيا تخوض حرباً ضد

---

(١) الإسلام والخلافة فى العصر الحديث ص ١٧٤

دولة الخلافة العثمانية فى ذلك الوقت . وكانت تركيا قد استطاعت أن توحّد بين المسلمين - عرباً وغير عرب - على أساس الخلافة العظمى التى كانت تمثلها هى .. فلا يبعد إذاً أن يكون هذا الكتاب نشرة دعائية أرادت بريطانيا منها تمزيق وحدة المسلمين - ولو غير العرب منهم - كالهند مثلاً ، لتكسر شوكة دولة الخلافة . ويستدل الدكتور الريس على هذا بأن الكتاب أُلّف خلال تلك الحرب ما بين سنتى (١٩١٤ - ١٩١٨) ويقوّى استنتاجه هذا بأن فى الكتاب عبارة قاطعة الدلالة بأن الكتاب أُلّف عام ١٩١٥ ، وإن كان قد صدر مطبوعاً باللغة العربية باسم على عبد الرازق عام ١٩٢٥ . وتلك العبارة هى :

« وما كان أمير المؤمنين محمد الخامس سلطان تركيا أن يسكن قصر « يلدز » اليوم لولا تلك الجيوش التى تحرس قصره ، وتحمى عرشه وتفنى دون الدفاع عنه » (الإسلام وأصول الحكم (ص ٢٥) .

فأمير المؤمنين محمد الخامس الذى تتحدث عنه هذه العبارة كان سلطان تركيا من عام (١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨) فهذا دليل قاطع على أن الكتاب كان له وجود قبل صدوره مطبوعاً بالعربية باسم على عبد الرازق عام ١٩٢٥ ، أى كان للكتاب وجود قبل عشر سنين من صدوره باللغة العربية .

ويقوّى هذا الفهم أن الكتاب قائم على محاربة الخلافة والجهاد . وهو يؤكد وجوده والخلافة قائمة لم تزل ، والجهاد قائم كذلك فى أثناء الحرب العالمية الأولى . بل إن فى الكتاب ما يقطع بأن الخلافة كانت قائمة فى الوقت الذى أُلّف فيه الكتاب إذ يقول مؤلفه : « كانت الخلافة ولم تزل .. » .

هذا هو الوقت الحقيقى الذى تم فيه تأليف الكتاب (١٩١٥ - ١٩١٨) أما صدوره مطبوعاً باللغة العربية باسم على عبد الرازق فكان فى إبريل عام ١٩٢٥ أى بعد أكثر من عام كامل على إلغاء « أتاتورك » لمنصب الخلافة فى مارس عام ١٩٢٤

وهذا يؤكد أن أصل الكتاب كان نشرة دعائية استخدمتها بريطانيا ضد تركيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى .. ؟

ونقف الآن أمام هذا السؤال الخطير : ولكن لماذا ألفه الشيخ أو رضى بنشره باسمه ؟!

*　　*

● سببان « عام .. وخاص » :

الإجابة على هذا السؤال ترجع إلى سببين ، أولهما عام ، والآخر خاص .

فالسبب العام أن على عبد الرازق وأسرته كانوا ينتمون إلى حزب الأمة ، وكان هذا الحزب موالياً لسياسة الإنجليز . وكانت سياسة الإنجليز تتبنى فى ذلك الوقت أمرين :

* كراهية الخلافة ومحاربتها ، لأنها كانت مصدر قوة للمسلمين بصفة عامة ، ولتركيا دولة الخلافة والعدو اللدود للإنجليز بصفة خاصة .

* السعى لفصل مصر عن دولة الخلافة « تركيا » .

وحزب الأمة كان يشارك الإنجليز فى تبنى تلك السياسة التى تهدف إلى هدم الخلافة ، والقضاء على تركيا . وهذا وحده كاف فى حمل على عبد الرازق على تأليف الكتاب أو قبول نشره باسمه خدمة لمصالح حزبه ، ومصالح الإنجليز .

أما السبب الخاص : فإن على عبد الرازق كان ضعيف العقيدة ، رقيق التدين ، ميالاً للشهرة بأى ثمن كان . والشواهد على ذلك كثيرة ، ومن أبرزها المقال الذى كتبه الصحفى الوطنى الكبير « أمين الرافعى » الذى كان له اتصال وثيق بالدوائر السياسية والصحفية ، ومعرفة ما وراء الكواليس ، فقد كتب فى صحيفة « الأخبار » فى أثناء احتدام المعركة بين أنصار على عبد الرازق وخصومه :

أنه لم يستغرب أن يقدم الشيخ على عبد الرازق على إصدار هذا الكتاب لما عُرِف عنه من الضعف فى تحصيل العلوم ، والإلحاد فى العقيدة .. وأنه - يعنى على عبد الرازق - انغمر منذ سنين فى بيئة - يعنى بريطانيا [1] - ليس لها من أسباب الظهور سوى الافتئات على الدين ، وتقمص أثواب الفلاسفة والملحدين ، وصار خليقاً بأن : يلقب بـ « الأستاذ المحقق » و « العلأمة الكبير » . وكان الأستاذ أمين الرافعى حين كتب هذا المقال رئيساً لتحرير جريدة الأخبار .

* * *

(١) قضى على عبد الرازق أربع سنين فى إنجلترا من عام ١٩١١ إلى ١٩١٤

الفصل التاسع والعشرون

شيوع الانحراف والتصدع

تلك النماذج من الانحرافات والتصدع التى أوجزنا الحديث حولها من أعمال قاسم أمين ، وطه حسين ، وعلى عبد الرازق ، وسلامة موسى ، ومن قبلهم : رفاعة الطهطاوى ، وإن قوبل بعضها بشدة وحزم من الأزهر ، والدولة ، والشعب المصرى المسلم ، لم يتوقف خطرها قَط ، بل كانت بمثابة « الشرارة » التى تفشَّت فى هشيم جاف فأضرمت فيه النار ، وعجزت وسائل المكافحة عن إطفائها أو حصرها فى نطاقها . فقد تتابعت جهود المخربين تظهر فى كل مكان ، فالدكتور « خلف الله » أحد عمد الماركسية فى مصر الآن يؤلف رسالة علمية هى فى الواقع تطبيق لما أذاعه طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » حيث زعم « خلف الله » أن فى القرآن قصصاً خرافياً أسطورياً . ومع أن خطة الرجل قد كشف العلماء زيغها ، ووأدوها فى مهدها . فإن الرجل استطاع فى عهد الثورة المصرية الأخيرة أن يؤسس مجلة « الطليعة » التى كانت تصدرها مؤسسة الأهرام ، وهى مجلة تخصصت فى نشر الفكر العلمانى الماركسى ، وظلت قرابة ربع قرن – فيما أحسب – تناوىء الإسلام ، وتدعو إلى « التحرر » و « التقدمية » وحين توقف صدور المجلة ، وحلَّت محلها مجلة « الشباب » استطاع ماركسيو جريدة الأهرام أن يستبدوا بصفحة فى جريدة الأهرام نفسها يحررونها أسبوعياً تحت عنوان : « صفحة الحوار القومى » وهى بديل عن مجلة الطليعة التى توقفت . ومما أثارته صفحة الحوار القومى عام ١٩٨٦ أن القرآن خطاب خاص من الله للعرب ، والهدف من هذا الزعم أن يروِّجوا لفكرة :

أن الإسلام نفسه دين للعرب وحدهم لا لغيرهم من أجناس الأرض وشعوبها .
وقد دار حول هذا الموضوع جدل كبير فى الصفحة نفسها وفى صحف أخرى مصرية وعربية . والفكرة فى أساسها فكرة تبشيرية استعمارية ، والماركسية وإن كانت لا تملك برامج محددة لتبشير دينى كالصليبية ، فإنها تبشر بالنظام الماركسى الشيوعى الذى انفرط عقده الآن (١٩٨٩ - ١٩٩٠) وهم يدركون أن من أضخم العقبات أمام المد الشيوعى هو الإسلام ، فإذا أمكن تحطيم ذلك الإسلام أو حتى « تحجيمه » أمكن للشيوعية أن تتنفس بحرية فى جو طليق ؟!

ومن الموضوعات التى أثارتها « صفحة الحوار القومى » عام ١٩٨٩ بدعة القراءة الثانية للتراث ، واستكتبت فى هذا الشأن المدعو « أدونيس » أحد دعاة « الحداثة » فى الوطن العربى .

وأدونيس نفسه تسرب إلى الإسلام من النصرانية ، لا على هدى واقتناع ، ولكن ليكيد للإسلام من الداخل ، والمهم أن أدونيس هذا كتب أربع مقالات فى تلك الصفحة على مدى أربعة أسابيع متوالية من ١٩٨٩/٢/٤ وطالب فى مقالاته بإعادة القراءة للتراث . وهى عبارة تعادل : إعادة التفسير ؟!

والقرآن والسُنَّة - عنده - تراث يجب إعادة تفسيرهما وإهمال ما بين أيدينا من تفاسير للقرآن الكريم ، وشروح للحديث النبوى الشريف ، وذهب إلى أن الاكتفاء بتفاسير القرآن وشروح الأحاديث المعروفة الآن ، معناه : أن القرآن قد استنفد أغراضه ، أو على حد تعبيره « استغلق » (؟!) .

أما فى الأدب بوجه عام فيدعو إلى تحريره من : الدين - والقومية لكى يبدع الأدباء العرب - يعنى المسلمين - فى نتاجهم ، ويرى أن خلو الأدب العربى من الإبداع هو خضوعه لقيود خارجية مثل القيود الدينية والخُلُقية ... إلخ .

أليس هذا هو عَيْن ما كان يروِّج له الاستعمار فى كل بلد إسلامى كان له وجود فيه ؟!

ولم يقف الانحراف والتصدع عند هذا الحد ، بل إن صحفاً كثيرة تصدر الآن فى مصر ، وفى غير مصر ، تحمل لواء التطوير وإعادة التفسير اللذين نادى بهما الاستعمار من قبل . وفى هذا الإطار المدمر ما يكتبه محمد سعيد العشماوى فى كتبه وفى الصحف السيَّارة ، وليرجع مَنْ شاء من القرّاء لكتابه « أصول الشريعة » الذى ترك فيه الإسلام شريعة بلا أصول ، مترسماً خطى غيره من هواة « التغريب » فهو مثلاً يحصر وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية بحياة النبى ﷺ لأنه كان - إذا أخطأ - صحَّح الوحى له خطأه . أما بعد انقطاع الوحى بوفاة صاحب الرسالة فلا يجب العمل بشريعة الإسلام لعدم العصمة من الخطأ ؟! وكأن الإعراض عن الإسلام هو العاصم من الخطأ عند سعيد العشماوى ؟!

*

● مثال تطبيقى :

ويطبق « العشماوى » أباطيله هذه على واقعة حروب الردَّة فى عهد أبى بكر رضى اللّٰه عنه ، ويذهب إلى جهلنا بمعرفة المصيب فيها أهو أبو بكر أم المرتدون ؟! وسبب هذا الجهل - عنده - أن الوحى كان قد انقطع ولم يعيِّن لنا مَنْ هو المصيب من الفريقين أبو بكر أم الذين ارتدُّوا عن الإسلام فى عهده ؟!

ولهذا الكاتب « شطحات » أخرى لا حصر لها مثل تحليله للربا ، ومثل التهاون فى إقامة الحدود ؟!

وأمثال المستشار العشماوى كثيرون الآن ؛ الدكتوران فؤاد زكريا ، وعبد العظيم رمضان ، والدكتور فرج فودة ، ولطفى الخولى ، وصلاح حافظ ، وأحمد بهاء الدين ، وعلى الدالى ، ومكرم محمد أحمد ، وفيليب جلاب ، والدكتور لويس عوض ، والدكتور غالى شكرى ، وأحمد عبد المعطى حجازى ، وسعيد سنبل ، وموسى صبرى ، وأحياناً - الدكتور زكى نجيب محمود ، وجل كتبه فى الماضى القريب ، وبعض مقالاته « الثلاثية » فى الأهرام تمثل هذا

الاتجاه التطويرى ، وقد سخر مرة فى حوار صحفى له نشرته روز اليوسف من الدعوة إلى تطبيق الشريعة ، وبخاصة فى « إقامة الحدود » فقال معلّقاً على « إقامة حد السرقة » : « مَنْ الذى سيقطع يد السارق : القصَّاب - يعنى الجزار - أم الطبيب الذى أقسم عند بدء عمله على إسعاد البَشرية » ؟!

وقد قرأت له مقالاً فى جريدة الأهرام منذ أكثر من عشر سنوات فسَّر فيه قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (1) فقال : إن المراد بالشرعة هى شرعه العقل ؟! يعنى : ليست الوحى ؟!

وهو الذى وصف حجاب المرأة المصرية المعاصرة بأنه « رِدَّة » جاء ذلك فى مقال أسبوعى بجريدة الأهرام بعنوان « رِدَّة المرأة » وقال : إن الحجاب علامة التخلف والجهل ؟!

وهكذا نشأ جيل أو جيلان بعد رحيل الاستعمار العسكرى عن مصر ، يروِّج أو يروِّجان للفكر الغربى على حساب المبادىء والقِيَم الإسلامية ؛ فمن سخرية بالحجاب ، ثم الحدود الشرعية ، ثم المصطلحات الشرعية مثل : أهل الذِّمة ، والمُعَاهد ، وابن مخاض ، وبنت لبون ، وكون شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ، وعمل المرأة فى البيت ، واللحية ، وأدب الإسلام فى قضاء الحاجة : « لا تستقبلوا القِبْلة ولا تستدبروها » ، وتعدد الزوجات ، وكون العصمه بيد الرجل وحده ، وبيت الطاعة ، وتحريم سفر المرأة وحدها ، ورفع الأذان فجراً بالميكروفون ، وتعدد الأذان بتعدد المساجد ، ومبدأ : الزكاة والجهاد فى الإسلام ، وفصل الأزهر بين الذكور والإناث فى دور العلم ومعاهده وكلياته التابعة له ، وطعن بعض الباحثين فى القرءات القرآنية ، وإنكار بعضهم مثل « حسين أحمد أمين » ، و « أبو ريا » فى السُنَّة النبوية ، وأنه لا ينبغى العمل بها لما فيها من اضطراب فى السند وفى المتن . بل إن التشكيك وصل إلى المذاهب الفقهية الأربعة ووصموها بالجمود والتخلف ، وأنها خدمت عصرها ولن تصلح لخدمة

(1) المائدة : ٤٨

عصرنا (؟!) ودعوا إلى فتح باب الاجتهاد « المطلق » من جديد ، ودعوا إلى مساواة المرأة بالرجل حتى فى الميراث ، ودعوا إلى تحليل الربا وصدرت بتحليله فتاوى رسمية ، وكرّهوا الناس فى تطبيق الشريعة ، وحرّضوا أقباط مصر على الوقوف فى طريقها ، وقسوا فى إطلاق وصف « التطرف » حتى على غير المتطرفين . لم يسلم مبدأ إسلامى فى العقيدة أو المعاملات أو السلوكيات من الهمز والغمز والتنقص ، وصار نقد أو نقض الإسلام هو السمة الغالبة على كثير من مفكرى وكُتّاب العصر وصحفييهم وإعلامييهم . بل إن مَنْ لا حظ له من المعرفة إلا « فك الخط » أصبح إماماً وفقيهاً مجتهداً ، لا يرى لنفسه منزلة أقل من درجات الأئمة الأعلام : مثل الشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد والأوزاعى والثورى وأبى المعالى إمام الحرمين ، وأبى حامد الغزالى وغيرهم .

* * *

الفصل الثلاثون

أحدث النماذج

طرحت صفحة الفكر الدينى بجريدة الأهرام فى أواخر فبراير وأوائل مارس من هذا العام (١٩٩٠) فكرة « تنقية التراث » للمناقشة واستطلاع الرأى . وقد أتيح لى متابعة أربع حلقات منها ، ومن خلال المتابعة لما قيل فى الحلقات - ما عدا الأخيرة فلها وقفة خاصة - رأيت الأساتذة والسادة الذين استطلعت الصفحة آراءهم فى الفكرة ، رأيتهم مجمعين على أمرين مع التفاوت فى درجة ذلك الإجماع ، والأمران اللذان أجمعوا عليهما هما :

الأول : أن القرآن الكريم ، والسُنَّة الشريفة ليسا من التراث الذى يجب تنقيته .

والآخر : أن كل ما عدا القرآن والسُنَّة فهو تراث يجب أن يخضع لعملية الغربلة والتنقية ، وجاءت هذه التفرقة فى إطار التمييز بين ما هو دين ، وما هو تراث .

هذا التحديد يقف بك على حقيقة مهمة أبعد من تنقية التراث فى الواقع . هى عملية تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ؛ لأننا إذا دققنا النظر فى الإطار الذى رسمته الحلقات - ما عدا الأخيرة - نجد أن ما لا يجوز المساس به هو النصوص القرآنية والنبوية فحسب ، أو بعبارة أخرى أدق هو « المتون » ، وهذا التحديد يحصر الدين فى نطاق ضيق : « متون القرآن » و « متون الحديث » ويوسع من دائرة التراث بحيث يشمل :

١ - تفاسير القرآن الكريم .

٢ - شروح الحديث النبوى .

٣ - شروح آيات الأحكام وشروح أحاديث الهداية .

٤ - المذاهب الفقهية الأربعة أو الثمانية .

٥ - الأحكام الفقهية التى أدلتها قطعية الثبوت والدلالة من القرآن والسُّنَّة .

٦ - المصنفات فى أصول الفقه .

هذا بالإضافة إلى ما قام عليه إجماع الأمة من أحكام ، وكذلك الأحكام الاجتهادية سواء أكان مصدرها قياساً أو أدلة غير قطعية الدلالة ، ثم آراء الأئمة فى العقائد ومسائل علم الكلام من الأصول والفروع .

والنظر فى هذه المسألة - تنقية التراث - على هذا الأساس من الاتساع فيه خطورة بالغة ، تقترب بنا من الفكرة التى أشرنا إليها وهى : إعادة تطوير الإسلام وإعادة تفسيره . وهذه الفكرة نشأت كما عرفنا قبلاً فى أوكار الاستعمار . ونحن لا نتهم الأساتذة الذين أسهموا فى مناقشة صفحة الفكر الدينى ... وإنما الذى نقوله : إن فى هذه الدعوة مزالق خطرة يجب التنبه لها . ولو أن الدعوة اقتصرت على تنقية التفاسير من الإسرائيليات ، وكتب الحديث من الموضوعات ، والتاريخ والسيرة من الأخبار والوقائع المدسوسة ؛ لكان ذلك اتجاهاً محموداً ، ودعوة صحيحة إذا تناولناها بحرص ووعى . أما توسيع الدائرة بحيث يشمل التفاسير الصحيحة ، وشروح الحديث المعتمدة ، ومذاهب الفقهاء الأعلام التى تلقتها الأمة بالرضا والقبول . فهذا هو مكمن الخطورة . وفتح باب من الفوضى لا يعلم خطره إلا علاَّم الغيوب .

على أن بعض الحلقات (الأولى) علَّقت على كل مذهب فقهى بما يزعزع الثقة فيه ، وهذا لا ينبغى . ثم علَّقت على المذاهب الفقهية كلها بأنها مذاهب خدمت عصرها ؟! ومعنى هذا أنها غير صالحة لتخدم عصرنا .. وهذا إسراف

كان حرياً أن لا يُقال . على أن عبارة أخرى وردت فى نهاية إحدى الحلقات تذهب إلى : « صياغة الإسلام أو التراث صياغة تناسب العصر الذى نعيش فيه (؟!) وهذا - بدوره - هو الدعوة إلى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره من جديد » ؟!

وفى موقفنا من الحلقات ما قبل الأخيرة ، نضع أمام القارىء هذه الفكرة مع التمثيل لها إخلاصاً فى النصح ، وإسهاماً فى توضيح الحقائق حتى نكون على بيِّنة مما يقال - فى الداخل - عن الإسلام .

* *

● الفكرة :

كثر الحديث فى السنين الأخيرة عن إعادة النظر فى أحكام الشريعة لتساير الظروف الطارئة . والذى يجب التنبه له أن نوعاً واحداً من الأحكام يجوز إعادة النظر فيه . وهو الأحكام الاجتهادية التى ليس فيها نص قاطع ولا إجماع متبع ، أما ما عدا هذا النوع مما كان دليله نصاً قطعى الدلالة والثبوت ، فلا يجوز بحال إعادة النظر فيه .

أما الأحكام الاجتهادية ، فعلى جواز بحثها من جديد - نظرياً - فإن البحث فيها عديم الجدوى عملياً ؛ لأن الفقهاء استوعبوا القول فيها من كل جهة ، ولم يتركوا لنا جديداً نقوله فيها ، فنحن إذا بحثناها من جديد فلن نخرج عما قالوه . هذه حقيقة يدركها مَن يطيل النظر فى المصادر الفقهية المختلفة ، وبخاصة تلك التى اتخذت المقارنة بين المذاهب منهجاً لها ، كبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد . ولنضرب مثلاً يتضح به المقال :

● الإكراه على القتل :

إذا أكره رجلٌ رجلاً آخر على قتل نفس حرَّم اللّٰه قتلها فعلى مَن يقع القِصاص يا ترى ؟ أيقع على مَنْ أمر بالقتل أم على الذى باشر القتل ؟!

هذه المسألة لم يرد فيها نص من الشرع ، لذلك اختلف الأئمة الأعلام حول تحديد الحكم فيها .

فذهب الإمامان مالك وأحمد إلى أن القصاص يقع عليهما معاً : الآمر بالقتل ، والمباشر للقتل . وهذا أحوط لصون الدماء ومنع العبث بالأرواح .

وعند الحنفية ثلاثة آراء هي : لا يقع القصاص على أى واحد منهما ؛ أما الآمر بالقتل فإنه لم يباشر القتل فعلاً ، وأما الذى باشر القتل فإنه مُكْرَه ولا إرادة له .

والرأى الثانى عند الحنفية : أن القصاص يجب على مَنْ باشر القتل ، أما الرأى الثالث وهو لإمام المذهب أبى حنيفة فإن القصاص يقع على الآمر بالقتل .

وعند الشافعية رأيان : أحدهما يوافقون فيه الإمامين مالكاً وأحمد - وقوع القصاص على الاثنين - والآخر يوافقون فيه مذهب الإمام أبى حنيفة - وقوع القصاص على الآمر بالقتل وحده - هذا الخلاف فى تحديد المسئولية الجنائية ، دون العقوبة التعزيرية فلن نتعرض لها هنا

فإذا أعدنا النظر فى هذه المسألة فما هو الجديد الذى بقى لنا نقوله فيها يا تُرى ؟ لقد استوعب الأئمة القول فيها كما ترى . وهكذا الأحكام الاجتهادية الأخرى .

إذاً لم يبق أمامنا إلا ترجيح رأى على آخر ، وهذا جائز ، ولكن بشرط ألا نتبع الرُخَص فنذهب بحكمة التشريع وتُهلكنا الأهواء والنزعات .

* *

● الحلقة الأخيرة :

نريد أن نُفرد الحلقة الأخيرة من حلقات الفكر الدينى المشار إليها بوقفة خاصة ؛ لما فيها من تمرد ومغالاة وشطط ؟!

نُشرت هذه الحلقة بجريدة الأهرام بتاريخ ٩/٣/ . ١٩٩ وكان ضيفها الأستاذ الدكتور حسن حنفى رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة ، وقد أثار الدكتور

حسن مسائل على درجة من الخطورة مما يُعتبر - بحق - امتداداً للدعوة المكشوفة لتطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، التى طالما قد عرضنا فى غضون هذه الدراسة ورصدنا خطواتها ولم يكن يدور فى خلدنا أن صفحة الفكر الدينى ستنشر ما نشرت حول تنقية التراث ، ولا أنها ستستطلع رأى الدكتور حنفى ، وأن الدكتور حنفى سيقول ما قال (؟!) والمسائل التى وردت فى آرائه ليس من اليسير مناقشتها - هنا - مناقشة كافية ، فهى تحتاج إلى إفراد بحث خاص ، لذلك فإننا نلمسها لمساً خفيفاً باعتبارها امتداداً للظواهر التى سجلناها من قبل فى هذه الدراسة .

*

● إحلال العقل محل الوحى :

هذا هو محور الآراء التى أبداها الدكتور حسن حنفى على صفحة الفكر الدينى . وهى ترديد لما شاع من قبل على كثير من الأفواه والأقلام . ولكن الدكتور حنفى غاضب الآن على المسلمين الذين يُحَكِّمون النص (الوحى) دون العقل .

ويلتمس للأقدمين العذر فى تقديم الوحى على العقل . فيقول بالحرف الواحد - حسب ما نشرته الأهرام منسوباً إليه :

« قديماً كان الوحى ما زال جديداً ، لذلك أعطوا الأولوية للنص (الوحى) على العقل .. الآن كلنا يؤمن بالوحى . فلماذا لا أُحَكِّم العقل » ؟!

وهذا - كما ترى - كلام فيه مغالطة فاضحة ، ولا ينسجم بعضه مع بعض ؟!

أما المغالطة الفاضحة . فلأن الذين أعطوا الأولوية للوحى على العقل لم يعطوها إياه لأنه كان جديداً . بل لأنه حق منزّل من عند الله . والعمل به ركن

ركين من أركان الإيمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (١) .

ثم إن صدور هذا الكلام من رجل دارس للفلسفة معناه وصف كلام الله بأنه يَخْلَق ويرث ويُطْرحْ ؟! وهذا ما لا يقبله مسلم مهما كان حظه من المعرفة ، ثم ما معنى : « الآن كلنا نؤمن بالوحى ، فلماذا لا أُحَكِّم العقل » ؟! فهل كان الأقدمون غير مؤمنين بالوحى فلذلك لم يُحَكِّموا العقل ؟ وإيماننا نحن بالوحى يدعونا الآن أن نُحَكِّم العقل ؟!

أنت قلت : إن سبب تحكيم النص قديماً كان جدة الوحى .. والذى يقابل هذا الآن هو « قدَم الوحى » فلمَ عدلت عن هذا إلى عبارة لا تنسجم مع منهجك فى الاستدلال ؟! إن الإيمان بالوحى يقتضى إعطاءه تلك الأولوية ولا يقتضى إهماله وإحلال العقل محله يا سيادة الدكتور ؟!

ومكمن الخطر عند الدكتور حنفى ليس فى الإسرائيليات والخرافات التى لحقت بالتراث ، وإنما الخطر كل الخطر فى العقائد والتشريعات ، لذلك فإنه يدعو إلى إعادة بناء علم العقائد فيقول :

« ينبغى أن نعيد بناء العقائد كله (هكذا) بحيث نُظهر ونُبرز قضية الأرض حتى نساعد على تحرير الناس » ؟!

ونسأل الدكتور حنفى : ما هى قضية الأرض التى تتنافر مع قضية السماء ؟ وهل تمنع العقائد السماوية من النشاط على الأرض فى كل مكان . إننا لا نعرف ديناً حثَّ الناس على الضرب فى الأرض وبذل أقصى جهد فيها ، واستثمار كل الطاقات مثل الإسلام ؟! وهل العقائد الإسلامية هى التى كبَّلت الإنسان ولن يفكه من قيودها غير قضية الأرض المجهولة هذه التى أشرتَ إليها ؟!

---

(١) الأحزاب : ٣٦

إن المصائب والكوارث التى يرزح تحتها العالم الإسلامى الآن ليس سببها العقائد والتشريعات الإسلامية ، وإنما سببها إعراض المسلمين عن الإسلام وسيرهم وراء كل ناعق .

ويقول الدكتور حنفى : إن الفقه الإسلامى القديم كان وليد عصور الانتصار ، وقد ولَّت تلك العصور ، وأن المسلمين الآن يعيشون فى ظل عصور الهزيمة والانكسار ، فكيف يصلح فقه عصور الانتصار لعصور الهزيمة والانكسار ، لذلك فهو يدعو إلى وضع فقه جديد يسمى فقه عصور الهزيمة والانكسار ؟! وكنا نود من الأستاذين محررى الأهرام اللذين أجريا الحديث مع الدكتور حنفى أن يضرب ولو مثلاً واحداً من فقه عصور الانتصار ، ثم يبيِّن ضرره الناجم عنه الآن فى عصور الانكسار ، ثم يقترح مثلاً مما أسماه فقه الهزيمة ويحله محل المثال الأول . ثم يشرح للمسلمين منافع هذا المثال عسى أن يكون فى ذلك حافز لغيره فيملأوا الأرض طولاً وعرضاً بالفقه الجديد المطلوب وضعه (؟) فقه الهزيمة والانكسار ؟!

إن الهدم يسير ، والنقد مطواع لمن أراده .. ولكن البناء صعب كثير المضايق . وجميع الذين أباحوا لأنفسهم اقتحام أسوار الإسلام فى كل عصر ومصر لم يفعلوا شيئاً إيجابياً قَط ، ولن يفعلوا .. ومَنْ حاول منهم جاء بكل مضحك ومبكٍ . وهم معزورون لأنهم يواجهون حقاً وصواباً . وليس للحق بديل سوى الباطل ، وليس للصواب بديل سوى الخطأ . وهذه هى السمة لكل محاولى التطوير والتجديد فى الإسلام ، منذ وُجدوا ، وإلى الآن . وهذا من جملة النقص عند البَشر ، لأنهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، والعقل غير المعصوم بالوحى مطية جموح لا تلقى براكبها إلا فى مهاوى الهلاك .

هذا هو المآل الذى آل إليه الفكر الحديث فى مصر وفى غير مصر من البلاد الإسلامية ، نتيجة للجهد الطويل الذى بذلته أوروبا فى مواجهة الإسلام خلال مائتين سنة مضت ، بُغية تحديث الإسلام وتطويره وإعادة تفسيره بما يناسب مصالحها ومطامعها فى العالم الإسلامى ، فقد باشرت هى العمل بنفسها بتجنيد

مبشِّريها ومستشرقيها وممثليها . ثم عملت جاهدة على تنشئة فريق من أبناء المسلمين لخدمة أهدافها ، وظلت تدربهم حتى أتقنوا أصول اللعبة . ونجحت أوروبا فى قذف « الكرة » إلى داخل بلاد المسلمين ، وهبَّ الفريق الذى درَّبته على ممارسة اللعبة يؤديها كما تلقاها . وتحت عوامل كثيرة ، وظروف متعددة ، ومؤثرات ضاغطة ، صارت اللعبة نشاطاً داخلياً أصيلاً ، كل أطرافها مسلمون مسلمون ، أو عرب غير مسلمين . والجديد الذى حدث أن أضيفت على اللعبة بأشكالها المختلفة أسماء جديدة ساحرة مثل : فتح باباً لاجتهاد ، تقنين الشريعة - تنقية التراث - إعادة كتابة التاريخ وتطوير التعليم - تحرير المرأة - إصلاح اللغة - الأدب الشعبى - الترفيه على الجماهير - التربية الفنية - بعث الحضارات القديمة - تطوير الأزهر - ديمقراطية الحكم - المعاصرة - التقدمية - إصلاح القضاء - القوميات - الوطنيات ؟! وصار الذين يؤدون هذه الأدوار ، أو يفجِّرون هذه « العبوات الناسفه » يشعرون أنهم يخدمون - فعلاً - مصالح بلادهم لا أنهم يجندون أنفسهم لهدمها على النهج الذى وضعه خصوم الإسلام . وهذا هو مكمن الخطر ، والداء العضال . وليس معنى هذا أن دور العمالة المقصودة قد انتهى ، كلا بل ما تزال العمالة تنشب « أظافيرها » فى جسم الأمة ولكن تحت شعارات زائفة ، وأغطية مموهة .

إن الآثار التى تراكمت على الواقع الإسلامى بعد مائتين سنة من مواجهة أوروبا للإسلام فى العصر الحديث جد خطيرة ، وهى المسئولة عن تدهور أوضاع المسلمين فى كل مكان ، وعن وقوع نُظم الحكم فيها تحت وطأة التبعية الذليلة لمعسكرات الغرب والشرق ، وأوروبا نفسها هى التى أكرهت العالم الإسلامى على الارتماء فى مهاوى تلك التبعية الذليلة . فهل لهذا الليل من مؤذِّن يبشر بإشراقة فجر جديد ؟

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

الصحوة الإسلامية المعاصرة

أجل .. إن الصحوة الإسلامية المعاصرة هى السبيل الوحيد للخروج بالمسلمين مما هم فيه الآن . ولكى يتحقق هذا الأمل على يد الصحوة فلا بد من إحداث تغييرات فيها تجعلها جديرة حقاً بإنقاذ المسلمين ، وتمكين الإسلام من تأدية دوره فى الحياة . ودفع ما أثاره خصومه من شبهات حوله .

● التصالح مع الحكومات :

من أوليات التغييرات التى يجب إحداثها فى منهج الصحوة هى التصالح مع الحكومات الواقع نشاط الصحوة فى نطاقها ؛ ذلك لأن استمرار العداء بين الصحوة والحكومات ليس من صالح الصحوة أبداً . فهى دائماً فى حاجة إلى كسب مواقع جديدة فى مشاعر الجمهور ، وإلى تزايد الإقناع بما تدعو إليه ، وإلى حرية فى ممارسة نشاطها الهادف . والعداء بينها وبين الحكومات يعرِّضها للمخاطر كما يحدث الآن :

من تبديد طاقاتها ، وتدمير قدراتها كلما نمت وتجمعت . والتاريخ القريب ، بل والواقع المعاصر خير شاهد على ذلك ، ولا داعى للشرح والإطناب . قد يقول قائل : إن الحكومات هى التى تأبى المصالحة . وهذا صحيح ، ولكن التغلب على هذه العقبة ميسور . فلتكن المصالحة إذاً من جانب واحد ، وأعنى به الصحوة نفسها . وذلك بتركها بعض الممارسات المثيرة التى تُشعل النار عليها ، وتوغر الصدور نحوها . إن كثيراً من عناصر الصحوة يرفضون العمل والتعاون

مع الحكومة . وهذا خطأ محض يجب أن نُقلع عنه . والخاسر فيه هو الصحوة نفسها . لأنها تحكم على نفسها بالحرمان من العمل فى ميادين ، من الخير أن نستثمرها فى الدعوة الصامتة والناطقة ، نحو الهدف الأسمى الذى نبتغيه ، مهما كان موقع العمل الذى سيشغله الأعضاء صغيراً أو كبيراً ، قيادياً أو مقوداً .. ولنضرب لذلك أمثلة :

مدرس اللغة العربية يمكن أن يستغل مادتى التعبير والإملاء فى المدارس الأوَّلية فى موضوعات هادئة تخدم الدعوة . وكذلك نموذج تحضير الدروس فى القواعد ، هو نموذج يصوغه المدرس متضمناً القواعد المراد درسها . ويقوم بكتابته على « السبورة » أمام التلاميذ ، هذا النموذج يمكن توظيفه بطريق غير مباشر لخدمة الدعوة كذلك ، وكذلك مدرسو الطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ ، بل والرياضيات ... كل هذه النشاطات فيها مجال لخدمة الدعوة . فإذا كان العمل الذى يشغله العضو هو إدارة المدرسة أو المعهد ، فالفرصة أمامه واسعة ، والإمكانات هائلة ، ليشيع الروح والسلوك الإسلامى فى دائرة عمله من النظام والنظافة والتعاون وجدية التحصيل . وهكذا فإنك تجد مجالاً للعمل الرزين الهادف مهما كان العمل الذى تؤديه ، والوظيفة التى تشغلها ، وبخاصة فى وسائل الإعلام والصحافة ، والجامعات والمستشفيات . إن الداعية البصير الفاقه يحمل معه آداب الدعوة فى كل مكان بخُلُقه وسلوكه . حتى ولو كان مديراً لجمعية استهلاكية فإنه يستطيع أن يشيع فيها الروح الإسلامى فيقضى على الفساد والطوابير الخلفية ، وصرف المواد الغذائية لغير مستحقيها ، ويبث فيها النظام والهدوء وجدية العمل ، ويكون نموذجاً طيباً يشيع ذكره على كل لسان . هذه مجالات يجب على الصحوة أن يكون لها وجود فيها ، ومعاداة الحكومة يحرم الصحوة من التغلغل فى صميم المجتمع . وعلينا أن نستثمر كل الإمكانات بشرط أن تكون متاحة ، أما إذا وضعنا فى حسابنا الانتقال عن طريق الطفرة فقد يُعرِّضنا هذا لما لا تُحمد عقباه . وهنا يحسن أن نستأنس بمثال من التاريخ النبوى البعيد :

يوسف عليه السلام وهو رسول لم يرفض العمل فى وزارة عزيز مصر ، بل ظل يجمع بين عمل الرسالة وأمانة خزائن عزيز مصر . وبفضل عمله فى الوزارة استطاع أن يجمع شمله بأبيه وأمه وإخوته فى مصر ، وقبوله للعمل فى الوزارة لم يجعله يشعر بالولاء يوماً ما لعقائد المصريين وديانتهم القديمة .

وهذه المصالحة التى ندعو إليها من طرف واحد لا تكون إلا إذا أغمض الإسلاميون أعينهم عن بعض السلبيات ، التى لم يحن الوقت للقضاء عليها . علينا أن نعمل فيما هو متاح حتى نصل بهدوء وحكمة إلى العمل فى غير ما هو متاح . ولنذكر من تاريخنا الإسلامى ، ومن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كيف وافق مشركى قريش فى صلح الحديبية أن يُمحَى من عقد الصلح كونه « رسول الله » لِمَا كان يرى فى الصلح نفسه من نُصرة للدعوة ، وتأمين للدعاة .

وكيف طاف حول الكعبة فى عُمرة القضاء وفوقها ثلاثمائة وستون صنماً يُعبد من دون الله ، ولم يتعرض لها بسوء وهى أبغض شئ إلي نفسه . ثم لما حان الوقت لتطهيرها (الكعبة) من تلك الأصنام لم يتردد لحظة فى تحطيمها وإخراجها من بيت الله الحرام .

وعمر بن عبد العزيز لما آل إليه الأمر ، وأخذ يُصلح ما أفسده قومه بنو أمية بالتدريج ، اعترض عليه ابنه ودعاه إلى إزالة الفساد مرة واحدة بما فيه من طموح الشباب واستعداده أن يلقى مع أبيه الموت فى سبيل القضاء على الفساد ، ولكن أباه الرجل الذى صقلته التجارب رد عليه قائلاً : إن الله ذَمَّ الخمر فى ثلاث آيات ، وحرَّمها فى الآية الرابعة ؟ يريد أن يقول لابنه : إن حمل الناس على الحق دفعة واحدة مضر بهم وبالحق نفسه . فالخير كل الخير فى التريث الحكمة .

إن التصالح مع الحكومة ، ولو من طرف واحد - كما وضحْنا - والصبر على بعض المكاره حتى يأتى وقت زوالها أو إزالتها يحميان الصحوة من الانتكاسات ،

ويهيئات المناخ دائماً لنمو مستمر ، وكسب مواقع جديدة هى فى أمَسِّ الحاجة إليها .

* *

● وحدة الصف :

والصحوة فى كل بلد إسلامى - وبخاصة مصر - فى أمَسِّ الحاجة إلى وحدة الصف ، وجمع الشمل . فالمفروض أن الصحوة لا هَمَّ لها إلا الدعوة إلى الإسلام ، وإعادته إلى الواقع بعد طول غُربة ، وبعد اتساع فجوة ، والإسلام واحد ، والحق الذى يقوم عليه الإسلام حق واحد . فعلام يكون التوزع والتفرق بين الدعاة إليه؟! وهل نَسِيَ الإسلاميون أن الذى أضاع المسلمين الآن هو التفرق ، والتفرق مدعاة لنشوب الخلاف والنزاع ، والخلاف والنزاع هما آفتا كل اجتماع ، ومقوِّضاً كل قوة . وإذا كان الإسلاميون الآن يأخذون على قادة الدول الإسلامية ورؤسائها أنهم توزَّعوا أشلاء أمام عدوهم فكانت الكارثة ، فلماذا هم - أعنى الإسلاميين - يسيرون نفس السيرة التى يعيبونها على غيرهم ؟! إن الإسلاميين يجب أن يكونوا أعرف الناس بمقاصد الإسلام وقيمه ، وأمَسِّ الناس رحماً بالقرآن والسُنَّة والعمل بهما . والقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١) والريح : القوة والعزة .

ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾ (٢) وحبل الله هو الإسلام شرعته ودينه .

ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ ... ﴾ (٣) .

أليس حرياً بالإسلاميين أن يلتزموا بهذه التوجيهات ؟ وألا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم . فالجماعة هى أقصر طريق لبلوغ الآمال :

---

(١) الأنفال : ٤٦ (٢) آل عمران : ١٠٣ (٣) آل عمران : ١٠٥

والجماعـــات ثنايا المرتقـــى للمعالـــى ، وجسور العابرين

فعلام التفرق والتمزق إذن ، حتى أصبح واقع الصحوة كما قال الشاعر :

وتفرّقـــوا شيعاً فكـــل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر ؟!

التفرق والتنازع معناه أننا ندعو لأنفسنا لا إلى الله . وهذا من أخطر العيوب التى تُنسب للإسلاميين الآن ، ومن أوسع المنافذ التى يوجّهُ الطعن من خلالها إليهم من خصومهم . فلمن ندعو إذن ؟ إن كنا ندعو إلى الله فلنوحد الصف ، ولا يبالى أحدنا أياً كان موقعه فى موكب الدعوة : فى الخلف أم فى المقدمة ، فى المَيسرة أم الميمنة . إن توحيد الصحوة صفوفها ، والتجرد تماماً من حب الإمارة لهو أكبر دليل على إخلاصها وصدقها . والعكس صحيح ؟!

* *

● ترتيب الأولويات :

النظام والتخطيط الحكيم هو شرط النجاح الأول فى كل عمل بعد إخلاص النِّية لله ، والمهمة التى تحملها الصحوة على كاهلها الآن من أصعب المهام التى تنهض بها جماعة . ومما يزيد تلك المهمة صعوبة ضراوة التحديات التى تقف فى سبيلها ، وضخامة حجم المشكلات التى نجمت عن الهجوم الشرس الذى شنّته أوروبا على الإسلام عسكرياً ، واقتصادياً ، وفكرياً ، وثقافياً ، بل و « عقائدياً » مما جعل ميدان العمل أمام الصحوة متعدد الجبهات ، كثير المضايق متعرج السُبل . وهذا يقتضى وضع نظام فى وضح النهار تُرتَّب فيه الأولويات ترتيباً محكماً : بِمَ نبدأ ؟ ثم بِمَ نُثَنِّى ؟ ثم بِمَ ننتهى ؟ وهذه المهمة لا يستطيع شباب الدعوة أن ينهضوا بها وحدهم ، لأن تجاربهم ما تزال هشّة . فلا مناص إذن من أن يُشركوا معهم مَن صقلتهم التجارب ، وعركتهم الأحداث ، وحنكتهم الوقائع . فإذا وُفّقت الصحوة لوضع هذا النظام ، والتزمت به فى التطبيق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ورحابة الصدر كان الأمل فى الوصول إلى الأهداف كبيراً ، والطريق إلى بلوغه قصيراً . أما الارتجال والعشوائية فلن يحققا نجاحاً ، ولن

يحافظا عليه إن حدث . ومن سمات النظام المقترح عدم الاهتمام بالأمور الصغيرة ، وعدم التصدى بعنف لأخطاء العوام ، ولنا فى منهج الدعوة أُسوة حسنة ، فقد بدأ فى مكة المكرَّمة قبل الهجرة بما يشبه القول - الآن - بعمليات : التخلية من العقائد والسلوكيات الباطلة مع إحلال عقيدة التوحيد والبعث محلها . وفى المدينة - بعد الهجرة - اتجه إلى التشريع ووضع الأسس لتنظيم الحياة العامة والخاصة ورسم سياسة الدولة سلماً وحرباً ، والتحديات التى كانت تواجهها الدعوة فى العصر الأول ، ليست بأعقد ولا أعتى من التحديات التى تواجهها الدعوة الآن ، فما أحرانا أن نترسم منهج الرعيل الأول فى البناء والإصلاح ؟

لو كانت الدعوة أو الصحوة المعاصرة تمارس عملها من مواقع المسئولية المباشرة لكان الوصول إلى الهدف الأمثل جد قريب ، ولكن وجودها الآن خارج مواقع المسئولية يملى عليها أن تتزرع بالصبر والحكمة وسعة الأفق . ذلك أبقى ، وأجدى ، وأمثل .

* *

● القدوة الحسنة :

والدعوة الآن فى أمَسِّ الحاجة لأن يعطى كل عضو فيها من نفسه المثل الأعلى لغيره ، وأن يكون هو القدوة الحسنة فى قوله وفى فعله ، وفى سلوكه . فالميادين التى يجب أن تغزوها الدعوة هى القلوب والمشاعر والأحاسيس ، وسلاح غزو القلوب هو العمل الطيب ، والقول الحسن ، هذا هو السلاح المطلوب ، بل المتعين استعماله ، فلنترك الجفاء والغلظة ، ونركن إلى لين الجانب وتوطئة الأكناف ، لننظر إلى كل الناس على أنهم أصدقاء أحماء لنا .

وليسعهم منا رحابة الصدور ، وبسط الأكف ، ويوم تنجح الدعوة فى غزو القلوب ، واستمالة النفوس ، فإن كل صعب سيزول ... وكل بعيد سيدنو . وهذا هو السر فى أن صاحب الدعوة تجمعت حوله كوكبة من البَشر عرباً وعجماً ، رجالاً ونساءً ، وشيوخاً وشباباً ، أحراراً وعبيداً ، لا لمال كان يبذله لهم ، فقد

كان فيهم أغنياء القوم ، ولا لخوف من سطوة عليهم ، فقد كان فيهم ذوو العشيرة والحَسَب . ولكن لأنه كان كما وصفه ربه : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) هذا هو أول المسلمين ، وخاتم المرسلين ، والاقتداء به لمن يعمل فى حقل الدعوة واجب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ (٢) .

* *

● عدم تعجل النتائج :

ومن السمات التى يجب أن تتحلى بها الدعوة المعاصرة : بذل الطاقة المتاحة فى تبصير الناس ، ثم عدم تعجل النتائج . فاللّه الرحيم الرحمن كتب علينا العمل ، ولم يكتب علينا إنجاح المقاصد أبداً . بل ذلك له وحده . والدعاة لا يُلامون على فشل المسعى ، وإنما يُلامون على القصور فى العمل . ومَنْ أخلص نيّته للّه ، وبذل الطاقة المتاحة له فى الدعوة إلى سبيله . ثم تخلّف مقصده فإن أجره عند اللّه مثل أجر مَن عمل عمله وتحقق مقصوده ؛ لأن إنجاح المقاصد لا يدخل فى نطاق التكليف . وقد أصاب الشاعر لُبَّ الحقيقة حين قال :

علـــــىَّ أن أسعـــــى   وليس علىَّ إدراك النجاح

بل إن تفويض الأمر للّه ، والرضا بما قدَّر ، وعدم التحسر على تخلف النجاح بعد بذل الطاقة ، هو الأدب الإسلامى الذى يجب أن يتحلى به الدعاة وغير الدعاة من العاملين .

* *

---

(١) آل عمران : ١٥٩   (٢) الأحزاب : ٢١

● الثقة فى الله :

وإلى جانب ما تقدم فإن الدعاة فى احتياج شديد إلى دعامة أخرى : هى الثقة فى الله الذى بيده مقاليد الأمور . والثقة فى الله تمنح الدعاة قوة وثباتاً ، وتعينهم على تخطى الصعاب واجتياز العقبات . وتحول بينهم وبين اليأس والقنوط فلا يُفقدهم فشل منوا به ، ولا يستبد بهم خوف . فصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم حين عرض نفسه على القبائل كلها ، فلم يستجب له إلا القليل ، ولقى منهم عنتاً وغلظة ، همَّ أن يفتح آفاقاً جديدة للدعوة ، فذهب إلى ثقيف يدعوهم إلى الإسلام ولكنهم أعرضوا عنه ، واستخفوا به ، وسلَّطوا عليه ولدانهم وغلمانهم يطاردونه ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى دمت قدماه الطاهرتان . ثم لجأ إلى ظل شجرة ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ثم اتجه إلى خالقه ومولاه يشكو إليه ما حلَّ به من شراذم الناس ، وهو أكرم مخلوق عند الله وطئت قدماه الأرض . جلس صلى الله عليه وسلم تحت ظل الشجرة وهو يحمل فى صدره متاعب ومشاق أكثر من عشر سنين فى سبيل الله ، وها هو ذا يستذكر شريط الذكريات المرة ، والتجارب القاسية ولكن كل ذلك يهون إذا وثق من شئ واحد . ألاَّ يكون ما حلَّ به من شقاء ، لقصور منه فى مجال الدعوة ، استحق به غضباً من الله (؟) ثم يقول فى نهاية مناجاة حارة ناجى بها ربه : « اللّهم إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى » وكانت هذه العزيمة مفتاحاً لكل نصر وتأييد . أعقبها حادث الإسراء والمعراج :

الإسراء إلى المسجد الأقصى . والمعراج إلى السموات العلى ، وكأن الله يقول له : إن ضاقت عليك أم القرى مكة وما حولها فإنَّا فتحنا أمامك أبواب السموات ، وما فتحناها لأحدٍ من قبلك . فهذا فرج أعقب ضيقاً . ويُسْر أعقب عُسراً ، وعطف أعقب شدة ، وأمل أعقب يأساً :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ (١) .

إن الثقة فى الله . وحُسن الاعتماد عليه ، هو الذى أضاء الأفق أمام صاحب الدعوة ، وفتح له مغاليق الآمال فاستحق من ربه تأييداً وظفراً .

وكم من شدة قد تعرَّض لها . وقسوة قد تأجج سعيرها فى وجهه الكريم ، فانتشلته الثقة فى الله ، وزادته عزماً فوق عزم :

أفلا نذكر حين مشت قريش إلى عمه أبى طالب ، وكانوا قد ضاقوا بالدعوة وصاحبها فى وقت كان فيه عمه - وهو على دين قومه - سنداً وكفيلاً له ، وألَّحت قريش على أبى طالب أن يكف عنهم وعن أصنامهم ابن أخيه - صلى الله عليه وسلم - فمال أبو طالب إلى رجاء قريش ، وقال لصاحب الدعوة : يابن أخى ، هوِّنْ علىَّ وعلى نفسك ؟ ولا تُحَمِّلنى من الأمر ما لا أطيق ؟ لقد تخلى « العم » عن « ابن الأخ » أو همَّ أن يتخلى . فماذا كان وقع هذا الموقف المؤلم عند صاحب الدعوة ؟! لقد واجهه بكل شجاعة وإقدام ؛ لأن الثقة فى الله قد أملت عليه السلوك المناسب لمثل هذه الأزمات الجسام :

« والله يا عماه : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، وخزائن الأرض طوع يدى ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ؟!

لقد تحمَّل صاحب الدعوة من المشاق ما لم يتحمله إلا أولوا العزم من الرسل ، وكان كلما ضاقت الأرض دونه وجد الأمل فى الثقة بالله . إن لديه منهجاً للدعوة هو مُطالَب بتبليغه . وليس عليه إحداث الهداية فى قلوب الناس ، ولا إعراض الناس عن الدعوة يسوغ له ترك القيام بأعبائها :

---

(١) الشرح : ١ - ٦

﴿ وَقُلِ الحَقُّ من رَبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... ﴾ (١) .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ (٤) .

* *

● إحياء فريضة الجهاد :

الصحوة الإسلامية المعاصرة ، هى الأمل الوحيد - حتى الآن - فى الانتصار للإسلام ، وتطهير ساحته مما ألحقته به أوروبا فى مواجهتها الشرسة له على مدى المائتى سنة الماضية . وهى - أعنى الصحوة - مطلوب منها عمل متواصل دءوب لتعيد للإسلام صفاءه ونقاءه وحيويته ، وترفأ ما رَثَّ وبلى من علاقات المسلمين به ، وتحيى ما « مُوِّتَ » من مبادئ الإسلام . وفى مقدمة ما ينبغى إحياؤه فريضة الجهاد ؛ لأن الجهاد كاد يمحى الآن من قاموس العمل ، حيث لجأت قيادات الدول الإسلامية إلى الطرق الدبلوماسية فى حل النزاعات بينها وبين مغتصبى حقوقها . وهذا المسلك لو استطاع - فعلاً - أن يعيد للأمة حقوقها المسلوبة فإن الإسلام لا يرفضه ، بل يضفى عليه أولوية لا يضفيها على الحرب . بَيْدَ أن الواقع قد أسفر عن عدم جدواه ، وهو وإن أفاد فى نزاعات صغيرة فلن يفيد فى أصول النزاعات بين المسلمين وخصومهم . ولنضرب لذلك مثلين قريبى العهد بالحدوث : أحدهما مسألة هجرة اليهود الروس إلى الضفة الغربية ، ومقدارهم كما هو معلن نصف مليون يهودى ؟! ماذا فعلت الدبلوماسية العربية فى هذا المجال ؟! هل استطاعت أن تُقف ذلك المد اليهودى يا تُرى ؟! كلا .

---

(١) الكهف : ٢٩
(٢) الرعد : ٤٠.
(٣) يونس : ٩٩
(٤) القصص : ٥٦

فى اليوم الذى كتبت فيه خاتمة هذه الدراسة قرأت فى صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ الأربعاء ٢٩ مارس ١٩٩٠ أن الزعيم السوفييتى « جورباتشوف » أفصح للرئيس « حسنى مبارك » بأن الدولة - الاتحاد السوفييتى - بصدد إصدار قانون يجيز للمهاجر العودة إلى وطنه ؟!

والقصد من هذا « الخبر » أن يخفف جورباتشوف من أثر الصدمة التى أصيب بها القادة العرب من ظاهرة تلك الهجرة من روسيا إلى فلسطين ؟!

وهذا - فيما أرى - ضحك على الذقون - كما يقول المثل : لأن اليهودى حين يصل إلى المستوطنات الإسرائيلية فإن أمره سيكون بيد إسرائيل وحدها . وفى استطاعتها منع أى يهودى من الخروج إلى أى بقعة فى الأرض . إذن فصدور القانون الذى أشار إليه « جورباتشوف » إنما هو « حبر على ورق » ولو كانت روسيا مخلصة لمنعت الهجرة أصلاً . ولكن قادة المعسكرات المعادية للإسلام ما يزالون يتخذون المواقف « الثنائية » فى سياستهم مع العرب والمسلمين : طرف حقيقى فعلى من الثنائية مع « العدو » ، وآخر وهمى هزيل مع العرب والمسلمين ؟!

* *

● القدس عاصمة لإسرائيل ؟!

ولنترك موضوع الهجرة اليهودية إلى موضوع آخر أشد خطراً وأسوأ عاقبة : هو اتخاذ إسرائيل القدس عاصمة لها بدلاً من « تل أبيب » هذا الموضوع بذلت فيه الدبلوماسية العربية الإسلامية جهوداً مضنية ولم تحقق فيه أى تقدم . وفجأة يتخذ « الكونجرس » الأمريكى قراراً بتأييد إسرائيل فى هذا « الحق » وأمريكا صديقة تلقيدية للدول العربية مع تفاوت درجة تلك الصداقة من دولة إلى أخرى . فما الذى أعدته هذه الصديقة لتواجه أصدقاءها بما لا يؤثر على علاقات تلك الصداقة يا ترى ؟

إنها أعدت « الثنائية » كذلك ، وتتمثل هذه الثنائية بأن تأييد إسرائيل فى جعل القدس عاصمة لها هو رأى الكونجرس ، أما الحكومة أو الإدارة الأمريكية فإنها تعارض أن تتخذ إسرائيل القدس عاصمة لها ؟! فهمتهم يا سادة يا كرام ؟!

وكما كان الطرف الحقيقى الفعلى فى « الثنائية » الروسية مع إسرائيل فى موضوع الهجرة ، كان الطرف الحقيقى الفعلى فى « الثنائية » الأمريكية مع إسرائيل كذلك . فالكونجرس هو عقل أمريكا . ولهذا فإن إسرائيل بادرت وأعلنت أن القدس هى العاصمة المقدسة لها ؟!

كل هذه الأطماع حدثت ، وحدث غيرها حين نكست الدول العربية والإسلامية رايات الجهاد ، ولجأت إلى « الدبلوماسيات » الكسيحة .

لذلك فإن على الصحوة أن تعبئ مشاعر الشعوب بالاستعداد للجهاد ، لا عدواناً على أحد ، وإنما لاستخلاص الحقوق ورد ما يراد بنا من عدوان . وتعبئة مشاعر الشعوب للجهاد لا بد أن تضع فى اعتبارها مواجهة الأسباب التى أدت إلى تنكيس رايات الجهاد ، وهى محصورة فى أمرين :

أولهما : كثرة العدو .

والآخر : تطور معدَّاته الحربية .

هذا الاعتقاد حجب الفهم الصحيح أمام المسلمين . والقرآن الحكيم يقرر فى أكثر من موضع أن الانتصار ليس سببه الوحيد كثرة الجنود ، وفعالية السلاح . بل النصر لا يكون إلا من عند الله ، ولكن الله لا يهب النصر إلا لمن ينصر الله على نفسه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) فمتى نصرنا الله على أنفسنا ، وقوَّينا الإيمان به كان نصره حليفنا ولن يغلبنا غالب :

---

(١) الحج : ٤٠ .   (٢) الروم : ٤٧

﴿ إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾ (١) ؟!

ونصر اللّه يكون باتباع كتابه وسُنَّة رسوله فى كل الشئون ، وتحليل ما حلَّل وتحريم ما حرَّم ، وإلغاء القوانين الوضعية المخالفة لشريعة اللّه ، وأن نتقى اللّه ما استطعنا . فإذا بلغنا هذه المنزلة فلنكن واثقين من نصر اللّه وتأييده فلا ترهبنا قوة العدو ولا كثرة جنوده وتطور معدَّاته :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٢) .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ (٣) .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٤) .

فما علينا – بعد أن ننصر اللّه على أنفسنا – إلا أن نُعد ما فى استطاعتنا من قوة . ثم نثق فى نصر اللّه :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. ﴾ (٥) .

*　*

● شواهد من التاريخ :

لم يكن ما قدمناه رؤى نظرية لا حظ لها من التطبيق : فتاريخ الإسلام حافل بالشواهد . من ذلك انتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وكانوا أقل عدداً من عدوهم وأضعف عُدَّة :

---

(١) آل عمران : ١٦٠ .　(٢) آل عمران : ١٢٦　(٣) آل عمران : ١٣
(٤) البقرة : ٢٤٩　(٥) الأنفال : ٦٠ .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴾ (١) .

وحروب المسلمين ضد الفُرس والروم ، وهى كثيرة ، لم يتحقق لهم فيها النصر بكثرة عدد ولا قوة سلاح . وإنما انتصروا بتأييد الله لهم لأنهم استحقوا نصر الله . ومن العبر الخالدة أن المسلمين لما كان عددهم كثيراً فى غزوة حنين ، وتباهوا فقالوا : « لن نُغْلَب اليوم من قِلّة » عاتبهم الله عتاباً شديداً وأرشدهم - عملياً وقولياً - إلى الخطأ الذى وقعوا فيه :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

* *

● مضار ترك الجهاد :

من العوامل المساعدة على تعبئة الشعوب للجهاد ، بيان المضار التى نجمت عن تركه . فهذه الحالة التى يعيش فيها المسلمون الآن من الضياع والمهانة ، ليس لها من سبب قوى سوى تركهم لما أنزل الله ، وإعراضهم عن جهاد عدوهم فى حالات يجب فيها الجهاد . وقد توعَّد الله المسلمين على تركهم للجهاد وإيثارهم السلامة عليه فقال :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ (٢) التوبة : ٢٥ - ٢٦ (٣) التوبة : ٢٤

﴿ إلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

ورحم الله الصدِّيق أبا بكر رضى الله تعالى عنه . فقد كان مما قال فى أول خطاب له وجَّهه للأمة حين بايعه المسلمون خليفة لرسول الله ﷺ ، والياً لأمورهم ، كان مما قال رضى الله عنه : « ولا ترك قوم الجهاد إلاَّ ذُلُّوا ... » إن الأخطار التى منيت بها الأمة الآن يمكن تلخيصها فى أمرين :

* انحراف وفساد من الداخل ، وعلاجه يكون عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتربية النشء على مبادئ الإسلام الحنيف . والعمل الجاد على الإنتاج الاقتصادى والحربى .

* ثم اعتداءات على حقوقها ومقدساتها من الخارج ، وعلاجه لن يكون إلا عن طريق الجهاد إذا لم تفد المساعى السلمية ، وإذا أحسنا صلتنا بالله فلن تخيفنا الصواريخ ولا الرءوس النووية العابرة للقارات ، ولا هدير القنابل ولا حرب العقول الألكترونية والضغط على الأزرار . إن لهذا الكون رباً قديراً على كل شئ . ولنذكر دائماً قوله الكريم : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (٢) .

مكة المكرمة : فجر يوم السبت الخامس من شهر رمضان المعظم . ١٤١٠ هـ .

الموافق (٣١ مارس . ١٩٩٠ م) .

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

* * *

(١) التوبة : ٣٩

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

أهم المراجع

١ - الأستاذ رشيد رضا : تفسير المنار ، تاريخ الأستاذ الإمام ، مجلة المنار.

٢ - الدكتور طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، مستقبل الثقافة فى مصر .

٣ - الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، حصوننا مهددة من داخلها .

٤ - الأستاذ محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، واقعنا المعاصر .

٥ - قاسم أمين : تحرير المرأة ، المرأة الجديدة .

٦ - ول ديورانت : قصة الحضارة ، قصة الفلسفة .

٧ - رفاعة الطهطاوى : الإبريز فى تلخيص باريز ، المرشد الأمين .

٨ - الشيخ على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .

٩ - مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن .

١٠ - الدكتور محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

١١ - الإمام محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر الأسبق) : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى .

١٢ - چورچ سارتون : رحلة العلم .

١٣ - الشيخ عبد الرحمن الميدانى : أجنحة المكر الثلاثة .

١٤ - الدكتور ضياء الدين الريس : الإسلام والخلافة فى العصر الحديث .

١٥ - كويلز كوبلاند : لعبة الأمم .

١٦ - جب وآخرون : إلى أين يتجه الإسلام ؟
١٧ - الدكتورة نجلاء عز الدين : العالم العربى .
١٨ - الدكتور عمر عبد العزيز عمر : تاريخ العرب الحديث والمعاصر .
١٩ - محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق .
٢٠ - صموئيل زويمر وآخرون : الغارة على العالم الإسلامى .
٢١ - إدوارد بروى : تاريخ الحضارات العام .
٢٢ - أحمد الملا : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية .
٢٣ - باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية .
٢٤ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .
٢٥ - عبد الله التل : جذور البلاء .
٢٦ - أنور الجندى : عقبات فى طريق الدعوة .
٢٧ - الندوى : الإسلاميات .
٢٨ - المودوى : الإسلام والحضارة الغربية .
٢٩ - على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة .
٣٠ - سلامة موسى : اليوم والغد .
٣١ - د . رءوف شلبى : الأديان القديمة فى الشرق .
٣٢ - مؤسسة فرانكلين : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : وقائع مؤتمر عالمى .
٣٣ - عايض القرنى : الحداثة فى ميزان الإسلام .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

*   *   *

كتب للمؤلف

١ - أدب الإسلام فى السياسة والرياسة .
٢ - أزمة التدين عند الشباب المعاصر .
٣ - الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى .
٤ - الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة .
٥ - افتراءات المستشرقين على الإسلام (عرض .. ونقد) .
٦ - أوروبا فى مواجهة الإسلام (الوسائل .. والأهداف) .
٧ - البديع فى المعانى والألفاظ .
٨ - التبشير العالمى ضد الإسلام .
٩ - تدابير الأمن فى الإسلام .
١٠ - ١٩ رسالة للدعاة من الإمام الشهيد حسن البنا .
١١ - التشبيه البليغ .
١٢ - التشبيه والتمثيل .
١٣ - التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم .
١٤ - الجائز والممنوع فى الصيام .
١٥ - جريمة العصر (قصة احتلال المسجد الحرام) .
١٦ - الحكيم فى حديث مع الله .
١٧ - خصائص التعبير القرآنى .. وسماته البلاغية .
١٨ - خصائص النظم القرآنى فى سورة الفتح .
١٩ - الخطأ والصواب فى كتابات النجار عن التنمية فى مصر .

٢٠ - دراسات فى علم المعانى .

٢١ - ساعة مع القرآن العظيم .

٢٢ - سحر البيان فى مجازات القرآن .

٢٣ - شرح الهمزية للإمام البوصيرى .

٢٤ - شرح الوصايا العشر للإمام الشهيد حسن البنا .

٢٥ - علم البيان .

٢٦ - العلمانية وموقفها من العقيدة والشريعة .

٢٧ - فى رحاب القرآن والسنّة .

٢٨ - قراءات في كتاب أحمر .

٢٩ - المجاز فى اللغة والقرآن .

٣٠ - المرأة فى عصر الرسالة .

٣١ - مناسك الحج والعُمرة .

٣٢ - من قضايا البلاغة والنقد .

٣٣ - مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه .

٣٤ - النهى عن المنكر .

* * *

رقم الإيداع : ٧٨٢٢ / ٩٢
I.S.B.N 977 - 225 - 023 - 3